مجلة الباحث

في العلوم الإنسانية و الاجتماعية

دورية فصلية أكاديمية محكّمة تُعنى بالدراسات والبحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية

السنة السادسة (6)–العدد التاسع (9) / رمضان 1438هـ – جوان 2017

تقرؤون في هذا العدد:

- ✓ الحوكمة الجامعية والمقاربة الحديثة في تسيير مؤسسات التعليم العالي

د.سمير بارة (جامعة قاصدي مرباح بورقلة– الجزائر)

- ✓ العلاقات الاجتماعية التقليدية داخل الأسرة في المجتمع السوفي

د. عريق لطيفة (جامعة الوادي)، د. ادريس سفيان (جامعة الجزائر2)

- ✓ العنف اللفظي الممارس ضد الطفل داخل المحيط العائلي

أ. قدوح نور الهدى (جامعة لونيسي علي العفرون البليدة–الجزائر)

- ✓ التفسير النفسي للذكريات الباكرة

د. خالد خياط، أ.ريان حوحو (جامعة بسكرة– الجزائر)

- ✓ الآثار و المعالم من خلال المصادر الإسلامية . تلمسان دراسة نموذجية .

د. مطروح ام الخير (جامعة مرسلي عبد الله تيبازة– الجزائر)

- ✓ جدلية الدولة الجزائرية من خلال فترتي الحكم العثماني في الجزائر وحكم الأمير عبد القادر

د.عثمان زقب (جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي– الجزائر)

- ✓ جوانب من الخيارات التنموية للدولة الجزائرية 1965– 1976م

د.جمال بلفردي (جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي– الجزائر)

- ✓ LE "tasfih" En Tunisie : scarification et sacralisation

Dr.Olfa wali Ghariani(CERSS) Tunis

ISSN 2170-0370

جامعة الشهيد حمّه لخضر بالوادي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

مجلة الباحث

في العلوم الإنسانية و الاجتماعية

دورية أكاديمية فصلية محكّمة تُعنى بالدراسات والبحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية

ا السنة السادسة (6)–العدد التاسع (9) / رمضان 1438هـ – جوان 2017

توجه جميع المراسلات الى:
رئيس تحرير مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية
كلية العلوم الاجتماعية والانسانية- جامعة الوادي، طريق الشط 39000- الوادي/ الجزائر
Tél/fax: 032210731 /B.P 789
Courriel : elbaheth@univ-eloued.dz

ISSN 2170-0370

ادارة المجلة

المدير الشرفي

أ.د/ عمر فرحـــاتي
مدير جامعة الشهيد حمّه لخضر بالوادي

مدير المجلة

أ.د/ عبد الرحمان تركي
عميد كلية العلوم الاجتماعية والانسانية

رئيس التحرير

د/ رضـــوان شـــافو

اعضاء هيئة التحرير

د/ سلاف مشري
د/ معـاذ عمراني
أ/ اسمهان جبالي

تصميـــم واخـــراج

د.رضـــوان شـــافو

بريد المجلّة الإلكتروني

elbaheth@univ-eloued.dz

* ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي كاتبة ولا يعبر عن رأي المجلة.
* يخضع ترتيب الموضوعات بالمجلة لاعتبارات فنية لا ترتبط برتبة الباحث ولا بمكانته العلمية.

الهيئة العلمية الاستشارية

من داخل الجزائر

أ.د/ الطاهر سعدالله	(جامعة الوادي)	د/ جمال بلفردي	(جامعة الوادي)
أ.د/ اسماعيل العيس	(جامعة الوادي)	د/ السعيد شلالقة	(جامعة الوادي)
أ.د/ قمعون عاشوري	(جامعة الوادي)	د/ شوقي ممادي	(جامعة الوادي)
أ.د/ علي آجقو	(جامعة بسكرة)	د/ لامية بوبيدي	(جامعة الوادي)
أ.د/ مبخوت بودواية	(جامعة تلمسان)	د/ فوزي لوحيدي	(جامعة الوادي)
أ.د/ الشايب قدادرة	(جامعة قالمة)	د/ لــزهر ظيف	(جامعة الوادي)
أ.د/ محمد رشيد بوغزالة	(جامعة الوادي)	د/ سلاف مشري	(جامعة الوادي)
أ.د/ علي عنـــابزية	(جامعة الوادي)	د/ عبد الفتاح السعيدي	(جامعة الوادي)
د/ رشيـــد خضير	(جامعة الوادي)	د/ الطاهر بالنوي	(جامعة الوادي))
د/ عبد الفتاح ابي ميلود	(جامعة ورقلة)	د/ موسى بن موسى	(جامعة الوادي)
د/ محمد السعيد عقيب	(جامعة الوادي)	د/ رضــوان شافو	(جامعة الوادي)
د/ محمد رشدي جراية	(جامعة الوادي)	د/ م.عبد الرؤوف ثامر	(جامعة الوادي)

من خارج الجزائر

أ.د/ عبد الكريم الماجري	(جامعة منوبة – تونس)
ا.د. نجيب بن خيرة	(جامعة الشارقة– الامارات)
د/ محمد الامين ولد آن	(جامعة نواقشط – موريطانيا)
د/عمر زعل السعودي	(الجامعة الاردنية– الاردن)
د/عبد الواحد عبد السلام شعيب	(جامعة طرابلس– ليبيا)
د/ ساعد ساعد	(جامعة الملك خالد– السعودية)

شروط و قواعد النشر بمجلّة الباحث
في العلوم الإنسانية و الاجتماعية

- أن يكون الباحث حاصلا على درجة الماجستير على الأقل، أو مسجّلا في الدكتوراه، ويُرفق مشروع مقاله ببيان سيرته الذاتية.
- ألاّ يكون المقال تلخيصا لمذكرة أو أطروحة جامعية.
- أن يكون المقال أصيلا وجديدا لم يعرض ولم يقدم للنشر سابقا.
- تتضمن مقدمة البحث طبيعة الموضوع واهميته واهدافه واشكاليته ومناهج البحث المعتمدة والفرضيات، والدراسات السابقة.
- يُزوّد المؤلّف مقاله بملخصين أوّلهما بلغة المقال والثاني بلغة أجنبية، وألاّ يتجاوز الملخّص 100 كلمة.
- ويُزوّد المقال كذلك بخمسة كلمات مفتاحية بلغة المقال، وبترجمتها إلى العربية إن كان المقال بلغة أجنبية.
- أن لا يقل عدد صفحات البحث عن 10 صفحات ولا يزيد عن 15 صفحة مكتوبة بخط Traditional Arabic مقاس 14 وتباعد 1سم.
- يكون التهميش وفقا لأسلوب يسمى بال APA Style أي مباشرة بعد الاقتباس او الاستشهاد او الاحالة يكتب بين قوسين: (اسم شهرة صاحب النص والحرف الاول من الاسم الثاني، سنة النشر، رقم الصفحة)،مثال: (شافو،ر.2015: 35)
- توثيق المصادر والمراجع في نهاية البحث وترتب ترتيبا ابجديا وفقا لأسلوب APA Style على الشكل التالي:

✓ **الكتاب:** الاسم الأخير، الاسم الأول. (سنة النشر). عنوان الكتاب (ط. ثم رقم الطبعة إن وجد). مكان النشر: الناشر.

مثال: غنابزية، علي.(2015). الشيخ محمد بن عمر العدواني:حياته ومأثره (ط.1).الوادي:مطبعة الرمال.

✓ **مقالة من مجلة او دورية:** الاسم الأخير، الاسم الأول. (سنة النشر، اليوم إن وجد ثم الشهر إن وجد). عنوان المقالة. عنوان المجلة مع وضع خط تحته، رقم المجلد إن وجد(رقم العدد)، رقم صفحة البداية–رقم صفحة النهاية.

مثال: هويدي،عبد الباسط.(جوان 2015).الدور الاجتماعي للمدرسة الجزائرية ومكانة الطفل المهام الاجتماعية:الصعوبات والعوائق. مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، (5)، 109- 114.

✓ **مقالة من جريدة يومية:** الاسم الأخير، الاسم الأول. (سنة النشر، اليوم الشهر). عنوان المقالة. اسم الصحيفة مع وضع خط تحته، رقم العدد، ص. رقم صفحة البداية–رقم صفحة النهاية.

مثال:شافو،رضوان.(4،2013جوان).بسالة الجيش الجزائري في الحروب العربية الإسرائيلية لازالت ترعب إسرائيل.الجديد اليومي،482،ص ص2- 3.

✓ **مقالة منشورة على الانترنيت:** الاسم الأخير لمؤلف، الاسم الأول. (سنة نشر المقالة، اليوم الشهر). عنوان المقالة مع وضع خط تحته. أُسترجعت في تاريخ اليوم الشهر، السنة من الموقع الالكتروني:..... http://www.

مثال: صادق، قيس. (2001، 25 أبريل). عنف أو لا عنف: مفاهيم ومواقف حول ظاهرة العنف ضد المرأة. أُسترجعت في تاريخ 30 سبتمبر، 2002 من http://www.amanjordan.org/sadeq.htm

✓ **بحث في اعمال ملتقى او مؤتمر:** الاسم الأخير للمؤلف، الاسم الأول. (تاريخ الانعقاد). عنوان البحث أو المقالة مع وضع خط تحته. قُدّم إلى اسم الندوة أو المؤتمر، مكان الانعقاد

مثال: عاشوري،قمعون. (2014، 17-18 ماي).علاقة تدوين التاريخ المحلي بالتراث الشفوي. بحث مقدم في الملتقى السابع حول التراث الثقافي،مديرية الثقافة لولاية الوادي،الجزائر.

✓ **رسائل الماجستير او الدكتوراه:** الاسم الأخير للمؤلف، الاسم الأول. (سنة النشر). عنوان الرسالة مع وضع خط تحته. نوعها، اسم الجامعة، مكان النشر

مثال:بن موسى، موسى.(2006).الحركة الاصلاحية بوادي سوف: نشأتها وتطورها 1900-1939.رسالة ماجستير،جامعة منتوري بقسنطينة،الجزائر.

- تخضع جميع المشاريع المقترحة لفحص علمي دقيق سري من قبل هيئة خبراء استشارية وقرارها غير قابل للنقض، ولا يمكن إجراء أي خطوة لنشر المقال قبل صدور قرار إيجابي.
- يتحمّل مؤلّف المقال مسؤولية إجراء كافّة التعديلات المطلوبة من هيئة الخبراء أو من فريق التحرير لنشر المقال.
- ترسل جميع البحوث والدراسات إلى العنوان الإلكتروني للمجلة: Courriel : elbaheth@univ-eloued.dz

كلمة العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين ، وبعد:

أتشرف بكتابة هذه الكلمات لمجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي ، والتي وصلت إلى مرتبة عالية من حيث الموضوعات التي تتطرق إليها ومن حيث المظهر الجيد الذي تخرج فيه،وها هو العدد الجديد من هذه المجلة الفتية يبصر النور حافلا بالبحوث والدراسات المتنوعة والمتعددة الجوانب في ميدان العلوم الاجتماعية والإنسانية.

وهذا العدد ضمن مسيرة المجلة بأعدادها السابقة يشكل لبنة في صرح البحث العلمي المتخصص ، فهو يشكل مرجعا علميا للباحثين والطلبة في كل الفروع والتخصصات.

في هذه الكلمة أتقدم بالشكر والتقدير إلى كافة الأساتذة المشرفين على المجلة ، وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور رضوان شافو.

كما أشكر الباحثين المشاركين الذين أسهموا بأبحاثهم في إثراء الساحة العلمية الجامعية.

والله ولي التوفيق والحمد لله رب العالمين

الوادي في 05 رمضان 1438 هـ الموافق لـ 31 ماي 2017م.

أ . د . عبد الرحمان تركي

عميد كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قائمة المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة

- كلمة العدد 06
- **جوانب من الخيارات التنموية للدولة الجزائرية 1965– 1976م**..... 09

د.جمال بلفردي (جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي– الجزائر)

- **الآثار و المعالم من خلال المصادر الإسلامية (تلمسان دراسة نموذجية)**..... 27

د. ام الخير مطروح (جامعة تيبازة– الجزائر)

- **العمارة والعمران في وادي سوف(1845–1900)م بعيون الرحالة والمستكشفين الفرنسيين**. 44

د.الجباري عثماني (جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي– الجزائر)

- **المرأة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني (633–962هـ/1235–1555م(قراءة في الحضور العسكري والسياسي)**..... 55

أ.د. مفتاح خلفات،أ. حسيبة عمروش(جامعة محمد بوضياف بالمسيلة – الجزائر)

- **جدلية الدولة الجزائرية من خلال فترتي الحكم العثماني في الجزائر وحكم الأمير عبد القادر**.. 66

د.عثمان زغب(جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي– الجزائر)

- **شوقي مصطفاي ومساره النضالي–**..... 76

د. محمد يعيش (جامعة محمد بوضياف بالمسيلة – الجزائر)

- **البداوة والإسلام والسلطة السياسية في موريتانيا**..... 83

د. سيد محمد ولد ختاري (جامعة نواكشوط – موريطانيا)

- **إرهاصات الفن البدائي"**..... 90

د.محمد رشدي جراية (جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي– الجزائر)

- **حركة احتجاج النقيب الزبير ديسمبر1959 –فيفري1960 بالحدود الجزائرية المغربية خلال الثورة الجزائرية من خلال وثائق أرشيفية**..... 100

د.احمد مسعود سيد علي (جامعة محمد بوضياف بالمسيلة – الجزائر)

- **الموارد الخفية في نجاح آداء المنظمات–إدارة الوقت نظريا وتطبيقيا–"**..... 111

د.سماح بلعيد (جامعة الشاذلي بن جديد بالطارف – الجزائر)

- **التفسير النفسي للذكريات الباكرة**..... 124

د.خالد خياط ،أ.ريان حوحو (جامعة محمد خيضر بسكرة – الجزائر)

❖ **العنف اللفظي الممارس ضد الطفل داخل المحيط العائلي**.....135

أ.نور الهدى قدوح (جامعة لونيسي علي العفرون البليدة- الجزائر)

❖ **العلاقات الاجتماعية التقليدية داخل الأسرة في المجتمع السوفي."**.....145

د. عريق لطيفة (جامعة الوادي)، د. ادريس سفيان (جامعة الجزائر2)

❖ **كارل أوتو آبل ، قارئا لكانط" القراءة التاسعة لكانط" :دراسة تحليلية من وجهة نظر البراغماتيكا المتعالية**.....157

أ.بن محمد توفيق (جامعة الحاج لخضر – باتنة1- (الجزائر)

❖ **الحوكمة الجامعية والمقاربة الحديثة في تسيير مؤسسات التعليم العالي**.....174

د.سمير بارة (جامعة قاصدي مرباح ورقلة- (الجزائر)

❖ **الاستثمار في رأس المال البشري كآلية لتحقيق الاقلاع الاقتصادي في الجزائر_مقاربة سوسيو-اقتصادية_**.....191

د.خشمون محمد (جامعة باتنة-1) ،د.قريد سمـــير (جامعة قالمة)

❖ **LE "tasfih" En Tunisie : scarification et sacralisation**.....202…

Olfa wali ghariani(CERSS) Tunis

تاريخ الاستلام: 2016/09/14- تاريخ التحكيم: 11/11/ 2016 -تاريخ النشر2017/06/02

جوانب من الخيارات التنموية للدولة الجزائرية 1965– 1976م

د.جمال بلفردي

جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي – الجزائر

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص:

إن استعراض وبلمحة موجزة مدى نجاعة ونجاح مكانيزمات الاقتصاد الوطني الذي دمر بُناه التحتية بقاء الاستعمار الفرنسي لمدة فاقت 132سنة لأمر يدعو إلى دراسة أسباب فشل آليات التسيير الذاتي في الفترة التي سبقت حركة 19جوان1965، والتي لم تنجح في مجملها في لقضاء على التركة السلبية للاستعمار، واصطدامها بإرادة التصحيحيين الذين أخذوا على عاتقهم إذكاء روح المبادرة لبناء اقتصاد وطني يرتكز على تحسين مستوى الظروف المعيشية للشعب الجزائري وفق المحاور الكبرى لتلك الخيارات التنموية..

الكلمات المفتاحية: 1- الثورة الزراعية، 2- الثورة الصناعية، 3- الثورة الثقافية، 4- التأميمات.

Abstract :

A brief review and of the extent of the efficacy and success of the national economy the mechanisms, whose infrastructure was destroyed by the French colonial rule for more than 132 years calls for a study of the causes of the failure mechanisms of self-governance in the period that preceded the movement of June 19, 1965 , which did not succeed in its entirety to eliminate negative legacy for colonization , and colliding with the will of the Altsahahiein who took it upon themselves to raise the spirit of the initiative to build a national economy based on improving the living conditions of the Algerian people, according to the major axes of these development options .

Keywords : Agricultural revolution, 2-the industrial revolution, 3-the Cultural Revolution, 4-nationalizations.

مقدمة:

كشفت نتائج تطبيق سياسة التسيير الذاتي على عهد الرئيس بن بلة – ورغم ما توصلت إليه من نتائج على نسق بعض المستويات– انعكاسات خطيرة تجلت بوادرها الأولى في تدفق حركة الهجرة الريفية إلى الحواضر والمدن جنبا إلى جنب مع عملية ترك مساحات فلاحية وزراعية شاغرة مما أدى إلى انخفاض الإنتاج الزراعي الجزائري، وأنذر بمشاكل على هياكل الدولة الحديثة وظهرت معها مشكلة البطالة كحلقة أخرى تضاف إلى سلسلة الضغوطات الثقيلة على سوق العمل رغم هجرة ما يقارب نصف مليون جزائري إلى فرنسا عشية الاستقلال – مخففين ولو بنسبة ضئيلة– من الضغط المفروض على المدن الجزائرية الكبرى.

والمعلوم فإن الإدارة الذاتية داخل وحدات العمال والفلاحين قد أوكلت للعمال إستغلال الوحدات وهيئات التسيير، والتنظيم المالي والتسويق وبطريقة بيروقراطية عجلت بظهور المشاكل بين العمال ، وقد أثرت الطريقة التي تسير بها تلك الهيئات على عملية الإنتاج، وزاد احتكار الدولة وعن طريق وكلائها "القطاع الخاص" إلى تراكمات إدارية – بيروقراطية في أنماط التسيير والإنتاج حاولت فيها السلطة الثورية – وبعد نجاح حركتها التصحيحية "الانقلابية" ليلة 19 جوان 1965– إيجاد حلول عاجلة لترميم

عملية التسيير الأولى، ومن ثم الدخول إلى عالم التأميمات الوطنية وعلى مستوى مختلف القطاعات (الصناعية، الزراعية، البنوك، الثقافية)

1-التسيير الذاتي والثورة الزراعية :

في الوقت الذي رأت فيه السلطة الثورية أن مشروع التسيير الذاتي يعبر عن إرادة الجماهير قاعديا، قبل أن يكون نظاما مخططا له في القمة، مرتكزا على تحرير العامل في القطاع الفلاحي، وقد فتح لهم ذهاب المعمرين غداة الاستقلال الطريق لكي يمسك الفلاحون والعمال بزمام وسائل الإنتاج الفلاحي.

غير أن مشروع الإصلاح الزراعي لعام 1964، والذي وضعت خطوطه العريضة لتطبيق مراسيم مارس 1963، لم يأت بالنتيجة المرجوة نظرا للتوزيع المحدود للمزارع المؤممة وتحويلها إلى تعاونيات فلاحية. فجاء مشروع الثورة الزراعية لسنة 1966 الذي ألحّ على تحقيق وسائل النهوض بالاقتصاد الوطني ، وتطبيق ما جاء في مراسيم مارس 1966من تحديد الملكية العقارية واستغلال الجماعي للأراضي واللذان يندرجان ضمن آفاق استكمال التأميمات الوطنية وإنعاش عملية التسيير الذاتي (بهلول، م.ب. 1976: 292.)

ولإنجاحه دخلت آلية التسيير الذاتي مرحلة اللامركزية التي أعادت للجماعات العمالية تدريجيا بعض امتيازاتها فكان الأمر رقم 68- 653 الصادر بتاريخ 1968/12/30، والذي ضاعف وعزز حركية التجديد للتسيير الذاتي من خلال توسيع وتنمية المنتجين المسؤولين على المزارع المسيرة ذاتيا، وتطوير نشاط العمال إلى مستوى المنتجين المسؤولين حيث يستفيدون فعلا من ثمار عملهم (ج.ت.و.1971: 22.)

ولتحقيق أهداف الإصلاح الزراعي وضع التشريع القانوني الصلاحيات الممنوحة لمجلس العمل على مستوى المراقبة، وأعطى جميع سلطات التسيير للجنة التسيير، وهذه الأخيرة تنتخب وتراقب من طرف العمال .كما حددت الأمرية التي ذكرناها سلفا طريقة شراء الموارد الضرورية للتزود بالعتاد ،ويقوم في الوقت نفسه عمليات تسويق المنتوجات وتقديم الخدمات (وزارة الثقافة والإعلام . 1972 : 100)

وحرصت الدولة من أجل تحقيق استراتيجية وطنية، وعلى بلوغ أهداف الآفاق السباعية 1967- 1973 بتطبيق سياسة تنموية تقوم على أساس مخططين أوليين: المخطط الثلاثي 1967- 1969، والمخطط الرباعي الأول 1970- 1973، وجاء المخطط الثلاثي من أجل وضع معالم هامة لتوسيع رقعة التخطيط في اتجاهين رئيسيين يتمثل الأول في توسيع القطاع العام الاقتصادي بمجموعة من إجراءات التأميم لتهيئة ظروف التخطيط الاشتراكي الموسع، ويرتكز الاتجاه الثاني على عمل الدولة لإسترجاع وسائل الإنتاج من أجل تخطيط أنجع للاستثمار والإنتاج.فعلاوة على قانون الاستثمار الذي جاء من أجل تفعيل المخطط الثلاثي، وتوسيع قاعدة القطاعات العمومية، ونفذت في ذلك عمليات تبدوا هامة للاقتصاد الوطني كتقرير الضرائب على عمليات الاستيراد وتأميم النظام المصرفي ،ويمكن القول أن هذا المخطط بالفعل كان القاعدة الأساسية، ونواة إستراتيجية لتنفيذ المخطط الرباعي الأول 1970- 1973.

وعزمت السلطة الحاكمة على إنجاح هذا المخطط فقامت بتوكيله إلى مديرية التخطيط التي كانت مديرية وزارية تابعة لوزارة المالية. غير أن الهيكل الوزاري الجديد للحكومة أعطى لهذه الدائرة صفة الهيئة المركزية للتخطيط على شكل كتابة دولة أكد بما يبعد كل الشكوك نية السلطة الثورية على تنظيم وإدارة الاقتصاد (بهلول .1999: 160- 162/1). حسب منهج مخطط ، ومنح سلطة رسمية لوظيفة التخطيط على مستوى الهياكل المركزية للهيئات الحكومية ، وجاء في التقرير الخاص بالخطة الرباعية وبالضبط في الجزء المتعلق بالتنفيذ تعدد المهام المراد إنجازها ، والتي تؤكد على تقوية ودعم بناء الاقتصاد الاشتراكي، وتعزيز الاستقلال الوطني، وفي الجزء المتعلق بالمخطط كان الهدف تعميق الثورة الاشتراكية في مختلف المؤسسات الوطنية. كما يضمن بحسب قول رئيس مجلس الثورة ورئيس الوزراء " المراقبة الشعبية لأموال الشعب في القطاعات التي هي تحت تصرف الدولة" (وزارة الثقافة والإعلام . 1970: 290/3. (

والمعلوم أن المخطط الرباعي الأول 1970- 1973 تميز بإستكمال الدولة لعمليات التأميم الكبرى من خلال استرجاع الدولة لقطاع المحروقات، والشروع في تبني استراتيجية جديدة على مستوى القطاعات التي تعود فوائدها على المواطن بدرجة أولى كتطبيق برنامج الثورة الزراعية، والتسيير الجهوي للولايات الأكثر حرمانا (وزارة الثقافة والإعلام .1972 : 128). ويرى الاستاذ الباحث حسن بهلول أن المخطط الرباعي الأول 1970- 1973 يعد مخططا متوسط المدى مقارنة بالمخطط الثلاثي الأول الذي يعد مخططا قصير الأجل نظرا لانعدام توفر الشروط الموضوعية في هذا الأخير ،والتي تعطي للدولة قدرة التحكم في القوى الاقتصادية، لذا جاء حجم الاستثمارات للمخطط الثلاثي أقل بكثير من المخطط الرباعي الأول الذي ارتفع فيه رقم الإستثمار فيه من 9.16 مليار دينار ليبلغ حدود 36.7 مليار دينار في المخطط الثاني، وكانت حصيلة الاستثمارات الصناعية 54% من مجموع تكاليف البرامج الاستثمارية المعتمدة (بهلول ، م. ب . 1999 : 164 . (

كما أن الشروع في تنفيذ المخطط الرباعي الثاني 1974-1977 يمثل الإنطلاقة الثانية للتخطيط للقضاء على المشاكل المتفرعة لذا جاء حجم الاستثمارات فيه أكبر من المخططين السابقين، وفاقت قيمته 110 مليار دج تلخصت اتجاهات سياسة أهدافه في تدعيم وتوسيع التغيرات الاجتماعية، وتطوير القاعدة المادية للمجتمع وعقلنة الاختيارات التكنولوجية، وإعتماد مبدأ اللامركزية لتحقيق التوازن الجهوي (بهلول ، م. ب . 1999 : 257. (

إن إنفتاح السلطة الثورية وإقبالها على البرامج والمخططات التنموية على المستوى الزراعي الفلاحي والطموحات الكبيرة لها من أجل حماية التسيير الذاتي، وترقية الإصلاح الزراعي كضرورة لإعادة توجيه وتكثيف الإنتاج الفلاحي من خلال تخفيض مساحات زراعة الكروم "العنب" من 400 ألف هكتار إلى 220 ألف هكتار، وتعويضها بزراعة الحبوب والتخلي التدريجي عن نظام التبوير الموروث عن الاستعمار(بيار، ل . 1997: 274.(

ورأت السلطة الثورية في ذلك انتصارا للحكومة الجزائرية بإعتبار أن تلك المساحات الزراعية تصب في مصلحة القدرة الاستهلاكية لصالح فرنسا وسرّعت بذلك عملية تخفيض تلك المساحات دون تكييف ذلك وواقع الاقتصاد الوطني. فمن جهة تعرضت المساح ثات التي خصصت لزراعة الحبوب إلى الإهمال، ومن جهة أخرى إعترضتها مشاكل كصعوبة تطبيق وإيصال نظام السقي للمساحات المستغلة. وعدم تلبية حاجاتها بما تجود به السماء من أمطار.

إن انزلاق الإدارة المسؤولة على التسيير الذاتي في التعاونيات ناتج من تملص هذه الأخيرة قدر المستطاع من واجباتها في المزارع التي أممت مما أدى إلى فشلها إنتاجيا، وعرض عملية التسيير الذاتي في أساسها إلى عملية نقد واسعة. يضاف إلى ذلك تدخل الدولة كطرف أساسي في المركزية التسييرية التي ولدّت البيروقراطية. بالرغم من الحصص المالية التي التهمها مشروع التسيير الذاتي، إلاّ أن ذلك أدى إلى تناقص الإنتاج عاما بعد عام.ورغم إقرار النصوص الرسمية تحقيق نتائج على المستويين السياسي والاقتصادي لمشروع التسيير الذاتي من أجل الترقية الاجتماعية والاقتصادية للعمال والفلاحين داخل التعاونيات كأداة فعالة للتنمية الزراعية، وتحقيق التكامل الزراعي المنشود من طرف السلطة الثورية،والنتيجة كانت توسيع الأراضي الزراعية دون استغلالها، كما أريد تحقيق الاكتفاء الذاتي فإذا بالجزائر أصبحت عضوا رائدا في التبعية الغذائية على الأقل بين دول العالم الثالث.

إن مكمن التناقضات داخل مؤسسات التسيير الذاتي، ونقصد هنا تعاونيات التسيير الذاتي التي حملت بذور فنائها منذ أن كانت أفكارا جنينية .كما أقرّ ذلك أحد الذين عاشوا تسعة عشرة عاما في مكاتب إدارة التخطيط المركزي الذي أكد بأن التخطيط المركزي لم يعد يعني أحد، بدليل أنه لم يطبق إلّا على وضع الموازنات من خلال صرف التسليفات ، وإدارة العائدات في وزارة المالية وتلك هي القواعد التي كان يفرضها التسيير الممركز لإقتصاد الدولة (حيدوسي ،غ. 1997: 22.(

لم يكن ميثاق الثورة الزراعية الصادر عن أمر رقم 71-73 المؤرخ في 1971/11/08 إلّا ختاما للمرحلة الأساسية التي بدأت منذ ترسيم قرارات مارس 1963، ومعها تجلّت بوضوح المجهودات الجبارة للسلطة الثورية لحركة جوان 1965 للنهوض بالقطاع الزراعي، وربما يعكس ذلك إنتقال قيمة القروض المخصصة للإنتاج، والموزعة على صغار الفلاحين من 39 مليون دج في عام 1965 إلى 350مليون دينار جزائري سنة 1969 (وزارة الثقافة والإعلام . 1972: 139.(

ويمكن القول إن التمهيد للثورة الزراعية بدأ بالتطبيق الفعلي لقرارات التسيير الذاتي وإصلاحه بعد سنة 1965،وذلك بإلغاء المنظمات الوطنية للإصلاح الزراعي في محاولة لتغيير سير الجهاز الإداري، وإيجاد نظم سياسية جديدة كتكوين إدارات مستقلة مكلفة بمصالح التسيير الذاتي.ومع هذه التحولات بدأت الحكومة بالتنسيق مع الوزارة المعنية بمراقبة المنظمات الفلاحية ، وإعادة تأهيل بعضها كالمكتب الوطني لتسويق مواد الكروم في 1968/08/07، وتأسيس المكتب الجزائري لتسويق الفواكه والخضر، والديوان الوطني للمواد الفلاحية، والديوان القومي لتغذية الأغنام (بوحوش .ع . 1977: 389.(

إن أهمّ أهداف الثورة الزراعية هي تصفية الآثار الزراعية للتركة الاستعمارية، ويندرج في ذلك تحويل سياسة زراعة الكروم دون انطلاقة فعالة لزراعة حديثة تعتمد على التحديد المباشر لملكية الأراضي بتحقيق مما جاء في (المادة 01) من قانون الثورة الزراعية : الأرض لمن يخدمها، ولا يملك الحق في الأرض إلّا من يفلحها ويستثمرها، كما استهدفت الثورة الزراعية القضاء على ظاهرة استغلال الإنسان لأخيه الإنسان،وذلك بتنفيذ التدابير العملية لتأميم ومنح الأراضي الزراعية ، أو المعدة للزراعة وتحويل الإنتاج وتعبئته، ولا يتأتى ذلك إلّا بحسب ما أقرّته النصوص التنظيمية للصندوق الوطني للثورة الزراعية (المادة 18) من القانون الثورة الزراعية. (وزارة الثقافة والإعلام .1972: 145.(

وزادت من جدية تحقيق الاهداف الإمكانيات التي وضعتها الدولة لتطبيق الإصلاحات الزراعية التي جاء بها ميثاق الثورة الزراعية، وذلك بتخصيص 100 مليون دينار في السنة الأولى منها ، وبقدر ما كانت نوايا السلطة الثورية جدية لتوفير الحياة الكريمة للفرد الجزائري بقدر إحترازها من أن تظهر لدى الرأي العام الشعبي أنها تعمل للقضاء على الملكية الفردية. (وزارة الثقافة والإعلام .1972: 393/3.(

وقد شكلت الثورة الزراعية عاملا منعشا للثورة الصناعية كإستعمال فائض الإنتاج الزراعي الريفي في الصناعات التحويلية، وأدى ذلك إلى توسيع السوق الداخلية وتشجيع النمو الصناعي وتوسيعه في المجالات المرتبطة بالإنتاج الزراعي كمجالات الصناعات الميكانيكية والكيماوية (ج.ت.و.1971 : 28)،فالأرض لمن يخدمها يتضمن عملا بنيويا لإعادة بناء الهياكل الزراعية القديمة بالقضاء على الملكيات الكبيرة الواسعة وتحجيم المتوسطة منها ، وربطها بالفلاح حتى لا يتكرر نزوح الفلاحين إلى المدن، وخلق تجمعات فلاحية تعاونية لتطوير القوى الإنتاجية الزراعية، وتحويل البنيات الاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بالزراعة التحويلية من أجل تحقيق بُعدين الأول أفقي لخلق العلاقة التكاملية بين القطاعين الزراعي والصناعي، وبُعد رأسي لتنويع وتكثيف الإنتاج الزراعي (بهلول.م.ب .1976: 334.(

وعزمت السلطة الثورية على نجاعة الثورة الزراعية التي شعارها "من الشعب إلى الشعب" مستندة عليها للنجاح بفضل الثقة المتبادلة بين الجماهير الشغيلة ذات الطاقات الخلاقة، وسلطتها الثورية التي وزعت سلطتها المركزية – مجازا- على الولايات والبلديات، وتحميلها مسؤوليات تطبيق وتنفيذ أحكام الثورة الزراعية (المواد 173 إلى المواد 243) (1)(ج.ت.و.1971: 101، 118.(

-1يمكن العودة إلى مواد تنفيذ بنود الثورة الزراعية على المستوى البلدي، والولائي وكيفيات تسيير لجان التسيير الذاتي، وتطبيق القرارات بالشكل الذي تراه السلطة الثورية مناسبا، ويؤدي إلى نتائج ملموسة على أرض الواقع. ينظر ، ج.ت.و . نصوص الثورة الزراعية ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، 1971، الجزائر ، ص،100.

ولإستكمال مسار الإصلاح الزراعي، وتوسيع نطاق الثورة الزراعية إلى سكان المناطق السهبية ،والتي تظهر فيها بوضوح ظاهرة استغلال الإنسان لأخيه الإنسان بدت الفكرة سليمة ،وذلك بإدخال وتوسيع الثورة الزراعية للقضاء على هذه الظاهرة واقتلاعها من جذورها، وكذا القضاء على التناقضات الثلاثية :الاستغلال المسلط من طرف المنتجين المباشرين، والاستغلال المفرط للبيئة الطبيعية، وتحسين الظروف المعيشية لسكان السهوب (وزارة الفلاحة والإصلاح الزراعي . 1976: 13(

ويلخص الشخصية التاريخية أحمد مهساس ما مرّ معنا من تجربة الثورة الزراعية بأنها سياسة بقوانين مرتجلة أدت إلى مظاهر اجتماعية كالهجرة الريفية والقحط وارتفاع الأسعار، والتبعية المتزايدة للخارج في ميدان التغذية، وكل ذلك كان نتاج التدمير الممنهج للفلاحة نتيجة الاستمرار في تطبيق الكلمات الفارغة المضمون لمراسيم التسيير الذاتي والتي أدت في الأخير إلى انحدار مستوى الإنتاج، وانخفاضه إلى مستويات قياسية نتجت عنها تبعية مقرفة في مجال الغذاء لدولة الاستعمار بالأمس (مهساس ، أ. 2007 :76.(

2- التأميمات والثورة الصناعية:

بعد سنة 1966 حددت السلطة الثورية عدة ضوابط إقتصادية لتطوير القوى المنتجة في محاولة منها لتحريك العلاقات الاجتماعية داخل النسيج الصناعي الجزائري الهلامي الذي كان تحت سلطة الاحتكارات الرأسمالية الأجنبية فكان قطاع الصناعة الغذائية من القطاعات الاستثنائية التي حافظت على نشاطها.وقد حمل نظام 1965/06/19 مشروع توسيع القطاع الوطني العمومي من خلال تسريع عملية التأميمات، وإدراجها ضمن المخططات التنموية كضرورة ملحة لتطهير الاقتصاد الوطني، وتوجيه استثمارات الموارد الطبيعية لتقوية وزيادة الإنتاج بما يخدم الاقتصاد الوطني وينعكس إيجابا على السكان.

وهكذا أخذت السلطة بخيار إنشاء قطاع عام مهيمن يسود تدريجيا على حساب القطاعات الموجودة على الساحة الإقتصادية ومنها القطاع الخاص الوطني، وبدأت بالفعل آلية التأميمات الصناعية في ماي 1966 من خلال تأميم تسعة شركات خاصة بالاستكشافات المنجمية بباطن الأرض "الفوسفات، الزنك، ..." . وبين ماي/جوان 1968 ثم تأميم 45 شركة منها 13 شركة صناعية فرنسية توظف أكثر من (7500) عامل،وخاصة في الصناعات المعدنية والكهربائية والكيمياء وغيرها من أجل استكمال السيادة الوطنية، ولم تستأنف غالبية الشركات الأجنبية نشاطها إلّا بعد سنة 1974 نظرا لعملية التأميمات المستمرة ، وهكذا أممت في سنة 1969، (14) فرعا لشركات أجنبية، وتم في نفس الوقت إنشاء ثلاثة بنوك: البنك الوطني الجزائري، والبنك الخارجي والقرض الشعبي الوطني استكمالا لعملية تأميم البنوك التي بدأت خلال سنة 1966 (دبلة ، ع.ع. 2004 : 88، 89.(Marc, R .et Pierre, J . 1977 : 100)

لم تتوقف السلطة الثورية عن استرجاع سيادتها الوطنية على ثرواتها بإسترجاع المحروقات كأهم مورد اقتصادي للجزائر، بل ومع ذلك أقرّت أيضا السلطة الثورية رفع سعر الضرائب على البترول، وحاول المسؤول الأول على وزارة الطاقة والصناعة وقتئذ السيد بلعيد عبد السلام تحديد تكلفة سعر الذهب الأسود كما تريده الحكومة الجزائرية، لا كما تريده فرنسا . غير أن الإشكالالذي كان بمثابة التحدي لها هو مدى إحترام السلطات الفرنسية ما جاء في اتفاقيات إيفيان من نصوص تتعلق بهذا الجانب.وبحكم أن الجزائر – في تلك الفترة واقتصاديا كانت تابعة إلى منطقة الفرنك – أُجبرت الحكومة الجزائرية على الدخول في مفاوضات جادة مع الحكومة الفرنسية حول قضايا عالقة اقتصاديا خاصة بعد دخول الحكومة الجزائرية في عملية التأميمات، ورفع أسعار الضرائب على المواد البترولية من جهة، ومن جهة أخرى حاول الطرفان الوصول إلى تحقيق الشروط المبدئية كمعايير الإبقاء على سيرورة المفاوضات.(Belaïd. A.ss . 1990 :1/342.).

إن التطبيق الفعلي لكل القرارات السياسية المتعلقة بقطاع البترول، والبتروكيمياء وبإعتبارهما عصب حياة النظام والاقتصاد والمجتمع لدولة حديثة العهد بالاستقلال، والتي وإن تمكنت السلطة الثورية من إعادتها إلى حضيرة السيادة الوطنية سوف يساهم ذلك في إعطاء أمل في بناء صناعة قوية ،وذلك باستغلال العائدات النفطية بالعملة الصعبة في الميدان الصناعي.فتأسيس سوناطراك سنة 1963 ثم إنشاء المركز الإفريقي للهيدركربونات بتركيب سوفياتي والمعهد الجزائري للبترول كلها محطات تسيير لصالح الاقتصاد الجزائري. كما أن تسريع وتيرة المفاوضات أدت إلى اتفاقيات 1965/07/29 (1) بين الدولتين الجزائرية والفرنسية من

أجل تطوير عمليات التنقيب بين الشركات الفرنسية ونظيرتها الجزائرية فيما يتعلق بخامات البترول، وكيفية تسييرها وتشجيع الصناعة الجزائرية في هذا الميدان(marc, R et pierre, J .1977 :102) .

إن صيغة هذا الاتفاق لم يسوا جميع المسائل المطروحة بين البلدين لأن هناك من المسائل التي بقيت عالقة بين الطرفين فموافقة الطرف الفرنسي على تكلفة الضرائب لا يعني إقصاء الشركات الفرنسية من بعض المزايا الإضافية التي تستفيد منها منذ عهد الرئيس بن بلة أحمد نظرا للقيود المفروضة على الطرف الجزائري بسبب نص اتفاقية إيفيان مارس 1962.

بهذا إذن فتحت المناقشات المفتوحة مع ممثلي الدولة الفرنسية التي لها مواقف ومصالح زادتها زيارة مدير البنك العالمي للجزائر من أجل تحليل الوضعية الاقتصادية للجزائر من باب الائتمان ، وتجاهل أوامر الحكومة الفرنسية التي تقاعست عن تسديد 200 مليار سنتيم للجزائر كذريعة وحجة لما قامت به الحكومة الجزائرية من تأميمات بعد الاتفاقية الجزائرية الفرنسية جويلية 1965، ودخول السلطة الثورية في المرحلة الجادة لتشجيع الاستثمارات الصناعية ،غير أن روبرت ماك نامارا وقتئذ مدير البنك العالمي ، ومن خلال زيارته للجزائر حاول معرفة الوضعية الاقتصادية وعقارات المعمرين الشاغرة، وتأميم تعويض السلع المؤممة، وقد ساهمت هذه الشخصية وبشكل جلي وكبير في توريط الو.م.أ في حربها ضد الفيتنام، وبزيارته للجزائر حاول في الحقيقة معرفة وضعية الشركات الأمريكية بالجزائر.وخلال زيارته للجزائر طلبت منه الحكومة الجزائرية التدخل وممارسة الضغوط على الفرنسيين للاستيفاء الائتمان، غير أنه أجاب بأن ما يطلبه من الفرنسيين هو فتح مفاوضات مع شركائهم الاقتصاديين، ومنها الحكومة الجزائرية) Belaïd. A.ss . 1990 :1/360)

إن ما يمكن الإشارة إليه ونظرا للتأميمات التي جاءت بعد سنة 1966، والتدابير التي اتخذتها السلطة الثورية في هذا الجانب التي صبّت في مجملها للقضاء على الترسانة المؤسساتية الاقتصادية التي تملكها فرنسا في الصحراء الجزائرية جعل هذه الأخيرة تخلق الذرائع والحجج لكبح جماح السلطة الثورية، وتأجيل عمليات التأميم لإفشال مخططات التنمية الوطنية من جهة، وربحا للوقت لإبقاء على المزايا التي تحصلت عليها منذ توقيع اتفاقيات إيفيان مارس 1962 من جهة أخرى.

ويبقى الإشكال بالنسبة للحكومة الجزائرية رغم تأميمها في صيف 1970 خمس مؤسسات مختلطة الأجناس منها شركة إنجليزية، وشركتين إرلنديتين، وشركة ألمانية، وشركة مشتركة إيطالية – أمريكية، ومعها أصبحت شركة سوناطراك تراقب 30% من الإنتاج، و60% من أعمال التوزيع والتكرير إلاّ أن ذلك كله لم يشفع لها التحكم الكلي والمطلق في خامات الوطن.

كما قامت الشركة الوطنية في الوقت نفسه بإعادة النفايات وتصديرها على أساس إعادة هيكلة برنامج الاستثمار ، وكذا مد خط الأنابيب النفطية بين حاسي مسعود- سكيكدة للبترول، وخط الغاز سكيكدة- حاسي الرمل، لكن يبقى الإشكال –كما قلنا في البداية – مدى استفادة الشركات الوطنية من نسب الاستغلال.(marc, R et pierre, J .1977 :103)

1- يمكن الرجوع إلى الاتفاقية ونصوصها، وكل ما يتعلق بالتنقيب والإنتاج والتسيير وتوزيع الغاز والبترول الجزائريين، وبالشراكة بين سوناطراك ومثيلاتها الفرنسية في هذا الجانب، في التاريخ المذكور في المتن، وأمضى عن الجانب الفرنسي ممثل الدولة الفرنسية بالجزائر جورج غورس، والسكرتير الدولة لدى رئيس الوزراء الفرنسي جون بروغلي، وعن الجانب الجزائري الوزيرين، عبد السلام بلعيد وزير الطاقة والصناعة وعبد العزيز بوتفليقة وزير الشؤون الخارجية Ministère de L'industrie et de l'énergie : Accord entre la république algérienne et la république française, Alger, 29/07/1965.

إن هيكل المخطط الثلاثي والرباعي الأول ليعطي دلالة واضحة على أهمية الصناعة بالنسبة للحكومة الجزائرية التي خصصت لها. ففي الخطة الثلاثية فاقت نسبة الاستثمارات فيها 82% بالمقابل استهلكت الصناعة في المخطط الرباعي 45% ووضعت هذه الإمكانيات الضخمة تحت تصرف الشركات الوطنية والمؤسسات العمومية مع حرص الدولة على إقامة صناعة ثقيلة قوية (وزارة الثقافة والإعلام ، 1972 : 154.(

ونظرا لزيادة حدّة المشاكل بين فرنسا والجزائر من خلال عدم احترام الطرف الفرنسي لاتفاقية التعاون الفرنسي- الجزائري التي أبرمت في جويلية 1965 من خلال مؤشرات منها رفض الحكومة الفرنسية استغلال الغاز الجزائري بحجة عدم جودته من ناحية، ومن ناحية ثانية عدم وجود نية لدى الدولة الفرنسية لإتمام الاتفاق إلى نهايته، " وبقي السؤال المطروح ما هي فلسفة التعاون الجزائري- الفرنسي في ظل المعطيات الدولية الراهنة" بقول الرئيس بومدين في خطابه بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لتأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين 1971/02/24 (وزارة الثقافة والإعلام . 1971 : 200/4 (وهكذا تمت التأميمات النهائية والشاملة في نفس اليوم بقرار من الحكومة الجزائرية وباسم مجلس الثورة ، وابتداء من نفس التاريخ المذكور قُرّر الحصول على نسبة 51% من أسهم الشركات البترولية الفرنسية، وكذا تأميم الغاز الطبيعي بالصحراء الجزائرية، وتأميم النقل البري الخاص بنقل البترول الموجود بالتراب الوطني (وزارة الثقافة والإعلام . 1971 : 200(

إن الحصول على هذا الامتياز بالنسبة للسلطة الجزائرية ،أو بالأحرى بتر الاحتكارات الفرنسية للبترول الجزائري كان مكسبا وطنيا، وإنتصارا للسلطة الثورية الحاكمة، وأصبحت معها شركات استعمار الأمس تحت رحمة التأميمات الوطنية . والتي امتدت إلى دول عربية أخرى، وهو ما حدث في العراق سنة 1972، ثم جاء الدور على ليبيا سنة 1973 (بن الشيخ ،عصام. جانفي 2012: 194.(

ومما يؤكد عزم الحكومة على قطف ثمار التأميمات سعيها للانضمام إلى منظمة الأوبيب مما يعني إعادة ملكية الاقتصاد الوطني، وتحريك نشاط الإنتاج والتوزيع في الحقول البترولية الجزائرية أين انتقل – مثلا – انتاج شركة سوناطراك من البترول سنة 1966 من 3.9 مليون طن إلى 38.5 مليون طن سنة 1978 في الوقت الذي كان فيه إنتاج الشركات الأجنبية سنة 1966 بحصة تفوق 30 مليون طن، ولم تصل الحصة سوى 11.5 مليون طن سنة 1972، وارتفعت بذلك حصة سوناطراك من 11.5% إلى 77% ما بين 1966 و1972.(marc, R et pierre, J .1977 :104) .

إن سياسة التأميمات، والتي أصّرت على إنجاحها السلطة الثورية منذ 1966، كانت في سنة 1971 أكثر اكتمالا ووضوحا للنهوض بقطاع الصناعة الجزائرية، وبمؤسسات وطنية أنشأت أصلا لخدمة وإستغلال المؤهلات البشرية الوطنية يقابلها محاولة السلطة إيجاد منافذ للتعاون الخارجي خارج حدود التعاون الفرنسي من أجل إعطاء ديناميكية ونشاط اقتصادي وطني في إطار السيادة القانونية للجزائر.

ومما لا شك فإن العائق الأكبر الذي واجهته السلطة الثورية بعد التأميمات كان متمثلا في مشكل التسيير الذاتي الاشتراكي لتحقيق الوثبة الاقتصادية الوطنية المنشودة فأصدرت الحكومة ، ومجلس الثورة الميثاق والنصوص التطبيقية لمؤسسات التسيير الاشتراكي، والذي جاء في شكل مراسيم وأوامر بلغت سبع عشرة مرسوما بين 1971 و1975(1)(ج.ت.و . 1975.(

للاستفادة من معلومات تسيير المؤسسات الاشتراكية، والانتخابات فيها واستحداث اللجنة الوطنية للتسيير الاشتراكي للمؤسسات، والوحدات الاقتصادية الخاصة بها، وتحديد كيفيات تأسيس اللجان الشؤون الاجتماعية والثقافة واختصاصاتها وتسييرها، وعلاقاتها بلجان التنسيق والإدارة العامة كسلطة تابعة للدولة وغيرها من المؤسسات الاشتراكية . ينظر ، ج.ت.و التسيير الإشتراكي للمؤسسات الميثاق والنصوص التطبيقية ، اللجنة الوطنية للتسيير الإشتراكي للمؤسسات ، 1975، الجزائر .

وتتجلى بوضوح ملامح الاشتراكية التي أرادت السلطة الثورية تطبيقها، كأسلوب استثنائي يتلاءم وطبيعة المجتمع الجزائري من جهة، ويسهم في بلورة أسلوب اللامركزية الذي راهنت عليها السلطة المركزية لإنجاحها على أساس المبدأ الجماعي للجماعات المحلية البلدية الولائية من جهة ثانية.

وبررت السلطة الثورية إبراز أبعاد هذا النمط من التسيير في خلق ظروف تمكن من انتشار القطاع العام للدولة كهدف أول ، والثاني رفع البيروقراطية التي إنتشرت في مؤسسات التسيير الذاتي على عهد الرئيس بن بلة أحمد ،وذلك لتفادي خطر الازدواجية الإدارية بين المسؤولين والعمال. وقد أسهمت هذه النصوص وتطبيقها في نجاح الثورة الثقافية والزراعية كعامل لتحقيق ما تتمناه السلطة الثورية وهو الترقية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للسكان الجزائريين في المدن والأرياف، وفي المزارع والتعاونيات والمصانع .

ومع تحقيق أهداف التأميمات، وتطور الاستثمارات في مجال الصناعة يلاحظ هناك تطورا في مختلف الصناعات كالصناعات المنجمية أين اتخذت الأبحاث فيها ثلاثة اتجاهات كإجراء أبحاث جديدة منظمة في الجهات الأربع للوطن من أجل معرفة أماكن تواجد الخامات الباطنية، وكذا اكتشاف احتياطات جديدة واستغلالها مستقبلا، وإجراء أبحاث خاصة بمنطقة الأهقار خاصة أين توصلت بعد سنة 1968 إلى إثبات وجود معادن نادرة منها المواد الإشعاعية (وزارة الثقافة والإعلام . 1972: 156.(

وقد أكلت مهام تسيير المعامل الصناعية للصناعات المنجمية كالونزة إلى المكتب الوطني للأبحاث والاستثمارات المنجمية، ولتدعيم هذا الفرع الإداري أنشئت الشركة الوطنية لأبحاث للإستغلال المنجمي التي بدورها أوكلت لها مهمة إعادة تنظيم مجمل الأنشطة الاستخراجية المنجمية في الجزائر وتنميتها، كما تملك هذه الشركة منجم "غار جبيلات" الواقع 150 كلم جنوب غرب تندوف ، ويحتوي على احتياطات تقدر بمليار طن من المواد المعدنية (وزارة الصناعة والطاقة . 1974: 66. (

بالمقابل تطورت الصناعات البتروكيماوية، وأصبح فيها قطاع المحروقات رائد التنمية الاقتصادية الوطنية ومنها مصانع تكرير البترول بأرزيو وسكيكدة،وتبلغ طاقة إنتاجهما في حدود سنة 1971 خمسة ملايين طن، وفي سنة 1972 افتتح مصنع الغاز بسكيكدة بوحداته الثلاث للتمييع، وبلغ إنتاجه 3.5 مليار متر مكعب من الغاز، وتبقى هذه المصانع مفخرة التصنيع بالجزائر مع مصانع أخرى يمكن ذكر أهمها مصنع الأسمدة الفوسفاتية بعنابة، والأسمدة الآزوتية بأرزيو (وزارة الثقافة والإعلام . 1972 : 164). ويمثل مركب الحديد والصلب بالحجار أساس الثورة الصناعية الجزائرية، فهو نواة الصناعة المعدنية التي سوف تلعب دورا لا يقل أهمية عن دور الصناعة البترولية، وقدر إنتاجه بـ 1.8 مليون طن سنويا من الحديد المذاب سنوات السبعينات (وزارة الثقافة والإعلام .1972 : 164.(

ونظير السياسة المتبعة من طرف الدولة في مجال التصنيع فإن نتائجها تعكسها الأرقام التالية في هذا المجال .حيث لم تصل سنة 1975حتى تدعم القطاع العام الصناعي بالجزائر بـ 49 شركة وطنية في المجال الصناعي، وبطاقة استيعابية لليد العاملة فاقت 225 ألف عاملا يحتل فيها القطاع الاشتراكي نسبا احتكارية تفوق 90% (دبلة ، ع.ع .2004: 89.(

غير أن الاعتماد المطلق للسلطة الثورية لإنجاح الإنجازات التقنية دون الاهتمام بالإنتاج ونوعيته واستعمال إداريين "تكنوقراط" في خندق المشاريع من نوع "المفاتيح في اليد"، أدى – بحسب – ما ذهب إليه مهساس بالصناعة التصنيعية، أوما يسمى بالثورة الصناعية إلى نوعا من التمويه الأيديولوجي لعمليات باهضة الثمن دون تحقيق نتائج واقعية في مجالات الإصلاحات في الثورات الثلاث خاصة على المجتمع الجزائري. (مهساس ،أ .2007 : 78.(

وفي نفس السياق يرى الخبير الإقتصادي حيدوسي غازي أن عملية التقارب بين القادة الجدد للصناعة، والمكاتب الوزارية سيحدد بشكل مباشر عملية التوزيع بين الشركات والوحدات الإنتاجية دون اهتمام كبير بالتكامل الاقتصادي الصناعي والتجاري، غير أن المصاعب المالية في الأسواق العالمية الناجمة عن زيادة تكاليف الاستدانة أدى إلى زيادة أسعار المواد الأولية المستوردة مما إنعكس مباشرة على إعادة مناقشة الخطط داخل القطاعات خاصة الصناعية منها من أجل ترتيب الأمور، وعلى المحك بالنسبة للمخطط الرباعي الثاني 1974- 1977. لاستكمال برنامج الخيارات التنموية للسلطة الثورية في مستوياتها الثلاث (الزراعية، الصناعية، الثقافية.(حيدوسي ،غ . 1997: 22. (

3- التعليم والتعريب كواجهتين للثورة الثقافية:

بعد الثورتين الزراعية والصناعية ارتكزت خيارات السلطة الثورية بعد 1965/06/19 على إرساء دعائم الثورة الثقافية تعليما وتعريبا، وعلى أساس أن يكون الأول علميا وتقنيا ووطنيا وثوريا لتلبية الحاجات المتزايدة في القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للبلد، والثاني للقضاء على الآثار ومخلفات الاستعمار الثقافية في جانبها اللغوي.

فالثقافة بمفهوم رئيس مجلس الثورة العقيد هواري بومدين هي تجربة ملموسة كظاهرة إنسانية ثابتة، وبمعناها الواسع هي التي تمكن الناس من تنظيم حياتهم بعدما كانت عاملا في صيانة الشخصية الوطنية والحفاظ عليها مما تبعث روح التقدم والرقي، " كما أنها ملتقى منابع الفكر الإنساني ومصيره المشترك " (وزارة الثقافة والإعلام .1969 : 3/ 134.(

ولم تتوقف الثورة الثقافية عند حدود هذا المفهوم بل سعت إلى فتح أبواب المعرفة أمام الجماهير الشعبية وتمكينها من تعليم الصنائع، وتوفير دواعي الازدهار الثقافي، وتكوين إنسان جزائري جديد بإشاعة نمط حياتي جديد فيه ،ومعها أصبح المواطن الجزائري نشطا وفعالا يعزز من فرص نجاح الثورة الاشتراكية (الإبراهيمي ، أ.ط. 1972: 10.(

ولتحقيق مبدأ "المدرسة للجميع" ، وتغيير الإنسان وتوجيهه نحو الرقي والازدهار فقد استهدف الإصلاح التعليمي بالجمع بين التنوع والإنسجام للوصول إلى ديمقراطية التعليم. وإتاحته لجميع فئات المجتمع من أجل تعميمه وتكثيفه في أوساط الجماهير الشعبية لخلق أطر ونخب علمية وتقنية وطنية. وهو ما أكده رئيس مجلس الثورة في خطابه بمناسبة الذكرى الثالثة عشرة لاندلاع الثورة أن الدولة تخصص كل سنة ما يزيد عن ربع ميزانيتها لقطاع التعليم بما فيها ميزانية التجهيز لبناء الهياكل المدرسية، وبناء جامعتي وهران وقسنطينةوقتئذ (وزارة الثقافة والإعلام .1967 :2/ 95.(

وتتضح أهمية قطاع التعليم بالنسبة للحكومة من خلال تخصيص 20% من ميزانية الدولة أثناء إعداد قانون المالية لسنة 1966، وهي النسبة التي حافظ عليها القطاع خلال السنوات التي كان فيها أحمد طالب الإبراهيمي وزيرا للتربية والتعليم 1965-1977 (الإبراهيمي. أ.ط. 2008 : 30/2.(

إن تخصيص الدولة لهذه النسبة من ميزانية التعليم ليس الغرض منه فقط بناء الهياكل بقدر ما كان الدافع الرئيسي من وراء ذلك هو تطوير قطاع التعليم من أساسه خاصة إذا علمنا عمق الفجوة بين الطلب وقدرات الاستيعاب المتزايدة.

وإزاء ما توفر من إمكانات الهياكل، والميزانية المالية للمؤطرين (معلمين وأساتذة) ظلت الأرقام تزداد بشهادة مسؤول القطاع نفسه الذي وضح في مذكراته أن الموسم 1963/1962 قد استقبلت فيه المدرسة الجزائرية تقريبا 800 ألف تلميذ في المرحلة الابتدائية من أصل 880 ألف تلميذ في كل المراحل، وتواصلت إلى حدود 1.850.000 من مجموع 2.398.000 في حدود عام 1970، وانتقلت معها نسبة المتمدرس من 20% في الموسم الأول للإستقلال إلى 54% في الموسم الدراسي 1970/1969(1). (الإبراهيمي، أ.1972 .99: 172) ومع الارتفاع المتزايد لعدد التلاميذ والطلاب، ارتفعت الحاجة إلى المؤطرين ،وتكوين الأساتذة كميدان أساسي أولته الحكومة اهتماما خاصا لرفع مستوى نوعية المعلمين والأساتذة فأنشأت المعاهد التكنولوجية للتربية بقرار الفاتح من أوت 1970، والتي بلغ عددها 21 معهدا منها ثلاثة لتكوين أساتذة التعليم المتوسط و18 معهدا للتكوين البيداغوجي للتعليم الإبتدائي (وزارة الثقافة والإعلام . 1972: 204.(

1- في تأليف آخر للدكتور أحمد طالب الإبراهيمي يقدم إحصائيات بين سنتي 1968 و1969 قدر عدد التلاميذ الذين التحقوا بالمدرسة بأكثر من 1.8 مليون تلميذ، وهي في الأصل إحصائيات قدمها على أمواج الإذاعة والتلفزة الوطنية بمناسبة افتتاح السنة الدراسية سبتمبر 1968، وارتفع هذا العدد في الموسم الدراسي لسنة 1969 أين وصل عدد تلاميذ الإبتدائي وحده إلى 1.8 مليون تلميذ ، وما يقارب 200 ألف تلميذ في التعليم الثانوي وأكثر من 10 آلاف طالب بالجامعة. ينظر ، أحمد طالب الإبراهيمي ، من تصفية الإستعمار إلى الثورة الثقافية 1962- 1972 ، (ت) ، عيسى حنفي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص،ص: 99،172.

وتمكنت هذه المعاهد وبمساعدة الأساتذة والمعلمين إلى زيادة عدد المؤطرين الذين وصل عددهم في الإبتدائي في موسم 1971/1970 حوالي 48.100 منهم 27.400 من المعربين و20.700 من المفرنسين، وبلغ عدد الأساتذة في الثانوي في نفس الموسم حدود 10.750، ومع ارتفاع عدد التلاميذ إرتفع عدد أساتذة التعليم العالي من 365 موسم 1963/1962 إلى 1.224 في موسم 1972/1971 (1)(وزارة الثقافة والإعلام . 1972: 204.(

ومن أجل إنجاح عملية دمقرطة التعليم أولت الحكومة ،ووزارة التربية إهتماما بالتلاميذ والطلاب الأكثر حرمانا وفقرا، وضمن الأفق الواسع للجانب الإنساني والاجتماعي للتعليم . فتكفلت المدرسة بتوزيع منح وكتب مدرسية، والمطاعم المدرسية للقضاء على الفوارق الاجتماعية بين صفوف التلاميذ والطلاب.

وحددت وزارة التربية والتعليم صفة التعليم القومي المتفتح، بالاعتماد على تراث ثقافتنا واحترام اختيارات الدولة الجزائرية وفي الوقت نفسه تكونت المدرسة الجزائرية كمدرسة ديمقراطية بطابعها العلمي من أجل النهوض بالبلاد ، وإلحاقه بالركب الحضاري دون القفز على الموروث الثوري، ووضع استمرارية مبادئه كشعار لتحقيق الثورة الثقافية المنشودة (الإبراهيمي،أ .1972: 100، 101).ما فيما يتعلق بالتعليم العالي فإنه تدعم بتأسيس جامعتي وهران، وقسنطينة أين وصل عدد الطلبة الذين سجلوا في كليات الجامعات الثلاث بما في ذلك جامعة الجزائر ، والمعاهد الوطنية أكثر من 22 ألف طالب (وزارة الثقافة والإعلام . 1972: 201)،أما المسألة الثانية التي كانت المحور الثاني للثورة الثقافية هو التعريب الذي أصبحت بحق رهان نجاح برنامج السلطة الثورية والوزارة الوصية، بعدما تمكن النظام من إرساء دعائم مختلف المؤسسات هيكليا وتوفير الجو المناسب للمدرسة الجزائرية.

ويمكن في حدود الحيز العلمي المتوفر التذكير بأن عملية التعريب بدأت منذ موسم 1964/1963 بالتعريب الكلي للسنة الأولى من الطور الإبتدائي، وفي نفس الموسم الدراسي وصلت نسبة الأقسام المعربة 1.3% من المجموع الكلي للأقسام في مختلف الأطوار، وأصبحت تمثل 32.2% في الموسم الدراسي 1973/1972 (سلامة . ع . 1981 : 83)،وبإصدار المرسوم الحكومي 1968/04/26 تم تعميم إجبارية تعليم اللغة العربية في جميع المؤسسات الوطنية والخاصة، وكذا تعميم التعريب في السنتن الأوليتين من التعلم الابتدائي، وتعريب المواد التربية الأخلاقية والدينية، والتربية المدنية والتاريخ والأنشطة الثقافية، وكذا تعريب مادة الحساب ابتداء من موسم 1970/1969(الإبراهيمي ، أ . 2008: 46/2.(

زيادة على إنشاء خمسة معاهد معربة تعريبا كاملا، وإقامة الامتحانات باللغة العربية وفي جميع امتحانات التربية الوطنية، وأدى ذلك إلى تطوير عدد المعربين في التعليم الإبتدائي الذين بلغ عددهم في دورة 1970 ما عدده 25.283 مقابل 19.514 من الفرنسيين، وفي موسم 1971/1970 بلغت هذه الأرقام 27.400 من المعربين و20.700 للمفرنسين (وزارة الثقافة والإعلام . 1972 :198)،ودعمت هذه الأرقام بمرسوم 01/20/ 1971 الذي ساهم في تكريس التعريب الإجباري في مختلف الدوائر الوزارية ومصالح الدولة، وشمل هذا المرسوم كل الأشخاص المتمتعين بالجنسية الجزائرية العاملين في المؤسسات ذات الطابع العمومي، وأصبحت مسألة التعريب قضية وطنية (دودو ،ع .1972: 56.(

يمكن مقارنة هذه الأرقام مع التي ساقها أبو العيد دودو في مقال له "الحركة الثقافية في الجزائر المعاصرة" عند إشارته لعدد معلمي الإبتدائي الذين بلغوا خمسين ألف في التعليم الإبتدائي، ومائة وثلاثة عشرة ألفا في التعليم الثانوي. ينظر: (أبو العيد دودو،"الحركة الثقافية في الجزائر المعاصرة"، مجلة الثقافة، العددين 8،9 ماي/جويلية 1972، الجزائر، 1972، ص، 53. ويمكن التنبيه فقط في هذه المقارنة إلى عدد أساتذة الثانوي الذي فاق حدود الامكانات المتاحة وكان بإمكانه أن يغطي العجز أضعاف مضاعفة ، والتساؤل المطروح لماذا استعانت السلطة الجزائرية والوزارة الوصية بالأساتذة الأجانب كمعاونين رغم المستوى المحدود للغالبية منهم؟

.وفي هذا الإطار أتخذت وطبقت نفس الإجراءات في الجامعة ،وأدخل التعريب في مؤسسات التعليم العالي في إطار إصلاح المنظومة الجامعية، وفيها أيضا ألحقت اللغة الفرنسية باللغات الأجنبية وتعريب فروع الحقوق والآداب والتاريخ والفلسفة ، وغيرها من العلوم الإنسانية ،وقد بلغت نسبة التعريب 18% في السنة الجامعية 1973/1972 ضمن مجموع 26903 طالب تعرّب منهم 5033 (سلامة . ع .ر. 1981 : 86.(

إن الشعور بالمسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتق السلطة الثورية في هذا الميدان الحساس، والخوف من جره إلى مسالك الإنحراف والمحظور. إذ من العرف والعادات والتقاليد أن الجزائر أمازيغية عرّبها الإسلام . غير أن هذا المبدأ الأصيل الذي بنى عليه عبد الحميد بن باديس نهضته الإصلاحية تعرض إلى احتكار الدولة حتى للخصوصيات المحلية. فالتحليل قائم على مغالطة أين يمكن للسلطة فعل كل شيء خارج حدود إرادة المجتمع في بعض الحالات. فالسلطة الثورية كما يرى غازي حيدوسي قادت مجالات السياسة والثقافة والتربية بنوع من الإكراه دون الاهتمام بمشاعر واحتياجات السكان، ولا بضرورة التواصل بين مختلف التيارات الفكرية والاتجاهات مرغمة إياها على الاستبعاد، أو العمل السري. (حيدوسي ،غ .1997 : 47.(

وفي الواقع فإن الظروف الاستعمارية وطغيان التواجد الفرنسي بالجزائر لمدة تفوق قرن وربع قرن أنتج غداة الاستقلال نخبة مكونة في غالبيتها ، وفي جميع مستويات هياكل ومؤسسات الدولة والحزب مؤطرة تأطيرا فرنسيا، ولا ننسى في هذا السياق أن أول رئيس للدولة الجزائرية بعد الإستقلال كان يلقي خطاباته باللغة الفرنسية أمام جماهير تفوق نسبة الأمية فيهم 90% ، ولا يفقهون في ذلك لغة فولتير ، ولا لغة الضاد معا.

ولعل من المفيد أن نعرج على رد وزير التربية أحمد طالب الإبراهيمي حينذاك على خاصية الازدواجية اللغة التي كثر عنها الحديث في ذلك الوقت كمسألة أخذت الحيز الكافي في استجوابات الصحفيين الفرنسيين الذين عبروا عن قلقهم عن مستقبل اللغة الفرنسية في الجزائر من جهة، وبين انتقادات من يرى أن سياسة التعريب تسير بخطى بطيئة لا يمكن لها أن تساير حركية وفعالية اللغة الفرنسية.

إن مثل هذه الصراعات والتناقضات والظروف يجيب طالب الإبراهيمي في ديباجة تقريره الذي أعدّه للاجتماع الوزاري بتاريخ 1966/08/04 حول "حركة التعريب نتائج وآفاق" أنه: "إذا كان المقصود بالازدواجية العقائدية التي تتخذ من اللغة العربية أداة تعامل بين الجماهير الشعبية، وتجعل من الفرنسية لغة المدرسة والنخبة المثقفة فلا يمكن...، أما إذا كانت هذه الازدواجية لا تقوم على أساس عقائدي، وكان من الظواهر التي تفرضها الظروف الطارئة فإنها تصبح محمودة، لأنها تتيح الاحتكاك بغيرنا، والاستفادة من الفكر العالمي" (لإبراهيمي، أ . 1972 : 126.(

إن هذا التصريح من المسؤول الأول على وزارة التربية والتعليم وقتئذ – لا يمنعنا من القول– من أنه وبعد استتباب مؤسسات النظام وتغطية العجز المسجل في القطاع التربوي بعدما أدخلت جل الدوائر الوزارية في فلك التعريب، وخاضت الدولة جهودا جبارة لإنجاحه من خلال تخصيص ميزانيات التجهيز والتسيير لإنجاح الثورة الثقافية التي كان يعتقد أن التعليم والتعريب أساس هذا الطموح المشروع من وجهة استرجاع مكانة اللغة العربية والهوية الجزائرية.

غير أن الصدمة التاريخية لدعاة التعريب اصطدم بالبنية الإدارية الهيكلية بالإطارات المسؤولة داخل مؤسسات الدولة . فرغم أن مكانة اللغة العربية لا جدال في شعبيتها وشرعية مطلبها، وتلاقت خصوصياتها مع إرادة السلطة الثورية. غير أن الملاحظ أن الإطارات المسؤولة على التنفيذ كلها مفرنسة ، أو شبه مفرنسة كإطارات الوظيف العمومي، والبلديات والدوائر والإدارة، والإعلام والتي كانت عاملا مهما في سيرورة اللغة الفرنسية مما خلق نوعا من الزيف الثقافي بين اللغتين، وجعل اللغة العربية رغم مراسيم وأوامر مجلس الوزراء، وشعارات التعريب غريبة في عقر دارها ، وبين أهلها (سلامة ، ع.ر. 1981: 06.(

إن تطور هذه النزعة بالنسبة للغة العربية ساهم فيها تكوين إطارات عليا في التخصصات التقنية أعطى اللغة الفرنسية لغة العلم والعصرنة والعالمية، وجعل لغة التعريب لغة العبادة والدين والشخصية الأخرى، وغذي هذا الأمر بدوره الصراع بين التيار الإداري التحديثي والتيار العربي– الإسلامي. وأنتجت في الأخير لهجة هجينة كجنين انتظره دعاة التعريب طويلا ، ومنتشرا وبشكل عرضي خاصة في المدن وضواحيها كلكنة غير سليمة جمعت بين الفرنسية والعربية . يطلق عليها "الفرنكوآراب"، أو"آربوفون" فلا هم يتقنون العربية ،ولا هم متمرسون على الفرنسية. ومما يؤكد هذا السياق بأن غالبية وزراء حكومة الرئيس هواري بومدين كانت تعتمد اللغة الفرنسية في عملها حتى في حضوره، وكان هو في الغالب يتدخل باللغة العربية بحكم تكوينه بالمشرق. فرغم تمكنه من الفرنسية فإنه كان يلقي خطاباته باللغة العربية الفصحى بسيطة ومفهومة وواضحة، ولإنجاح مشروع التعريب إعتمد على نجل الشيخ العلامة الإبراهيمي أحمد طالب الإبراهيمي الذي كان نتاج ثقافة مزدوجة ، وما لبث هذا الأخير أن طبق هذه الازدواجية اللغوية في السنة الثالثة من الطور الابتدائي.

وقد أدت هذه الازدواجية، وفي غضون أربع سنوات إلى ترجيح كفة لغة مستعمر الأمس على حساب لغة التعريب، وأصبح العنوان البارز في ذلك التفوق ما صرح به مسوؤل القطاع التربية والتعليم حينئذ أحمد طالب الإبراهيمي عند مقابلته لوزير الخارجية الفرنسي موريس شومان عندما دخل عليه في مكتبه في أكتوبر 1969، وصاح فيه قائلا: "سيادة الوزير: ما الذي يعنيه التعريب؟" فأجابه المسؤول على وزارة التربية والتعليم بقوله: "إن فرنسا عندما غادرت الجزائر تركت ورائها 300 ألف طفل جزائري يتعلمون اللغة الفرنسية، واليوم يبلغ عددهم 2 مليون طفل."(الإبراهيمي ، أ .1972: 50.(

إن الإشكالية المطروحة إلى هذا الحدّ ليس الصراع بين التيار النخبوي العربي الإسلامي والتيار الفرنكفوني في تسيير السياسة الثقافية والتربوية في الجزائر التي فيها عهد الرئيس بومدين حقيبة التربية للشخصيات ذات التكوين المزدوج كأحمد طالب الإبراهيمي ومولود بلقاسم نايت بلقاسم، وحتى فترة الرئيس أحمد بن بلة يلاحظ فيها تقلد الوزيرين السابقين عبد الرحمن بن حميدة، وشريف بلقاسم وزارة التربية، وهما مزدوجي اللغة. ولم يكن الأمر مستغربا عندما يلاحظ استمرارية تفوق اللغة الفرنسية على العربية في عقر

دارها ما دام أن السياق التاريخي رجح الأولى على الثانية. وإنما الإشكالية التي ألقت بظلالها السلبية ترجع إلى مستوى جحافل المكونين والمؤطرين غير الجزائريين الذين كان تكوينهم تعوزهم الخبرة والكفاءة.

فهل القبول بفكرة أن عملية الإسراع في التعريب، وفي جميع المؤسسات الحاكمة في ظل حكومة الرئيس هواراي بومدين ،ووزارة التربية التي أسندت لها مهمة التعريب من جانب ، يقابله نخبة جزائرية ذات التكوين الفرنسي ومشبعة به كإطارات متحكمة في جل مؤسسات الدولة صعب بالفعل في تحقيق معجزة التعريب داخل مجتمع خرج لتوه من صدمة الإستعمار الفرنسي، وغير مستوعب لكم الإصلاحات الجذرية التي أدخلته فيه السلطة الثورية من زراعية ، وصناعية وثقافية .

يضاف إلى التكوين الذي تعوزه الكفاءة العلمية اللهم الاستثناء الذي يشكله بعض الكفاءات العلمية لإطارات الفلسطينية والتونسية والعراقية ، والتي كانت تخضع لشروط توظيف صارمة ، وما هذه إلّا صورة معبرة عن الواقع التربوي الذي تقاذفته أمواج التسيس وغرقت فيه الثورة الثقافية في أوحال الرمال منذ إعلانها، ووهنت معركة إنجاحها وتجميدها مع رحيل رائدها هواري بومدين. (حسان . 1996: 134.)

إن الطرح الذي يذهب إليه صاحب الكتاب الجزائر قصة / غرق يجد سنده عند الدكتور محمد العربي زبيري الذي يرى أن أبواب التعليم العربي فتحت لكل من هب ودب، كل بحسب معرفته وبرنامجه الذي يحلو له تطبيقه فلا منهج ، ولا تخطيط ولا برنامج مما ترسخت لدى المواطن الجزائري فكرة تجاوز اللغة العربية، والأخذ بأسباب التقدم والرقي، ولا يكون ذلك إلا باللغة الفرنسية التي انتشرت في المدن والأرياف والصحاري، وفي أماكن عجز فيها الاستعمار الفرنسي إبان فترة الاحتلال عن إيصالها إلى تلك المناطق النائية. أين استطاعت أن تصل بإمكانيات وإطارات جزائرية، والأطم من ذلك أن مفهوم ازدواجية التعلم الذي حاولت السلطة الثورية غرسه في ضمائر الجماهير أدت إلى ظهور تناقضات كان لها أسوأ أثر على معركة البناء والتشييد (الزبيري، م، ع. 1986: 31،32.)

ويذهب عبد الرحمن سلامة إلى حدّ القول :" إن الصعوبات التي تلاحق الطفل في تعلم اللغتين يؤدي إلى عدم نجاحه في تعميق إحساسه بالصعاب والحواجز التي تقف أمامه نظرا لطريقة التعجيل بالازدواجية اللغوية الذي يرى في مظهرها الرحمة، وباطنها العذاب " وبهذا يطرح بعدا آخر للتفتح على العالم إذا ما أراد من هذه الازدواجية الانفتاح على الخارج، ومكمن القصد بالنسبة إليه هو التمكن من التعدد اللغوي للشخصية التعلمية للجزائري كالأخذ من مناهل اللغات العالمية كالإنجليزية والإسبانية والروسية، والاهتمام بها إلى ما بعد الطور الإبتدائي (سلامة ،ع.ر .1981: 45.)

فهدف الازدواجية هو مشاطرة اللغة العربية في عقر دارها، والمسألة في النهاية هي مسألة اختيار ثوري وكل ميل ثوري لا يقبل أنصاف الحلول، ومن هنا ظهر التيار المفرنس المتنفذ في الإدارة والاقتصاد ،وفرض منطقه بتغليب اللغة الفرنسية على اللغة العربية وضاعت بذلك الجهود الكبيرة للتعريب التي أصبحت مجرد نظرية فارغة من المحتوى وبعيدة عن مراكز التطبيق رغم إقرار رئيس مجلس الثورة بأن حركة التعريب كرائد للمسيرة الثورية (سلامة ،ع.ر:46،54.)

وبالنظر إلى القراءات المتوفرة أدى تعجيل حركة التعريب إلى إضعاف المنظومة التربوية ،وتزامن ذلك وظهور التناقضات الاجتماعية، واختلالات هيكلية إداريا واقتصاديا. فأدت عملية أحادية وجهة النظر الرسمية إلى انحلال المنظومتين التربوية والتكوينية، فتعددت الأسباب التي أدت إلى ذلك الانحلال، فالتأهيل التربوي للمعلم والمدرس زيادة إلى ظاهرة الرواتب الزهيدة أدت إلى ظهور آفات اجتماعية تجلت بداية مظاهرها في هجرة الأدمغة كتحصيل لما آلت إليه المنظومة التربوية داخليا (نحو قطاعات أخرى) وخارجيا (خارج حدود الجزائر خاصة أوروبا والو.م.أ) هذا عن جانب.

ومن جانب آخر فإن احتكار التيار العربي الإسلامي للخطاب الديني، رغم إرادته في الاستفادة من ثقافة الحداثة التي كان يتحدث وينادي بها التيار الفرنكفوني في مجالات العلوم الإنسانية والسياسية والقانونية. مع بقاء جل القطاعات التقنية والعلمية مجالا لسيادة اللغة الفرنسية أدى إلى الانفلاق والشرخ بين تيارين. فالأول يرى في حركة التعريب أولوية للخروج من مأزق الميراث الاستعماري غير المرغوب فيه، بينما يرى آخرون أن استمرارية ازدواجية اللغة تخضع لمتطلبات الزمن، ولمرحلة طويلة لها حتى يستفاد من لغة العلوم والتفتح على العالم الغربي لتحديث الأصالة وتأصيل الحداثة (بلحسن ،ع . 1990: 66.(

الخاتمة :

إن عملية التسيير الذاتي التي بدأت مع قرارات ومراسيم مارس 1963، ولحقتها تأميمات المقاهي والفنادق والمتاجر الصغيرة، وإعلان عن تدابير متضاربة بانتزاع الأملاك، وتأميم بعض الممتلكات كلها مكانيزماتلم يكن مفعول وقعها جليا على النهج الاشتراكي الذي حاولت السلطة الثورية تطبيقه بين 1962- 1965.

تجسدت آليات تطبيق الثورة الزراعية ونتائجها بصورة سريعة، كما جرى لآليات التسيير الذاتي فالهدف هو تحقيق الرفاه الاقتصادي والتثبيت السكاني بالمناطق الريفية غير أنه لا الهدف الأول تحقق ، ولا الثاني كان له نصيبه في الواقع . بل وتفاقمت حركة النزوح من الريف إلى المدينة أدى إلى ظهور تراكمات وتحديات جديدة للسلطة الثورية القائمة.

ومن جهة تم تقليص المساحات الزراعية التي أخذت من العائلات المالكة حتى يضاعف عدد المستفيدين وتحقيق شعار "الأرض لمن يخدمها". غير أن تجاوزات الإدارة البيروقراطية وضعت حدا لسيرورة الحفاظ على القدرات الاستثمارية والتقدم التقني المزعوم، وكان السبب في ذلك التعاونيات الفلاحية المشكلة المدعومة بقرارات السلطة المركزية متجاهلة في ذلك عدم التفريق بين الواقع والطموح في إحداث التنمية المراد تحقيقها، والعدالة الاجتماعية التي تصبو إليها السلطة الثورية.

والخلاصة أن الصناعة الجزائرية قامت على مبدأين أولاهما تأهيل الصناعات التحويلية "الصناعات المصنعة"، والعمل على تعدد التنويع وفي فرص الاستثمار فيها، والثاني محاولة الاستفادة من الاستثمارات الصناعية التي يوفرها الاقتصاد الجزائري في ثنايا السوق الاستهلاكية.

ويضاف إلى ذلك الاستخفاف بالحقائق المرعبة أين أقيمت الصناعات المركبة عوض الصناعات المتكاملة وبتبعية غير مشروطة للخارج في خامات قطع الغيار والكفاءات أدى في الأخير إلى فشل السياسة الاقتصادية الوطنية برمتها، ودون اندماج في السوق

العالمية، وإبعاد الصناعة الجزائرية عن الأخذ بأسباب التكنولوجيا المتوفرة أوقف التصنيع برحيل الرئيس وصاحب الثورات (الصناعية، الزراعية، الثقافية) بل وإلى تبعية لا حدود لمثيلاتها حتى في بلدان العالم الثالث في هذا المجال.

كما يمكن القول أخيرا إن عملية التأميم ورفض الشريك الأجنبي بالطريقة التي مرت معنا في التأميمات أدى إلى حرمان اليد العاملة لجزائرية من خبرة الكفاءات الأجنبية، واستغلال ما تزخر عليه من تكنولوجيا في ميادين التركيب والتسيير والتكوين له دلالته في تسرع السلطة الثورية في بعض المواقف، وهو ما تجلى في عدم استمرارية الصناعة الجزائرية.

قائمة البيبلوغرافيا :

1- خطابات رسمية:

- وزارة الثقافة والإعلام .(1970) . خطب الرئيس بومدين . (ج2) .(ج3). (ج4) .قسنطينة. دار البعث .

2- نصوص وثائقية :

-ج.ت.و .(1971) . نصوص الثورة الزراعية، (الجزائر). المؤسسة الجزائرية للطباعة.

-وزارة الثقافة والإعلام .(1972) الثورة الجزائرية وقائع وأبعاد. الذكرى العاشرة للاستقلال.(إسبانيا) طبع في مدريد.

-ج.ت.و.(1971) نصوص الثورة الزراعية.(الجزائر) المؤسسة الجزائرية للطباعة.

-وزارة الفلاحة والإصلاح الزراعي .(1976) النصوص المتعلقة بتطبيق المرحلة الثالثة من الثورة الزراعية. الجزائر.

-ج.ت.و . (1975). التسيير الاشتراكي للمؤسسات الميثاق والنصوص التطبيقية.(الجزائر). اللجنة الوطنية للتسيير الاشتراكي للمؤسسات.

3-المصادر :

-الإبراهيمي ،أحمد طالب .(1972، ماي- جويلية). التجربة الجزائرية في الثورة الثقافية. (ت) حنيفي بن عيسى، مجلة الثقافة، (8-9) . الجزائر.

-الإبراهيمي ، أحمد طالب .(2008). مذكرات جزائري هاجس البناء "1965- 1978".(ج2). الجزائر. دار القصبة للنشر.

-الإبراهيمي ،أحمد طالب.(1972). من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية 1962- 1972. (ت) حنفي بن عيسى الجزائر .الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

4- المراجع باللغة العربية :

-حسن بهلول، محمد بلقاسم . (1976). القطاع التقليدي والتناقضات الهيكلية في الزراعة بالجزائر.(ط1).(الجزائر). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

-حسن بهلول، محمد بلقاسم . (1999). سياسة تخطيط التنمية وإعادة تنظيم مسارها في الجزائر.(ج1).(الجزائر). ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون.

-حيدوسي ، غازي .(1997). الجزائر التحرير الناقص، (ت) خليل أحمد خليل.(ط1) .(بيروت).دار الطليعة للطباعة والنشر.

-بوحوش، عمار .(1977). تطور النظريات والأنظمة السياسية . الجزائر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

-مهساس، أحمد .(2007). الجزائر ثورة ديمقراطية. الجزائر. دار المعرفة للطبع والنشر .

-دبلة ،عبد العالي .(2004). الدولة الجزائرية الحديثة. القاهرة. دار الفجر للتوزيع.

-حسان .(1996). الجزائر قصة/غرق، (ت) مهني الجزائري. فرنسا. دار النشر مارينور .

-الزبيري، محمد العربي .(1986). الغزو الثقافي في الجزائر 1962- 1982.(الجزائر). المؤسسة الوطنية للطباعة.

5-المراجع باللغة الأجنبية:

- marc , Raffinont et Pierre, Jacquemot . la capitalisme d'état Algerian.(1977). Paris.éditions Maspero.

- Belaïd, abdesselam .(1990). le Hasard et l'histoire . (tom 1). Alger. Editions. ENAG .

. - ministère de L'industrie et de l'énergie .(1965). Accord entre la république algérienne et la république française . Alger. 29/07/1965.

6- المقالات :

- بن الشيخ ، عصام . (2012). قرار تأميم النفط الجزائري 1971/02/24 دراسة في السياق والمضامين والدلالات. مجلة دفاتر السياسة والقانون. (06.جانفي) . جامعة قاصدي مرباح، ورقلة. الجزائر.

-بلحسن ،عمار . (1990). المشروعية والتوترات الثقافية حول الدولة والثقافة في الجزائر. مجلة المستقبل. (141). مركز دراسات الوحدة العربية.. بيروت.

-لونورماند ،بيار. 1997. التسيير الذاتي والثورة الزراعية في الجزائر. المجتمعات الفلاحية في العالم الثالث.(ط1). (ت) أحمد بعلبكي. لبنان. معهد الإنماء العربي.

تاريخ الاستلام: 2016/11/12- تاريخ التحكيم:2017/03/06 -تاريخ النشر2017/06/02

الآثار و المعالم من خلال المصادر الإسلامية (تلمسان دراسة نموذجية)

د. مطروح ام الخير

(جامعة مرسلي عبد الله تيبازة – الجزائر)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص

مما لا شك فيه ، أن دراسة الاثار الاسلامية من خلال المصادر تعتبر مهمة صعبة ، لان هذا النوع من الدراسات يحتاج الى المعرفة الواسعة ، وتفحص المصادر العربية القديمة ، التي نجد فيها المادة التاريخية و الأثرية متناثرة هنا و هناك ، فهي إذن تحتاج الى غربلة و إحصاء جديدين ، بهدف تصنيف المعلومات التاريخية و الأثرية التي كثيرا ما نجدها في المؤلفات الحديثة بنفس الصيغة ، دون تحليل و نقد أو محاولة وضعها في منظور جديد ، خصوصا أن مثل هذه الدراسات تتطلب فهما دقيقا تجاه هذه الحركة .

ولما كانت المصادر على هذه الدرجة من الأهمية حاولنا القيام بهذا البحث المتواضع للتعريف بمصادر التاريخ الإسلامي وأنواعها وكيفية الاعتماد عليها. كما تعد المادة الأثرية هي أهم مصادر تاريخ الفترة الاسلامية ، فهي خير شاهدا على هذه الحضارات التي تعاقبت عبر الزمن ، و تنقسم لنوعين (آثار ثابتة ، و اثار منقولة) ، و الآثار الثابتة تمثلت في المدن و الدور و القصور و المساجد و الاضرحة و الزوايا و المقابر و غيرها من الآثار التي لا يمكن نقلها ، أما المنقولة مثل المسكوكات و المخطوطات و الحلي و الاواني الفخارية و المعدنية و اللوحات التذكارية و شواهد القبور، التي تمدنا بمعلومات تاريخية عن حياة ملك ما ، او حدث هام ، فمثلا اللوحات التذكارية تمدنا بمعلومات عن شخصية هامة او ملك ما أو حدث هام ، و لذلك فالمادة الأثرية هي أهم مصدر لدراسة تاريخ الشعوب و حضارتها..

الكلمات الدالة : المصادر الاسلامية ، الآثار ، المعالم ، الحماية ، الصيانة

Résumé

Comme les sources de ce degré d'importance que nous avons essayé de faire cette humble recherche de la définition des sources de l'histoire islamique, les types et la façon de compter. Article archéologique est également considéré comme les sources les plus importantes de l'histoire de la période islamique, il est le meilleur témoin de ces civilisations qui sont venus à travers le temps, et est divisé en deux types (effets fixes, et les effets de l'air), et fixé des effets représentés dans les villes et le rôle, des palais, des mosquées, des écoles et des sanctuaires et les angles et les cimetières et autres effets qui ne peuvent pas être transférés, soit transmis, tels que des pièces de monnaie et des manuscrits, des bijoux et de la poterie, du métal et des plaques et des pierres tombales commémoratives, qui nous fournissent des informations historiques sur la vie du roi, ou un événement important, par exemple, des plaques commémoratives nous fournissent des informations significative personnelle ou king ou un événement important, et ainsi de l'article archéologique est la source la plus importante pour l'étude de l'histoire des peuples et la civilisation..

Mots clés: sources islamiques, les effets, les caractéristiques, la protection, l'entretien.

مقدمة:

المصادر التاريخية كثيرة، و هي متنوعة لا يمكن حصر مادتها و اعتمادها جميعاً ،لأن القيام بمثل هذا العمل يستوجب دراسة مفصلة و متخصصة ، ليس هذا مجالها ، لذلك اقتصرنا في هذا البحث المتواضع على البعض منها ، و خاصة المصادر التي تتوفر على رصيد علمي له علاقة بموضوع (الآثار الاسلامية من خلال المصادر).

لقد وردت بين الباحثين في التاريخ مقولة مشهورة وهي"**لا تاريخ بلا مصادر** " اذ لا يمكن للباحث ان يكتب دون الرجوع إلى المصادر ليستقي منها المادة الأولية التي تزوده بالنصوص الكفيلة بكتابة متن البحث أو الرجوع اليها اثناء عملية البحث الاثري لتحديد عمر الموقع أو المبنى الاثري ، فعملية كتابة التاريخ تقوم على المصادر ، ولذلك اشترط على الباحث ان يتأكد من توافر مصادر كافية قبل الشروع في عملية البحث التاريخي أو الاثري . والواقع ان عمل المؤرخ و الأثري يختلف عما هو عليه عند الأديب ، فالأخير يمكن ان يكتب القصص والروايات التاريخية اعتماداً على ذاكرته وخياله ، أما المؤرخ فإنه مقيد بضوابط وقواعد التوثيق ، وذلك بإسناد كل ما يقتبسه من معلومات أولية عن الموضوع إلى مصادرها ، و الاثري يعتمد على معطيات المخلفات الاثرية التي وجدت اثناء البحث الميداني ، ومهما نال الباحث من شهادة أكاديمية في حقل الدراسات التاريخية و الاثرية ومهما اتسعت شهرته ، فان ذلك لا يمكنه من اخذ المعلومات دون توثيقها في الهامش ، لان ذلك منافٍ لقواعد المنهج العلمي في دراسة التاريخ وكتابته ، و في كتابة التقارير الميدانية الخاصة بالآثار ، والمؤلفات التاريخية الحديثة التي لا تلتزم بالتوثيق لا يعتد بها.(فاضل جابر ضاحي ، 2005م، ص66-112.) .

و لما كانت المصادر على هذه الدرجة من الأهمية حاولنا القيام بهذا البحث المتواضع للتعريف بمصادر التاريخ الإسلامي وأنواعها وكيفية الاعتماد عليها من قبل الباحثين. كما تعد المادة الأثرية هي أهم مصادر تاريخ الفترة الاسلامية ، فهي خير شاهدا على هذه الحضارات التي تعاقبت عبر الزمن ، و تنقسم لنوعين (آثار ثابتة ، و اثار منقولة) ، و الاثار الثابتة تمثلت في المدن و الدور و القصور و المساجد و الاضرحة و الزوايا و المقابر و غيرها من الآثار التي لا يمكن نقلها ، أما المنقولة مثل المسكوكات و المخطوطات و الحلي و الاواني الفخارية و المعدنية و اللوحات التذكارية و شواهد القبور ، التي تمدنا بمعلومات تاريخية عن حياة ملك ما ، او حدث هام ، فمثلا اللوحات التذكارية تمدنا بمعلومات عن شخصية هامة او ملك ما أو حدث هام ، و لذلك فالمادة الأثرية هي أهم مصدر لدراسة تاريخ الشعوب و حضارتها.

وتطرقنا في هذا الموضوع الى الحديث عن بعض المؤرخين المسلمين وأهم إسهاماتهم في مجال الآثار و العمارة الاسلامية .

أولا: تعريف المصدر

هو كل كتاب تناول موضوعاً وعالجه معالجة شاملة و عميقة.أو هو كل كتاب يبحث في علم من العلوم على وجه الشمول والتعمق بحيث يصبح أصلاً لا يمكن لأي باحث الاستغناء عنه.

تطلق كلمة المصدر عادةً : " على كل ماله علاقة مباشرة بالموضوع من حيث اتصاله به اتصالاً جوهرياً (د.محمد ناصر ، 2005 م ، ص 29 .).

أو يقصد به:" هو كل كتاب يبحث في علم من العلوم على وجه الشمول والتعمق بحيث يصبح أصلاً لا يمكن لباحث في ذلك العلم الاستغناء عنه.

وعلى أساس ذلك، تكون المصادر تطلق على الآثار التي تضم نصوصاً أدبية أو نثرًا لكاتب، وتطلق كذلك على دواوين الشعراء وآثارهم لمن يدرس هؤلاء الشعراء، وتطلق على آثار المؤلف.

و من هنا، فإن أغلب الباحثين يرون أن المصادر نفسها تنوع تنوعاً واسعاً، منها ما هو أصيل ومنها ما هو فرعي ثانوي، ولعلهم يقصدون بالأصيل المصادر الرئيسة، والثانوي الفرعي المراجع.

وبعض العلماء يفرق بين المصدر والمرجع، بأن المصدر هو أقدم ما يحوي مادة عن موضوع ما ، وهذا النوع هو ذو القيمة في الرسائل العلمية.

اما بالنسبة للمؤرخين (**المصدر**) هو ما يمدهم بالمعلومات الاولية والمباشرة مثل المخلفات الاثرية من تحف واوان و ادوات ونقوش وزخارف ونقود ووثائق ومخطوطات وغيرها.اما المصادر فهي مصطلح اوسع جدا في علم المكتبات والمعلومات يشمل جميع اوعية المعلومات بغض النظر عن شكلها او موضوعها.

فالمصدر والمرجع بمعنى واحد ، فالمصادر هو كل ما يرجع إليه في البحث ، والمراجع هي كذلك ، ونستخلص من ذلك إلى أن المراجع والمصادر سواء أكان مترادفين أم أن كليهما يؤدي معنى مستقلاً ، فإن الباحث لا يستغني عنها ؛ لأنها عدته في أي بحث يقوم به .

و يذكر الدكتور شوقي ضيف عن أهمية قدم المصدر الذي يرجع إليه الباحث فيرى أن " قدم المصدر جزء لا يتجزأ من أصالته " (شوقي ضنيف ،(د.ت) ، ص 213 .) ، لكنه لا ينطلق من الناحية الزمنية بل يرى أن المدار على الموضوع نفسه وصلة المصدر الزمنية به.(المرجع نفسه .)

كما يعتبر بمثابة الأساس للباحث و للدارس ويمثل العمود الفقري الذي يبني عليه دراسته التي تتمثل في نصوص أولى.

و بذلك يكون المصدر أخص من المرجع لأنه يقتصر في الدلالة على ما يرتبط بالأشياء الأساسية أو الأولية بالنسبة لموضوع المقياس.

فالباحث في الاثار والتاريخ الاسلامي بصفة خاصة يجد نفسه معتمدا بدرجة كبيرة على نوعين من هذه المصادر ، مصادر كتابية ، بما فيها المصادر الادبية ، و مصادر مادية تتمثل في الشواهد و المخلفات الأثرية ، و جميعها تعد أدوات البحث في التاريخ و الاثار .

إذن فالمصدر هو الكتاب أو الأثر الذي صاحَبَ الحدث، وكتب عنه مصاحبا ومعاصرا لزمن وقوعه :هو ما يمد المؤرخين بالمعلومات الأولية و المباشرة و ينقسم إلى عدة أقسام هي:

1 . مصادر مادية:

1.1. **الآثار** : يقصد بها كل ما أنشأه الإنسان أو انتجه مما له علاقة بالتراث من الآثار العقارية التي تتمثل في بقايا المدن و التلال و القلاع و الحصون و الاسوار و المساجد و المدارس و الابنية الدينية و المقابر و الكهوف سواء كانت في باطن الارض أو على سطحها أو تحت المياه ، و كذلك المعالم ذات الطابع المعماري المميز و المواقع و الشواهد التاريخية التي تتصل بحضارة الانسان و كفاحه و تجاربه و ترتبط بالتاريخ السياسي و الثقافي و الاجتماعي تكون شاهدًا على التاريخ .فبالنسبة للتاريخ القديم يعتمد اعتمادا يكاد يكون كليا على الآثار. **مثل** الأهرامات في مصر ، حدائق بابل المعلقة في العراق ، قانون حمورابي .

1.1.1.الآثار المنقولة : هي المنقولات الاثرية التي صنعت لتكون بطبيعتها منفصلة عن الآثار العقارية و يمكن تحويلها من مكانها دون تلف مثل المسكوكات التي تعد مصدراً مهما من مصادر التاريخ و آثار الحضارات ، و على حد قول عالم النميات الأمريكي "جورج مايلز(George C.Miles)في مقدمة كتابه عن تاريخ الري النقدي " لا يوجد حقل في التاريخ خدمته مسكوكاته بالقدر الذي خدمت به المسكوكات الإسلامية التاريخ الإسلامي.ثم التماثيل و الفسيفساء و قطع الفخار و الزجاج و النقوش و كذلك بعض الصناعات التقليدية .

و تعتبر الاثار المنقولة آثار عقارية إذا كانت مخصصة لخدمة أثر عقاري كأجزاء منه أو مكملة له أو زخارف فيه.

2.1. **مصادر أولية. مثل الكتب و الوثائق التي** هي أرقى أنواع المصادر ، و تتمثل في الانواع التالية :

***وثائق من الطراز الأول:** هي تلك الكتابة أو المستند أو الخطاب أو المكتوب أو المعاملات الرسمية التي لم يرد بها كاتبها أن تكون شاهدا على التاريخ. مثال:

- عقود البيع و الشراء و الإيجار.
- عقود الزواج و الوفيات.
- كشوف الحسابات.
- التقارير السرية.

3.1. **مصادر متجددة**: مثل الدوريات (. **حنان سلطان و غانم ، 1984م،. ،ص 141 .**)

1. مصادر و مراجع التاريخ العام .

- الأخبار الطوال: الدينوري.
- تاريخ الطبري: محمد بن جرير.
- مروج الذهب: المسعودي.
- المنتظم في أخبار الأمم والملوك: الجوزي.
- البداية والنهاية: ابن كثير.
- الكامل في التاريخ: ابن الأثير.
- تاريخ ابن خلدون.

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي.

2. مصادر و مراجع التاريخ العام

- المقتبس : ابن حيان.
- المعجب في أخبار المغرب : المراكشي عبد الواحد.
- نفح الطيب: المقري.
- الإحاطة في أخبار غرناطة: ابن الخطيب.

3. مصادر جغرافية ومراجع و البلدان والخطط..

- معجم البلدان: ياقوت الحموي.
- الروض المعطار: الحميري.
- مسالك الأبصار وممالك الأمصار: ابن فضل الله العمري.
- مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: صفي الدين البغدادي.
- المسالك والممالك: ابن خرداذبة.
- الأعلاق النفيسة: ابن رسته.
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: الإدريسي.
- المسالك والممالك: الإصطخري.
- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب: ابن الشحنة.
- نهر الذهب في تاريخ حلب: الغزي كامل.
- صورة الأرض: ابن حوقل.
- رحلة ابن بطوطة.
- رحلة ابن جبير.
- رسالة ابن فضلان: أحمد بن بحر.

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المقريزي.

- خطط الشام : محمد كرد علي.

ثانيا: تعريف المرجع :

1. لغة: جاء في المعجم الوسيط'' المراجع ''جمع مرجع، والمرجع مصدر شاذ للفعل رجع ''والذي يعني :الرجوع، ومحل الرجوع، وما يرجع إليه في علم أو أدب من عالم، أو كتاب.

أما كلمة مصدر فهي متقاربة في معناها اللغوي لكلمة مرجع فالمصدر لغة (هو الموضع أو المكان الذي يرجع إليه لأعلي مقدم كل شئ وأوله).

2. اصطلاحا: هي: "أوعية المعلومات التي تملك من طبيعة التنظيم ومن المعلومات ما يجعلها غير صالحة لأن تقرأ من أولها لأخرها ، ككيان فكري مترابط ، ولكنها تصلح ليرجع إليها الباحث أو القارئ للبحث عن معلومة أو معلومات معينة".

و يمكن القول أنه هو الكتاب وما عليه من شروح وتذييلات يعد مرجع .أو كتاب يناقش قضية أو يكتب عن معلومة استقاها من المصدر وأضاف إليها نقدا أو تحليلا أو أعاد ترتيبها و تصنيفها ، وكل هذا اعتمادا على المصدر الذي وردت فيه المعلومة للمرة الأولى.

كما يعرف ايضاً على انه هو "كل ما كتب ونشر متأخراً عن زمن المصدر ، وكثيراً ما يكون المرجع قد أخذ عن المصدر الرئيسي "(، د . حنان سلطان و د. غانم العبيدي ، 1984م، ص 141 .)، وهو أخذ مادة أصلية من مصادر متعددة ، وأخرجها في ثوب آخر جديد،(د. عبد العزيز الربيعة ، ج 1، 2000م، ص93 .)

كما نجد فرقٌ آخر ، ذكره الدكتور عميره وهو أن المراجع هي التي ألفت لعامة القراء لتكون أقرب شيء يرجعون إليه للعلم بالشيء ، أو العلم بعدة أشياء ، فالمراجع وضعت لعامة القراء ، أما المصادر فهي للمؤلفين والخاصة(د. عبد الرحمن عميره، 1986م ، ص 99.) غير بعض الباحثين لا يرى فرقاً بين المصطلحين ، وذلك بالرجوع إلى التعريف اللغوي لها .

ثالثاً: الآثار والمعالم الاسلامية من خلال المصادر.

للآثار و المعالم الاسلامية قيمة كبيرة بين آثار العالم ، فهي تمتد من الشرق الى الغرب في آسيا و إفريقيا و أوربا.
و قد وضحت عناية المسلمين بالآثار و الكتابة عنها لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ **(سورة غافر الآية 82)**.
و في القرآن الكريم أشارات أخرى كثيرة إلى الآثار و الاعتبار ، كما حفظ لنا التاريخ الاسلامي اسماء كثيرة من المؤرخين الذين عنو بدراسة الاثار و المعالم و التحف ،نذكر على سبيل المثال المصادر الاسلامية التالية .

- السمهودي الذي كتب عن مسجد الرسول (صلى الله علية وسلم) بالمدينة المنورة .
- و الهمذاني الذي كتب عن جزيرة العرب ، و من اشهر المؤرخين الذين عن الآثار المقريزي ، كما اهتم الرحالة في العصر الوسطى بوصف الآثار الاسلامية التي كانوا يشاهدونها أثناء رحلاتهم ، و من اشهر هؤلاء الرحالة ناصر خسر و ابن جبير و ابن بطوطة و العبدري و الوزاني و القائمة طويلة .

إن الاثار والمعالم الاسلامية التي شكلت المادة العلمية و الإخبارية للموضوع ، لا يمكن الاستغناء عنها ،و من هذا المنطلق وجب علينا تعريف بالمصادر التاريخية و الآثرية اهمها ما يلي :

1. أهمية النقوش و الكتابات الأثرية.

تعتبر النقوش والكتابات الأثرية من أهم مصادر التاريخ بوجه عام والتاريخ الاسلامي بوجه خاص ، كما تعد الكتابات الاثرية بشقيها التذكاري و الشاهي ، من اهم المصادر بالنسبة للباحثين في علم الاثار والتاريخ و علم الاجتماع و الاقتصاد والثقافة ، و من مميزاتها انها تنقش على المباني بمختلف اشكالها ووظائفها ، كما تتصدر التحف الفنية المتنوعة كانت معدنية أو زجاجية و خزفية ورخامية و حتى على الاحجار و المخطوطات و غيرها (صالح بن قربة ، 1993م، عدد 02).

فالكتابات الأثرية بما تحويه من أسماء وألقاب ووظائف و صيغ و اشارات و تواريخ بصعب الطعن فيها بسهولة ، فيهي تفيد في دراسة المجتمع من جميع جوانبه السياسية والاجتماعية و الاقتصادية و الفنية والفكرية و تصحح ما اهمله المؤرخون سهواً أو

عمداً. و تزداد أهمية الكتابة كمصدر مادي معاصر في الدور التسجيلي الهام للأعمال الأثرية و التاريخية ، فقد تتضمن العبارات المكتوبة على الآثار أو المنفذة بطريقة شتى على المباني و التحف ، اسم الصانع ، ومكان الصناعة و تاريخيها ، و اسم من صنعت لأجله ، و القابه ووظائفه .، وبعض الأدعية والأوامر الإدارية ،و الألفاظ اللغوية و المصطلحات وغيرها من الامور التي قد لا نجد لها مثيلا في المصادر التاريخية و الأدبية خصوصا و ان هذه الأخيرة كثيرا ما تتعرض نصوصها للإضافة و الحذف و التزوير. و في هذا الصدد اعتمدنا على بعض النقوش التأسيسية في دراسة مسألة تأريخ المؤسسات و الغرض من نشأتها و الوظيفة المنوطة بها .

وتكمن أهمية الآثار في كونها تحوي نقوشاً كتابية أصلية معاصرة للأحداث التاريخية القديمة وهي غير قابلة للتحريف والتصحيف لذلك فهي تعتبر سجلاً تاريخياً حياً لتلك الحضارات ،فهذه النقوش كشفت لنا الكثير من الحقائق التاريخية الثابتة عن حياة تلك الشعوب وثقافاتها القديمة و تكشف لنا عن مدى ما توصل العرب إليه من درجة إتقان فني في العمارة و النحت.

وهناك كثير من الآثار المنقوشة في جزيرة العرب كتبت بأقلام مختلفة أشهرها الثمودي والآرامي والنبطي والمسند وأكثرها عبارة عن أدعية دينية وأسماء لأشخاص أو لبعض القواد والملوك وألقابهم وأعمالهم ودياناتهم فهذه الكتابات الأثرية بما تضمنته من أخبار تعتبر مادة أساسية لتاريخ العرب وتاريخ حضارتهم لا سيما ما يتعلق منها بالدراسات اللغوية.

2. اهمية المسكوكات :

تعد المسكوكات مصدرا مهما من مصادر التاريخ و الآثار و الحضارة الإسلامية ، و على حد قول عالم النميات الأمريكي جورج س مايلز (George .C.M. 1938, p 43.)، في مقدمة كتابه عن تاريخ الري النقدي " لا يوجد حقل في التاريخ خدمته مسكوكاته بالقدر الذي خدمت به المسكوكات الاسلامية التاريخ الإسلامي "

لقد لعبت المسكوكات الاسلامية دورا هاما في الحياة السياسية في العصر الاسلامي بصورة لم يسبق لها مثيل في أي عصر من العصور ، و ذلك لما تمتعت به من أهمية كبيرة في النظام السياسي للدولة الاسلامية منذ صدر الإسلام ، فقد كانت تمثل أهم شارات الملك و السلطان التي حرص على اتخاذها الخلفاء و الحكام بعد اعتلائهم للحكم مباشرة .

كما تعد مصدرا مهما لتوثيق التاريخ والإرث الحضاري الإسلامي ، وتعتبر مرآة صادقة لأهم الأحداث في التاريخ الإسلامي ، بالإضافة إلى انها سجل منظور لما كانت عليه أحوال البلاد الإسلامية من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

3. الآثار و المعالم :

إن استغلال المصادر المادية المتمثلة فيما بقي من مخلفات و آثار المدارس و الجوامع لأنها تعكس المستوى الذي بلغته الحضارة الإسلامية عمرانيا و فنياً و ثقافياً ، خصوصا و أن بعض المنشآت ما تزال قائمة ، تحتفظ بكتابات أثرية منقوشة تؤرخ لها و لوحات وقفية (وثائق التحبيس) التي لا يمكن الاستغناء عنها في موضوع حضاري مثل موضوع المدارس ، و في هذا الشأن يمكن الوقوف على بعض المعالم الأثرية التي لا تزال قائمة في حين نتأسف على ضياع بعضها و أن ما تبقى منها أصبح عرضة للإهمال و الضياع ، إما تهاونا من المصالح المعنية أو عدم إدراك قيمتها الحضارية ،كشواهد مادية على إسهامات المغرب العربي في الحضارة الإسلامية .

1.3 اهم الكتابات الأثرية في الفترة الإسلامية :.

1.1.3. الوقفيات (وثائق التحبيس).

تعتبر الكتابات الوقفية (الوقفية : مشتقة من وقف و يجمع على وقوف ، و الوقف لغة هو الحبس و المنع ، و الوقف مصدر أريد به اسم المفعول ، فيقال : هذا العقار وقف ، أي موقوف ، و من ثم جمع على أوقاف (زهدي يكن،1971م، ص 41)من المصادر الأثرية الأصلية ذات القيمة العلمية الهامة ، و التي لم تحظ بدراسة كافية من قبل الباحثين و المؤرخين و الأثريين و غيرهم ممن يشتغلون بالعلوم الانسانية ، على الرغم من أهميتها التاريخية ، وارتباطها بالكثير من الجوانب الدينية و الفكرية والاجتماعية و الاقتصادية ، و لحسن الحظ ، فإن قسماً معتبراً من هذه الوقفيات ، سواء كانت و قفيات منقوشة على صفائح الرخام التي تزين بعض المساجد و المدارس و الزوايا و الأضرحة ، او وثائق تحبيس مخطوطة (السعيد بو ركبة، 2002م، ص61.) ، ما تزال محتفظة بشكلها و محتواها ، كما هو الحال بالنسبة للخزائن الكثيرة المنتشرة في صحراء الجزائر ، حيث توجد فوقها نفائس المخطوطات عن الوقف و أهميته.

إن مفهوم الوقف اصطلاحا،هو ما عرّفه الإمام (ابن عرفة الفقيه التونسي المالكي المتوفى 803 هـ) بقوله :« هو إعطاء منفعة شيء مدة وجوده ، لازما بقاؤه في ملك معطيّة ، و لو تقديراً » .

أو بوضع مجموعة من الأملاك و العقارات حبساً ، لفائدة مؤسسة من المؤسسات داخل المجتمع ، كالمؤسسات الدينية و العلمية و الإستشفائية و الخيرية أو المنشآت الاجتماعية ، و هكذا ظهر نظام وثائق التحبيس ، و هو عبارة عن سجلات رسمية تدون فيها ممتلكات الأوقاف لحل المشاكل التي قد تعيق حسن التصرف في توزيع مداخيل الأوقاف . (ابو العباس احمد الونشريسي، ج7، 1981 م.

و تكمن أهمية الكتابات الوقفية في معرفة تشريفات وألقاب الحكام ،و وطبوغرافية المدينة بالإضافة للمرافق و المعالم التي تشتمل عليه المدينة ، من دروب و أحياء و حومات و تسليط الضوء على الجانب العمراني للمدينة والقرى او المداشر المجاورة لها، فضلا عن اسماء العملات المتداولة ، تتضمن الكتابات الوقفية على مجموعة من الصيغ المتنوعة ، مثل البسملة و التصلية و الحمدلة والتكبيرة ثم التكبيرة قصد التقرب من الله عز زجل ، و ذكر اسم المحبس مع ألقابه الرسمية و الفخرية ، متبوعة بذكر أسماء آبائه و أجداده مع ألقابهم.

وهكذا تبدو الوقفية نية بالمعلومات و البيانات الدقيقة التي يحتاج إليها الباحث في كتابة التاريخ ، فضلا عما سبق ذكره تتضمن الوقفية لائحة الأملاك المحبسة على البناية لضمان سيرها الحسن ، و أداء وظيفتها و اصلاحها في حالة تخريبها أو تلاشيها ، وهي تتألف من دكاكين و أريحة و أفران و حمامات و مساكن و أطرزة و فنادق.

اشتهر نظام الوقف ، بالمغرب الأوسط بشكل كبير خلال الفترة الزيانية ، بفضل الجهود التي بدلتها الدولة ، حيث حبس سلاطنتها كثيرا من العقارات و الأملاك و المرافق في وجوه عدة تمس الحياة الدينية و التعليمية بالمغرب الأوسط .

2.1.3. مصادر تاريخ مدارس تلمسان في العهد الزياني . (633-962هـ/ 1235-1554م).

اشتهرت مدينة تلمسان ، بكونها الحاضرة السياسية و الثقافية و العلمية ، التي احتضنت عدداً من المراكز الدينية و العلمية ، و استوطنها كثيرا من العلماء و الادباء ، و ازدهرت فيها الثقافة و الحرف و الصنائع و الفنون ، و بلغت درجة كبيرة من التطور الفكري والاقتصادي(الحسن الوزان ، ج1 ،، 1983م، ص 17.) لتحتل مكانة الصدارة منافسة بذلك أكبر المراكز الفكريةو العلمية بالمغرب الاسلامي مثل القيروان و فاس و قرطبة.

و في تلمسان ظهرت المدارس لأول مرة في مسيرتها التاريخية ، كمؤسسات تطور الحركة العلمية ، التي كانت تؤطرها الحلقات الدراسية بجامع تلمسان الأعظم ، و المساجد المحيطة به ، و تخرج منها عدد كبير من العلماء الأعلام و الفقهاء و الأدباء المبرزين ،

حتى غدت مساجدها و مدارسها معياراً يقاس به نمو الحركة العلمية ، و مؤشرا على مدى ازدهار الثقافة و العلوم و الفنون و الآداب.

و تعتبر المدرسة من القضايا التي أثارت اهتمام الباحثين و المشتغلين بالتاريخ الاسلامي عامة و المغرب الاسلامي على وجه الخصوص. (ابن قنفذ القسنطيني،1965م، ص 102-103)

و يبدو أن ظهور المدارس بالمغرب الإسلامي ، كان من احسن ما نقله الرحالة المغاربة الذين جابوا بلاد المشرق و تردّدوا على المعاهد العلمية و المدارس النظامية التي عمت شهرتها ، و الدليل على ذلك ما ذكر في رحلة ابن جبير الذي ذكر عن حاضرة العباسيين التي زارها في سنة (582 هـ/ 1186م)، مشيرا ألى عدد مدارسها والأوقاف التي أوقفت عليها قائلا :{ والمدارس بها نحو الثلاثين ، وهي كلها بالشرقية ، وما منها مدرسة لا هي يقصر القصر البديع عنها ،و اعظمها واشهرها النظامية ، و هي التي ابتناها نظام الملك، (,Brosslard (CH (R.V A) , 1959 , PL 17) و جددت سنة اربع و خمسمائة ، و لهذه المدارس أوقاف عظيمة و عقارات مُحبسة تتصيّر إلى الفقهاء } (يحي بن خلدون ، ج1 ، ، 1980، ص 127-128.).

و عندما زار مدينة دمشق عاصمة الأمويين لاحظ هذه الظاهرة ، و قال عنها بعد أن وصف مسجدها الأعظم الذي بناه الوليد بن عبد الملك الأموي سنة(86-96هـ/ 705-714م) ، و من احسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله .. و هي قصر من القصور الأنيقة . (ابن مرزوق ،1881م، ص 406.)

هكذا ظهرت المدارس بالمشرق الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري – الحادي عشر ميلادي.

أما فكرة انتقال المدارس من المشرق الى المغرب ، خاصة المغرب الوسط في العهد الزياني كما تناولتها المصادر التاريخية و كتب النوازل .

لقد ربطت أغلب الدراسات المهتمة بالموضوع، بين ظهور المدرسة كمؤسسة، والصراع بين السنة و الشيعة، و استخدمت المدرسة لتثبيت الفكر السني و الحفاظ علية و تطويره. و انتشرت المدارس بعد ذلك ، في بلاد الشام و مصر ، و من مصر انتقلت إلى إفريقية و الاندلس و المغرب.

اختلف الباحثون حول بداية ظهور المدرسة المغربية بفعل تباين المصادر المعتمدة في الموضوع (Marçai (G), et W, OP.CIT , P 274.) ، و هكذا اعتمد عبد الهادي التازي ، على بعض الإشارات الواردة في كتاب " الاستقصاء للناصري " ليقرّر ظهور المدارس في العصر المرابطي ، كمدرسة الصابرين بفاس ، و مدرسة وجاج بن لو اللّمطي ببلاد سوس (حسن الوزاني ، ، ج2 ، ص 24.).

اما ابن ابي زرع، فيذكر في كتابه "الانيس المطرب"، أن الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (580-595 هـ/ 1184-1199م) قد" بني المساجد و المدارس في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس ، وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم ".(المرحوم رشيد بورويبة،1979م، ص 83) . و ذكر ابن مرزوق في كتابه " المسند الصحيح " ليدلي في مسألة برأي مخالف تماما، و يقرّر بأن ، (.Brosslard CH) 1959, P401-410) " إنشاء المدارس كان في المغرب غير معروف حتى أنشأ مولانا الملك العابد" ابو يوسف يعقوب المريني"، مدرسة الحلفائيين بمدينة فاس و بعدوة القرويين منها.

اما بالنسبة لبلاد المغرب الاسلامي ، فيبدو واضحا من أقوال الرحالة ان اول مدرسة أنشأت كانت " المدرسة المتنصرية "التي بنيت بطرابلس الحفصية بين سنتي (655 - 658 هـ/ 1257-1260 م) التي أشار إليها التجاني في رحلته المدونة في مطلع القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي بقوله :" أحسنها المدرسة المنتصرية التي كان بناؤها. فيها بين سنة خمس و خمسين و سنة ثمان و خمسين" (ابن مرزوق، المصدر السابق ، ص 220.)، و يذكر ذلك قبل أن يضيف نقلا عن التقاليد القريبة من الحدث ،و ربما كان يعني " المدرسة التي أنشأتها بها الهمة العلية الإمامية المنتصرية "(ابن الاحمر إسماعيل ،1972 م ، ص 64) .

و كأنها القاعدة لانطلاق بناء بقية المدارس التي أشار اليها من قبل و لا يقف عندها.

و بالتالي ، فهل معنى ذلك أن المستنصر الحفصى الذي ولي الحكم سنة (646هـ/ 1248م) ، ثم تلقب بلقب الخليفة سنة (650هـ/ 1252م) ؛ قد أخذ في التقرب من المالكية في إفريقية عن طريق تأسيس المدرسة ، بالمعنى السني للكلمة ، فاختار لبنائها مدينة متاخمة لمنطقة الشرق الإسلامي و بعيدة في نفس الوقت عن عاصمته (الموحدية) مدينة طرابلس(ابن بطوطة، ج 2، 1985م، ص 820.).(محمد القبلي ، 1995م، ص 51)

فهل من أسباب منطقية يمكن أن نفسر بها تأسيس المدارس بطرابلس الغرب الحفصية ، و المدرسة الموحدية بمراكش اللتين تزامن ظهورهما في فترة واحدة ؟.

ويفهم من كلام ابن مرزوق نفيه القاطع بوجود المدارس ببلاد المغرب قبل المرنيين ، و قد يكون إقراره لهذه الحقيقة ، هو انتقاد صريح لرأي سلفه أبن ابي زرع .

ولكن اندثار المباني التعليمية التي ترجع الى الفترة السابقة عن المرنيين ، و غياب التحريات و الحفريات و التنقيبات الاثرية تجعلنا نفتقر إلى المعطيات التي تكشف عن شكل تلك الهياكل المعمارية و تخطيطها ووظائفها.

فمع غياب الشواهد الاثرية،و الغموض الذي يكتنف المصطلحات المتداولة في المصادر يمكن القول بأن المغرب الإسلامي ، عرف هياكل تعليمية قبل ظهور المرنيين إلى جانب حلقات العلم التي كان تؤطرها العلماء بالمساجد و الجوامع ، و لكنها لم ترق من حيث الشكل و المحتوى ، أو حتى من حيث التصميم المعماري والوظيفة إلى ما اقترن بمفهوم المدرسة أيام المرنيين و الحفصيين و الزيانيين.

إن المدرسة بمفهومها و مدلولها الجديدين ، كانت عبارة عن مؤسسة رسمية بنيت بإيمان من السلطان الحاكم ، وفق تخطيط محكم يستجيب لوظائفها التربوية والاجتماعية ، المتمثلة في إيواء الطلبة الغرباء عن المدين و في تدريس العلم و تلقين القرآن الكريم ، و نستخلص هذه الوظائف من عبارة صريحة في وثيقة تحبيس مدرسة فاس الجديدة ، جاء نصها فيما يلي: { و كمل بناء هذه المدرسة المباركة و بدى بالإقراء فيها و سكانها في ذي القعدة عام 721 م.(علي الجزنائي ،1991م، ص 76).

و قد روعيت هذه الوظائف أثناء و ضع تصميم المدرسة المرينية بشكل خاص ، لكن تصميم المدرسة الزيانية ربما اختلف عنها في بعض التفاصيل و باستثناء المدرسة التاشفينية التي وصل إلينا مخططها و التي تشبه نظيرتها المرينية ، فهي تتميز بصغر حجمها و قلة مرافقها ، تحتوى على غرف الطلبة و على قاعة للصلاة و للدرس في آن واحد ، و ينتظم الجميع حول صحن مكشوف ، يستعمل أحياناً لإعطاء الدروس.

واستهدف المرينيون و من بعدهم الزيانيون من خلال بناء المدارس إلى احياء المذهب المالكي ، ورد الاعتبار لعلمائه الذين تعرضوا لمضايقات زمن الموحدين .(ابن خلدون ، العبر ، ج7 ،1981م، ص 379 .) كما تشير الى ذلك ، العبارة التالية الواردة في عدد من لوحات تحبيس المدارس بفاس: { الحمد لله رب العالمين رافع درجات العالمين و مجزل ثواب العاملين المجير(كذا)} بالمدرسة لتكون أداة للسلطة لتكون الاطر و العلماء المختصين في المذهب المالكي مع الاهتمام بتدريس مختلف العلوم و المواد الأخرى ، و من هذا المنطق يمكن القول ، بأن المدرسة المغربية تنسجم مع الهدف العام الذي أنشئت من أجله المدرسة بالمشرق الإسلامي.

و لكي تتمكن المدرسة الزيانية – المرينية من القيام بوظيفتها و تأدية رسالتها،و فر لها السلاطين الإمكانيات اللازمة على شكل أملاك جبسية .

و خلاصة القول أن المدرسة الزيانية هي مؤسسة سلطانية النشأة والتمويل ، أقيمت خصيصا لإيواء الطلبة و تدريس العلوم ، وخاصة منها المقترنة بالمذهب المالكي لتعزيز مكانته في الدولة ، بتخرج العلماء والعاملين بمقتضياته على المستوى الشيعي،و تحقيقا لهده الغايات الكبرى ، و تقديرا منهم للعلم و العلماء تفنن الزيانيون في تخطيط مدارسهم فهذا أبو حمو موسي الثاني الذي وجه عناية إلى المدرسة الموضوعة على ضريح والده " ابي يعقوب " فضاعف فيها الفعلة و أوجب الأبنية ... و أجزل الاوقاف ، و عين الجرايات و رسم فيها الخطط (BEL(A) , 1981,P 363-364.) ، فجاءت آية في الحسن و الجمال.

و هكذا ظهرت المدرسة بالمغرب بالمغرب الأقصى كسلسلة متصلة الحلقات ، افتتح عهدها السلطان المريني أبو الحسن علي (731- 749هـ) بتشييده مدرسة الحلفائيين (الصفارين) كأول مدرسة بفاس و ذلك حوالى سنة (670هـ / 1271م) (ابن مرزوق، ، ص 405.) ، ثم اتبعها بمدارس عدة في كل بلد من بلاد المغربين الاقصى و الاوسط ، بل خطط لبناء مدرسة بمدينة قسنطينة إلا أن انشغاله بحملته على إفريقية حال دون تحقيق هدفه (Marçai (G), et W, OP.CIT , P278.) ، لتأوي طلاب العلم و توفر لهم شروط الراحة و التفرغ لطلب العلم . و تابع سلاطين الدولة الثلاثة التي تقاسمت بلاد المغرب هذه المسيرة العمرانية العلمية بتأسيس المدارس في حواضرهم.

2.1.3. 1. مدرسة أولاد الامام :

هي اول مدرسة أسست من طرف الزيانيين ، كانت تسمى بالمدرسة القديمة ، أسسها السلطان أبو حمو موسى الاول بالمغرب الأوسط و ذلك سنة (710 هـ/1310 م) ، و قد أنشاها تكريما للعالمين الفقيهين أبي يزيد عبد الرحمن و أخيه أبي موسى عيسى ابني الإمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن الإمام من برشك ، فصارت تعرف باسمهما(أي مدرسة أولاد الامام) ، و كان موقعها بالقرب من باب كشوطة غرب مدينة تلمسان.(**ابن خلدون(يحي:)ج1 ، ص 130**)

و مما يؤسف له أن المصادر لم تسعفنا بالمعطيات اللازمة عن تشيد هذا المشروع العلمي ، الذي يذكرنا بنظيره المريني الذي قام به بنو مرين في المغرب ، و أن ما توفر لدينا من معلومات قليلة ، حول ظرفية تأسيس هذه المدرسة إلا ما ذكره التنسي الذي كان يتحدث عن ابو حمو موسى الاول بقوله العبارة التالية { كان محباً للعلم و أهله معتنيا به قائما لحقه ، ابتنى مدرسة لأبني الإمام تكرماً لهما و احتفاء بهما ، و شكرا الله على نعمته عليه لقتل عدوه أبي يعقوب المريني ، و تخليص تلمسان منه. (محمد التنسي ، 1985م ، ص 139) و قد بنيت داخل باب قشوط (ابن مريم ، 1981م، ص 126).

اما نخطط المدرسة وهيكلها مع منزل الفقيهين ، فقد اندثرا ولم يبقى إلا المصلى(Marçai (G), 1937,p 204.) ، لقد اعطى جورج مارسي في كتابه إشارات تاريخية و قام برسم صورة افتراضية للموقع الذي كانت تشغله المدرسة و مخططها ؛ و تقع غرب مسجد اولاد الامام و شماله ، أي انها كانت تتألف من قاعتين كبيرتين ، يلتقي فيها طلبة العلم من الشيخين الكبيرين ابني الإمام .(Marçai (G), p 263).

ولكن غياب الشواهد الاثرية ، المتمثلة في الحولات الحسبة أو وثائق التحبيس الملحقة بالمدرسة ، يصعب التعرف علي دور المدرسة الفكري و مساهمتها في التنمية الثقافية الاسلامية و نشر العلوم .

استمرت هذه المدرسة المذكورة تؤدي رسالتها التعليمية حتى القرن العاشر الهجري ، حسب كتاب ابن مريم " البستان " (ابن مريم ،ص 126) ، بل واصلت نشاطها إلى غاية منتصف القرن الثالث عشر الهجري . التاسع عشر الميلادي حسب ما ذكره (Barges(J-J-L),,1848 , P181-188).

3.1.2. 2. المدرسة التاشفينية :

تعد ثاني مؤسسة زيانية أسست بالمغرب الاوسط ، بناها السلطان ابو تاشفين عبد الرحمن بن ابي حمو موسى الاول ، الذي تولى إمارة تلمسان في الفترة ما بين (718-737هـ/ 1318- 1337م).

تقع بإزاء المسجد الجامع جنوباً ، فهي توجد في مجال يميز النواة الاولى بعد جامع اغادير الذي أسسه إدريس الاول خلال النصف الثاني من القرن الهجري.

و يظهر أن اختيار وقع المدرسة ، لم يكن وليد الصدفة ، بل خضع لاعتبارات استراتيجية ، و ذلك في رغبة مؤسسها في الاستفادة من هذا المجال الحيوي الذي بنيت فيه حتى تستطيع المدرسة اداء رسالتها التعليمية بوجودها في فضاء يضم أقدم (**صورة رقم 01**)

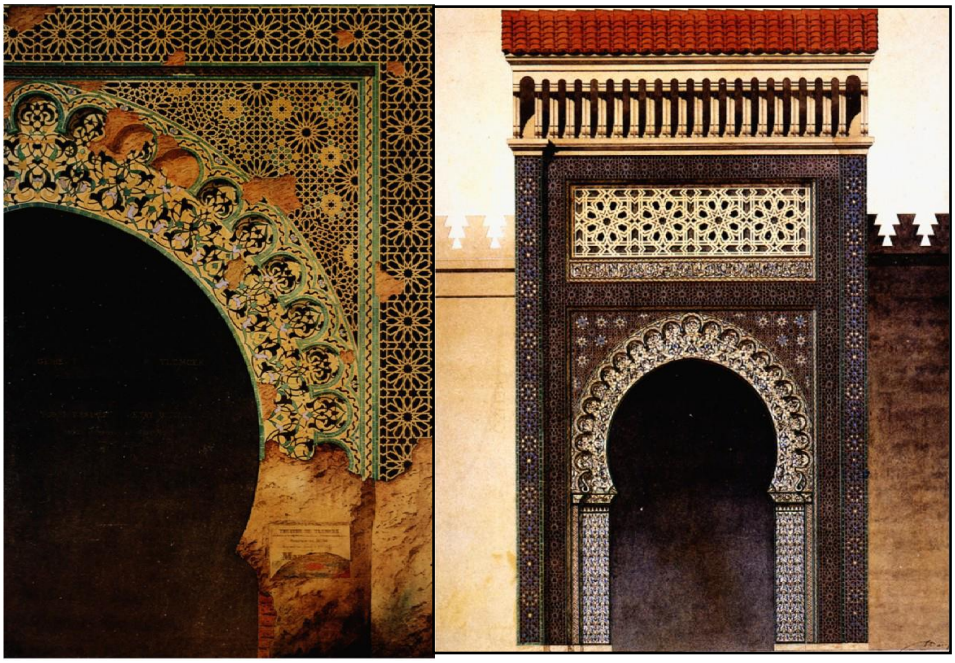

صورة رقم 01 : باب و اطار المدرسة التاشفينية عن Don Joy

و يذكر التنسي أن التاشفينية من مآثر السلطان أبي تاشفين الزياني(محمد التنسي ، ص 141.) ، ، ومن المصادر التي اشارت إليها أيضاً ؛ المقري في كتابه نفح الطيب الذي ذكر أنه " رأي مكتوبًا بأعلى دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين أبو تاشفين الزياني ، وهي من بدائع الدنيا .(احمد بن محمد المقري ، ج6 ، ص 223-224.)

و تعد المدرسة التاشفنية من أفخم المدارس في تلمسان و ذلك حسب ما ذكره المؤرخون ، و ظلت قائمة حتى بعد الاحتلال الفرنسي ، لكنها تعرضت للهدم و للتخريب سنة 1873 م من قبل الإدارة الفرنسية.لكن قبل التدمير قام المهندس Duthoitمع الرسام Danjoy بالرفع المعماري و الفني ، حيث رسمت لها بعض من فسيفسائها،و إحدى واجهاتها .(Dethoit (E), , 1873, 3e serie, t1, p325.)

و يعتبر تخطيط المدرسة التاشفينية ذو ميزة خاصة لا مثيل لها في أية مؤسسة أخرى ،فهو فريد من نوعه حتى في المغرب الإسلامي ، و إن كان هناك من تخطيطات لبيوت الصلاة في المدارس المرينية في فاس قريبة الشبه بتخطيط المدرسة التاشفينية فهي مدرسة أبي الحسن في سلا ،فان تنظيمها المعماري يختلف عن أي تنظيم لأي مدرسة أخرى مرينية. (Golvin (L), 1995,p 2,3).

3.1.3.مصادر أثار مدارس تلمسان في العهد المريني (723–759هـ/ 1322–1357 م)

1.3.1.3. مدرسة سيدي بومدين بالعباد:

في ضاحية تلمسان بقرية العباد قرّر السلطان أبو الحسن على بن أبي سعيد عثمان المرينيي ، إنشاء مدرسة بها سنة (747هـ/ 1347م) لتكون أول مركز علمي و ثقافي ، يساهم في الحركة الثقافية بمدينة تلمسان ، إلى جانب المدارس العلمية المعروفة آذاك، و يبدو أن المدرسة الجديدة غلب عليها اسم العبّاد ، فأصبحت منذ تاريخ إنشائها تعرف (بمدرسة العبّاد) . كما عرفت باسم مدرسة سيدي بو مدين ايضاً. (**صورة رقم : 02**)

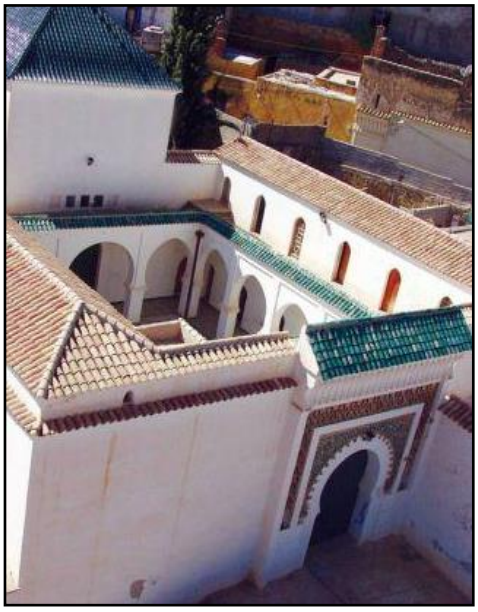

صورة رقم : 02

مدرسة مرقد سيدي ابى مدين رحمه الله

و قد أشار ابن مرزوق إلى هذا الحدث قائلا: { و بالعباد ظاهرة تلمسان و حذاء الجامع الذي قدمت ذكره ، و بالجزائر مدارس مختلفة الاوضاع بحسب اختلاف البلدان }.(ابن مرزوق ، ص 406.)

و قد اطلق على المدرسة اسم الخلدونية في فترة تالية ، و لعل هذه التسمية التي اتصفت بها جاءت من تعلّم عبد الرحمن ابن خلدون بها (Marçai (G), et W,p 274.). وذكر الحسن الوزان بقوله: { و هناك مدرسة جميلة جداً أسسها بعض ملوك بني مرين يقرأ في الرخامتين المنقوشتين عليهما أسماؤهم ..} (الحسن الوزان ،1983م، ج2 ، ص 24)

و هي تقع إلى الغرب من المسجد الجامع ، يفصلهما عن بعضهما رواق معقود ،و قد أكدت وثيقة التحبيس المنقوشة على لوحة رخاميّة في بدن الدعامة الاولى على يسار بلاطة المحراب العمودية بالجامع الملاصق لها... اسم مؤسسها و الأوقاف المحبسة عليهما نقرأ فيها " الحمد لله رب العالمين و العاقبة للمتقين ، امر ببناء هذا الجامع المبارك و المدرسة المتصلة بغربيه مولانا السلطان الأعدل أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابو الحسن ...}(رشيد بورويبة ، م1979، ص 83.).

اما النص التأسيسي، فقد كتب في شريط أعلى المدخل الرئيسي ما يلي :{ الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا عبد الله ابن مولانا أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق ايده الله و نصره عام تسعة و ثلاثين و سبعماية نفعهم الله به } .
(Brosslard (CH (R.A. N°18° , P108-109)

اما تاريخ بناء المدرسة يؤكده النقش التأسيسي الذي يزّين رقبة قبة قاعة الصلاة بالمدرسة نفسها .

و مما لا شك فيه أن تلك النصوص المنقوشة التي تزين مساجد و مدارس بني مرين بالمغرب الاوسط ، و تحديدا بمدينة تلمسان الزّيانية ؛ إنما تعبر قبل كل شيء عن تدين مؤسسها و تمسكهم بالدين الإسلامي الحنيف ، و تعظيم العلم و أهله و إبراز أهمية هذه المؤسسات في التعليم و تكوين الأطر الدينية ، و نشر العلم والثقافة الإسلامية تدريسا و تفسيراً و تأليفاُ. كما يمكن النظر إليها أيضا من زاوية إعلامية و دعائية على اعتبار أنها تمثل شكلا من أشكال الدعاية لحكمهم، حتى يضفوا عليه صبغة شرعية، تنال رضا الناس.

ان ابا الحسن علي أوقف على المدرسة والجامع أملاكا بالمدينة ولا تزال اللوحة التذكارية الرخامية التي نقشت عليها الحوالة الحسبية التي تقع داخل بيت الصلاة بجامع سيدي بومدين ، التي تحتوي على لائحة الممتلكات ، فإنها لم تحظى بدراسات الى يومنا هذا من قبل الاثريين و المؤرخين ، على الرغم من اهميتها كوثيقة غنية بالمعلومات و البيانات التي تهم الباحثين .

و اذا كانت مدرسة العباد أي ؛ مدرسة سيدي بومدين ، هي أول مدرسة تعليمية جامعية أسست ملاصقة للجامع ، فإن السلطان ابي عنان ابن الحسن المريني أنشأ هو الآخر مدرسة بجوار ضريح الولي الصالح أبي عبد الله الشوذي الاشبيلي الملقب بسيدي الحلوي (يحي ابن خلدون، ج1 ، ص121 – 128) وهي ثاني مدرسة تأسست في مدينة تلمسان الزيانية ، و ذلك سنة (754هـ / 1353م) . لقد اختار مكانا منحدرا عبارة عن حي سكني ، تشرف عليه أسوار تلمسان الشمالية الشرقية لانجاز المشروع المعماري الكبير الذي يتألف من المسجد و المدرسة و الزاوية و الضريح ,(.Marcais (G)et(W),p 258) (صورة رقم : 03).

صورة رقم 03 : موقع مدرسة سيدي الحلوي

وذكر ابن بطوطة (رحلة ابن بطوطة، ج2 ،1985م، ص 820.) { أن ابا عنان كان يعقد مجالس العمل في كل يوم بع صلاة الصبح ، و يحضر لذلك أعلام الفقهاء و نجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم ، فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم ، و حديث المصطفى صلى الله علية و سلم و فروع مذهب مالك ".

لقد أكد الحسن الوزاني ، وجود هذه المؤسسات في القرن العاشر الهجري ، بقوله: { و توجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة ، و لها أئمة و خطباء كما تحوي ايضاً خمس مدارس بديعة حسنة البناء و مزدانة بالبلاط الملون و غيرها من الأعمال الفنية ، شيد معظمها ملوك تلمسان ، و البعض الآخر ملوك فاس}.(حسن الوزان ، ج1 ، ص 390)

كما ذكر مارمول أيضا بقوله : أن تلمسان بها عدة أساتذة في مختلف المدارس يقومون بالتدريس كل يوم و يؤجرون من أوقاف هذه المؤسسات . (مارمول(ك) ، 1989، ص 300)

و يبدوا من اشارة ابن مريم أن المدرسة و الزاوية ظلتا قائمتين حتى أوائل القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي (ابن مريم ، ص 33) .. و مما يؤسف له ، أن هذه المنشآت المعمارية الهامة اندثرت معالمها و لم يبقى منه سوى الجامع و الميضأة ، الذي لا يزال محتفظاً بشكله و عمارته الرائعة.

اما فيما يتصل بهندستها فقد ذكر ابن مرزوق عن جمال مدارس أبي الحسن المريني قائلا : " :و كلها ، قد اشتمل على المباني العجيبة و الصنائع الغريبة و المصانع العديدة و الاحتفال في البناء و النقش و الجص و الفرش على اختلاف أنواعه من الزليج البديع و الرخام المجزع و الخشب المحكم النقش و المياه النميرة"(ابن مرزوق، ص 303).

لم تكن فكرة تأسيس من المدارس الجامعة في المغرب الإسلامي ، على يد سلاطين بني مرين ، فكرة جديدة بل سبقهم إلى ذلك الموحدين و سلاطين بني حفص في تونس ، لذلك استهدف المرينيون من بناء المدارس هو محاربة المذهب الموحدي و إحياء المذهب المالكي ، إلى جانب نزوح عدد كبير من أهل الأندلس المالكيين (محمد القبلي ، 1987م ، ص 99-100).إلى المغرب بعد سقوط بعض المدن كاشبيلية و قرطبة.

تميزت المدارس المرينية في المجالات الفنية و التنظيمية و أيضا في الدور الفكري ، و تأثر المرينيون بما كان سائدا في المشرق الإسلامي و مغربه من إنشاء المدارس على يد السلاجقة و الأيوبيين و الحفصيين ،و إن توطيد أركان الدولة لا يقوم فقط على القوة العسكرية بل لابد من التقرب من رجال الدين و الاعتماد على ركيزة دينية و يكون ذلك بتأسيس المدارس الرسمية بحيث يكون أساتذتها و طلبتها مرتبطين بالسلطان الذي عينهم في تلك المؤسسات و أغدق عليهم بالهدايا و الرواتب الشهر.(لمليح السعيد، 1988-1989م، ص 102.).

و لقد أعطت أيضا وثائق التحبيس التي تعد مصدرا من المصادر التاريخ و الآثار ، الهدف من إنشاء المدارس المرينية بصفة عامة ، ومن وثائق التحبيس الدالة على ذلك ، وثيقة التحبيس المحبسة على مدرسة الدار البيضاء(فاس الجديد)التي تضمنت ما يلي":الحمد لله رب العالمين و مجزل ثواب العاملين المحي بالمدارس ما درس من معلم العلم و الدين....و بعد فهذا ما أمر بتخطيطه و إنشاءه دفعا و ردعا لأيدي المعتدين مولانا الخليفة الإمام.....أبو سعيد نور الله ثراه..... على إقراء القران العظيم و تدريس العلم بمدرسته المباركة "(.158-160. p ,t VI ; 1971 : (A) Bel)؛ أي أن الرغبة من إنشاء هذه المدرسة هو الرغبة في الحصول على الثواب ، لأنها تعتبر صدقة جارية ينتفع من ثوابها منشؤها بعد وفاته (ابن مرزوق :المسند الصحيح ، ص407).

الخـــاتمة:

توصلنا في موضوع "الاثار و المعالم من خلال المصادر الإسلامية وكيفية الاعتماد عليها " عن بعض النتائج منها أننا وضحنا أن المصادر التاريخية التي ألفها المؤرخون المسلمون لا تحتل الأهمية ذاتها بوصفها مصادر للمعلومات التاريخية ، فهي وان كانت جميعها تعود إلى العصور الإسلامية ، غير أنها تختلف من حيث الأهمية ، فمنها ما يمكن أن نطلق عليه مصدر أولي ، ومنها ما هو ثانوي ، والأساس الذي يعتمد عليه في التمييز بين هذين المفهومين هو المدة الزمنية والمساحة المكانية التي يعالجها موضوع البحث ، فإذا كان هذا الموضوع يتناول مشكلة تاريخية في العراق في القرن الثالث الهجري ، فإن المصدر الأولي في هذه الحالة هو كتابات اليعقوبي القريبة مكاناً و زماناً ، اما كتاب " البداية و النهاية " لا بن كثير الدمشقي(المتوفى774 هـ/ 1372م) الذي يتناول فيه تاريخ واسط في القرن الثاني الهجري ، فالمصدر قديم لكنه بعيد جداً زمانا عن الموضوع ، لذا لا يعد مصدرا أولياً.

إن المؤرخ الذي يكتب أخبار الأحداث مشاهدة هو الذي يتفوق من حيث الدقة والتفاصيل على غيره ممن يعتمد على السماع، فكتابات المؤرخ الأول أهم من حيث دقة المعلومات من كتابات المؤرخ الثاني. كما أوضحنا سبل الاعتماد على المصادر انطلاقاً من نوعية الموضوع المختار للبحث ، ففضلاً عن سرعة الوصول إلى المصادر المطلوبة ، فالموضوع الذي يتناول شخصية تاريخية يكون جل اعتماد الباحث في اقتباس النصوص على كتب التراجم ، والموضوع الذي يتناول فترة زمنية معينة ، فان الباحث يجعل من كتب التواريخ العامة الأساس في نقل المعلومات الأولية ، وهذا لا يعني أن الموضوعين سيستغنيان عن بقية المصادر ، بل يعتمد عليها ولكن بدرجة أقل تبعا لطبيعة الموضوع ونوعية المادة وكثرة النصوص.

و نستخلص من مصادر تاريخ تلمسان الحاضرة السياسية و الثقافية و العلمية بالمغرب الاوسط خلال العهد الزياني ، و التي احتضنت عدداً من المراكز الدينية و العلمية و استوطنها العلماء و الادباء ، و ازدهرت فيها الثقافة و الحرف و الصنائع و الفنون ، و بلغت درجة كبيرة من التطور الفكري و الاقتصادي ، لتحل مكان الصدارة منافسة بذلك أكبر المدن و المراكز العلمية بالمغرب الإسلامي مثل القيروان و فاس و قرطبة .

كما ظهرت المدارس في العالم الاسلامي التي تعد مصدرا من مصادر الاثار الاسلامية و اصبحت تحتل مكانة هامة ضمن العمائر الدينية في المدينة الاسلامية ، فلم تخلو أي مدينة من هذا النوع من المؤسسات ، فمن خلال طرح موضوع الاثار و المعالم من خلال المصادر الاسلامية ، التي ركزنا فيها على اثار ومعالم مدينة تلمسان ، و خصينا بالذكر المدارس الزيانية و المرينية بالمغرب الاوسط .

لقد حاولنا استغلال المصادر المادية المتمثلة فيما تبقى من مخلفات و أثار المدارس و المساجد لأنها تعكس المستوى الذي بلغته الحضارة الاسلامية الزيانية عمرانيا و فنيا و ثقافيا ، خصوصا و أن بعض هذه المنشآت ما تزال قائمة ، تحتفظ بكتابات أثرية منقوشة تؤرخ لها ، و لوحات وقفية (وثائق التحبيس) التي لا يمكن الاستغناء عنها في موضوع حضاري مثل المدارس و الزوايا ، و في هذا الشأن حولنا الوقوف على بعض المصادر الاسلامية التي تناولت هذه المادة الاثرية ، و التي هي الوثيقة الرسمية التي يعتمد عليها الباحث الاثري اثناء الحفريات الميدانية ، و ذلك لإجلاء الغموض الذي يكتنفها ، لأن معظم هذه المعالم كان مصيرها الضياع ، و من اجل دراستها و ترميمها لا بد من الرجوع الى المصادر القديمة التي تعطينا المعلومات الكافية و خير مثال على ذلك قلعة المشور ، ذلك القصر الزياني ، فالاعتماد الاولي كان على المصادر الاسلامية التي نال القصر منها قسط كبيرا ثم الحفريات التي اجلت الغموض على هذا القصر ، إن ادراك القيمة الحضارية ، كشواهد و مصادر مادية على اسهامات المغرب الاوسط في الحضارة الإسلامية .

قائمة المصادر والمراجع

اولا : المصادر

ابن بطوطة (ابو عبد الله محمد بن عبد الله اللوتي) ،(ت 779 هـ/ 1377م)(1985م)، تحفة النظار في غرائب الامصار و عجائب الأسفار. تحقيق و تقديم علي المنتصر الكتاني، (ج 2)، الطبعة الرابعة ، مؤسسة الرسال ، بيروت.

ابن خلدون (عبد الرحمن) ، (ت 808 هـ/ 1406م)(1983م)،كتاب العبر و الديوان المبتدأ و الخبر في بناء العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج 7 ، دار النشر اللبنانية .

ابن خلدون (يحي) (ت 780هـ/ 1378م)،(1980م) ، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، ج1 ، الجزائر .

ابن قنفذ القسنطيني ،(1965م) ، أنيس الفقير و عز الحقير ، نشر المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط .

ابن مريم التلمساني (ابو عبد الله محمد ابن أحمد) (ت 1064هـ/ 1653م)،(1981م)، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر.

ابن موزرق التلمساني (ت 781هـ/ 1379م)، (1981م)، المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن ، دراسة و تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر .

التنسي (محمد عبد الله)(ت 799هـ/ 1493م)،(1985م) ،نظم الدرر و العقيان في بيان شرف بني زيان ملوك تلمسان ، تحقيق و تعليق محمود بوعياد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر .

الجزنائي علي ،(1991م)، جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط .

المقري ،(احمد بن محمد التلمساني)، (1988م)، نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب و ذكر وزيرها اسان الدين بن الخطيب ، تحقيق إحسان عباس، ج6 ، دار صادر ، بيروت .

الوزان (حسن بن محمد الزيات)، (1983م) ، المعروف بليون الإفريقي (939هـ/ 1532م)، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي و محمد لخضر ، الطبعة الثانية ، ج1 ، دار الغرب الاسلامي .

الونشريسي (ابو العباس احمد)،(ت 914 هـ)، (1981م)، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا و الأندلس و المغرب ،ج 7 ، طبعة وزارة الشؤون الدينية ، الرباط .

ثانياً: المراجع باللغة العربية

ابن الاحمر إسماعيل ،(1392 هـ / 1972 م) بيوتات فاس الكبرى ، منشورات دار المنصور للطباعة و الوراقة ، الرباط .

بن قربة صالح ، (سنة 1993م) .مقدمة لدراسة الكتابات الاثرية المغربية في العصر الاسلامي ، **مجلة معهد الأثار** ، العدد 02.

بو ركبة السعيد ، (يناير2002 م)البعد الثقافي و المجتمعي للوقف الخيري في الاسلام ، مقال ، **مجلة دعوة الحق** ، عدد خاص عن جامع القرويين ، 363 .

بورويبة رشيد ، (الجزائر 1979 م) ، الكتابات الاثرية في المساجد الجزائرية ، ترجمة ابراهيم شبوح ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر.

حنان عيسى سلطان ، (1984م) ، د. غانم سعيد شرف العبيدي أساسيات البحث العلمي بين النظرية والتطبيق ، ، دار العلوم للطباعة و النشر .

شاوش الحاج بن رمضان (1955 م.) باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية.

شوقي ضيف، (د.ت)البحث الادبي ، طبيعته .مناهجه .اصوله. مصادره ، مكتب الدراسات الأدبية ، الطبعة السابعة ، دار المعارف ، القاهرة .

عبد العزيز بن عبد الرحمن بن علي الربيعة ،(2000م) البحث العلمي حقيقته ، و مصادره ، ومادته ، و مناهجه ، و كتابته ، و طباعته ، و مناقشته ، الطبعة الثانية ،. (ج1 ، الرياض).

عميره عبد الرحمن ،(1986م) أضواء على البحث و المصادر، دار الجيل ، بيروت .

فاضل جابر ضاحي ، (2005م)، اغرب الاخبار في ضياع الحقائق والكتب و الآثار ، بغداد .

القبلي محمد ،(1995م) قضية المدارس المرينية ، ملاحظات و تأملات ، مقال نشر ضمن كتاب في النهضة و التراكم ، المعرفة

التارخية ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء .

كربخال مارمول ،(1989م) ،إفريقيا ، ترجمة محمد حجي و آخرون ، مكتبة المعرفة للنشر و التوزيع ، .

لمليح السعيد،(1988-1989م.) المدارس المرينية و دورها الفكري في المغرب ، دبلوم الدراسات العليا ، كلية الأداب و العلوم الانسانية ، فاس .

ناصر محمد ، (2005 م)كيف تكتب بحثاً جامعياً ، كلية المنار للدراسات الاسلامية ، الجزائر .

يكن زهدي، (1971 م) الوقف في الشريعة و القانون الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت.

ثالثا: المراجع باللغة الاجنبية

Bargès(J-J-L),(1859**)** ,Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom, paris, .
BEL(A) ,(1981) Inscription Arabe De FES, (J.A), T.X I .
Brosslard (CH),(1959**)**« les inscriptions arabes de Tlemcen », revue africaine , N° 18 ,PL 17.
Duthoit (e),(1873**),** Rapport sur une mission scientifique en Algérie, archives des missions scientifiques, 3eme série, T1.
Golvin (L) ,(1995), La madrasa medievale ,EDISUD.
Golvin (L) ,(1995), La madrasa medievale ,EDISUD.
Marcais (G) et (W), Les monuments arabes de Tlemcen, fontemoiny, paris 1903.
Miles,George,(1938**),** the Numismatic History of Rayy .New york**.**

تاريخ الاستلام: 2016/07/03- تاريخ التحكيم:2016/10/11 -تاريخ النشر2016/12/30

العمارة والعمران في وادي سوف (1845-1900)م بعيون الرحالة والمستكشفين الفرنسيين

د. الجباري عثماني

(جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي- الجزائر)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص :

من منطلق أن التراث المعماري لأي مكان ما هو إلا انعكاس للمقومات الحضارية التي يشهدها السكان على مر الأزمان، والمقومات الحضارية ما هي إلا نتيجة تفاعلات للقيم الثقافية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية والدينية. وعليه، أردنا من هذا المقال تسليط الضوء على النمط العمراني السائد في منطقة وادي سوف خلال الفترة المحددة، من خلال وجهات نظر الآخر الأجنبي، المتمثل في تلك الشخصيات الفرنسية المتعددة التخصصات، والتي وفدت إلى المنطقة بغض النظر عن أغراض الزيارة، وأعطت انطباعاتها عن العمران والعمارة السكنية السوفية سلبا أو إيجابا، وفقا لتفكيرها ومخيالها وحتى المهمة الموكلة إليها.

الكلمات المفتاحية : وادي سوف، العمران، البناء، الحوش، الغرفة، القبة، الجدار

Abstract

The architectural heritage of any place is only a reflection of the cultural elements that the population has witnessed over time, and the cultural elements are only the result of interactions of cultural, intellectual, economic, social, environmental and religious values. Therefore, we wanted to highlight the urban pattern prevailing in the Oued Souf area during the specified period, through the views of the other foreign, represented by those French personalities multidisciplinary, which came to the region regardless of the purposes of the visit, and gave impressions of the architecture and architecture soufian, negatively or positively, according to its thinking and imagination and even the task entrusted to it.

Key words: Oued Souf, Urbanization, Building, Home, Room, dome, Wall.

مقدمة

استهلال:

تعتبر العمارة من بين أكثر الفنون ارتباطا بالإنسان، إذ هي وليدة احتياجاته المختلفة الإنسانية والاجتماعية؛ كالمسكن والعبادة والتعليم والاستشفاء والسياحة وحتى احتياجاته العسكرية؛ لذا أخذت منه اهتماما بالغا، إذ لم يكتفي منها بما يلبي ضرورات الحياة واحتياجاته القاهرة، بل راح يتفنن في بنائها، فيسبغ عليها من آيات الجمال والزينة، إنها لم تبنى من الحجارة فقط، بل شيّدها المعمار بروحه وعقله وذوقه حتى باتت سجلا للجمال والحضارة والأصالة(ابن سعيد، ل. 2014: 16-17 أفريل). ومن هذا المنطلق، فإن ما يميز منطقة وادي سوف عن باقي المدن الجزائرية، هو ذلك الطابع العمراني والعناصر المعمارية الفريدة في تخطيط المنازل والمساكن وغيرها، أملتها الظروف المناخية والتاريخية والدينية، والتي لا نكاد نجدها في مركز حضري آخر، وقد أعطى الأجانب من الفرنسيين خاصة الذين زاروا المنطقة وصفا دقيقا لعمارة سوف؛ نحاول أن نجلي تلك الصورة بايجابياتها وسلبياتها، وإبراز أهمية الحفاظ على ذلك الموروث المميز للمنطقة من الاضمحلال والانكفاء، والذي يشكل إحدى الروافد السياحية التراثية الغنية بعمق الأصالة الذي يحاكي تاريخ المنطقة.

1- العمارة والعمران المصطلح والمفهوم:

وقبل الكلام عن العمران والعمارة في وادي سوف، نشير إلى أن العُمران هو البنيان، أو ما يعمَّر به المكان وتُحسَّن حالتُه من كثرة الأهالي فيه، ويقال: أرض براح؛ لا بناء فيها ولا عمران. والعِمارة في اللغة العربية ضد الخراب(الأزدي، أ. 1987م:

288/1)، وقد أطلق عليها العلامة ابن خلدون "صناعة البناء"، بحيث يقول: هذه الصناعة أوّل صنائع العُمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للكنّ، وذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله، لا بد له أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحرّ والبرد، كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسُقف والحيطان من سائر جهاتها(ابن خلدون، ع. 2004: 386-387). والعِمارة في الموسوعات الغربية المعاصرة، هي فنّ البناء، وفق قواعد جمالية وهندسية محددة، إنها فنّ جماعي ينظم المجالات المبنية، لتحتضن حياة الناس، ولتكون إطارا لأعمالهم، ولهوهم، وترفيههم، ومجالا، لا ينحصر في الصروح، بل يتناول الملجأ والكوخ والأثاث، وكل ما يستعمله الناس في حياتهم اليومية؛ تلبي حاجات ثلاثا متأصِّلة في الإنسان، هي الحاجة الإنتفاعية، والحاجة الجمالية، والحاجة الرمزية(فياض، ر. 2017/3/31).

2- الشخصية السوفية في العمارة السكنية:

2-1- المسكن السوفي وتكويناته المعمارية:

يمكن القول أن حركة العمران المادي قد تأخرت بمنطقة سوف عن ما سواها من حواضر بلاد الجريد أو بلاد ريغ. وبحكم الصراعات السياسية التي كانت تعصف بالمغرب الأدنى (إفريقية)؛ اتخذت كثيرا من القبائل أرض سوف كمأوى لها، وهو ما يشير إليه العدواني في قوله: "عليكم بسوف فهي أم الهاربة"(العدواني، م. 2011: 117). وعند استقرار طرود وعدوان بالمنطقة، بدأت تظهر ملامح العمران بعناصره المميزة، ومن منطلق أن المسكن محصلة تفاعل بين الإنسان والبيئة المحيطة به؛ أصبح بذلك للسوافة شخصية متفردة في تخطيط المسكن، نابعة من الفكر العمراني الإسلامي الأصيل. ومن تلك التكوينات والعناصر المعمارية السكنية، ما يأتي:

– **الصحن(الفناء المكشوف)**: ويسمى في الوادي "الحوش"، نسبة إلى ذلك الفضاء الواسع في وسط المنزل، تحيط به الحجرات والجدران(الأسوار) (Nadjah, A. 1971: 92). وتكمن وظيفته في توفير نسبة جيّدة من الإضاءة والتهوية، وفي تلطيف الجو وخفض درجة الحرارة أيام القيظ؛ نتيجة الظِّلال الناتجة عن تقابل أضلاعه، وقد ثبت بالتجربة أن درجة الحرارة داخل الفناء تنخفض درجتين على الدرجة السائدة في المنطقة. وهو أيضا بمثابة مرشح للهواء الذي يحمل الغبار، ويزيد من نفعه إذا زرعت فيه أشجار أو توسطه حوض مائي، وأصبح يمثل محور النشاط الرئيس في المساكن السوفية. ولا غرو فمعظم السكان ذوو أصول عربية شرقية، والفناء عنصر أساسي في تخطيط المنزل الشرقي منذ أقدم العصور باعتبار ملاءمته المعمارية لمناخ المنطقة الحار(عثمان، م. 1988: 340/128).

وترجع أهمية الصحن كجزء رئيس في كل منزل، إلى أنه، المكان الذي تقوم فيه ربة البيت بأعمالها المنزلية؛ بعيدا عن الغرباء من الزوار أو الجيران أو المارة، وفوق ذلك تقام فيه معظم الفعاليات العائلية خلال النهار، ويستخدم كمجلس للعائلة خلال الليل في أشهر الصيف(الشامي، ع. 1978: مج9/ ع146/1). وقد راعى مشيدو المساكن في سوف، الآثار الصحية في تموضع مرافق البيت، فالجهة الغربية بها دار التخزين والمطبخ ودار النوم، والجهة الشرقية التي تواجهها الشمس في أكثر النهار ومحافظة على نظافة البيت من أنواع القذارة، وخصصت لبيْت الماء "الخربة"(الكنيف) والإسطبل(Nadjah, A. 1971: 92) ، ويوجد في هذه الجهة أيضا البئر عند العائلات الميسورة الحال.

– **الدهليز(المدخل المنكسر والسقيفة)**: للأثر الديني دور في تخطيط المنازل بالوادي، إذ لا يمكن الوصول إلى صحن البيت مباشرة. وتمثل تخطيطها في هيئة دهليز، أو ممر ملتو متعرج أو منكسر يؤدي إليه الباب المطل على الشارع، ولهذا يكون الدهليز يحتوي على بابين داخلي يفتح لفناء المنزل، وخارجي يفتح على الزقاق، وبين البابين ممر على هيئة منكسرة تشبه حرف اللام الابتدائي "ـلـ " نهايتاه هما الباب الداخلي والخارجي؛ وبهذه الحيلة تجنب بها المعمار أن يكون البابان على محور واحد، وبوجود

هذا الممر الملتوي توفرت الحماية لمن بداخل فناء المنزل، وصيانة الحريم من عيون الغرباء، ومنع الفضوليين من اكتشاف ما داخل البيت. وقد ابتكر هذا النوع من المداخل المنكسرة لأول مرة في العمارة العسكرية؛ بهدف إعاقة تقدم العدو المقتحم للمداخل، ثم اقتبسته عمارة المسكن لملاءمته(شافعي، ف. 1970: 433-434).

– القُبّة والدَّمْسَة: تعتبر القبّة عنصر من عناصر العمارة الإسلامية، وهي؛ نوع من الأقبية التي تستخدم للتسقيف، وفي أبسط أشكالها، عبارة عن نصف كرة مجوفة تقف على أعمدة أو جدران. وإن لجوء أهل سوف إلى بناء القباب جاء كضرورة مادية ودينية؛ تمثلت في نقص مادة الخشب والحديد ونحو ذلك مما يُستخدم كسند للسطوح، وتوفر مادة الجبس المصنعة محليا، والذي ساهم وبشكل فعال في انتشار التسقيف؛ لسرعة تماسكه وتصلبه. أما السبب الديني لبناء مثل هذا الطابع، هو إرادة سكان المنطقة المحافظين في الابتعاد عن بناء السطوح؛ لإخفاء النساء عن الأنظار(Voisin, A. 2004: 164) .

والأمر الذي ساهم في شيوع هذا النمط المعماري في المنطقة، هو سهولة ويسر تشكيل تلك القباب، والتي لا تتطلب وسائل كثيرة أو تقنية معقدة، وكل ما يلزم هو إقامة الجدران الأربعة الحاملة لها(حسونة، ع. 2013: 114-116). ونظرا لانتشار هذا النوع من الطراز العمراني العربي الأصيل في المنطقة، والتي أصبحت تشكل العنصر الأساس في تسقيف غرف المنازل والمساجد والأضرحة؛ ولهذا أطلقت "ايزابيل ابرهاردت" أواخر القرن 19م تلك العبارة الشهيرة على مدينة الوادي، "ومدينتهم ذات القباب الألف"(ابرهاردت، از. 2006: 140) ، ومن هنا جاء اللقب التي أصبحت تُعرف به الوادي؛ "مدينة الألف قبة وقبة"، وظل هذا علامة مسجلة لوادي سوف.

وكما أن للقبة العديد من الوظائف، منها، كسر وتوزيع الأتربة حتى لا تتراكم على السطح؛ لأن المنطقة رملية تشهد العديد من العواصف، عكس وتكسير أشعة الشمس الحارة حتى لا تتمركز في مساحة واحدة، تلطيف الجو داخل الغرفة، إضافة فضاء إضافي في البيت من الداخل(غنابزية وآخرون، 2000)، القبة بشكلها المتماسك تقاوم وتعمر طويلا، القباب أكثر تهوية وتسيل الأمطار من عليها فور تساقطها. والمادة الإنشائية للقبة في سوف هي الجبس وحجر اللوس، والدعامة في تشكيلها تمثل في قوس مُصمم من عصي الجريد والجبس(بن علي، م. 2013: 117-118)؛ يساعد البنائين على حسن تكويرها وتقويسها.

وقد تطور هذا النوع من القباب في أواخر القرن التاسع عشر، وأصبح يغطي المنازل الأكثر حداثة قباب نصف اسطوانية تُعرف بـ "الدّمسة"(Voisin, A. 2004: 164) ، والدمْس: التغطية، وكل شيء غطيته فقد دمسته، والتَّدْميس: إخفاء الشيء تحت الشيء(الأزدي، أ. 1987م: 263/12)، وهي: قبة نصف اسطوانية، جاءت إلى المنطقة من الجنوب التونسي، وانطلقت من وادي سوف إلى وادي ريغ عن طريق البنائين السوافة. وقد رُكبت الدّمسة عند ظهورها على محور أفقي من أخشاب النخيل، ثم على أقواس داخلية من الجبس، ومن الناحية الوظيفية كان دورها شبيها بدور القبة، من حيث قوة المقاومة في مواجهة العوامل المناخية من تركيز أشعة الشمس والأمطار(حسونة، ع. 2013: 117). إلا أن، الدّمسة حلت مشكلة عرض الغرفة إلى الامتداد المطلوب، بحيث تغطي مساحة أكبر، وترتكز في طرفيها على قوسين من الجبس يسمى الواحد منها العقد ويُعرف شعبيا "بلغراب"، يُثبت في وسطه قارورتين زجاجيتين مملوءتين بالماء؛ حتى توفر الإضاءة للغرفة(بن علي، م. 2013: 119-120).

وقد عُمّم هذا الطراز المعماري على المباني والمساكن الرسمية للإدارة الفرنسية بعد استقرارها بالمدينة، إذ حافظت على هذا الطراز المعماري المميز وأشاعته، كما أدخلت عليه تحسينات ذات صبغة جمالية، كتلبيس الجدران بالجبس(سترها)، والتي كانت بادية الحجارة ظاهرة من الداخل والخارج لا يسترها السكان(العوامر، إ. 1977: 83)، ربما لأنهم للبداوة أقرب منهم للحضارة، كما أبقى الفرنسيون على مواد البناء المحلية التي كان يستعملها السكان كحجر اللوس، وحجر التافزة، والجبس المصنوع محليا(منصور، أ. 2004: 33).

2-2- الشوارع والأزقة: كان تطور تخطيط المدن والحواضر في سوف، لا يختلف عن تخطيط المدن العربية الإسلامية، فقد كان للمدينة شارعها الأعظم الذي يتسع أضعاف أزقتها الأخرى، وكانت الشوارع تستخدم للسير على الأقدام، كما أن وسائل الحمل والنقل لم تكن إلا الدواب، ولهذا اتخذت الشوارع صفة الضيق استجابة للمناخ الحار وشدة وهج الشمس وأشعتها في فصل الصيف خاصة، ومن ثم فقد كان ضيق الشوارع سببا في زيادة مساحة الظل في الطرق(الشامي، ع. 1978: مج9/ ع1/142).

الأمر مثله نجده في عمارة سوف، بحيث نجد الأزقة الضيقة في الأحياء السكنية العتيقة لا تزال شاهدة على ذلك إلى يومنا هذا، وبشكل منظم ومتلاصق ومتتابع تفتح الدور على أزقة متفرعة عن الشارع الرئيس، بحيث يتراوح عرض الزقاق مابين 2 إلى 2.5 م، وغالبا ما تكون حادة (ذات نهاية مغلقة) أي متصلة من طرف واحد بالشارع الرئيس. ففي حاضرة قمار مثلا، الأزقة الشمالية أكثر طولا، وأطولها على الإطلاق زقاق المحاوشة الواقع على حد البلدة الشمالي، والذي يمتد من الطرف الشرقي إلى الطرف الغربي للبلدة. تتكاثر الأزقة بشكل منتظم كأغصان شجرة الأرز التي تكون متناسقة، وتتميز عموما باستقامتها تماشيا مع الشكل الأول للبلدة القديمة، وكانت كل زيادة في المدينة متلازمة بإقامة مسجد ورحبة على شاكلة المدن الإسلامية(حسونة، ع. 2013: 44) ، وهو ما نلحظه في أغلب قرى وحواضر سوف.

3- حواضر وقرى سوف امتداد للمدن العربية الإسلامية:

لقد تحدث العلماء على شروط إنشاء المدن، وقدموا تصورات بل نظريات للخطط المدنية المتعلقة بتنظيم المدن، واستعرضوا شروطا دقيقة لإنشائها، كما حددوا وظائف قطاعات المدينة من الداخل التي كانت تتوافق مع متطلبات المدن آنذاك بل أن بعضها لا يزال صالحا لزماننا هذا(المنيس، و. 1989: 46/11)، ولعل من أبرز من تحدث عن هذه الشروط صاحب مؤلف "سلوك المالك في تدبير الممالك" شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع(ت 272هـ)، وقد أوجب على من أراد إنشاء مدينة أو اتخذ مصرا، مراعاة ثمانية ضوابط أو شروط(ابن أبي الربيع، ش، 1996: 107-108)، وهي:

- أن يسوق إليها الماء العذب ليُشرب؛ حتى يسهل تناوله من غير عَسفٍ.
- أن يقدر طرقها وشوارعها، حتى تتناسب ولا تضيق.
- أن يبني فيها جامعا للصلاة في وسطها؛ ليقرب على جميع أهلها.
- أن يقدر أسواقها بكفايتها؛ لينال سكانها حوائجهم من قرب.
- أن يميّز بين قبائل ساكنيها، بأن لا يجمع أضدادا مختلفة متباينة.
- إن أراد سكناها، فليسكن أفسح أطرافها وأن يجعل خواصه كنفًا له من سائر جهاته.
- أن يحوطها بسور خوف اغتيال الأعداء؛ لأنها بجملتها دار واحدة.
- أن ينقل إليها من أهل العلم والصنائع بقدر الحاجة لسكانها، حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج لغيرها.

ويمكن اتخاذ مدينة الوادي مركز الإقليم سوف وقاعدته الأساسية، كنموذج لدراسة مدى تطبيق الشروط المذكورة آنفا لدى ساكنته والتي هي من أصول عربية (قبائل طرود). بحيث تحتل المدينة موقعا استراتيجيا هاما، تتوسط الإقليم وتمثل المركز الحضري له، تحوي أهم مرافقه الإدارية والتجارية. وتعتبر إذا تجاوزنا المعايير الدقيقة لتصنيف المدن والحواضر كما حددها الجغرافيين(حمدان، ج. (د. ت): 5-12)، من أهم وأقدم مراكز الاستيطان البشري في سوف، بل أن اسمها يُطلق على المنطقة قاطبة، فيقال: "الوادي"، أو "الواد" أو "لِبْلاد" على لسان الدارج. وسُميت الوادي؛ لأنها محل محبس جريان الوادي الذي كان يجري في المنطقة قديما، وكان انتهائه في هذا الموضع فاعتبر المنتهى، ولهذا أخذت البلدة اسمها من خلال البعد الجغرافي.

وقد أثر المناخ تأثيرا مباشرا في تخطيط التكوينات المعمارية للمدينة، كما كان له أثره في تخطيط وتحديد اتجاهها، وتشابهت هذه التأثيرات في معظم المدن الإسلامية كما سبق وأن ذكرنا، لاسيما وأن أغلبها يقع تقريبا في المنطقة الحارة(عثمان، م. 1988: 104/128)؛ لذلك نجد أن أغلب قرى ومداشر الوادي أقيمت غرب الغيطان، وتم اختيار هذا الاتجاه حتى تُحمى من الرمال والرياح(Voisin, A. 2004: 163). ومن بين الشروط التي حددها ابن أبي الربيع لإنشاء المدينة التميز بين قبائل ساكنيها، وهذا ما نلحظه في تموضع القبائل في المدينة، وتكونت نتيجة ذلك ثلاث أحياء عتيقة؛ حي الأعشاش، حي المصاعبة، وحي أولاد احمد.

وتجلى شرط وسطية المسجد لابن أبي الربيع في الحاضرة المذكورة، فقد اهتم أهل المدينة بعد تشبعهم بتعاليم الإسلام بإقامة المساجد، حيث كان لكل قبيلة مسجدا يمثل مجمعا للتشاور والتعاون، ومكانا لتحقيق العدل بين الأفراد، ومدرسة لتعليم الصغار والكبار. وأول مسجد جامع تم تشييده سنة 1600م بأمر من الداعية سيدي المسعود، ولا يزال يأخذ اسمه إلى يومنا هذا، وحوله توسعت المدينة وازداد عمرانها. إلى جانبه نجد سوق الوادي الكبير وهو إحدى الشروط الربيعية المذكورة، وغير بعيد عنه مقرات اجتماع رؤساء المجموعات أو ما يسمى بـ "جماعة الميعاد" أو "مجلس الأعيان"(ميهي، ع. 2015: 20)؛ لسيادة النظام القبلي في المنطقة، بحيث لم يوجد هناك مقرا لحاكم تجتمع لديه كل السلطات في المدينة؛ لعدم خضوع سوف لحاكم كما يقول الرحالة العياشي، بل كان القرار جماعيا، أو يمكن القول سلطة اسمية جماعية تهتم بدراسة أحوال المجتمع وحل خلافاته، وهذا قبل أن تدخل المنطقة تحت براثن المستعمر الفرنسي.

وخوفا من إغارة الأعداء والذعّار، قام عرب طرود ببناء سور حول المدينة، له أربعة أبواب محروسة، تفتح بحسب الجهات الأربع؛ الباب الغربي، والباب الشرقي وإلى عهد قريب يسمى باب السور، الباب الشمالي، والباب الجنوبي، كان السور عاليا عريضا وبوسطه دكانات للجلوس عليها، تمام بنائه كان في سنة 1044هـ/1635م، لم يعمر طويلا نظرا لقوة الرياح التي تعرفها المنطقة، اندثر في سنة 1949م(Voisin, A. 2004: 175). ولتلك العناصر المذكورة توابع لا تقوم إلا بها كالبساتين والساحات(الرحبة)، والمقابر، كما تميزت المدينة كباقي المدن الإسلامية العتيقة بالاستطالة في مخططها، وبنسيج عمراني أصيل ومتنوع، حيث البنايات المتداخلة ذات الطابق الواحد، والأزقة الضيقة، والجدران القصيرة.

4- العمارة والعمران السوفي بأقلام الزوار الأجانب:

لقد تركزت الكتابات الأجنبية حول المنطقة، في دراسات قامت بها شخصيات من جنسيات فرنسية؛ بحكم دخول الجزائر تحت ظل المستدمر الفرنسي. وقد دأب الفرنسيون عند رغبتهم في النفوذ إلى منطقة من المناطق بأن يُرسلوا المستكشفين والباحثين، ويبعثوا بالعيون والموفدين لرصد واقع تلك المنطقة وظروفها، وطبائع أهلها، والطرق الموصلة إليها، ومدى قدرتها على المقاومة والوقوف في وجه القوات الغازية تطبيقا للمقولة الشهيرة: "يجب معرفة الناس للسيطرة عليهم وقيادتهم"(بن محمذن، م. 2003: 158/20). وتتويجا لتلك الجهود كان المكلفون بالمهام المذكورة لرصد واقع المناطق أثناء استكشافها، أو حين تسير عمليات التوسع فيها قد تركوا العديد من الدراسات والكتابات التي تحمل انطباعاتهم ومشاهداتهم حول الكثير من مناطق الجزائر شمالا وشرقا وغربا وجنوبا. ولقد تنوع كُتَّاب تلك الانطباعات، فكان منهم العسكريون والمستكشفون والأكاديميون الباحثون، ورجال الدين المبشرون ومنهم المغامرون ورجال السياسة والسُيّاح.

ومن هنا بدأ الاهتمام الفرنسي يزداد بوادي سوف، ونظرا لقلة معلوماتهم الاستخبراتية حول المنطقة، عمدوا إرسال بعثات استخبراتية؛ لدراسة السكان والمكان، وجمع مختلف المعلومات عن الإقليم؛ خدمة للسياسة الاستعمارية قبل اجتياح المنطقة وبعدها. ففي سنة 1845م زار الضابط الفرنسي "دوماس" Daumas الوادي بتشجيع من الماريشال بيجو، وألف كتابا بعنوان:

"الصحراء الجزائرية"؛ وهو دراسة إحصائية وجغرافية وتاريخية عن الجنوب القسنطيني، ذكر فيها معلومات مهمة حول قرى سوف والولاءات القبلية لسكانها(Daumas, L. 1945: 189-190). بحيث يقدم إحصاء لعدد القرى والمنازل بها. ويذكر أن بها سبع قرى، ويظهر أنه استحسن عمرانها مقارنة بغيرها؛ لأنه يذكر بازدراء العمران البدوي، بقوله: وخارج هذه القرى الرئيسة التي يبدو بناؤها سيئا جدا، ولا تتوفر منازلها على جدران خارجية، تتجمع قربيات(زرايب) حيث يمكن للمسافر الغريب أن يجد مأوى، وحيث تسكن العائلات الفقيرة مكدسة مع الدواب(ميهي، ع. 2015: 19).

ومن تلك الدراسات التي أعطت وصفا لمعمار وعمارة سوف، نجد بحثا تحت عنوان: "مذكرات الطريق" ألّفه الشاب المغامر، الذي كان يشعر بجاذبية لا تقاوم إلى القارة الإفريقية(العربي، إ. 1983: 82) ، وهو، الرحالة "هنري ديفاريي" Henri Duveyrier، وهي عبارة عن رحلة في الواحات الجزائرية والتونسية قام بها المذكور في سنة 1860م. يقدم ديفاريي معلومات حول القرى العامرة وتلك التي أصبحت أطلالا شاهدها بأم عينه. فيذكر، أنه كانت "غمرة" سابقا قرية عامرة لم تبق فيها الآن سوى الأطلال، وأما "قمار" فهي بلدة من 4000 نسمة تقريبا، لا يتعدى ارتفاع منازلها قامة الرجل ، وهي ذات مظهر بائس، ورغم ذلك، فهي متينة لأنها مبنية من الحجر والجير. لأسقفها، التي تعلوها قباب صغيرة، طابع خاص، ليست الجدران مطلية ولا مسوية لكن الكل يبدو أبيضا، هناك القليل من المساكن المجمعة. تتوفر البلدة على سوق وبعض الدكاكين والكثير من المساجد، بما في ذلك الزاوية التي هي أجمل معلم في قمار(ديفاريي، هـ. 2014: 25).

وفي طريق عودته إلى الوادي، يمر بدشرة "ورماس"، التي لم يرى فيها سوى ثلاث قباب صغيرة مبنية من الجبس الخام تبرز من تحت الرمال، قال له رفيقه أحمد، أنها سقف منزل رآه سابقا قبل أن تطمره الرمال. وعند وصوله إلى بلدة كوينين، وصف عمرانها بأنها، بُنيت مثل قمار تماما؛ يعني أن غرفا حقيقية تحيط بأفنية المنازل، وليس بداخلها خيام في الوسط مثل منازل الوادي؛ حيث لا تزال البداوة تقاوم الحالة الحضرية، وحيث يختلف ارتفاع الجدران من كتف الرجل حتى رأسه، القباب والجدران ليست سوية ولا طيّنة بحيث لا يظهر ذلك منظرا من النظافة والأناقة(ديفاريي، هـ. 2014: 51-52). لقد أيدت وثائق التركات(سجلات المحاكم الشرعية) التي قمنا بجردها ما ذهب إليه ديفاريي، في أن عمران بلدة كوينين وحتى قمار تكاد تنعدم فيهما بيوت الشعر، وفي المقابل سجلت الأخيرة حضورها في عمران طرود بالوادي وأحوازها، فكثير ما هم من بني هذا الشعب من أُحصي من بين متروكهم الخيام ولواحقها.

وعند زيارته إلى الوادي، يذكر بأن النمط المعماري متشابه مع ما لاحظه في قمار، ويقول: "الوادي"، مدينة من 6000 نسمة، لها نفس النمط المعماري لبلدة قمار، لكن بها مساجد مآذنها مرتفعة وبرج الخليفة. تتكون المنازل، في جزء كبير منها، على باحة تنتصب بداخلها خيم وأكواخ من جريد النخل، يسكن أولاد أحمد حيّا منفصلا، إلى الشرق من برج الخليفة. شيّد البرج حسب تصميم النقيب لنجلوا، البرج عبارة عن مربع من حصنين مربعين للحراسة من الشرق والغرب (في ركنين فقط). يحوي أحد الحصنين السجن الذي هو أجمل من كل بيوت المدينة(ديفاريي، هـ. 2014: 27-28).

وأما الدراسة الثانية، والتي كانت عبارة عن وصف لمسير في الطريق من باتنة إلى تقرت حتى الوادي، لصاحبها "ج. زاكون" J. Zaccone قام بها سنة 1865م، وقد تضمنت وصفا للأماكن التي مرّ بها من ورماس إلى كوينين ثم الوادي وقمار، وقد سجل من خلاله ما شاهده حول عمارة وعمران المنطقة. ويبدو أنه أعجب ببلدة كوينين، بحيث يقدم لنا وصفا دقيقا لعمرانها ومواده الإنشائية، ويذكر أنه لا يوجد في أوروبا ما يشبهها، بحيث يقول: لا شيء في أوروبا ولا في الجزائر يشبه كوينين، حتى نتصور هذه البلدة، علينا أن نتخيل عددا من خلايا النحل تعلوها قباب صغيرة كروية الشكل على علو مترين، متلاصقة في أسفلها، يجمعها جدار طوله مترين. ويمكن أيضا أن نكوّن صورة تقارب الحقيقة عن كوينين لو تصورنا بيادق لوتو موضوعة على

كتاب منبسط، تتفاجئ العين وتندهش، نرى حولنا ولا نفهم شيئا في الأول، وندرك ماهية كل تلك القباب الصغيرة الكروية الشكل التي تبدو مصطفة على الأرض. كل المنازل هنا ذات طابق أرضي، حين يكون المنزل عريضا قليلا ترتكز القباب الأربعة على عمود دائري الشكل يقع في وسط البيت، كل البنايات والمنازل مبنية بالجبس وبالحجارة المتواجدة في سوف؛ هذه الحجارة هي في شكل كتل منشورية حادة من جميع جوانبها. دخلنا نركب الأحصنة عبر شارع ضيق جدا، الشوارع هنا مستقيمة ولا يزيد عرضها عن المترين(ميهي، ع. 2015: 26-27). ومن فرط إعجابه بالبلدة، يضيف بأنها، تستحق الرؤية، وتستحق أن نسافر من أجلها.

ويذكر عن الوادي، بأنها تشبه كوينين، لكن منازلها أقل تميزا، وتختلف المنازل بين من هي ذات قباب صغيرة وبين من هي ذات أسقف مسطحة(دمس)، كلها ذات طابق أرضي فقط مثل منازل كوينين. ثم يقوم بزيارة لبرج المدينة، الذي يقول أنه يقع إلى جنوبها من ناحية الشرق، ويعطي وصفا دقيقا لمرافقه، فيذكر: يتكون البرج من سور به فتحات وحصنين مرتفعين على نفس القطر المنحرف مثل برج سعادة، بداخله مربع صغير يتشكل من سكن الخليفة ومن فناء للخدم، خلف هذا السكن وقبالة المدخل، قاعة المسافرين وإلى جانبها شيّد الإسطبل الذي يُستعمل أيضا مخزنا(Zaccone, J. 1865: 253-254). كما ينفرد زاكون بإعطاء وصف لعمارة أحد دور العبادة بالمدينة وهو مسجد سيدي سالم، ويضيف أنه، يتكون من طابق أرضي، تُسند سقفه ستة عشر ركيزة، فناؤه الداخلي مبني على شكل رواق مرتفع قليلا في وسطه، صعدنا إلى أعلى المئذنة لنستمتع بمناظر المنطقة،لم نر سوى الرمال الممتدة على مرمى البصر ورؤوس النخيل المختبئة في حفر عميقة.

وأما الزيارة الثالثة فهي، "لفكتور لارجو" Victor Largeau، الموسومة بـ "الصحراء الجزائرية، كثبان الشرق –سوف" وكانت سنة 1881م. والتي حملت تفاصيل هامة عن الطريق من غدامس إلى الوادي، وأعطت الدراسة معلومات قيّمة حول عمران ومعمار سوف القديم، إذ يخالف دوماس في إحصاء المدن والقرى السوفية، ويقول: في سوف ثلاث مدن رئيسية وسبع بلدات أو قرى، المدن الرئيسية هي الوادي، كوينين، ثم عميش، ورماس، الزقم، البهيمة، تاغزوت، الدبيلة وسيدي عون، ويربط كل هذه المراكز السكنية على طول الطريق خط من المنازل، تشيد المساكن دائما في المرتفعات، خارج الحدائق. وحين يريد السوفي بناء منزله فإنه يدعو أصدقاءه ليعينوه على البناء، يبدأ الكل العمل بحماسة، ورغم بساطتها تلك، فإنها تبدو من الخارج أنيقة ونظيفة، ليس كما نرى في وادي ريغ على حد تعبير لارجو. ويبلغ طول المساكن من 7 إلى 8 أمتار وعرضها من 1.50 إلى 2 متر، وارتفاعها يبلغ قامة رجل متوسط الطول، ويتساءل، أليس من الأجدر رفع الجدران قليلا؛ ويبرر ذلك بأن السوافة، يرون أنه من غير المجدي بناء جدرانهم أكثر ارتفاعا، بل يفضلون الحفر في داخل المساكن على بناء جدران عالية في الخارج، تُشيّد هذه المساكن من الحجارة الكلسية الخام ملبسة بالجير، جدرانها ليست سميكة، يتكون السقف من ثلاث أو أربع قباب صغيرة تسندها دعامات من جذوع النخل(Largeau, V. 1881: 334).

أبواب المنازل في سوف ضيقة جدا وقصيرة، حتى أنه لا يكاد يسمح بدخول رجل إلا منحنيا، وأما النوافذ فلا وجود لها، إلا إذا أردنا أن نعطي هذا الاسم لحفرة صغيرة بالقرب من الباب، هذه الحفرة التي هي في الحقيقة أنبوب المدخنة بما أنه المنفذ الوحيد الذي يخرج منه الدخان. ويؤكد أن، الوادي، المدينة الرئيسة في سوف، تضم ألف منزل صغير من هذا النوع، وما عليك سوى الوقوف على أصابع الرجل حتى تشرف عليها كلها، توجد البنايات الوحيدة المهمة في القصبة وهي سياج فسيح به فتحات للرمي وحصنينن بما في ذلك مسكن الخليفة، الشوارع واسعة شيئا ما ولكنها ملتوية، تتكفل الريح بنظافتها حين تأتي بالرمل الجديد ليغطي الأوساخ المتراكمة(Largeau, V. 1881: 334-335).

وفي دراسة أخرى موسومة برحلة عبر الصحراء، لأستاذ الجغرافيا الدكتور "كات" E. Cat قام بها سنة 1895م، تم فيها رصد لمسار الوصول إلى وادي سوف، وحدودها وتضاريسها ومناظرها ومواردها وبناياتها والأوضاع المعيشية والاجتماعية والاقتصادية بها. ويقدم كات مقارنة بين عمارة سوف والواحات الأخرى، ويعطي وصفا دقيقا للتكوينات المعمارية للمنزل السوفي من الداخل ومواد إنشائه، وطريقة بنائه، فيقول: لا تشبه بناءات سوف تلك التي في الواحات الصحراوية الأخرى، هنا، لا يستعمل الناس قوالب الطوب المجفف في الشمس وليس هناك من سطوح فوق المنازل. يستعمل الناس في بناء منازلهم حجارة الجبس الكلسي، تحرق الحجارة وتطحن لتعطي جبسا رديئا. يُشيّد السقف من أغصان النخيل تعلوها قباب صغيرة كروية الشكل تشبه قباب الأضرحة الصوفية، عادة ما تكون الأبواب ضيقة منخفضة بحيث على المرء أن ينحني لعبورها(ميهي، ع. 2015: 72).

وتتكون المنازل عادة يضيف "كات"، من فناء داخلي وعلى ثلاثة جوانب منه توجد الغرف والمخازن، على الجانب الرابع هناك رواق ذو أقواس، في وسط الفناء أو أمام السكن توجد زريبة من جريد النخل بها خيمة أين تقيم العائلة. عادة ما تكون المنازل مؤثثة بعناية أحسن من المنازل في واحات الصحراء الأخرى، ولبناء مثل هذه المنازل ليس هناك من ضرورة لبنائين مهرة أو مهندسين، من يريد بناء منزل يدعو أصدقاءه، ويشرع الجميع في العمل عند الفجر، وعند المساء في أغلب الأحيان تكون البناية قد انتهت؛ تختم هذه المهمة بضيفة مكافأة للعمال وحفلة تدشين للمنزل الجديد، رغم ذلك، فإن بعض البيوت مبنية، في ثمار، بطريقة أكثر تعقيدا، تتوفر هذه البيوت على طابق أول وأسطح وهي من انجاز بنّائين زنوج أو تونسيين(ميهي، ع. 2015: 72-73).

ويبدو أن كات أراد أن يوحي إلى القارئ بأن السوافة مجتمع أعرق في البداوة وأبعد عن العمران الحضري، وهو وصف تعزوه الدقة والاختبار أكثر، وهذا لتداخل أنماط الحياة لدى مجتمع المنطقة ذات الخصائص الحضرية والريفية والبدوية. وأما ما يخص عدم وجود بنائين مهرة في الوادي، فقد دلت وثائق المحاكم الشرعية المتوفرة لدينا، أن هناك من السوافة من ألحقت بأسمائهم حرفة البناء وأصبح يُعرف بها، ومن هؤلاء، يبرز في سنة 1885م اسم "عبد القادر بن بعلاق الحمدي حرفته بناء"، ويُعرف رئيس البنائين في المنطقة بـ "المعَلَّم" (Maçon)، كان القضاة يستشيرونهم في شؤون البناء والعمران(عثماني، ج. 2016-2017: 362).

ورغم أن كل الذين زاروا المنطقة من الفرنسيين، أجمعوا على أن المسكن السوفي ذو طابق أرضي، إلا أن أواخر القرن 19م بدأ يشهد ظهور بعض المساكن ذات الطابق العلوي، وهذا ما أوردته ايزابيل ابرهاردت في مذكراتها، بحيث تذكر أنها استأجرت بيتا من أجمل المنازل في الوادي بحسب تعبيرها، غير بعيد عن بيرو عرب، يحتوي على أربع غرف فسيحة في الطابق الأسفل، ورواق مقبب به ثلاث أقواس أين بنت فرنا من الجبس للطبخ، ومستودعين للتبن والدجاج والحمام..، وغرفة مقوسة أين يبيت الحصان. وفي الطابق العلوي الذي يتم الصعود إليه عن طريق سُلّم، غرفة بنافذتيها ليس بهما زجاج تشرفان على مدينة الوادي، حصلنا على كراء كل هذا المنزل بـ 10 فرنكات للشهر الواحد، ويمكننا شراء هذا المنزل بـ 1000 أو 1200 فرنك(ابرهاردت، از. 2006: 94-108).

وتنفرد ابرهاردت بإعطاء وصف لمنزل سوفي من الداخل، فتذكر أنه يتكون من: غرفة النوم وبها مخدع النوم المقوس، غرفة الخادم بلا شباك، غرفة نستعملها مخزنا للطعام، بهو به ثلاث غرف أستعمل إحداهن مكتبا، بهو في الهواء الطلق به مرحاض قديم بلا سقف، شرفة مقوسة ومقببة، فرن من الجبس، المرحاض الجديد، مخزن مغطى، مدخل المخزن، غرفة الحصان التي تفتح على بهو المنزل، السلم المؤدي إلى الشرفة، غرفة الطابق الأول بنافذتيها(ابرهاردت، از. 2006: 98). والملاحظ من خلال وصف

المكونات الإنشائية لهذا الحوش الذي يقع في قلب مدينة الوادي، أن هناك إضافات تحسينية أو لمسات عصرية مقارنة بما هو شائع في معمار المنطقة، وهذا باستعمال السقف من جهة، وتوفر أكثر من مساحة(بهو) داخل البيت من جهة ثانية، إذ المعروف وجود بهو(صحن) واحد في البيت السوفي ناهيك عن مساحة المجاز الضيّق. واللافت أيضا أن السوفي لا يزال يتمسك بالكنيف الغير مسقف، تفاديا للروائح المنعثة منه؛ لعدم توفر قنوات الصرف، وفي العادة يتم اختار الأماكن المشمسة –كما أسلفنا- عند تشييد هذا المكون المعماري، ويجعل من الخارج فتحة(خلف جدار المرحاض) حتى يتسنى لربّ البيت إخراج الفضلات من الخربة، ليُستفاد منها في تسميد الزرع(الحرث) في الهود وهذا بعد تجفيفه، فالسوفي معروف عنه استغلال كل ما يحيط به في بيئته، واستخدامه فيما يعود عليه وعلى عياله بالنفع والفائدة.

ويعطي حاكم ملحقة الوادي والباحث "جستون كوفي" Cauvet Gaston، معلومات غاية في الأهمية حول عمارة ومعمار المنطقة. ويذكر أن، لمنازل سوف خاصية تشد الانتباه قبل أن يطرأ عليها تغييرات معتبرة على الأقل زمن استقراره في البلد، ويَحتمل أن القبة نصف الكروية الشكل، قد جاء بها مهاجرين فُرْسا جاءوا بها في فترة متقدمة جدا. ثم يصف المذكور مكونات المنزل السوفي بقوله: يتشكل المنزل السوفي من باحة يتغير حجمها حسب الموارد التي تتوفر عليها الأسرة وحاجتها للسكن، تكون جدرانها بقدر طول قامة الرجل حتى تكون النساء بمنأى عن أنظار المتطفلين. تنصب الخيمة بداخل الباحة، وحين يجمع أهل البيت ما يكفي من الجبس الضروري يبنون في ركن من المنزل غرفة، ومع مر الزمن وتزايد عدد أفراد الأسرة وحاجيتها للتخزين تملأ دائرة البيت بالغرف في غالب الأحيان. والمنازل الجديدة في ضاحية المدينة يترك أحد جوانب الباحة بلا بناء، ويعوضه سياج من الجريد. (كوفي، ج. 2016: 99-101).

في المنزل السوفي، تتشكل الغرف التي تملأ دائرة المنزل من خلايا مجمعة، فوق كل واحدة منها قبة من الجبس والحجارة مشيّدة بلا قالب، بفضل التماسك السريع للجبس السوفي؛ فهو مادة البناء المتوفرة في المنطقة وتحوز على مواصفات الإسمنت تقريبا. قياسات الغرفة مقبولة كما يذكر كوفي، وإذا أراد السوفي أن يزيد في عرض الغرفة عليه تعويض الجدار الداخلي بصف من الأعمدة والأقواس الداعمة، تستعمل إحدى هذه الغرف للتخزين، حيث يُشيّد بها خابية أو عدد من الخوابي لتخزين تمر الغرس، وتغطى ببلاطة من الجبس هي أيضا(كوفي، ج. 2016: 100-102). ويعزو كوفي التغيير والتحسين الذي طرأ على العمارة السوفية كان بفضل أبناء بلده، ويذكر أن "النقيب بوجات" Le Capitaine Pujat قد علّم السوافة الاستفادة القصوى من جبسهم العجيب والمتين؛ وذلك بتشييد قباب مستطيلة ذات العقد الكامل(الأدماس) وهي بسيطة الهندسة لكنها لائقة جدا، وبنفس الطريقة تمكن بناؤوا سوف من تشييد قباب ذات مقاييس جيدة استعملوها في عمارتهم الدينية (المساجد)، وهكذا برزت مدرسة من البنائيين انتدبوا خارج سوف وأنجزوا في مدن وادي ريغ والزيبان مساجد جديدة مستوحات من الطريقة التونسية. (كوفي، ج. 2016: 102-103).

والسوفي بفضل ذكائه الوقاد، تمكن من صقل موهبته ودمجها مع الخبرات الوافدة أو التي سافر من أجل كسبها في مجال العمارة، وبرز في المنطقة أعلاما نبغوا وأصبحوا فرسانا في هذا الميدان، ومن أولئك نجد الفنان "قاقا"؛ الذي برز في النقش على الجبس سماه كوفي أحمد (كوفي، ج. 2016: 103)، وربما يقصد، عمر بن محمد بن إبراهيم، المعروف بعمر قاقة، والمولود سنة 1858م بقمار وبها نشأ وترعرع، ذاع صيته في حرفة النقش على الجبس، وقد حذق هذه الحرفة بفضل حم العروسي التجاني صاحب زاوية قمار، الذي استقدم النقّاش أحمد بالطاهر بن بالقاسم التجاني المضوي الفاسي(المغربي)؛ لنقش جامع الزاوية والأماكن الأخرى بها، حيث كان الشيخ العروسي يحثّ عمر قاقة على تعلم مكامن وأسرار هذه الحرفة التي لم يكن لها وجود في أرض سوف، سافر إلى تونس بقصد تحسين أدائه وعاد من هناك ومعه نماذج من الجبس المنقوش إلى الجزائر العاصمة؛ لإنجاز زخارف في قصر الصيف، وهو إقامة الحاكم العام في الجزائر. وأخذ عمر من الحاذقين لتلك الحرفة، حتى أصبح علما في ميدان

النقش على الجبس في سوف وعموم الجزائر لا يجاريه أحد، وقد تحصل على العديد من الأوسمة وشهادات التقدير عرفانا له بإتقانه لتلك المهنة، ولم يكتفي بذلك بل أخذ على عاتقه تعليم هذه الحرفة لأبنائه وأهل البلدة. توفي عمر قاقة يوم 1941/01/30م(العقون، ت. 2013: 293-294).

5- خاتمة:

وفي جملة القول، تؤكد الدراسة على أن نمط العمران والعمارة لحواضر وقرى سوف؛ هو امتداد للنمط العمراني للمدينة العربية الإسلامية، فقد توفرت أغلب شروط الإنشاء التي حددها علماء ومنظرو المعمار الإسلامي في عمارة حواضر سوف، الوادي وقمار وكوينين. وأما عن نظرة الأجانب الذين زاروا المنطقة لنمط العمارة المذكور، فنسجل أن هناك تكرار في المعلومات، ورغم أنهم عاينوا المنطقة مشاهدة، إلا أن بعضهم اجتر ما كان قد سبقه غيره في تدوينها، ومع ذلك لا تخلو تلك الدراسات من الحقيقة وحسن الوصف الجارح أحيانا، سواء في جانب العمارة والعمران أو حتى في حياة الناس العادية التي تطبعها البداوة والتقشف، ونوجز ما حوصلناه في النقاط الآتية:

- ركزت الدراسات على وصف عمران وعمارة ثلاث مدن رئيسة، وهي: الوادي، قمار، كوينين. واتفقت على سيادة طابع عمراني متشابه بين المدن الثلاث، إلا أن بعضهم ذكر بأن الوادي أحسن معمارا، وخالفه آخر بحيث أبدى إعجابه بقمار وزاويتها وليس بها خيام في وسط المنازل مثل الوادي حيث البداوة تقاوم الحالة الحضرية، ونوه ثالث بكوينين وقال أنها تستحق الزيارة.
- أغلب من زار المنطقة من الأجانب وصفوا عمارة وعمران سوف بالبساطة وقلة التكلفة، ونظر لها البعض بعين الازدراء.
- يتم تشييد المساكن في الأماكن المرتفعة، وتفتقر البناءات للأناقة، والجدران ليست سميكة، وقصيرة الارتفاع؛ بحيث تبلغ قامة الرجل المتوسط الطول، ولا يتم تلبيسها بترك الحجارة بارزة، بحيث كانت محل سخرية من بعضهم.
- المنازل ضيّقة وأبوابها قصيرة، ولا وجود للنوافذ بها، وإن وجدت فليس بها زجاج.
- المواد الإنشائية للبناء، تتكون من الجبس الكلسي، ومن جذوع النخيل، أي، بمواد محلية ومن واقع السكان.
- التكوينات المعمارية للمنزل السوفي، وُضعت بشكل مدروس متلائم مع طبيعة المناخ الحار بالمنطقة، بحيث اتخذ المعمار المحلي الحوش أو فناء المنزل كوحدة أساسية للبيت السوفي؛ إذ بذلك يتوافق العمران مع الظروف الطبيعية.
- يُعبر العمران بالمنطقة عن خصوصية التفكير لدى المجتمع السوفي وطبيعة الثقافة السائدة لديه، فالدار السوفية كلها حذر وغيرة؛ وهذا يتوافق والمرجعية الدينية للسكان.
- تتميّز وادي سوف بطابعها المعماري الذي يختلف على جميع المدن والقرى الصحراوية، بوجود طابع هندسي فريد وهو القبة والساباط اللتان هما جزءا أساسيا في الوحدة السكنية بالمنطقة. كما ينعدم وجود الطوابق في العمارة السوفية، بل البناءات كلها أرضيه، مع وجود النادر من استغل أسطحها؛ فهي العمارة الصحراوية ذات النمط المتقشف.
- شهدت العمارة المحلية تطورا لافتا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي، بحيث استفاد السوافة من الخبرات الخارجية وأخضعوها لشخصيتهم العمرانية، وظهور ملامح المدرسة المعمارية السوفية.

بيبلوغرافيا البحث:

*** المراجع باللغة العربية:**

- إبراهيم، العوامر. (1977)، **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تع. الجيلاني العوامر، تونس: الدار التونسية للنشر، الجزائر: الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع.
- ابرهاردت، ايزابيل. (2006)، **عودة العاشق المنفي (كتابات ايزابيل ابرهاردت عن سوف)**، تر. عبد القادر ميهي، الوادي: مطبعة الوليد.

- ابن أبي الربيع، شهاب الدين. (1996)، **سلوك المالك في تدبير الممالك**، تح. عارف أحمد عبد الغني، دمشق: دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن خلدون، عبد الرحمن. (2004). **المقدمة**، لبنان، بيروت: دار الفكر.
- الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن. (1987). **جمهرة اللغة**، ج. 1، تح. رمزي منير بعلبكي، لبنان، بيروت: دار العلم للملايين.
- العدواني، محمد. (2011). **تاريخ العدواني**، تح. أبو القاسم سعد الله، الجزائر: دار البصائر.
- العربي، إسماعيل. (1983)، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- العقون، التجاني. (2013)، **أعلام من ڤمار بوادي سوف**، الوادي: مطبعة سخري.
- بن سعيد، لطيفة. (2014م، 16-17 أفريل). **البعد الإيماني للعمارة والتعمير**، بحث مقدم في الملتقى الدولي حول العمارة والفنون الإسلامية بالجزائر، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة.
- بن علي، محمد الصالح. (2013) **جماليات العمارة التقليدية في وادي سوف، حي الأعشاش نموذجا**(1400-2011)، ج. 1، الوادي: مطبعة مزوار.
- حسونة، عبد العزيز. (2013)، **عمارة مدينة قمار بمنطقة وادي سوف من القرن** 10 إلى 13**هـ**، الوادي: مطبعة مزوار.
- حمدان، جمال. (د. س)، **جغرافية المدن**، ط. 2، القاهرة: عالم الكتب.
- ديفاريي، هنري. (2014)، **مذكرات الطريق**، تر. عبد القادر ميهي، الوادي: مطبعة مزوار.
- شافعي، فريد. (1970)، **العمارة العربية في مصر الإسلامية، عصر الولاة**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.
- عثماني، الجباري. (2017/2016)، **الحياة الاجتماعية والاقتصادية في وادي سوف بين عامي** 1854-1918م **من خلال سجلات المحاكم الشرعية**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، كلية الآداب والحضارة الإسلامية.
- غنابزية، علي وآخرون. (2000). **مفكرة نهاية القرن العشرين**(1999-2000)، الوادي: المطبعة العصرية.
- كوفي، جستون. (2016)، **مذكرات حول سوف والسوافة**، تر. عبد القادر ميهي، الوادي: مطبعة الرمال.
- منصور، أبو بكر. (2004)، **من العائلية إلى التعاقدية بوادي سوف**، الوادي: مطبعة مزوار.
- ميهي، عبد القادر. (2015)، **الصحراء الجزائرية**، الوادي: مطبعة مزوار.

*** الدوريات والمواقع الالكترونية:**

- الشامي، عبد العال. (1978)، جغرافية المدن عند العرب، **مجلة الفكر**، مج. 9، ع. 1، وزارة الإعلام، الكويت.
- المنيس، وليد عبد الله عبد العزيز. (1989/1410)، جغرافية الحضر دراسة منهجية لجهود العلماء المسلمين في تطويرها، **حوليات كلية الآداب**، حولية الحولية الحادية عشر ، الكويت.
- بن محمذن، محمدو. (ديسمبر 2003)، الرحلات الاستكشافية الكبرى في الصحراء الكبرى(الدوافع والعراقيل)، **مجلة العلوم الإنسانية**، ع. 20، جامعة منتوري بقسنطينة.
- عثمان، محمد عبد الستار. (أغسطس/آب 1988م)، المدينة الإسلامية، **عالم المعرفة**، ع. 128، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- فياض، رهيف. **في العمارة والعمران**، استرجعت في تاريخ 2 أفريل، 2017 من، http://al-akhbar.com/node/121146.

*** المراجع باللغة الأجنبية:**

- Voisin, André. (2004), **Le Souf, Monographie**, EL-oued: EL-walid.
- Zaccone, J. (1865), **De Batna à Tougourt Et Au Souf,** Pris: Librairie Militaire.
- Daumas, L. (1945), **Le Sahara algérien, Etudes Géographiques, Statistiques et Historiques**, Paris: Langlois et leclerco.
- Largeau, Victor. (1881), **Le Sahara Algérien, les déserts de l'erg**, Paris: Librairie Hachette.
- Nadjah, Ahmed. (1971). **Le Souf des Oasis**, Alger: La maison des livres.

تاريخ الاستلام: 2016/08/06- تاريخ التحكيم: 16/11/ 2016 -تاريخ النشر2017/06/02

المرأة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني (633-962هـ/1235-1555م(

قراءة في الحضور العسكري والسياسي

أ.د. مفتاح خلفات، أ.حسيبة عمروش

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة – الجزائر

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص :

تعتبر الدولة الزيانية واحدة من القوى السياسية التي قامت في بلاد المغرب الأوسط خلال الفترة الممتدة من (633-962هـ/1235-1555م)، وكان لموقعها الجغرافي الوسطي وإمكانياتها الاقتصادية أثر في ازدياد الأطماع فيها من طرف القوى المجاورة ونعني بهم الحفصيين من الشرق والمرينيين من الغرب؛ زد على ذلك تمرد بعض القبائل العربية والبربرية على السلطة المركزية، وفي نهاية عهدها تعرضت لغارات النصارى الأسبان؛ كل هذه الظروف جعلت الدولة الزيانية وعاصمتها تلمسان مهددة في وجودها وأمنها واستقرارها.

لكن وعلى الرغم من الصراع الطويل الذي شهدته الدولة على مرّ تاريخها خاصة ضد المرينيين؛ إلاّ أنّ ذلك لم يمنعها من فرض نفسها سياسيا وعسكريا وحضاريا، وذلك من خلال تضافر جهود مختلف الفعاليات الاجتماعية المنضوية تحت لواء هذه الدولة؛ ومن بينها المرأة التي كان لها حضورا خلال هذه الفترة حسبما تشير إليه بعض مصادر المرحلة؛ على الرغم من أنّ مهمة المرأة الأساسية هي رعاية شؤون الأسرة وتربية الأبناء بيد أنّ هذا لم يمنعها من المساهمة في شتى المجالات الأخرى السياسية والعسكرية والفكرية والاقتصادية وغيرها.

والمأمول من هذه الورقة هو تسليط الضوء على دور المرأة في البناء الحضاري للدولة الزيانية، وذلك من خلال الوقوف على إسهاماتها في المجالات الحياتية وبخاصة في المجالين العسكري والسياسي.

الكلمات المفتاحية : العهد الزياني، المرأة الزيانية، تلمسان، الدور العسكري، المساهمة في المجال السياسي

Abstract :

If we speak about the Zianists empire , we can say many things about this superpower , That emerged in the middel of Megreb country between the period of : (1235-1555 B C/633-962a- A D). This may be going back or pertaining to many factors according to hitorical studies.

First of all , The geographical location that makes it squeezed between two tears , this created offensives and attacks from the Hafsists from the East and the Marrinians from the west in addition to these factors disabedience of few tribes Arabian and Barbarian tribes at the end of its age be confronted with the Spanish people. All these conditions contribute to make the Zianists power menaced about its existence and sedentation.

But although this long conflict that exposed this nation during its histery against the Marrinians never handicapped it and make its assumption in political, military and civilization domains in the yard of Islamic Megreb, these ofcourse according to the great efforts of various sociable efficacies that work under this power among them we find a women that have a great existence and huge role during this period depending on how different studies were mentioned in spite of the fact that the role of women was limitted only on patronaging and educating children and takes care on its family but never handcapped or forbided her to make achievements and contributions in varuons fields, political, military, economical and ideational (intellectual).

What is our objective in this paper is to have a deep look about the great role of women in the Zianist age and its contributions in different domains specially in military and political fields.

Keywords: AL ziani era – Woman Zianist – Military role – Contribution in politic field.

مقـدمــة:

لقد كشف التاريخ على مدى قرون طويلة عن أدوار متفاوتة قوّة وتأثيرا لعبتها المرأة في شتى أوجه النزاعات العسكرية؛ فقد برزت في العديد من الحروب كقائدة، ومقاتلة أو كمثيرة لحماس المقاتلين، ومشجعة لهم على مواجهة العدو، وداعية إلى البذل والعطاء؛ بجانب تفانيها في أعمال أخرى تتقنها وهي ترافق الجيوش في ساحات القتال، وفي مجال الطبابة والإمداد إلى غير ذلك من المهن التي تتناسب مع طبيعة تكوينها الجسماني والنفسي، كما ساهمن كذلك في المجال الدبلوماسي، وكثيرا ما كانت المرأة طرفا في النزاعات السياسية بين الأمراء فساهمن بما تيسر لهن من إمكانيات مادية ومعنوية.

وقد حتمت ظروف الحرب المستشرية التي شهدتها الدولة الزيانية أن تدخل المرأة في الحرب إلى جانب الرجل، وأن تكون طرفا فاعلا فيها؛ وذلك من خلال اضطلاعها بأدوار مختلفة تنوعت مابين القتال والتحميس والتشجيع والمشاركة في المفاوضات بالإضافة إلى استخدامها في المخابرات والجوسسة؛ زد على ذلك مساهمتها في افتداء الأسرى بما تملكه من مال. وهذا ما يدفعنا إلى طرح التساؤل التالي: هل أفصحت لنا المدونة الوسيطية بما فيه الكفاية عن الأدوار العسكرية والسياسية التي اضطلعت بها المرأة في العهد الزياني؟

أولا: المرأة والحرب وتجليات الحضور

1- القتال وإثارة الحماس

على الرغم من أننا لا نمتلك أسماء لبطلات قدنا الجيوش وخضنا المعارك ضدّ أعداء بني زيان على غرار ما حدث في العهد المرابطي؛ حيث تشهد المصادر التاريخية لتلك المرحلة بأن النساء المرابطيات كن يخضن المعارك ويقاتلن في زي الرجال نظرا لما يتمتعن به من الشجاعة والحرية (حميدي، م.2001-2002: 76)، إلاّ أنّ ذلك لا ينفي مشاركة المرأة الزيانية هي الأخرى في الحروب إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة خلال هذه الحقبة؛ وإن كانت النصوص التي أشارت إلى ذلك مقتضبة.

حيث يستفاد مما ذكرته المصادر التاريخية أنّ قادة الجيش الزياني اعتادوا أثناء خروجهم إلى المعارك أن يصطحبوا معهم هوادج تحمل فوق الجمال وبداخلها نساء (مجهول، 2012. 147-148-168/ بلعربي، خ. 2014: 26)، وهو ما يثبت حضورها إلى جانب الرجل إما لغرض الاستئناس بها أو للقتال إلى جانبه إذا دعت الضرورة.

ومن الشواهد التي تثبت لنا حضور المرأة الزيانية في ساحة القتال هو ما حدث عندما هاجم السلطان أبو الحسن المريني (732-749هـ/1331-1348م) مدينة تلمسان في 27 رمضان من سنة 737هـ/1336م (ابن خلدون، ع. 2006: 7-305)، كانت نساء تلمسان تخضن المعارك إلى جانب الرجال خلف الأسوار(فيلالي، ع. 2002: 1-293).

ونظرا للتأثير النفسي العميق الذي تحدثه المرأة في الرجال عملت في ساحات القتال على تشجيع وتحفيز المقاتلين من خلال مختلف العبارات والتلميحات والسلوكات (فيلالي، ع.2002: 1-293)؛ ومن الأمثلة التي نسوقها للبرهنة على هذا الطرح ما حدث في معركة وادي تلاغ (ابن خلدون، ع.2006: 7/101-102/ ابن أبي زرع، ع.1972: 305) حينما احتدم القتال بين الزيانيين والمرينيين؛ وقد بلغ ضراوته إلى حد "أنّ النساء برزن في القباب سافرات على سبيل التحريش والتحريض"(السلاوي، أ.1955: 3-26/ ابن أبي زرع، ع.1972: 305).

وفي نفس السياق يؤكد صاحب الذخيرة بمشاركة نساء كلا الفريقين ويصف ثيابهن بقوله: "...واصطفت عيالات الفريقين خلف الجيوش في الهوادج والمراكب والقباب المزينات باديات الوجوه عليهن الحلل وثياب الوشي يحرضن الأبطال على الأبطال..." (مجهول.2012: 147-148) لشحذ الهمم والحث على البذل والعطاء وعدم التراجع والتخاذل.

والجو يرمل في سمـاء فساطــل *** وبنابها ظللا على الفرسان

والسيف دنى المضربين كجدول *** في ضفتيه شقائق النعمـان (مجهول، 2012: 148)

وفي خضم الصراع المستمر خاصة مع بني مرين وهو ما ترجمته كثرة الحروب ضدهم نقلت لنا المصادر بعض المواقف حول المرأة وهي تجابه الشدائد والأهوال وتعرض نفسها للخطر في الحرب؛ مثلما حدث أثناء المواجهة الشرسة بين الطرفين عندما اقتربت إحداهن ودنت من مقام أبي الحسن المريني (732-749هـ/1331-1348م)، ورفعت صوتها تنادي بني زيان، وتحثهم على المقاومة والصمود، وفي نفس الوقت كانت تهجو سلطان بني مرين وجنده وتكيل له الشتائم (ابن مرزوق، م.2011: 148).

2- المنع والتخفيف

من المواقف الشجاعة التي تحسب لنساء السلاطين الزيانيين في فترة كانت تلمسان معرضة للحصار الطويل في نهاية القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي والذي فرضه السلطان أبو يعقوب يوسف المريني؛ وقد استمر أكثر من ثماني سنوات (ابن خلدون،ع.2006: 7-113-115/ الوزان، ح.1983: 2-18)؛ حيث تجمع المصادر التاريخية على أنه أشهر حصار في التاريخ الإسلامي عامة (بوعزيز، ي.(د.ت): 10)، وفي العهد الزياني خاصة، وكان منطلقا لسلسلة من الحصارات التي سيشهدها العهد الزياني لاحقا، وقد تسبب في هلاك أهالي تلمسان حيث ذاقوا الأمرين الجوع والخوف (ابن خلدون، ع.2006: 7-113-114/ التنسي، م.2011: 132) بعد تشديد الخناق عليهم؛ وهو ما عبر عنه ابن خلدون قائلا: " ونالهم من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم" (ابن خلدون، ع. 2006: 7-197).

ومن شدة هول هذا الحصار كان له وقع شديد في نفوس الشعراء ومنهم أبو عبد الله محمد بن خميس (ت708هـ) الذي نظم قصيدة وهو في دار غربته تعتبر مرآة عاكسة لما لاقاه أهالي تلمسان من آلام ومآسي وأضرار وهم تحت الحصار نستعرض بعض الأبيات منها:

لعشرة أعوام عليها تجرمــت *** إذا ما مضى قيظ بها جاء أهـراء

يطنب فيها عابثون وخـرب *** ويرحل عنها قاطنــون وأحـــي

كأن رماح الناعبين لملكهـــا *** قداح وأموال المنـــازل أبـــداء

فلا تبغين فيها مناخا لراكب *** فقد قلصت منها ضلال وأفياء (ابن الخطيب، ل.1956: 2-539).

لكن رغم هذه الظروف لم تكن نساء البلاط على هامش الأحداث بل كان لهن موقف شجاع من خلال الدعوة إلى مواصلة المقاومة حتى الموت أو النصر؛ فأرسلن الخادمة "دعد" قهرمانة القصر لتقول للسلطان أبي زيان (703-707هـ/1303-1307م) " تقول لكم حضايا قصركم وبنات زيان حرمكم مالنا وللبقاء، وقد أُحيط بكم، وأسف لالتهامكم عدوّكم، ولم يبق إلاّ فواق بكيئة لمصارعكم؟ فأريحونا من معرّة السبي، وأريحوا فينا أنفسكم، وقرّبونا إلى مهالكنا. فالحياة في الذل عذاب، والوجود بعدكم عدم..." (ابن خلدون، ع. 2006: 7-114). كما يستفاد أيضا من نص هذا الخطاب أنّ هؤلاء الحرائر ورغم هذا

الظرف الصعب الذي عشناه لم يؤثر على حالتهن النفسية نظرا لما تميزن به من الشجاعة وقوة الشخصية في مقاومة الحصار؛ بدليل أنهن اخترن الموت على أن يقعن أسيرات في يد العدو، والتعرض للسبي والمذلة.

ومن النماذج الأخرى التي تعكس دور المرأة في التدخل للتخفيف من آثار هذا الحصار؛ وإن لم تكن من بني زيان وإنما هي إحدى نساء بني مرين، لكن ومن خلال تصرفها النبيل وموقفها الإنساني تجاه أهالي تلمسان ارتأيت إدراجها ضمن النساء اللائي كان لهن دور متميز، والمتمثل في شفاعتها لدى ابنها لوقف هذا الحصار لما لحقهم جرائه من مآسي وآلام وإن لم تنجح في ذلك؛ وفي هذا الصدد يروي ابن مرزوق على لسان السلطان أبي الحسن قائلا: "فدخلت عليا يوما فكلمتني في شأن أهل تلمسان وإعفائهم من الحصار...قال: فقلت لها إنّ الشّرع أمرني بهذا، وبينت لها ذلك بطريق شرعي، فحينئذ أمسكت" (ابن مرزوق، م. 2011: 123).

ثانيا: المرأة والسياسة ومواقف المشاركة

1- المشاركة في اتخاذ القرار السياسي

على الرغم من أنّ المرأة كانت من أكثر المتضررين في الحرب، فإننا لانعدم بعض النصوص التي تثبت أنها قامت بأدوار هامة، وحركت من خلف الستار أمهات القضايا السياسية (بوتشيش، إ.1993: 48) كأن تتولى رئاسة قبيلتها (ابن خلدون، ع.2006: 6-153) أو تشارك في المفاوضات من أجل إيقاف الحرب أو رفع الضرر والمعاناة على الأهالي.

ومن المع أسماء النساء الزيانيات اللواتي كان لهن دور فردي في مرحلة تعرضت فيها تلمسان للغزو الحفصي هي أم السلطان يغمراسن(633-681هـ/1235-1282م) (ابن خلدون، ي.2011: 1-225-229) المعروفة ب "سوط النساء"؛ وبحكم مركزها أم السلطان كانت لها تجارب في شؤون السياسة، وذلك من خلال مشاركتها على رأس الوفد الزياني للتفاوض مع العاهل أبو زكرياء الحفصي(625-647هـ/1228-1249م) (ابن الشماع، م.1948: 59) نيابة عن ابنها الذي أخرج من تلمسان سنة 640هـ/1242م (التنسي، م.2011: 117) بعد استيلاء الجيش الحفصي (ابن القنفذ، أ. 2015: 19) بقيادة أبي زكرياء عليها (الحميري، م.1984: 136)؛ وقد تمكنت هذه الأخيرة من إنقاذ عرش ابنها من خلال توقيع معاهدة صلح مع الحفصيين يعود بمقتضاها ابنها يغمراسن إلى عرشه، مقابل دفع إتاوة مالية قدرها مائة ألف دينار (ابن خلدون، ي.2011: 1-227)، وأن يذكر اسمه على المنابر في خطب الجمعة والأعياد (بن شاوش، ر.2011: 1-69).

ومن خلال هذا التصرف يبدو ذكاء هذه المرأة وحزمها وحرصها على تدعيم وتثبيت السلطة لابنها، وهو ما أثار إعجاب السلطان أبو زكريا الحفصي بها "فأكرم موصلها وأسنى جائزتها وأحسن وفادتها" (الزركشي، م.(د.ت): 29/ ابن خلدون، ع.2006: 7-96)؛ وهذه هي الشهادة الوحيدة التي نقلتها لنا المصادر التاريخية الخاصة بالعهد الزياني حيث لم يشهد بمثله لأمهات السلاطين اللائي جئنا بعدها بترؤس مجالس المفاوضات.

2- المشاركة في نظام الاستخبارات والجوسسة

بما أنّ نظام الاستخبارات والتجسس كان متداولا عند معظم الدول الإسلامية في تلك الفترة فإنّ الدولة الزيانية لم تشذ هي الأخرى عن هذه القاعدة؛ وكان لها حظ في هذا المجال نظرا لما كان يحيط بها من مخاطر، ولأنّ الحصول على المعلومات والاستخبارات حول العدو يلعب دورا حيويا في مجال الاستقرار والأمن لكل دولة (أبو حمو، م.2012: 171-172).

والتجسس معناه جمع المعلومات الحربية خلسة عن العدو بغية استخدامها في قتاله بعدئذ؛ وقد عرف العرب القدامى التجسس في حروبهم منذ عهد الجاهلية وسموه "إذكاء العيون"، وكانوا يطلقون على الجواسيس أنفسهم اسم "العيون" (الهندي، إ.1993: 188).

ونظرا لأهمية هذه الظاهرة فقد جعلها السلطان أبو حمو الثاني من إحدى الوصايا التي أوصى بها ولي عهده أبو تاشفين في كتابه واسطةالسلوك حيث أوصاه بالاستعانة بالجواسيس في الظروف العصيبة والحرجة ضد العدو القوي وفي هذا الصدد يقول " اعلم يابني أنه إذا كان عدوك أقوى منك فيجب عليك أن تدفعه بأنواع المحاولات...فمن رأيك الذي يندفع به عدوك ويرجع به سموك أن تكون لك جواسيس في بلاد العدو ويرقبون أفعاله على البعد والدنو، وعيون تلاحظ أعماله، وتشاهد أحواله، لا يفارقونه ليلا ولا نهارا، يسألون عن أحوال العدو سرا وجهرا، فكلما رام هذا العدو خداعا وأظهر فيك أطماعا جاءت الجواسيس بأخباره، وما أكنه في بلاده من أسراره، فتأخذ في قوام مدافعته إما بحيلتك أو بمصانعتك، وذلك بقدر حزمك وجدك وسياستك وكيدك..." (أبو حمو، م.2012: 171-172).

حتمت الظروف السياسية والأمنية التي مرت بها الدولة الزيانية إلى تجنيد النساء، وإدماجهن في شبكة الاستخبارات والتجسس لصالح الدولة ضد أعدائهم خاصة بني مرين الذين لا يتهاونون في اغتنام أي فرصة لغزو بلاد المغرب الأوسط وضمه إلى ممتلكاتهم، ومن النساء اللائي استخدمن في هذا المجال الجواري غير المسلمات وهن أسيرات نصرانيات تم ضمهنّ إلى نساء الحريم (برونشفيك، ر.1988: 1-480)، وكن يخدمن في البلاط الزياني (الوزان، ح.1983: 2-22).

وحسبنا في ذلك ما قام به السلطان أبو سعيد عثمان (681-703هـ/1282-1303م) حينما قام بإهداء جارية وسيمة رومية (ابن مرزوق، م. 2008: 285)، إلى نظيره أبي يعقوب يوسف بن يعقوب المريني بعد أن درّبها على أسلوب الكتابة السرية، وعلى التجسس والتقاط الأخبار، وزوّدها بالورق الخاص بذلك (ابن مرزوق، م.2008: 85)؛ وبالتالي يكون أبا سعيد عثمان[1] قد اخترق جدار أسرار البلاط المريني من خلال تلك المعلومات الهامة التي كانت تبعثها هذه الجارية حول البلاط وخططه ونواياه، واستعداداته وقوته العسكرية؛ وغيرها من المعلومات التي تساعد الخصم (فيلالي، ع.2002: 1-25).

وقد كانت هذه الجارية سببا في نكبة أسرة الوزير أبو سعيد عثمان بن عامر الذي كان يتولى منصب كاتب الدولة وحاجبها؛ وذلك نتيجة ما قام به ابنه الخطيب (ابن مرزوق، م. 2008: 284) من تسريب المعلومات والأسرار الخاصة بالبلاط الزياني إلى سلطان بني مرين؛ حينما كان سفيرا لديه ضمن الوفد الرسمي الذي بعثه السلطان يغمراسن برآسة الشيخ الفقيه أبو إسحاق بن يخلف التنسي (ت680هـ/1281م) (ابن مريم، م.1986: 67-68/ التنبكتي، أ.2013: 23-33-34/ نويهض، ع.1980: 84-85) من أجل عقد صلح بين السلطان أبي عثمان بن يغمراسن ونظيره أبي يعقوب المريني،[2] وكذا تعزيز الروابط الأخوية والعلاقات الدبلوماسية بين البلدين (فيلالي، ع.2002: 25).

وعندما كان الرسول الخطيب منفردا مع الأمير المريني يفشي له بأسرار الدولة كانت هذه الجارية تقف خلف الستار وتسمع ما يدور من حديث بينهما؛ فكتبت بذلك إلى السلطان أبي سعيد عثمان (ابن مرزوق، م.2008: 285)، وبعد عودة الوفد إلى تلمسان أمر السلطان عثمان بقتل أسرة الخطيب ووالده؛ فقتلوا قتلا شنيعا وصودرت أموالهم وسبيت حريمهم (ابن مرزوق، م.2008: 285).

ثالثا– المصاهرات السياسية، الأطراف والأسباب

ونشير بالذكر إلى أدوار أخرى احتفظ بها التاريخ ساهمت فيها المرأة في المجالين السياسي والعسكري على غرار مشاركتها في دواليب السلطة أو خروجها جنبا إلى جنب مع الرجل إلى ساحات القتال كمثيرة للحماس أو ما كانت تفعله في منع نشوب الحرب واستيعاب نتائجها؛ ومن ذلك الزج بها في مصاهرات ساسية وقبولها الزواج ولو مكرهة من الطرف الغازي أو المهدد بالغزو، وهكذا فالتاريخ الزياني يسجل حالات لمصاهرات بهدف لجم الصراع والتناحر الذي كان ينشب بين الفينة والأخرى بين بني زيان وأعدائهم.

1– مصاهرة بين السلطان يغمراسن والسلطان أبي إسحاق الحفصي

لقد حرص السلطان يغمراسن على تعزيز علاقاته وربط صلة وثيقة بالسلطان أبي إسحاق الحفصي تفاديا لأي حرب محتملة؛ وأكد ذلك بالمصاهرة فخطب أبنته لولده وولي عهده أبي سعيد عثمان سنة 681هـ (ابن خلدون، ي.2011: 1– 229/ ابن خلدون، ع.2006: 7–107)، وهي التي ستنجب له فيما بعد سلطانين من سلاطين بني زيان وهما أبو زيان محمد (703–707هـ/1303–1307م) وأبو حمو موسى الأول (708–718هـ/1308–1318م)؛ فأرسل للإتيان بها ولده أبا عامر (ابن خلدون، ي.2011: 1–207/ التنسي، م. 2011: 128) وقد حرص السلطان يغمراسن الذي جاوز السبعين من عمره على الانتقال بنفسه لاستقبال الوفد المصاحب للعروسة حفاية بها وإرضاء لأبيها (ابن خلدون، ي.2011: 1–229/ التنسي، م.2011: 128/ برونشفيك، ر. 1988: 1–115)؛ فلقيهم بمليانة لكن الأجل المحتوم أدركه قافلا برهيو من واد الشلف فتوفي هناك سنة 681هـ (ابن خلدون، ي.2011: 1–229/ التنسي، م.2011: 128).

ومن نتائج هذه المصاهرة نقص حدّة التوتر التي كانت قائمة بين الطرفين؛ وذلك بشهادة أحد المؤرخين الذي يتحدث عن خجل السلطان عثمان من التوسع شرقا بسبب علاقة المصاهرة والنسب بينه وبين الحفصيين (برونشفيك، ر.1988: 134/1).

2– مصاهرة بين السلطان أبي حمو ووالى بجاية

ومن المصاهرات التي كان لها الأثر الطيب على وضع حد للحملات المتكررة التي شنها السلطان أبي حمو موسى الثاني(760–791هـ/1359–1389م) على بجاية سنة 765هـ وحصارها بهدف إخضاعها، وأمام عجز صاحب بجاية المولى أبو عبد الله الحفصي عن المقاومة والدفاع لأنه تعرض في نفس الوقت إلى هجمات عسكرية من قبل ابن عمه أبي العباس صاحب قسنطينة الذي هزمه مرتين (ابن خلدون، ع.2005: 94–95/ ابن خلدون، ع.2006: 7–153–154)، فصعب عليه الأمر في إدارة الجبهتين الشرقية والغربية، فآثر أن يغير موقفه إزاء أحد الجانبين يستعين عليه على مقاومة الآخر، فعمل على تحسين علاقاته مع أبو حمو بإيجاد صيغة للتفاهم (خلفات، م. 2011: 94) فعرض عليه التنازل عن تدلس ومصاهرته في ابنته، وتم ذلك سنة 767هـ/1368م (ابن خلدون، ع.2005: 97/ التنسي، م.2011: 144) مقابل الهدنة والصلح؛ ويقول ابن خلدون في هذا الصدد "فأوفد رسله على السلطان أبي حمّو صاحب تلمسان في المهادنة ... وعقد معه السلم، وأصهر إليه في ابنته، فأجابه وزفّها إليه؛ فتلقاها قبيله ووزرائه بآخر عملهم من حدود بجاية..."(ابن خلدون، ع.2006: 7–153).

3– مصاهرة بين السلطان أبي عمرو عثمان الحفصي والسلطان أبي عبد الله أحمد المتوكل

كان للمصاهرة التي أبرمت بين السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان (839-893هـ/1435-1488م) مع السلطان الزياني أبو عبد الله أحمد المتوكل (866-873هـ/1462-1468م) الأثر الكبير لوضع حد لنهاية سلسلة الهجمات التي كان يشنها الأمير الحفصي بين الفينة والأخرى على تلمسان لتأديب سلاطينها الذين كانوا يعلنون التمرد في فترة كانت تلمسان خاضعة للحفصيين؛ بعد أن تمكن أبو عمرو عثمان من الاستيلاء عليها سنة 866هـ/1461م (الزركشي، م.(د.ت): 156-157).

وإثر الهجوم الأخير الذي شنه الأمير الحفصي بعث إليه المتوكل أشياخ البلد يعرضون عليه العفو والصلح، وكتبوا إليه بيعة سلطانهم والولاء له وتزويج ابنته البكر لحفيده أبي زكريا يحي بن مسعود (الزركشي، م.(د.ت): 158)؛ فقبل ذلك وعفا عنه وكتب له بخط يده نصا يقول فيه: "شهد على نفسه عبد الله المتوكل عليه محمد لطف الله به ولا حولة ولا قوة إلاّ بالله" (الزركشي، م.(د.ت): 158).

وفي المقابل نشهد حالة أخرى لمصاهرة ذات أغراض حربية لها دور سلبي على الوضع الأمني لدولة بني عبد الواد؛ وهو ما تم بين الطرفين المريني والحفصي في ظروف اقتضت عقد تحالف بينهما وتوحيد الجهود من أجل تأديب السلطان أبي تاشفين الأول(718-738هـ/1318-1337م) وإخضاع تلمسان؛ وقد تأكدت هذه المصاهرة التي تمت بين الأمير أبي سعيد المريني ونظيره أبي يحي الحفصي سنة 731هـ (الزركشي، م.(د.ت): 68/ ابن خلدون، ع.2006: 7-298-299) بعقد قران فاطمة شقيقة أبي زكريا بابنه أبي الحسن.

خاتمة: في إطار العرض السابق يمكن للدراسة أن تخلص للنتائج التالية:

أولا: إنّ الظروف السياسية التي مرت بها الدولة الزيانية وما صاحبها من حروب وصراعات خارجية وداخلية خاصة فترة القرنين السابع والثامن الهجريين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين الذين شهدا أكثرها وأعنفها؛ تمكنت خلالها المرأة من تسجيل حضورها السياسي والعسكري في حين لا نكاد نجد لها دورا في أواخر العهد رغم أن هذه المرحلة هي الأخرى لم تخلوا من الحروب والصراعات.

ثانيا: على الرغم من أنّ المرأة في العهد الزياني استطاعت أن تفرض نفسها من خلال الأدوار التي قامت بها؛ لكنها لم تشارك في العمل الدبلوماسي حيث نلاحظ غيابها تماما في السفارات والمراسلات الرسمية المتبادلة بين ملوك الدول الثلاثة، والتي كان من شأنها تخفيف حدّة الصراع القائم بين هاته الدول.

ثالثا: ما رشّح من نصوص حول تداعيات الحرب على المرأة في العهد الزياني تشير إلى أن دور المرأة في الحرب كضحية (منفعلة) أكثر من دورها كمشاركة فيها (فاعلة) رغم تعدد المهام التي قامت بها، إذ أنه بسبب هذه المهام سقطت منهن قتلى وجرحى وأسيرات حرب.

ملحق: جدول يبين حالات المصاهرة بين سلاطين الدولة الزيانية مع نظرائهم من بني مرين وبني حفص

السنة	طرفي المصاهرة		المصدر
681هـ/1232	الأمير العبد الواد أبو سعيد عثمان بن يغمراسن	بنت السلطان الحفصي أبي إسحاق ابراهيم	-بغية الرواد، 207/1 – العبر، 107/7 -نظم الدر، ص128
765هـ/1364م	السلطان أبي حمو موسى الزياني الثاني	إبنة صاحب بجاية المولي أبو عبد الله الحفصي	بغية الرواد، 159/2 العبر، 153/7 رحلة ابن خلدون، ص97
866هـ/1461م	ابنة الأمير الزياني أبو عبد الله محمد المتوكل	حفيدة الأمير الحفصي أبو عمرو عثمان	-الزركشي، ص158
731هـ/1331م	الأمير المريني أبي الحسن	الأميرة فاطمة إبنة الأمير أبي يحي الحفصي	-العبر، 298/7-299 -الاستقصا، 117/3 -الزركشي، ص68 نظم الدر، 144-145.

شروحات وتعليقات:

1/ يشير ابن العربي في كتابه أحكام القرآن في سياق حديثه حول فتوى جواز أو عدم جواز قتل المرأة المشاركة في الحرب إلى تعدد أدوارها ومدى تأثيرها في الحرب وذلك في قوله: "وللمرأة آثار عظيمة في القتال؛ منها الإمداد بالأموال، ومنها التحريض على القتال، فقد كنّ يخرجن ناشرات شعورهنّ، نادبات، مثيرات للثأر، معيّرات بالفرار، وذلك يُبيح قتلهنَّ"(ابن العربي، ب. (د.ت): 149).

2/ أثبتت وقائع التاريخ أنه في حالة وجود نقص في عدد الرجال المؤهلين للقتال خاصة في حالات الطوارئ؛ تزداد المشاركة الرسمية للمرأة في الأعمال العسكرية كرد فعل للحاجة إلى المقاتلين في الحرب؛ لكن وأمام ندرة نصوص تاريخية تثبت المشاركة الفعلية للمرأة الزيانية بكثافة فإني أعتقد بأن حضورها كان لغرض الاستئناس بها، وإثارة الحماس وهو ما لمسناه في العديد من النصوص التاريخية، وفي المقابل أريد أن أنوه إلى أنّ إستراتيجية سلاطين بني زيان في حالات الطوارئ والحاجة إلى مزيد من المقاتلين في حروبهم المتكررة لم يطبقوا هذه القاعدة؛ وإنما كانوا يلجئون إلى الاستعانة بالقبائل العربية والبربرية لتعويض ذلك النقص في عدد الرجال المحاربين حيث يقومون بتأجيرهم مدة العمليات العسكرية.

3/ وقعت هذه المعركة(واد تلاغ) بالضبط يوم الاثنين 12 جمادى الثانية 666هـ/28 فبراير 1268م، وكان سببها تحالف السلطان يغمراسن الزياني مع الأمير الموحدي أبي دبوس بعد الحصار المفروض عليه في عاصمته مراكش من طرف أبو يوسف يعقوب المريني، وكانت هذه الحرب من أعنف ما وقع بين القبيلين انتهت بهزيمة يغمراسن بن زيان الذي فرّ نحو تلمسان مع من بقي حيا من فلول جيشه (ابن خلدون، ع. 2006: 7-101-102).

4/ تعرضت تلمسان للحصار عدة مرات من طرف المرينيين لكن أطولها بلغ ثماني سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وكان من طرف السلطان المريني يوسف بن يعقوب الذي شن خمس حملات عسكرية ضد الدولة الزيانية خلال سنوات 689هـ- 695هـ - 696هـ -697هـ، وآخر حملة كانت سنة 698هـ حيث قرر حصارها وأن لا يرحل عنها حتى يفتحها أو يموت دون ذلك، واستمر حصاره للمدينة من 698هـ إلى غاية 706هـ وهي سنة وفاته، وبموته انتهى الحصار وكفى الله العناء على من بقي من أهل تلمسان وقد تحدثت العديد من المصادر عن الآثار الوخيمة لهذا الحصار على سكان تلمسان حيث أودى بحياة مائة وعشرون ألفا قتلا وجوعا.

5/ نظرا لشدة هذا الحصار وطول أمده هناك من الباحثين من شبّهه بحصار طروادة الشهير؛ لكن ما يختلف بينهما هو النهاية؛ حيث انتهى حصار طروادة بسقوط المدينة بينما ظلت مدينة تلمسان بأهلها صامدة حتى مات السلطان يعقوب المريني(بوعزيز، ي.(د.ت): 10).

6/ ابراهيم بن يخلف بن عبد السلام، أبو إسحاق التنسي المطماطي عالم مالكي من أهل تنس انتهت إليه رئاسة التدريس والفتوى في أقطار المغرب؛ استقدمه السلطان يغمراسن إلى تلمسان روى على ناصر الدين المشدالي وآخرون؛ رحل إلى المشرق للاستزادة فزار مصر والشام والحجاز ثم عاد واستقر بتلمسان ودرّس بها إلى أن مات، له شرح كبير على كتاب "التلقين" في عشرة أسفار، وله "تقييد" على الإرشاد (ابن مريم، م.1986: 67-68/ التنبكتي، أ.2013: 32-33-34/ نويهض، ع.1980: 84-85).

7/ يجب التمييز بين المصاهرة باعتبارها علاقة زوجية والقرابة كعلاقة دموية " القرابة هي علاقة اجتماعية تعتمد على الروابط الدموية الحقيقية أو الخيالية أو المصطنعة ولا يعني اصطلاح القرابة في الأنثروبولوجيا علاقات العائلة والزواج فقط وإنما يعني أيضا المصاهرة. لكن العلاقة هي قرابة دموية والمصاهرة هي علاقة زواجية فعلاقة الأب بابنه هي علاقة القرابة بينهما، وعلاقة الزوج بزوجته هي علاقة مصاهرة". أنظر (دينكن، م.1981: 130-131).

قائمة المصادر:

1- التنسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل. (2011). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان، تحقيق وتعليق محمود آغا بوعياد. الجزائر: موفم للنشر.

2-الحميري، محمد عبد المنعم. (1984). الروض المعطار في خبر الأقطار، (ط2). تحقيق: إحسان عباس. بيروت: منشورات مكتبة لبنان.

3-أبو حمو، موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحي يغمراسن الزياني. (2012). واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق: محمود بوترعة، الجزائر: دار الشيماء للنشر والتوزيع.

4-ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن. (2006). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (ط3). بيروت: دار الكتب العلمية.

5-ـــــــــــــــــ (2005). التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي. بيروت: دار الكتب العلمية.

6-ابن الخطيب، لسان الدين. (1956). كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان. القاهرة: دار المعارف.

7-ابن أبي زرع، علي الفاسي. (1972). الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.

8-الزركشي، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم. (د.ت). تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور. تونس: منشورات المكتبة العتيقة.

9-السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري. (1955). الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري. الدار البيضاء: دار الكتاب.

10-ابن الشماع، أبو عبد الله محمد بن أحمد. (1984). الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية. تحقيق: الطاهر بن محمد المعموري. تونس: الدار العربية للكتاب.

11-ابن العربي، أبي بكر محمد بن عبد الله. (د.ت). أحكام القرآن، مراجعة: محمد عبد القادر عطا، القسم الأول، بيروت: دار الكتب العلمية.

12-ابن القنفذ، أبو العباس أحمد الخطيب القسنطيني. (2015). الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية. إعداد: عبد الرحمن حمّاد الكتبي. الجزائر: منشورات وزارة الثقافة.

13- ابن مرزوق، أبي عبد الله محمد التلمساني. (2011). المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن. تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا. الجزائر: موفم للنشر.

14-ـــــــــــــــــــــــــــــــ (2008). المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهري، (ط1). الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.

15-ابن مريم، أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الشريف المليتي المديوني. (1986). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر: محمد بن أبي شنب. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

16-مجهول، (2012). زهر البستان في دولة بني زيان (760-764هـ/1359-1363م)، تقديم: محمد بم محمد باغلي. (ط2). الجزائر: الأصالة للنشر والتوزيع.

17-مؤلف مجهول. (2012). الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية. مراجعة: الربعي بن سلامة والسعيد بحري. قسنطينة: دار بهاء الدين للنشر والتوزيع.

18-الوزان، الحسن بن محمد. (1983). وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

المراجع:

- بوتشيش، إبراهيم القادري. (1993). المغرب والأندلس في عصر المرابطين –المجتمع- الذهنيات- الأولياء. (ط1). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

- برونشفيك، روبار. (1988). تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية 15م. تعريب: حمادي الساحلي، (ط1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- خلفات، مفتاح. (2011). قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط مابين القرنين (6-9هـ/12-15م) دراسة في دورها السياسي والحضاري. تيزي وزو: دار الأمل للنشر والتوزيع.
- دينكن، ميتشيل. (1981). معجم علم الاجتماع. ترجمة: إحسان محمد الحسن، (ط1). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- بن شاوش، رمضان الحاج محمد. (2011). باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- فيلالي، عبد العزيز. (2002). تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمراني، اجتماعية، ثقافية). الجزائر: موفم للنشر والتوزيع.
- نويهض، عادل. (1980). معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. (ط2). لبنان: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر.
- الهندي، إحسان. (1993). أحكام الحرب والسلام في دولة الإسلام. (ط1). دمشق: دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع.

الرسائل الجامعية:

- حميدي، مليكة. (2001-2002). المرأة المغربية في عهد المرابطين (448-541هـ/1056-1146م. مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، الجزائر.
- بكاي، هوارية. (2008-2008). **العلاقات الزيانية المرينية سياسيا وثقافيا**. مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان.

الدوريات والمقالات:

- بلعربي، خالد. (2014). النظام العسكري بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني- ضمن كتاب ورقات زيانية- (13-43).
- بوعزيز، يحي. (د.ت). "المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية (1236-1554م)". مجلة الأصالة، ع26، (3-29).

تاريخ الاستلام: 2016/10/05- تاريخ التحكيم: 2016/12/08 - تاريخ النشر2017/06/02

جدلية الدولة الجزائرية من خلال فترتي الحكم العثماني في الجزائر وحكم الأمير عبد القادر.

د.عثمان زغب

جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي- الجزائر

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

ملخص:

يتناول موضوع هذا المقال قضية تاريخية ، قانونية وسياسية في آن واحد ، تتمثل اشكاليتها في إبراز المناقشات التي طرحت حول طبيعة وشكل الدولة الجزائرية خلال فترتين تاريخيتين مختلفتين في الجزائر، بين ما تم بناءه في عهد الحكم العثماني لبلادنا ، وبين ما يعتبره البعض من نموذج لدولة جزائرية تأسست في عهد الأمير عبد القادر ، ووضعها في إطارها الخاص من منظور تاريخي وسياسي وقانوني، مع استعراض حجج وبراهين بعض الأطراف حول هذا الموضوع.

الكلمات المفتاحية: الدولة، السلطة، السيادة، عبد القادر، العثمانيون

Résumé

Cette article essaye de décrire une question historique, juridique et politique en même temps, son problématique ce fixe a présenté les débats qui sont proposé sur la nature et la forme de l'état algérienne dans deux époque différente en Algérie, entre ce qui c'est fondé à l'époque ottomane dans notre pays, et celle qu'elle a était construit à l'époque de l'Emir Abdelkader . ont essayeront de la placer dans sa cadre spécial de point de vue historique, politique et juridique, on présentait les arguments et les preuves de certaines partie sur cette sujet.

تمهيد:

يسعى الموضوع لتلمس طبيعة مفهوم الدولة الجزائرية ومدى تطابق معاييرها ضمن فترتين مختلفتين الأولى ، الجزائر خلال فترة الحكم العثماني والثانية تتناول فترة حكم الأمير عبد القادر الجزائري .

وتتمثل الإشكالية الرئيسية لهذا الموضوع في مدى توفر معايير وشروط الدولة ضمن فترتي حكم الجزائر خلال العهد العثماني وحكم الأمير عبد القادر ، فأيها كان جديرا بالارتقاء إلى مستوى الدولة كاملة الشروط والسيادة ، أمر سنحاول تلمسه في هذا المقال.

في البداية يجب أن نعترف بأن مفهوم الدولة وشروطها تختلف بين الجزائر في تاريخها الوسيط عن فترة التاريخ الحديث والمعاصر ، بالإضافة إلى ذلك أيضا أن اجتماع كامل هذه المعايير الشرطية في تحقق هذا الهدف يعدّ ضربا من الخيال لكون أن هذه المعايير تظل دوما نسبية من حيث التطبيق والتجسيد ، ولا يمكن الأخذ بها بصفة مطلقة، حتى أننا نلاحظ اختلاف في التعامل مع البعض منها خاصة لما يتعلق الأمر بالمنظور القبلي مثل ما كان مجسدا في الجزائر خلال فترة الحكم العثماني.

العرض:

لقد اختلف المفكرون والباحثون حول تعريف واحد للدولة ، لهذا جاءت عدة تعاريف مما جعل البعض يذهب للقول بوجود أزمة في تعدد التعريفات ، وسنحاول اختيار التعريف الذي نراه أكثر شمولية وأقرب إلى المنطق والواقع. (غضبان، م . 1994: 371)

يعرف أرسطو طاليس الدولة بأنها عبارة عن اتحاد لعائلات وقرى، كما عرفها عالم القانون الروماني "شيشرون"، بأنها مجموعة من المجتمعات الموحّدة بواسطة الشعور العام بالحق والمشاركة المشتركة في المزايا كما عرفها " قروشيوس" بأنها المجتمع الكامل للأشخاص الأحرار المتحدين برغبة الاستمتاع بفضائل أو مزايا الحق والاستعمال المشترك ، ويعرفها أيضا "بودان" بأنها جمعية

العائلات وملكياتها المشتركة المحكومة بقوة سامية وبالعقل: ويلاحظ على كل هذه التعريفات اتفاقها في جعل العائلات أو المجتمع كوحدة للتحليل بدلا من الفرد
(غضبان م . 1994: 371-372)

أما التعريفات الحديثة للدولة الحديثة : فقد عرّفها العالم الانجليزي "هولا ند" بأنها الجمع بين العديد من البشر المحتلين عادة لمنطقة ما، كما عرفها "قليب مور" بأنها الشعب المنظم سياسيا في إقليم محدد: أما الأستاذ "قارنز" فيذهب إلى القول بأن الدولة تعني جماعة من الأشخاص أكثر أو أقل عددا : يحتلون باستمرار جزءا محددا من الأرض مستقلين أو قريبين من ذلك عن الرقابة الخارجية، ويتمتعون بحكومة منظمة يعطيها السكان طاعتهم.(غضبان م . 1994: 372)

إن معايير " الإقليم ، الشعب ، السلطة ، السيادة ، الاستقلال..الخ "، تظل أبرز المعايير والشروط والخصائص في نفس الوقت التي تحقق لنا معالم الدولة في مختلف فتراتها مع أن تطبيقها يختلف من ظرف لآخر، مثلما هو من مجتمع لآخر. فالأرض أو الإقليم التي يضبطها حدود جغرافية تعتبر مشكلة في الحالتين سواء تعلق الأمر بالجزائر في العهد في العهد العثماني أو فترة حكم الأمير عبد القادر الجزائري ، مع أنها كانت أكثر تجسيدا في الحالة الأولى.

وفي هذا المجال يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله :"وتجدر الإشارة إلى أن الجزائريون يجهلون للأسف تاريخهم في جميع عصوره(....) لو عرف الجزائريون تاريخهم كله ، ولو تشبعوا من دراسة العهد العثماني وأن الجزائر قد أخذت شكلها الجغرافي والسياسي منذ هذا العهد لامتلئوا فخرا واعتزازا . فوجود العاصمة . الجزائر. يرجع إلى هذا العهد ، والحدود السياسية ترجع إلى هذا العهد والشكل الجغرافي . ماعدا في الجنوب . يرجع إلى هذا العهد.والمعاهدات الدولية مع رجالها يشهد عليه هذا العهد، والأسطول تأسس في هذا العهد، والوحدة الترابية من مخلفات هذا العهد، وسك العملة ووجود الراية ترجعان إلى هذا العهد. هذا لا يعني انه لم يكن هناك ظلم واستبداد وتمييز بين السكان وخرق لتعاليم الشريعة الإسلامية التي كانت تحكم الجزائريين والعثمانيين على السواء.". (وزناجي، م. 2008: 112-113)

مع ذلك يبدو أن الدكتور سعد الله ليس من المتحمّسين لفكرة توصيف الوضعية السياسية في العهد العثماني بالدولة فنجده يعلّق على هذه المسألة بالقول:" لعلي أفاجئكم بالقول بأننا لم نجرب الحكم قبل 1962، لم تكن لنا تقاليد في السلطة وتسيير شؤون الدولة ،كما هو الحال مثلا عند بعض جيراننا ، ولم تكن لنا عائلة حاكمة توارثت الحكم على أساس التمذهب الديني أو التغلب السياسي، حتى الاستقلال الذي كان قبل 1830، كان في الحقيقة لدولة عثمانية تحت قيادة الباشوات، ونحن لا نريد أن نعود مثلا إلى حكم الداي حسين ولا إلى نوعية استقلاله فقد كان حكما عسكريا مستبدا وغريبا ، وكنا تحته نسمى رعايا، وكنا مضطهدين ومهمشين اقتصاديا وسياسيا على الأقل بينما ثروات بلادنا كانت في أيدي عائلة بكري وبوشناق اليهودية ، وهي العائلة التي كانت تمثل صلة الوصل بين الجزائر وأوروبا...ومن منكم يريد أن يصبح رعية للداي حسين من جديد وتحت رحمة عائلة بكري وبوشناق ثانية؟(سعد الله، أ. 1986: ص13) .

كما تناول الدكتور سعد الله في كلامه العهد العثماني بعبارات نارية، حيث وصف من خلالها السلطة الحاكمة في الجزائر عشية الاحتلال بأنها كانت دخيلة ومستبدة ، على رأسها حسين باشا والمولود في أناضوليا والذي لم تكن تربطه بأهل البلاد سوى المصالح المادية التي تجعله يستمر في الحكم ،كما كان كل من باي التيطري ووهران غريبين عن أهل البلاد ، غير أن الاستثناء هو باي قسنطينة الذي كانت له خؤولة جزائرية ، ولكنه كان أيضا مستبدا بأمره معزولا عن سكان إقليمه، وربما كان لا يعرف لغتهم ولا يشاركهم عاداتهم ، وكانت الحكومة والديوان مؤلفين من غرباء أيضا ، بالإضافة إلى الجيش الانكشاري والبحارة الذين لا يكاد عددهم جميعا يزيد عن ستة آلاف جندي ، وقد سمى بعضهم النظام الجزائري عندئذ نظاما جمهوريا عسكريا، كما سماه بعضهم نظام أقلية مستبدة ، والخلاصة أن النظام الجزائري العثماني عشية الاحتلال كان لا يرعى إلا مصالحه الخاصة وكان الشعب أو

الرعية في حالة تغييب مقصود، وكما تجاهل النظام الشعب كذلك تجاهل الشعب النظام حتى وقعت كارثة الاحتلال. (سعد الله، أ .2007: 5-6)

لينهي كلامه بتساؤل استفهامي قائلا: " وهل أنا في حاجة إلى التذكير بأن السبب الأساسي لاحتلال الفرنسي يرجع إلى ديون عائلة بكري وبوشناق؟ وإذا ما كان للاحتلال الفرنسي من فضل علينا فهو إيقاظه لنا كي نخرج من عهد القبيلة إلى عهد الوطنية، ومن عهد الإقطاع إلى عهد الشعب ". (سعد الله، أ. 1986: ص13) .

يبدو لي مما طرحه الدكتور سعد الله أن معظم أحكامه عن هذه الفترة كانت تتعلق أكثر بفترة متأخرة من حكم العثمانيين للجزائر ، كما أنه باعترافه لم يتعمق كثيرا في دراسة الفترة العثمانية، ومع ذلك نرى أنه من الصعب إسقاط أحكام انطلاقا من الفترات المتأخرة من الحكم العثماني على باقي الحقب، خاصة التي كانت فيها الجزائر ذات مكانة رائدة بما في ذلك الازدهار الداخلي الذي شهدته في الكثير من الميادين حسب اعتقادي.

كما يوضح هذه المسألة أيضا الأستاذ توفيق المدني بقوله: " أن البلاد الجزائرية من الحدود التونسية إلى التخوم المراكشية ومن ساحل بحر الروم إلى ما وراء الزيبان قد توحدت إدارتها وخضعت لسلطة مركزية واحدة، فتكونت بذلك هذه الوحدة الجزائرية. كما أن القطر الجزائري بعدما توحدت إدارته وظهرت قوته قد أصبح رغم علاقته بالباب العالي دولة واسعة الاستقلال تقبل الممثلين وتمضي المعاهدات وتعقد الصلح وتتفاوض بصفة رسمية مع كل الدول". (المدني، أ ت .1986: 8-9)

ويسترسل هذا الأخير في وصفه للعهد العثماني في الجزائر بكونه عصر امتاز في هذه الديار عن العصور التي سبقته بأمور أربعة:

أولها: أن البلاد الجزائرية من الحدود التونسية إلى التخوم المراكشية ومن ساحل بحر الروم إلى ما وراء الزيبان قد توحدت إدارتها وخضعت لسلطة مركزية واحدة، فتكونت بذلك هذه الوحدة الجزائرية.

ثانيها: أن الحكم التركي قد صان الأرض الجزائرية عندما اشتدت رغبة المسيحية في اكتساحها على أيدي المحاربين الإسبان ، فلولا وقوف الأتراك إلى جانب الجزائريين لأصبحت المدن الساحلية كلها مدنا اسبانية بحتة كمليلة وسبتة بالمغرب الأقصى.

ثالثها: إن القطر الجزائري بعدما توحدت إدارته وظهرت قوته قد أصبح رغم علاقته بالباب العالي دولة واسعة الاستقلال تقبل الممثلين وتمضي المعاهدات وتعقد الصلح وتتفاوض بصفة رسمية مع كل الدول.

رابعها: إن القطر الجزائري بعد توحده وانتظامه قد ذاع صيته عالميا وأصبح طرفا له كلمته العليا في الصراعات الدولية بذاك الزمان.(المدني، أ ت .1986: 8-9)

في المقابل لقد حاول الدكتور علي آجقو جادا طرح العديد من الدراسات حول تاريخ الجزائر الحديث بنظرة مفاهيمية مغايرة حسب ما يقول،والتي يريد من خلالها تشجيعنا إلى البحث في مختلف الإشكاليات التي تميز فترة الجزائر العثمانية في مختلف الميادين حيث يدافع عن فكرة أن الدولة الجزائرية الحديثة ما قامت إلا خلال فترة الحكم العثماني ويقدم للتأكيد على ذلك، الكثير من الحجج الدقيقة والمتنوعة في الكثير من القضايا، ولعل من أبرز سلسلة دراساته وكتبه التي تتناول تاريخ مؤسسات الدولة الجزائرية الحديثة، كتابه" المغرب الأوسط من مجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة الأمة" في جزئه الأول ، ومن الملاحظات القيّمة التي سعى الدكتور لإبرازها ، هو قوله :" أ ن المهتم بتاريخ الدولة الجزائرية الحديثة في العهد العثماني سيصاب بنوع من الذهول لما نسج حولها من آراء تهدف إلى التقليل من شأنها وتلطيخ سمعة صانعيها لا لشيء سوى لأن هم أتقنوا أسلوب مواجهة الأوروبيين الصليبيين وعلى رأسهم الإسبان ومن ثمة ردوا لهم الصاع صاعين". (آجقو، ع . 2002-2003: 2-3) .

إن هذه الإستراتيجية التشويهية لأزهى فترة في تاريخ الدولة الجزائرية ولأعظم قادة عرفتهم البلاد قد حققت بعض النجاحات الظرفية حسب رأي الدكتور أجفو، فما قام به هؤلاء القادة اعتبره مؤرخو الاستعمار وكتابه وكذلك بعض المؤرخين والكتاب الجزائريين والعرب ، بالاحتلال الأجنبي؛ فالمؤرخون الاستعماريون كانوا يهدفون إلى طمس معالم هذه الدولة التي سفّهت أحلامهم وقضت على مشاريعهم في المنطقة وتصدت ببطولة لجميع حملاتهم البرية منها والبحرية، وألحقت بهم أشنع الهزائم ومن ثمة جاء

موقف هؤلاء المؤرخين بدافع الانتقام من جهة ولتبرير الوجود الاستعماري الغربي من جهة أخرى ". (آجقو، ع . 2002-2003: 2-3) .

كما يضيف الدكتور علي أجقو في هذا المجال بقوله: " لم يكتف الفرنسيون بإقامة أجهزتهم الاستعمارية، بل راحوا يشنون حملة واسعة النطاق لطمس معالم الدولة الجزائرية في جميع المجالات. وكان ذلك بهدف القضاء النهائي على المرجعية التاريخية والحضارية للجزائر بصفتها دولة وأمة. ولتحقيق هذه الغاية، أطلق العنان لمؤرخي الاحتلال وضباطه ليرسموا لوحة قاتمة عن حالة الجزائر بغية تبرير احتلالهم لها، لدرجة أنهم نزعوا عنها صفة الدولة على الرغم من أن دولتهم (فرنسا) كانت تتبادل مع الجزائر الممثلين وتبرم معها المعاهدات وتعمل على كسب ودها وصداقتها بتقديم الهدايا والإتاوات. تلكم اللوحة القاتمة أصبحت المادة الخام التي ينهل منها غالبية المؤرخين والباحثين، عرباً وغيرهم، حينما يتناولون تاريخ ومؤسسات الدولة الجزائرية الأولى PEA"[3].

وقد تصدى لهذا التحريف والتزييف العمدي لتاريخ الجزائر الحديث، الحافل بالأمجاد والبطولات، نخبة من الباحثين والمؤرخين الجزائريين: المرحوم توفيق المدني والدكتور مولاي بلحميسي والدكتور جمال قنان والدكتور محمد العربي الزبيري..الخ ". (آجقو، ع . 2001:)

أما الدكتور عمار عمورة ففي حديثه على الحكم العثماني في الجزائر كان جد معتدل في أطروحاته حيث أوضح وجود مناطق في الجزائر كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي مثل القبائل والمناطق الصحراوية ، التي تخضع لرؤساء القبائل من جزائريين ، وتراقبها ثكنات عسكرية ، ولا تخضع مباشرة لسلطة الداي ولكنها تدفع له إتاوة ، كما كان الحكم العثماني يعتمد في سيطرته على الأرياف الشاسعة على قبائل المخزن، وهي عبارة عن تجمعات سكانية اصطناعية مزودة بالسلاح تربط المحكوم بالحاكم وتحظى بامتيازات متنوعة منها الإعفاء الضريبي ، وبالمقابل تساعد الدولة في تحصيل الضرائب والحفاظ على الأمن ، أما عن مسألة المناصب فأوضح الدكتور عمار عمورة بأن الأتراك لم يولوا المناصب العليا في الجزائر للجزائريين بل وحتى الكراغلة المنحدرين من أب تركي ، حيث كان حسب اعتقاده يشك فيهم وهذا نظرا لعدم ثقتهم وتخوفهم من العنصر الجزائري ن ولكن لا يعني ذلك بأن الأتراك كانوا يعاملون الجزائريين معاملة استعمارية مثلما فعلت فرنسا عند احتلالها الجزائر ، كما حاول تفسير الجمود الحاصل في النشاط العلمي في الجزائر بكون الدولة العثمانية كانت تهتم بالقوة العسكرية البحرية وهو ما يفسر افتقارهم للجانب العلمي. (عمورة، ع. 2002 : 105)

ليخلص الدكتور عمار عمورة في الأخير بالقول: " وعلى أية حال يمكن القول أن فضل رسم الحدود الجزائرية الحالية واختيار مدينة الجزائر عاصمة لها يرجع للعهد التركي عكس الادعاءات الفرنسية عند احتلالهم الجزائر في كونها لم تكن أمة في يوم من الأيام بل هي بلاد تسكنها مجموعة قبائل متناحرة ومتنافرة فيما بينها ، ولولا الروابط الدينية حسب ظني التي كانت تجمع الجزائريين بالأتراك لما بقوا ثلاثة قرون (...)وحتى الاضطرابات والثورات التي وقعت في عهد هم كانت أغلبها لسبب الضرائب المفروضة عليهم في أواخر عهدهم بالجزائر، وخلاصة القول أن الأتراك جنّبوا الجزائريين والإسلام مصيبة كبيرة بتدخلهم لإنقاذها في الوقت المناسب من أيادي الإسبان وبهذا فقد أرجئوا الاحتلال الأوروبي قرونا أخرى ". (عمورة، ع. 2002 : 105)

نحن ندرك أن خضوع الأقاليم الحدودية أو لنقل التخوم الجزائرية للسلطة المركزية العثمانية في مدينة الجزائر أو قسنطينة ظل متراوحا في الجهة الشرقية حسب مصالح هذه القبائل بين حاكم تونس وحاكم الجزائر ونفس هذه الوضعية كانت في الغرب الجزائري ، وهذا ما يفسر توصيف المؤرخ الفرنسي " أندري نوشي "لهذه التخوم بالحدود غير الثابتة أو الحدود المتحركة (la frontières en marche)" ، بحيث أن الولاء هو من يصنع حدود الإقليم وشكل الخضوع للسلطة الحاكمة ومن ثمّ الدولة صاحبة السلطة الفعلية. (عميراوي، ح . 2002: 16) .

[3] PEA هو اختصار لعبارة الدولة الجزائرية الأولى . première Etat Algérienne ..

نفس هذا الأمر لم يتحقق بتاتا في أجزاء من البلاد في حكم ما يعرف بالدولة الجزائرية الحديثة التي أسسها الأمير عبد القادر فلم يكن إقليمه الجغرافي يضم كل المناطق الجغرافية للجزائر ماعدا مناطق معينة حيث يصف" ألكسيس دي توكفيل " هذا الأمر بقوله: " لقد تركنا أرستقراطية العرب الوطنية تولد من جديد ، ولم يبقى لنا إلا أن نستغلها ، استقرت إلى الغرب من ولاية الجزائر قرب الامراطورية المغربية(...)حيث تولدت سلطته عن الفوضى، وطورتها الفوضى بلا توقف، وبعناية الله وعنايتنا نحن توفرت له مقاطعة وهران ومقاطعة التيطري". (دو توكفيل، أ . 2008 : 20) .

إن كلام ألكسيس دي توكفيل يبرز بوضوح إستراتيجية فرنسية قائمة على أسلوبين مختلفين طبقها الاحتلال تجمع بين استعمال القوة والدهاء السياسي وحتمية إلى جانب القوة العسكرية؛ حيث يقول بلوندال Blondel في كتابه " نضرة عن الوضعية السياسية التجارية والصناعية للممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا في بداية 1836 " ضمن هذا التوجه :" فبعد أن حدّدنا هدفنا، علينا الآن، البحث عن الوسائل التي بإمكانها إيصالنا. وهي تشمل، حسب رأينا، في العمل في الوقت نفسه بين القوّة والتفاوض السياسي.". (Blondel.L. 1836: 25)

إن إبراز سياسة التفاوض وإبرام الاتفاقيات بين سلطة الاحتلال الفرنسي والجزائريين المسلمين، يفرض الإشارة إلى تعريف كل من التفاوض والاتفاقية من منظور سياسي وقانوني ومحاولة إسقاط ذلك على الوضع في الجزائر وتطبيقاته خلال فترة الاحتلال الفرنسي. وضمن هذا الإطار يعرّف الدكتور حميدة عميراوي المعاهدة بصفتها عهد، بقوله: " يكاد يتّفق الدارسون على أنها اتفاق مدوّن بين حكومتين أو دولتين على قضايا تتعلق بالسياسة أو التجارة أو سواهما " . (عميراوي .ح . 2003 : 74)

كما يشترط أن " يتحقّق فيها التراضي بين طرفين أو أكثر، كما يشترط أن تكون لدى الأطراف الموقعة عليه صفة الأهلية لإبرام هذه المعاهدات، " وتمس العلاقات التي يحكمها القانون الدولي "، ويترتب عليها عندئذ حقوق والتزامات قانونية (..) أما الاتفاق فهو يعبّر عن " معاهدات ثنائية ذات صبغة ذات صبغة فنيّة"، ولفظ اتفاقية على الاتفاقيات المتعددة الأطراف التي تنظم التعاون الفني بين الدول ". (عميراوي .ح . 2003 : 75)

يضيف الدكتور حميدة عميراوي في هذا الأمر أيضا مسألة مفادها أن الأمير قد واجهته صعوبة في تطبيق البيعة خاصة على القبائل التي كان أساس حكمها العرف المثمن في العصبية، سواء في الشمال الجزائري أم في الصحراء ،لأن هذه الأخيرة لم تكن بها مدنية ولا عمران ومن ثم فدور الشيوخ فيها كان يقوم فقط على فض النزاعات بواسطة العادات والتقاليد وعلى قيادة الصفوف , ولم تكن لديهم رغبة ملحّة في الاحتكاك بالمدنية الغربية أو في قبول نظام حكم يفرض عليهم من خارج محيطهم , بحيث كان لهذا الموقف دوره في إضعاف الدولة الجزائرية الأميرية كما يطلق عليها الأمر الذي سهل على سلطة الاستعمار الاستيطاني أن تتوسع على حساب هذه السلطة الفتية الأميرية. (عميراوي، ح . 2001: 62-63) .

مع ذلك لا يمنعنا ذلك من القول، أن الأراضي التي كانت خاضعة لسلطة الأمير عبد القادر كانت تمثل الجزء الأكبر من الأقاليم الجزائرية على الأقل في المناطق الشمالية, لكن هذا لا يمنعنا من القول بأن معيار الإقليم أو الأرض لم يتوفر هنا إلا بشكل نسبي وبالتالي فسلطتها في الأقاليم خارج هذا المجال الجغرافي لدولته مفقودة.

لقد حاول الأمير عبد القادر تنظيم جيشه وإدارته وخزينته وعملته وعلمه، واتخذ من معسكر عاصمة له، وعين عليها صهره مصطفى بن تهامي ليكون خليفة له، كما عين على تلمسان البوحميدي الوهاصي، وعلى مليانة الحاج محي الدين بن مبارك ثم بن علال، كما عين على المدية أخاه مصطفى ثم محمد بن عيسى البركاني، حيث انضمت له العشائر وتقوى ساعده فضغط على الفرنسيين الذين كانوا ما يزالون محاصرين في وهران، حيث كان قائدهم ديميشيل الذي خلف الجنرال بواييه، وقد رأى ديميشيل أنه من مصلحة فرنسا التفاوض معه وانتهى ذلك بمعاهدة ديميشيل 1834 . واعترفت فرنسا بموجبها بما عنده من مقاطعات ويشمل ذلك إقليمي الغرب والوسط(وهران والتيطري) ماعدا بعض المدن الساحلية التي احتلها الفرنسيون مثل مدينة الجزائر ووهران

ومستغانم، كما تنص المعاهدة على تبادل الأسرى المحاربين وعلى تبادل القناصل وحرية التجارة وأمن الطرق وحق الأمير في شراء السلاح من المدن الفرنسية. (سعد الله، أ . 2007 : 29-30) .

وقد امتاز الأمير بكونه كان حريصا على استغلال الاتفاقيات التي كان يعقدها مع الفرنسيين في دعم الاستعداد العسكري والتنظيم الإداري . (العلوي، م ط . 1985: 37) .

ومما يلاحظ بأنّ سياسة عبد القادر ضدّ فرنسا كانت حسب موريس وحل(Maurice Wahl)في الواقع عبارة عن :" خليط بارع من المكر والخداع ".(Maurice. W. 1882: 134)

لقد اعتبر البعض المعاهدة انتصارا كبيرا للأمير حيث ازدادت شعبيته، وانضم إليه المترددون، واستفاد من ذلك في شراء السلاح وتحديث الجيش النظامي، وإنشاء الصناعات وسك العملة. (سعد الله، أ . 2007: 30) .

وعلى أي حال فان معاهدة السلم كانت تعبيرا عن محاولة تهدف إلى إقامة نظام الحماية في الجزائر، كما كانت تجربة لم تتوفر لها عناصر التطور في الاتجاه المراد لها بسبب نفوذ الفئة الرأسمالية والعسكرية والسياسية الضاغطة والداعية للإلحاق والاستيطان.(زوزو، ع ح . 2006 : 11) .

لكن رغم أهمية هذه المعاهدة في كونها قد عطلت عملية التوسع الفرنسي مؤقتا في الغرب وأجزاء من الوسط، ومنحت فرصة للاستعداد بالنسبة للطرف الجزائري، لكن حسب اعتقادي أنها منحت للفرنسيين وقتا كافيا للتفكير والتخطيط ودفع توجه تحركاتهم نحو الشرق الجزائري بالاظافة لكونها قد ساهمت في فك الحصار الاقتصادي على الفرنسيين، وكذا السماح لهم بحرية التحرك مما يساعدهم على رصد المعلومات التي سيحتاجونها لاحقا في تحركاتهم ، كما أن تعيين القناصل سيفتح الطريق أمام التطبيع مع العدو وكذا محاولة استغلالهم للتجسس على الأمير عبد القادر ومعرفة نقاط ضعفه.

إن المتأمل للاتفاقيات المعقودة بين سلطة الاحتلال في الجزائر وبعض الشخصيات القيادية في مختلف المجالات السياسية والدينية، يرى أنها لم تكن في الواقع سوى تسويات مؤقتة بحكم أنها كانت مجرّد اتفاقيات مؤقتة خدمة لمصالح التوسع الاستعماري في الجزائر. يضاف إلى ذلك طرح تساؤل جوهري في الموضوع مفاده؛ هل كل من شارك في توقيعها كان يمتلك هذه الصفة الأهلية لتوقيعها؟ ، ثمّ هل كانت تتعامل سلطة الاحتلال أثناء توقيعها بهذه الشروط الملزمة التطبيق وفق القانون الدولي بما في ذلك معاهدة الاستسلام مع الداي حسين. أم أن الإدارة الاستعمارية لم تكن تراها من هذه الوجهة القانونية، بل كانت تتعامل معها من منطق كونها مجرّد تسويات مؤقتة فرضتها عقلية وأسلوب التدرج في فرض احتلالها للجزائر ، ولم تكن في الواقع تعترف بأهلية هذه الشخصيات بصفتهم ممثلين للجزائريين والدولة الجزائرية المهزومة بما في ذلك الداي حسين، وبالتالي هي ترى بتطبيق منطق الغالب مع المغلوب وليس للجزائريين أيّة صفة قانونية تلزم الفرنسيين باحترامها منذ احتلال مدينة الجزائر وإسقاط حكم الداي حسين وإلغاء الدولة الجزائرية من الوجود . وبالتالي فهي تتعامل مع شخصيات معنوية وقيادية ضمن أقاليمها فقط. لتتجنب بذلك المسائلة القانونية التي يفرضها القانون الدولي المنظم للعلاقات الدولية حول المعاهدات والاتفاقيات.

أما في ما يتعلق بمسألة السلطة لدى الحكم العثماني في الجزائر, فلقد كان للحكام العثمانيون سلطة فعلية ومباشرة فقط في مناطق الساحل الجزائري بالمدن الهامة , بالإضافة لبعض الدواخل مثل قسنطينة في حين اعتمدت على حكم غير مباشر أو لنقل سلطة بالوكالة في المناطق الداخلية بما في ذلك المناطق الصحراوية , من خلال اعتماد نظام المخزن والذي يستجيب لخصوصيات المجتمع القبلي الجزائري , بحكم توجسه إلى حدّ ما من سلطة المدينة خاصة لما تكون وافدة أجنبية أو لنقل السلطة الرسمية , بحيث يفضل النموذج التقليدي الذي يعتمد على شيخ القبيلة بسبب ما تعرضت له الجزائر عبر تاريخها من سيطرة السلطات الخارجية والتي تركزت في المدن خاصة الساحلية , كما أن القبيلة كانت تمثل للجزائري الأصل والجذور والانتماء والعادات والتقاليد إن لم نقل الهوية الوطنية الصغيرة.كانت علاقة القبائل مع الإدارة العثمانية أنواع: هناك القبائل النائية التي لا تصلها يد السلطة، وهناك

القبائل ذات الاستقلال الذاتي التي تدفع الضريبة الخضوع، وهناك قبائل الرعية، وهذه بدورها أنواع؛ الخاضعة خضوعا جزئيا ومنها الخاضعة خضوعا تاما وتسمى قبائل العازل أو العبيد. وأخيرا هناك قبائل المخزن وهي المتحالفة مع السلطة المركزية وتمدها بالمال والرجال عند قيامها بحملات عسكرية سواء داخليا أو خارجيا. (سعد الله، أ . 1982 .: 52) .

مع ذلك كان لسياسة قبائل المخزن والبايلك والتي انتهجها العثمانيون في حكمهم للجزائر للسيطرة على السكان والتحكم فيهم وإخضاعهم لهم من خلال قبائل المخزن تأثيرا في تحول هذه الأخيرة إلى عصابات قمعية مهمتها الأساس هو فرض السياسة المركزية فقط وهذا يفسر التذمر الذي خلفته لدى الأهالي والذي انعكس على رؤيتهم تجاه السلطة المركزية، يضاف إلى ذلك أنها لم تكن مهيكلة عسكريا للمساهمة في الدفاع عن البلاد في حالة الخطر ، والذي كان متروكا للأسطول البحري، وكان لهذه النقطتين الأثر البالغ في تسهيل نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر والسقوط السريع لعاصمتها أمامهم. (هلال، ع. 1995: 32) .

وهنا أضيف مسألة هامّة تتمثل ، حسب اعتقادي في أن الدولة العثمانية من خلال ممثليها الحاكمين في الجزائر , قد تجنبوا المغامرة في المناطق الداخلية واحترموا خصوصيات المجتمع الجزائري في اعتماد نظام القبيلة أو العصبية للعشيرة والتي أبت تجاوزها.

إن هذا النظام الذي فرضه الحكام العثمانيون في الجزائر لقرون (1830/1518) يعترف به حتى غلاة المؤرخين الفرنسيين حيث يؤكد " ألكسيس دو توكفيل" بقوله: "كانت الحكومة التركية حكومة مكروهة , لكنها كانت في النهاية تفرض نوعا من النظام , ورغم أنها كانت تشجع ضمنيا حروب القبائل فيما بينها , إلا أنها كانت تقمع السرقة بقوة وتؤمّن الطرقات , كانت اظافة إلى ذلك العلاقة الوحيدة التي تربط العشائر المختلفة المركز الذي تنتهي إليه تيارات متباعدة, بسقوط الحكومة التركية دون أن يعوضها شيء اتجه البلد الذي لم يكن بإمكانه تمييز نفسه بنفسه بعد إلى فوضى مريعة". (دو توكفيل، أ . 2008 : 18-19) .

إن العناصر التي تمّ ذكرها كالإقليم والشعب والسلطة مهمة ولكنها غير كافية لوحدها إذا لم يكن هناك عنصر السيادة الذي يفرّق بين الدولة المستقلة والدولة التابعة , كما يجب أن نوضح هنا أن للسيادة مظهران ؛ مظهر داخلي ومظهر خارجي , فالأول يعني سلطان الدولة على الأشخاص والإقليم بمعنى السيادة الإقليمية والسيادة الشخصية , والثاني يعني حق الدولة في الدخول في علاقات مع الدول الأخرى والدخول في تحالفات , بمعنى أن السيادة تعني التمثيل الداخلي والخارجي للمواطنين. (غضبان م ، 1994: 399-400)

برأيي أن عنصري أو خاصيتي الاستقلال والسيادة شرطين متلازمين , فلا يمكن تصور سيادة بدون استقلال، مثلما أن الاستقلال الذي لا يترجم بتمتع الدولة بمظاهر سيادتها يفقدها حسب علمي الخاصيتين معا القانونية والمعنوية لصفة الدولة في تاريخنا الحديث والمعاصر , فالسيادة والاستقلال هي أساس الحكم والنظام في الدولة والذي يميزها عن باقي الكيانات الدولية الأخرى أما مسألة الشعب وعلاقته بالسلطة فتهميشه يؤدي إلى اللاّدولة وهو شكل من النظام السياسي الاستبدادي الذي تتحكم فيه أقلية بالسلطة (أوليقارشيا) بفرضها حكما دكتاتوريا.

إن نظام المخزن المعتمد خلال فترة الحكم العثماني للجزائريين في دواخل البلاد يتقاطع إلى حدّ بعيد مع بعض امتيازات ومزايا ما يعرف بالحكم الذاتي في تاريخنا المعاصر مع أنه لا يشبهه من الناحية القانونية والعملية الإجرائية , ناهيك عن الإطار العام.

لقد امتلكت الجزائر خلال العهد العثماني معظم مظاهر السيادة المعروفة في الدولة المدنية ثمّ الوطنية لاحقا, حتّى بالمفهوم الغربي في بعض الأحيان من خلال تعيين السفراء والقناصل وعقد المعاهدات والاتفاقيات وصكّ العملة واستقلالية القرار. ولعل هذا ما يبرزه محمود باشا محمد في كتابه الاستيلاء على ايالة الجزائر، ردّا على رواية الفرنسيين في هذا الأمر في أن الجزائر في نظر فرنسا بقعة من فوضوية لا اعتقاد ولا قانون لها وتعقيبا على ما ورد في توصيف رجل السياسة الفرنسية "ايدغارفور" في مسألة نفيه لوجود دولة جزائرية حيث جاء عنه في قوله: " من المحتمل أن يكون السيد "ايدغارفور"قد تعرض في مداخلته لحالة فقدان الذاكرة , فدون أن نسمح لأنفسنا بتقييمه, علما أن ذلك لا يدخل ضمن أهدافنا , نستطيع دون فخر أن نعيد تشكيل ذاكرة معينة في

حالة ما إذا كان من خلال تقديم لمحة مثبتة لوجود الدولة الجزائرية , كان ثمّة وجود فعلي لدولة ذات سيادة في الجزائر, ونحن مدينون بهذه الإجابة للزملاء الأقدمين والمؤرخين المحدثين الذين يوضحون لنا في مؤلفاتهم البارزة , أن الجزائر كانت دولة متمتعة بحدود وسيادة ذات حياة وطنية ودولية وقد حظيت باعتراف بلدان عدّة منذ أمد بعيد ". (محمد، م ب. 2009: 11) .

أما مسألة الولاء للدولة العثمانية التي يتحجج بها البعض في إسقاط مظهر الاستقلال للجزائر فترة الحكم العثماني , فلا تتعدى حسب اعتقادنا من الناحية العملية الولاء الروحي , بحكم أن حاكم الدولة العثمانية كان يمثل بالأساس سلطة دينية بحكم أنه يشكل ما يعرف "بالإمام" , رغم كونه خليفة وحاكم من الناحية السياسية , غير أن علاقته وتواصله مع الأقاليم والايالات العثمانية كان يختلف من إقليم لآخر, بين المباشر وغير المباشر, وهذا الأخير ينطبق مع حالة الجزائر.

وهنا يجب أن نوضح نقطة , في كوننا إذا ما أخذنا بحجج الفريق الذي يسقط صفة الدولة والاستقلال على الجزائر خلال العهد العثماني بحكم الولاء الروحي للسلطان , فهذا يؤدي بنا إلى إلغاء صفة الدولة الوطنية الأوروبية بل والغربية عامّة خارج القارة العجوز, بحكم ولائهم الروحي لبابا الفاتيكان بابا الكنيسة الكاثوليكية , والذي يستقبل في دولهم كالملوك بل ولديه سلطة الضغط والتحكم في زمام الكنائس الكاثوليكية عبر العالم من حيث النظام الإداري والتسيير والبرامج المنتهجة , بل وأكثر من ذلك أن الكنيسة كانت حاضرة وبقوّة فترة الحملات الاستعمارية كداعم وموجّه للسياسات التوسعية الاستعمارية في الكثير من بلاد العالم بإفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية,مما يعتبر تدخلا سياسيا ونوعا من الوصاية على هذه البلدان ومشاركة في هذه المشاريع خدمة لمصالح الكنيسة الأم.

أما بالنسبة لحكم الأمير عبد القادر ولا أقل الدولة الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر لأنه حسب ما أعتقد، بأن وضعية الاستعمار تتنافى وصفة الاستقلال , وان طبقنا العلاقة المتعدية المتلازمة التي تربط الاستقلال والسيادة والعكس صحيح , فلا تتحقق سيادة بدون استقلال مثلما لا معنى لاستقلال دون سيادة , نجد أن حكم الأمير عبد القادر كان يفتقد لشرط هام إن لم نقل أساسي , وهو ولاء واعتراف الأمير عبد القادر بسلطة فرنسا في إفريقيا (بمعنى الجزائر في ذاك الزمان), مما يعني اعترافه بصفة مباشرة بسلطة الاحتلال وأن تقلده الحكم في مجاله الضيق بحدود ما يصطلح على تسميتها بالسلطة الاستثنائية ضمن مناطق نفوذه يدخل ضمن إطار عام هو سلطة الاحتلال الفرنسي للبلاد عامة.

وان سلمنا بقبول هذه الحالة الاستثنائية في الجزائر فما هو موقفنا ورأينا في حكومة عباس أبو مازن في فلسطين وجماعة فتح ودولتهم المزعومة في ظل اعتراف ضمني بسلطة وشرعية الاحتلال الصهيوني لفلسطين مثلما هو الأمر أيضا فيما يعرف بدولة العراق والحكومة العراقية في ظل الاحتلال الأمريكي مثلما هو حكم كرزاي في أفغانستان في ظل احتلال قوات التحالف الغربي للبلاد, فكيف يمكن أن تتلازم صفتي وجود الدولة وسلطة الاحتلال في نفس الوقت .

إن وجود حكومة فاقدة للسيادة في ظل سلطة احتلال حسب رأيي يفقدها المعايير الأساسية لتمثيل وتشكيل الدولة , وإلا لاعتبرنا الممالك التونسية والمغربية والمصرية في ظل سيطرة الحماية الأوروبية الفرنسية الاسبانية والبريطانية دولا قائمة بذاتها.

إن مفهوم السيادة من وجهة نظر القانون الدولي والمجتمع الدولي مفهوم قديم يعود إلى القانون الروماني حيث عرّفه " بروكيولس Proculus" بأنّه التحرّر من سيطرة حكومة أجنبية , كما يمكننا في هذا المقام طرح تساؤلات في العلاقة بين الاستقلال والسيادة تتمثل في مدى نفي الاستقلال الجزئي لخاصية السيادة , مثلما هو هل يمكن أن يكون هناك للدولة سيادة بدون استقلال , بل ويدفعنا الأمر لطرح سؤال استفهامي ؛ يتمثل في هل السيادة المطلقة وهم ثم هل الواقع يؤكد وجود سيادة محدودة. (غضبان، م . 1994: 401-408-414)

استنتاج:

برأيي الديكور لا يشكل دولة , فما معنى أن تملك ولا تحكم مثلما لا معنى لاستقلال و سلطة داخل إقليم ضمن إدارة احتلال مغلقة تحجب وتمنع حق الانفتاح والتنفس الطبيعي ضمن مجال العلاقات الدولية، فهي أشبه بالإنسان الذي يعيش في غرفة الإنعاش اعتمادا على التنفس الاصطناعي والأجهزة الطبية.

إن الدولة حسب ما أرى لم تنشأ لأجل حكم الإقليم والشعب الخاضع لسلطتها فقط، بل أيضا لتكوين كيان متميز يسمح لها بممارسة علاقات تواصل واندماج ضمن المجتمع الدولي والعلاقات الدولية ,ولن يكون ذلك إلا إذا ما توفر لها أهم شرط في هذه المنظومة بأكملها وهي السيادة الفعلية على إقليمها وقراراتها الداخلية والخارجية، وفي اعتقادي أنّ هذا النموذج قد توفر في الحكم العثماني للجزائر أكثر منه في فترة حكم الأمير عبد القادر , فهذا النموذج الأخير حسب اعتقادي وأرجوا أن أكون صائبا في ذلك، هو شكل من أشكال السلطة لا أكثر ولا أقل , فلا أتصور وجود دولة في ظل سلطة احتلال.

قائمة المصادر و المراجع:

العربية:

1- ألكسيس، دو توكفيل. 2008 . نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال .الجزائر . ديوان المطبوعات الجامعية.

2- أبو القاسم، سعد الله. 2007 . خلاصة تاريخ الجزائر . المقاومة والتحرير1830-1962 .ط1.بيروت.دار الغرب الإسلامي.

3- أبو القاسم، سعد الله. 1986. أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. ط1. بيروت. دار الغرب الإسلامي.

4- أبو القاسم، سعد الله . 1882 .محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال). الطبعة الثالثة. الجزائر .الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة .

5- توفيق، المدني.1986 . محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791 . الجزائر . المؤسسة الوطنية

6- حميدة، عميراوي . 2002 . علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي .قسنطينة . دار البعث للطباعة والنشر .

7- حميدة، عميراوي. 2001 .من الملتقيات التاريخية.قسنطينة . دار البعث للطباعة والنشر.

8- حميدة، عميراوي.2003 . موضوعات في تاريخ الجزائر السياسي. عين مليلة. شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

5- علي، آجقو. 2002-2003 . محاضرات في تاريخ مؤسسات الدولة الجزائرية 1837/1514 المغرب الأوسط من مجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة الأمة . ط1 . باتنة . منشورات باتنيت.

6- علي، آجقو. 2001 . النظام العدلي الجزائري(1514-1837) . مجلة التاريخ العربي:عدد 20.

7- عمار، عمورة. 2002 . **موجز في تاريخ الجزائر.** ط1. الجزائر. دار ريحانة للنشر والتوزيع.

8- عمار هلال. 1995 . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1962 .الجزائر . ديوان المطبوعات الجامعية.

9- عبد الحميد، زوزو. 2006 .مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنرال دي ميشيل.ط1 . دار هومة . الجزائر.

10- مبروك، غضبان . 1994. المجتمع الدولي الأصول والتطور والأشخاص (منظور تحليلي تاريخي واقتصادي وسياسي و قانوني) الجزائر . ديوان المطبوعات الجامعية.

11- مراد، وزناجي. 2008. حديث صريح مع الأستاذ أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ. الطبعة الأولى. الجزائر. منشورات الخبر.

12- محمود باشا، محمد. 2009 . الاستيلاء على ايالة الجزائر أو ذريعة المروحة .الجزائر . دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع .

13- محمود باشا، محمد. 2009 . الاستيلاء على ايالة الجزائر أو ذريعة المروحة .الجزائر . دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع .

14- محمد الطيب، العلوي محمد الطيب.1985. مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830 حتى نوفمبر 1954. ط1.قسنطينة. دار البعث للطباعة والنشر.

الفرنسية:

1-Maurice, Wahl. 1882.L'Algérie. Coulommiers. typographie Paul Brodard.

2-L. Blondel. 1836. Aperçu sur la situation politique commerciale et industrielles des possessions françaises dans le nord d'Afrique au commencement de 1836. Paris imprimerie Royale.

تاريخ الاستلام: 2016/12/15- تاريخ التحكيم: 2017/04/16 -تاريخ النشر2017/06/02

شوقي مصطفاي ومساره النضالي

د. محمد يعيش

(جامعة محمد بوضياف بالمسيلة – الجزائر)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص:

شوقي مصطفاي من الشخصيات السياسية والتاريخية الهامة التي قادت النضال في إطار الحركة الوطنية والثورة التحريرية وساهم بفكره وكفاءته العلمية أن يعطي لحزب الشعب بعده الثوري والتحرري خاصة خلال الحرب العالمية الثانية ، وكان من مصممي العلم الوطني

اعتلى شوقي مصطفاي مسؤوليات عديدة في القيادة العليا للثورة التحريرية فكان سفيرها بدول عديدة كتونس والعراق والمغرب ومن مقربي كريم بلقاسم ،ومفاوض لمنظمة الجيش السري الإرهابية أيام قائدها سوزيني ،وكان عضو الهيئة الانتقالية التي كلفت بتسيير السلطة الى غاية الاستقلال، ومن خلال هذه المساهمة نحاول توضيح المسار النضالي لهذه الشخصية الهامة خلال مرحلة الحركة الوطنية والثورة التحريرية.

الكلمات المفتاحية : شوقي مصطفاي . الحركة الوطنية . الثورة . الديبلوماسية . الهلال الأحمر الجزائري . المنظمة السرية. جمعية طلبة شمال إفريقيا..

Resumé

Chawki Mostefaï est une personnalité politique et historique de la guerre d'indépendance algérienne et parmi les personnalités les plus importantes qui ont porté le fardeau de la lutte dans le cadre du mouvement national, ainsi que sa compétence scientifique en tant que médecin, qui a beaucoup contribué à donner la dimension révolutionnaire du Parti du peuple algérien depuis la Seconde Guerre mondiale et a été le concepteurs de drapeau national. Chawki Mostefaï a occupé, dès 1955, des postes importants au sein du FLN. Il est devenu «ambassadeur» de la révolution algérienne en Tunisie, puis en Irak et plus tard, au Maroc. Il a également été un des proches conseillers de Belkacem Krim, alors ministre de l'Armement dans le premier Gouvernement provisoire de la République algérienne .C'est lui que le GPRA avait chargé de négocier le cessez-le-feu avec l'OAS (Organisation armée secrète), que présidait à l'époque le général Susini. Chawki Mostefaï était également membre de l'Exécutif provisoire au nom du FLN. nous essayons par le billet de cet article clarifier l'activité du Shawki Mostefai durant sa la longue lute au sein du de mouvement national et durant la révolution..

مولده ودراسته:

شوقي مصطفاي من الشخصيات التي مازجت بين العمل السياسي الثوري والعمل التعليمي ومن بعده الصحي،فقد سمحت له ثقافته وتكوينه العالي بحكم ظروف عائلته المريحة خلال تواجده بالمسيلة،بان يتدرج في المسؤولية داخل جمعية طلبة شمال افريقيا وجمعية الطلبة المسلمين الجزائريين ومن بعد ذلك حزب الشعب الجزائري فحركة انتصار الحريات الديمقراطية ثم جبهة التحرير الوطني فالحكومة المؤقتة،الى غاية تخليه عن الحياة السياسية بعد الاستقلال.

ولد المناضل مصطفاي شوقي بالمسيلة في 05 نوفمبر 1919م، يعود نسبه إلى عائلة كبيرة وعريقة في التعليم والإدارة ببرج بوعريريج ، وقد ذكرت التقارير الفرنسية بأن عائلة شوقي اشتهرت بولائها للإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، (C.A.O.M ,93/1400, dossier personnel). تزوج من السيدة خيرة بوعياد التلمسانية الأصل وهي قابلة، وإحدى نشيطات جبهة التحرير الوطني ، زارت الهند سنة 1957 في إطار وفد للنساء التونسيات ، وفي نوفمبر 1958 عينت ممثلا لدى وزارة الشؤون الاجتماعية بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية للمشاركة في مؤتمر النساء الألبانيات بتيرانا ، ثم سرعان ما

التحقت بالمجر ثم تشيكوسلوفاكيا بجواز سفر تونسي. أنجب الزوجان ولدين وهما فوزي : مولود بتاريخ 1947/01/03 . مليكة : مولودة بتاريخ 1956/02/10.(C.A.O.M ,93/1400)

كان والده وكيل قضاء ببلدية المسيلة المختلطة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، زاول دراسته الإبتدائية بالبرج ثم إنتقل إلى سطيف حيث أكمل دراسته الثانوية، تحصل على شهادة البكالوريا في الفلسفة سنة 1938م، إشتغل مدرس بمدينة المسيلة قبل إنتقاله إلى العاصمة وفي هذه الأخيرة درس الطب بجامعة الجزائر، (فريق التحرير، (2010،05 ماي)، مصطفاي الطبيب الذي وضع العلم الوطني، جريدة الوطن، ص4.).وكانت الفرصة في أواخر السنة الجامعية (1939م- 1940م) والسنة الأولى من عمر الحرب العالمية الثانية ، فقد التقى شوقي مصطفاي في حرم هذا المعهد بأربعة شبان هم: عبد الرحمان علاق، علي بن عبد المؤمن، سيدي موسى، بوقرموح، وقد تزامن وجود مولود بوقرموح في الجامعة مع تواجد مصطفاي شوقي ، وفي نفس التخصص (الطب)، حيث ربطتهما علاقات علمية ووطنية ، وكان بوقرموح يتميز بشخصية قوية وقدرة كبيرة على الإقناع وهي نفس الصفات التي يتميز بها شوقي مصطفاي ، كان الشابان داخل الجامعة إلى مجموعة من الشباب الجزائريين والمغاربة يخططون للعمل المشترك للقيام بثورة ضد الاستعمار الفرنسي .شارك الشابان في تأسيس جمعية الهلال الأحمر الجزائري وكان بوقرموح الأكثر تحمسا للمشاركة في تأسيسها . هاجر بوقرموح إلى المغرب حيث استقرت أسرته وفتح عيادة طبية هناك ، ومن المغرب وضع خبرته الطبية في صالح الثورة ، وفي سنة 1955 التحق بالثورة وأشرف على تأسيس جمعية الهلال الأحمر الجزائري في ديسمبر 1956 ، ، وفي سبتمبر1957 انتخب نائبا ثانيا لرئيس الهلال الأحمر الجزائري وواصل نشاطه الإنساني والنضالي إلى غاية الاستقلال وفي المغرب إلتقى المناضلان مع بعضهما وعملا جنبا إلى جنب في مصالح الثورة.(مقلاتي ع ، 178:2009).

كان لبوقرموح فضل كبير على زملائه، إذ كان يأتيهم من حين لآخر بصحيفة الأمة لسان نجم شمال إفريقيا ثم حزب الشعب الجزائري، هذه الصحيفة التي ربطت صلة هؤلاء الشبان الأولى بالوطنية الجزائرية (عباس: م ،300:1992) للإشارة فإن جريدة الأمة جريدة ناطقة باللغة الفرنسية تأسست في باريس في عهد حزب نجم . ش.إ، بتاريخ 30أكتوبر1930، وكان على رأس صفحتها الأولى حديث للرسول صلى الله عليه وسلم" حب الوطن من الإيمان" وآية قرآنية كريمة وهي:" واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا" صدق الله العظيم، وكذلك صورة هلال ونجمة إلى جانب الآية وكان عنوانها وشعارها : جريدة وطنية وسياسية للدفاع عن حقوق مسلمي شمال إفريقيا، وقد كان مديرها السياسي أحمد مصالي أما رئيس تحريرها فكان عمار عيمش،وقد التف حولها مناضلو الحزب بعد حله من طرف إدارة الاحتلال سنة 1929 ،وتعتبر إمتدادا للجريدة الأم "الإقدام" التي أسسها الأمير خالد سنة 1919م في الجزائر والتي كانت اللسان الإعلامي للنجم بعد نفي الأمير خالد إلى سوريا سنة 1924(A.C.M.M)

نشاطه السياسي:

انخرط شوقي في العمل السياسي وهو شاب حيث انضم إلى صفوف حزب الشعب في غضون سنة 1940 ثم حركة انتصار الحريات الديمقراطية حتى صار في اللجنة المسيرة لهذا الحزب (C.A.O.M ,93/1400)، بعد استسلام فرنسا أمام ألمانيا الهتلرية تأكد لمصطفى ورفاقه أن فرنسا لن تقوم لها قائمة ولابد من استغلال الكارثة التي أحلت بها لتخليص الجزائر شعباً وأرضاً من سيطرتها فقد أستقر رأيهم على الاتصال بزملائهم بالجامعة ممن يحملون نفس الأفكار تقريباً، ودعوتهم إلى اجتماع يتباحثون فيه وضعية الجزائر بعد هزيمة فرنسا، وهكذا أجتمع غداة 18 جوان 1940م حوالي 14 طالباً بمسكن الطالب شوقي بعد مناقشة طويلة تم الاتفاق على أمر خطير:

الإعداد لثورة شاملة تندلع في بداية أكتوبر 1940م وكان برنامج العمل يستغرق فترة العطلة الصيفية كلها ويشتمل على:

-العودة إلى المناطق الأصلية والدعوة إلى الثورة.

-جمع الأسلحة وتجنيد الرجال القادرين على حملها.

لكن هذا البرنامج ظل مجرد مشروع، لأنه حدث ما لم يكن في الحسبان عندما تعرف الأستاذ شوقي مصطفاي على الأستاذ محمد الأمين دباغين، الذي أعجب هذا الأخير بأفكار مصطفاي لكنه نصحه هو ورفاقه بعدم الإقدام على شيء، وطرح عليهم فكرة الإنظمام إلى التنظيم القائم (حزب الشعب الجزائري) الذي يحمل نفس الأفكار، فعرض شوقي الأمر على رفاقه فأثار نقاشاً طويلاً عريضاً انتهى بانقسام الجماعة، أغلبية سارت في اتجاه الاقتراح ومن بينها شوقي، وأقلية عارضته وانسحبت وفي مقدمتها مولود معمري، غير أن شوقي مصطفاي أصبح عضواً في المكتب السياسي لحزب الشعب وكانت مهمته الأولى تتمثل في الاتصال بالمناضلين القدامى والمهاجرين العائدين منهم، لإعادة تكوين الخلايا السرية التي تفككت بسبب صدمة الحرب وقرار حل الحزب.(عباس محمد ، 1992:303).

ونظرا لعلاقته الجيدة مع المغاربة فإن القيادة السرية لحزب الشعب أوفدت المناضل شوقي سنة 1941 إلى المغرب من أجل تنسيق العمل السياسي بين حزب الشعب والأطر السياسية في المغرب وركزت المحادثات على الدعاية ضد الاستعمار الفرنسي في الأوساط الشعبية بما في ذلك الجالية الجزائرية بالمغرب معربا المتحدث الجزائري عن أمله في الدعم المالي المغربي للنشاط الحزبي، (benkhadda .B.98) وفي سنة 1944 أهلته دراسته السياسية والفكرية لزعامة جمعية الطلبة المسلمين المغاربة والتي ترأسها لمدة سنة.(يعيش م ، 2013 :235).

كان المناضل شوقي من مناصري مشاركة حزب الشعب (حركة إ ح د) في الانتخابات التشريعية التي جرت سنة 1946 . بعد إعادة تشكيل الحركة الوطنية في إطار العفو الشامل . لاستغلالها كوسيلة للدعاية الواسعة للحزب والاتصال المباشر بالشعب. (عباس م ،1992، 258).

وفي سنة 1948 التحق المناضل شوقي بأمر من قيادة حزب الشعب بفرنسا حيث لعب دوراً هاماً في إعادة ترتيب الأمور باتحادية الحزب بفرنسا سنتي 1948-1949 إثر محاولة عناصر بربرية الاستيلاء عليها والاستقلال بها، ويعد مخططاً مهماً لأحداث ماي 1945(بيرم ك ،2013، 48)، وفي ذات السنة 1948 عين نائبا عن حركة انتصار الحريات الديمقراطية بالبرلمان الجزائري مكلف بالتنسيق بين الحركة وفيدرالية حركة انتصار ح د بفرنسا ثم عين نائبا عن حركة انتصار ح د إلى جانب ممثلي حزب الاستقلال المغربي والدستور الجديد في لجنة تنسيق شمال إفريقيا (C.A.O.M ,93/1400). وعلى إثر تعرض مناضلي حركة انتصار الحريات الديمقراطية إلى قمع شديد من طرف الإدارة الفرنسية على إثر انتخابات المجلس الجزائري سنة 1948 عين مصطفاي كعضو في لجنة مساعدة ضحايا القمع التي عينها الحزب لمساعدة ضحايا القمع وعائلاتهم الذين طالتهم اعتقالات سلطات الاحتلال. للإشارة فإن الإدارة الفرنسية(انتخابات نايجلان) قامت بتزوير الانتخابات وسلطت أقسى العقوبات على الشعب الجزائري عامة ومناضلي الحزب وعائلاتهم على وجه الخصوص (بن تومي ع ، 2010 : 46).

أختلف مصطفاي مع مصالي الحاج في بداية 1951 حول سياسة التحالف مع حزب البيان وجمعية العلماء، وانسحب بسبب ذلك مرفوقاً بعضوين قياديين هما شنتوف والعمراني(عباس م 1998 : 298).

إلتحاقه بصفوف الثورة:

بعد هذه القطيعة مع قيادة حزب الشعب(ح إ ح د)، هاجر الدكتور مصطفاي إلى باريس حيث فتح عيادة خاصة، ظل يعمل بها حتّى أواخر 1956، وفي خريف 1955 التحق بباريس المناضل صالح لوانشي مبعوثاً من طرف عبان رمضان ليتولى إدارة

اتحادية الجبهة بفرنسا، فاتصل بالدكتور مصطفاي ليساهم في مصلحة الدعاية والتوجيه، وبعد بضعة أشهر كلفه مسؤول الاتحادية بمهمة خاصة: أن يتصل بالحكومة التونسية لتسهيل مرور وفد من الخارج للمشاركة في أشغال مؤتمر الصومام، وفي أواخر السنة التحق مصطفاي بتونس على أساس أن يتولى بها منصباً معيناً، فلما أتاها وجد شخصاً آخر في ذات المنصب وهو المرحوم آيت أحمد، فترك العاصمة التونسية مفضلاً العمل بالمصالح الصحية للثورة بالحدود،وقد كان له اليد الطولى في تأسيس الهلال الأحمر الجزائري (C.A.O.M ,93/1400)، وغداة تشكيل الحكومة المؤقتة في سبتمبر1958، التحق بقطاع القوات المسلحة للعمل مع المرحوم كريم بلقاسم، وفي ذات التاريخ عين عضوا في المجلس الوطني للثورة (C.A.O.M ,93/1400)، ،ثم مديرا لديوان وزارة شمال إفريقيا (مقلاتي ع ،2009 : 448)، ونظرا لحنكته السياسية والديبلوماسية عين إلى جانب بومنجل وفرانس فانون ممثلا لجبهة التحرير الوطني في مؤتمر الشعوب الإفريقية بأكرا من 08 إلى 12 ديسمبر1958 ، حقق الوفد الجزائري في هذه الندوة نجاحا سياسيا هاما يتمثل في صدور لائحة تضمنت :

. دعوة الحكومات الإفريقية الباقية إلى الاعتراف بالحكومة المؤقتة ج ج.

. تخصيص جزء من ميزانية كل دولة إفريقية مستقلة لدعم جبهة التحرير الوطني.

. سحب وحدات القوات الإفريقية التي تحارب إلى جانب فرنسا في الجزائر.

. أوصت الندوة بتشكيل فرقة من المتطوعين الأفارقة لدعم الاستقلال في الجزائر.

. دعت الندوة الأمم المتحدة إلى تحمل مسؤولياتها الكاملة تجاه ما يجري في الجزائر.

. تخللت الندوة تظاهرة كبرى شاركت فيها كل الوفود الحاضرة احتجاجا على عزم فرنسا تفجير القنبلة النووية في الصحراء الجزائرية تحت هتافات " الصحراء للجزائر"الجزائر للجزائريين"إفريقيا للإفريقيين"تحيا الوحدة الإفريقية"الجلاء عن بنزرت".

في هذه الندوة انتخب السيد أحمد بومنجل (رئيس وفد جبهة التحرير الوطني في الندوة) عضوا في اللجنة الإدارية للندوة. (فريق التحرير،1960،61 ، 24 ،12)، لأول مرة في التاريخ .. يتلاقى أبناء إفريقيا ليقرروا مصيرهم بأيديهم "لائحة أكرا حول الجزائر" ، جريدة المجاهد، ص .ص 4 . 6 .

ونظرا لاطلاع المناضل شوقي مصطفاي الواسع على الوضع السياسي في تونس فقد عين سنة 1959 على رأس بعثة في إطار وزارة شؤون شمال إفريقيا من أجل المساهمة في حل المشاكل التي كانت قائمة آنذاك بين أفراد الحكومة المؤقتة وبورقيبة.وفي نفس السنة قام بزيارة إلى تركيا في إطار تمثيلية الهلال الأحمر الجزائري ، وقد لعب دورا هاما في التعريف بالقضية الجزائرية في الأوساط التركية وكذا جلب الدعم للاجئين الجزائريين بتونس والمغرب. (C.A.O.M ,93/1400)

عين رئيسا لبعثة جبهة التحرير الوطني بالمغرب في إطار وزارة الشؤون الاجتماعية والثقافية للحكومة المؤقتة حيث وصل إلى المغرب رفقة سبعة متعاونين يوم 1960/02/29 وذلك من أجل التحقيق رفقة الحكومة المغربية في قضايا تتعلق بدخول وخروج بعض الجزائريين عبر الحدود بدون وثائق (C.A.O.M ,93/1400)، وقد كانت توظفهم السلطات الاستعمارية لصالحها..

في شهر مارس 1960 وبعد نجاحه في المهمة التي كلف من أجلها ونظرا لعلاقته المميزة مع المغاربة الذين كانت له معرفة سابقة أثناء الدراسة وتقلدوا مناصب سامية في الحكومة المغربية، فقد عين من طرف وزير الخارجية في الحكومة المؤقتة على رأس بعثة جبهة التحرير الوطني بالمغرب،وفي نفس الشهر أي في 1960/03/31 استقبل من طرف الملك محمد الخامس (C.A.O.M ,93/140)

وفي المغرب وظف الدكتور علاقاته السابقة بالطلبة المراكشيين الذين اصبحوا مسؤولين كباراً في حكومة الملك محمد الخامس، وظفها في مهام متنوعة أهمها التسليح وفي مقدمة هؤلاء المسؤولين الدكتور عبد الكريم الخطيب[4] الذي قدم خدمات جليلة للثورة الجزائرية خاصة في ما يتعلق بمسألة إمداد جيش التحرير الوطني بالكميات الكافية من السلاح.

نظرا لتأزم الوضع داخل الثورة فقد دخل شوقي مصطفاي في خلاف مع الشيخ خير الدين رئيس بعثة جبهة التحرير بالمغرب وهذا في إطار الصراع بين الحكومة المؤقتة وهيئة الأركان حيث بقي شوقي مصطفاي يمثل الحكومة المؤقتة في حين يتلقى الشيخ خير الدين الأوامر من هيئة الأركان، وظل الوضع على ماهو عليه إلى غاية حسم الموقف من طرف هيئة الأركان.

بقي شوقي يمثل الحكومة المؤقتة في المغرب وكان يشرف على النشاطات الديبلوماسية والسياسية حيث شارك إلى جانب فرحات عباس في المفاوضات الجزائرية . المغربية في 1960/05/30 من أجل بروتوكول اتفاق بين الحكومة المؤقتة والحكومة المغربية (C.A.O.M ,93/1400)والتي نوقشت فيها مسألة الحدود بين الطرفين، ونظرا لكفاءته وخبرته السياسية والديبلوماسية فقد وقع عليه الاختيار من طرف الحكومة المؤقتة من أجل تأليب الرأي الدولي ضد الممارسات التي تقوم بها إدارة الاحتلال سواء في الداخل ضد الشعب الجزائري أو في الخارج ضد اللاجئين الجزائريين والعمل على بعث روح الحيوية والنشاط وفق مبادئ الثورة لدى رؤساء بعثات جبهة التحرير الوطني في الخارج وحثهم على رفع معنويات اللاجئين الجزائريين وتوفير كل ما يحتاجونه انطلاقا من الدول التي يعيشون بها والمجموعات الإقليمية والدولية ، والمنظمات الإنسانية والاجتماعية المحلية والعالمية وفي هذا الصدد كان يقوم برحلات ماراطونية نحو بلدان العالم الصديقة والشقيقة، من ذلك على سبيل المثال كلف من طرف الحكومة المؤقتة لترأس اجتماع حضره رؤساء بعثات جبهة التحرير الوطني بالقاهرة خلال شهر فيفري 1960 (C.A.O.M ,93/140)،وقد رسم هذا الاجتماع خارطة طريق للتكفل باللاجئين الجزائريين في الخارج وكذا قطع الطريق أمام الإدارة الفرنسية التي مازالت تزعم بأن اللاجئين الجزائريين هم عبارة عن نازحين اضطهدوا من طرف جبهة التحرير. وفي 05 أفريل 1961عاد إلى أكرا وبتعيين من الحكومة المؤقتة ليترأس هذه المرة البعثة الجزائرية في مؤتمر الخبراء الأفارقة،(C.A.O.M ,93/140) وفي 15 جويلية 1961 كان من المشرفين رفقة محمد يزيد على مؤتمر الخبراء الاقتصاديين الأفارقة بكوناكري ، C.A.O.M ,93/140)جويلية ترأس البعثة الجزائرية للجنة الثقافية الإفريقية بطنجة وفيها هنأ الدول الصديقة على الدعم المستمر سواء في الجوانب المادية أو المعنوية أو التقنية حيث أشار إلى أنه بفضل دعم الدول الصديقة أصبحت الجزائر تمتلك 30 مهندسا بعد أن كان عدد المهندسين ثلاثة فقط،وسيصبح 60 مهندسا في القريب العاجل(.C.A.O.M ,93/140).

[4]. عبد الكريم الخطيب : من مواليد 1921/03/02 بالجديدة بالمغرب الأقصى ، ولده السيد عمر الخطيب (أصله من معسكر) كان والده يشتغل ترجمانا إداريا ، وأمه السيدة مريم الجباص التي كانت تتميز بشخصية قوية وثقافة واسعة ،وكانت تحفظ القرآن الكريم، تربى عبد الكريم في أحضان جده لأمه محمد الجباص الذي كان ضمن أفراد البعثة الطلابية التي أوفدها السلطان مولاي الحسن الأول إلى الخارج ، تقلد الجد عدة مناصب سامية منها : وزيرا للحرب ثم مندوبا سلطانيا بمدينة طنجة ثم صدر أعظم ...، في كنف هذه العائلة المثقفة دينيا وسياسيا تربى عبد الكريم الخطيب ، دخل ثانوية (كورو) الحسن الثاني حاليا في سنة 1939 فتحصل على شهادة البكالوريا ، وأثناء دراسته الثانوية انخرط في صفوف الكشافة المغربية ، وكان أحد مؤسسي الكشفية الحسنية سنة 1940 ، دخل إلى الجزائر سنة 1941 لمتابعة دراسته بجامعة الجزائر تخصص طب ،تزامن وجود الخطيب بجامعة الجزائر مع تواجد المناضل شوقي مصطفاي ، انخرط في النضال الطلابي أثناء تواجده بالجزائر حيث كان يمثل الطلبة المغاربة والنائب للرئيس الأول لجمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا ، وفي هذه المرحلة من الزخم النضالي تعرف على الكثير من الطلبة الجزائريين من بينهم شوقي مصطفاي ، وفي سنة 1945 انتقل إلى كلية الطب بالسربون وعمل بمستشفى فرانكو . موزولمان(Franco-Musulman)عاد إلى المغرب سنة 1951 ليصبح أول طبيب جراح حيث استعمل خبرته الطبية في معالجة المرضى والمعطوبين من أفراد المقاومة ، وفي سنة 1956 أصبح الخطيب المسؤول الأعلى للمقاومة المسلحة في المغرب.كان على علاقة وطيدة مع قادة جبهة التحرير الوطني خاصة بن بلة وبوضياف نجح في تكوين لجنة مغربية . جزائرية لقيادة جيش تحرير المغرب العربي الذي تأسس سنة 1955 ، وكان هو من أشرف على قيادته .للمزيد أنظر ، (يعيش ،م 2013 :349 ومابعدها.

يبدو أن الخلافات بين الحكومة المؤقتة وهيئة الأركان قد أرخت بضلالها على العلاقات بين شوقي مصطفاي وهذه الأخيرة حيث دخل في صراع مع العقيد هواري بومدين القائد العام لهيئة الأركان ولم يتقبل . حسب التقارير الفرنسية . دروسا في الوطنية والانضباط وأصبح غير مرغوب فيه عند بومدين فقدم استقالته يوم 1960/09/24 ثم سحبها يومين بعد ذلك. (C.A.O.M ,93/140)دون أن يوضح التقرير كيفية وأسباب ذلك.

وقبيل توقيع اتفاقيات أيفيان اتصل المرحوم بوصوف بالدكتور مصطفاي بالمغرب، وعرض عليه تعيينه على رأس ممثلي ج.ت.و.في الهيئة التنفيذية المؤقتة المكلفة بتسيير شؤون البلاد في هذه المرحلة الانتقالية والإشراف على عملية استفتاء تقرير المصير، فقبل الدكتور ذلك باعتباره ممثلا لجبهة التحرير الوطني، وهي المرحلة التي تولت مهمة إدارة البلاد في تلك الفترة الانتقالية الحرجة،وقد تمكن من أن يقود المفاوضات بحكمة عالية مع قائد المنظمة السرية سوزيني (حماميد ، حسينة (2007/2006).المنظمة العسكرية السرية في الجزائر 1961 . 1962 . رسالة دكتوراه جامعة الحاج لخضر باتنة ، الجزائر.) وفي جوان 1962 وعلى إثر فشل المفاوضات بين رئيس الهيئة التنفيذية عبد الرحمن فارس وقادة المنظمة السرية العسكرية أنهي بن يوسف بن خدة مهام عبد الرحمن فارس وأكد تولي شوقي مصطفاي مهمة المفاوضات يوسفي ، أمحمد .(2011 ،93) ، منظمة الجيش السري ونهاية الثورة الجزائرية ، موفم، الجزائر.

استطاع الدكتور شوقي مصطفاي أن يعقد إتفاق لوقف القتال مع المنظمة السرية الإرهابية هذا الأمر الذي لم يكن محل إجماع قادة الثورة. (عباس ، م (1998) ، 36.)

وبعد الاستقلال انسحب الدكتور شوقي مصطفاي من المشهد السياسي بصفة نهائية، بعد أن كان من الشهود القلائل الذين كان لهم شرف معايشة لحظة انبعاث استقلال الجزائر في بومرداس ورؤية العلم الوطني يرفرف من جديد بعد 132 سنة من الاحتلال الفرنسي. ويقول الدكتور في نهاية المشوار أن المناضلين الوطنيين في الأربعينات كانوا ينظرون للاستقلال كحلم بعيد، وكان أكثرنا تفاؤلاً يتوقعه في سنة 1980، أما الواقعيون منا فكانوا يحددون له آفاق 2000 أو ما بعد ذلك، والحمد لله، لقد خرجت الجزائر بفضل تضحيات أبنائها من قاع بئر عميقة جداً، أو لنقل من فم طامة كبرى هي الاستعمار الفرنسي. (عباس ، م (1998) ، 36.).

الخلاصة من خلال العرض السابق نخلص إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي:

. اجتهادنا في هذا الموضوع وفق المرجعية المتحصل عليها ، لأن هناك جوانب كثيرة لم نتمكن من تغطيتها بسبب وزن الرجل ونشاطه السياسي والديبلوماسي.

. من خلال بحثنا هذا استنتجنا أن الرجل (شوقي مصطفاي) أسندت له مهام دقيقة وخطيرة في نفس الوقت وتمكن من تحقيق انتصارات كبيرة لصالح الحركة الوطنية والثورة . وقد كان للبيئة الأسرية والاجتماعية التي تربى فيها دورا كبيرا في نضجه السياسي والديبلوماسي.

. انخراط الرجل في العمل السياسي والنضالي منذ سن الشباب كان له وقع كبير في إدارة الأزمات السياسية والديبلوماسية ، مثلما ما هو الحال بالنسبة للفترة التي قضاها في المغرب ، ورغم صراع الأجنحة (الحكومة المؤقتة وهيئة الأركان) إلا أن الرجل تحول إلى واجهة ديبلوماسية حقيقية حيث كان ينظم اللقاءات بين قادة الثورة وسفراء الدول المعتمدين في المغرب كالاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول من أجل دعم القضية الجزائرية والوقوف إلى جانب الثورة.

.كما يقال : الثورة تأكل رؤوس أبنائها . وهذا ما حصل للمناضل شوقي مصطفاي فعلى الرغم من المجهودات التي قدمها للحركة الوطنية والثورة إلا أنه دخل قفص النسيان بعد الاستقلال.

.

بيبليوغرافيا البحث

الكتب بالعربية

.. بن تومي، عمار:الدفاع عن الوطنيين ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954 ، الجزائر ، 2010.

. بيرم ،كمال ، الحركة الوطنية بإقليم المسيلة ، دار الأوطان ، الجزائر، 2013.

. حماميد ، حسينة ، المنظمة العسكرية السرية في الجزائر 1961 . 1962 ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة2007/2006 .

. عباس ، محمد ، رواد الوطنية ، مطبعة دحلب ، الجزائر ، 1992.

. مقلاتي ، عبد الله ، أعلام شهداء وأبطال الجزائر، الجزائر ، 2009.

. يعيش ، محمد ، الجالية الجزائر في المغرب ودورها في الحركة الوطنية والثورة 1930 . 1962 ، دار الهدى ، 2013 .

. يوسفي ، أمحمد ، منظمة الجيش السرية ونهاية الثورة الجزائرية ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغاية ، الجزائر 2011.

الجرائد :

. جريدة المجاهد ، 1960/02/08.

. جريدة الوطن ، 2010/05/13.

بالفرنسية

الأرشيف

- A.C.M.M , Archive dela Commune Mixte M'sila(situation politique et économique et administrative 1931 – 1961)
- -C.O.A.M ; centre d'archive D'outre mer .Aixe-en provence ; dousier personnel .93/1400

.

- Benkhadda B . Les origines du 1Novembre 1954 . Alger 2002

تاريخ الاستلام: 2016/04/14- تاريخ التحكيم: 2016/12/22 -تاريخ النشر2017/06/02

البداوة والإسلام والسلطة السياسية في موريتانيا

د. سيد محمد ولد ختاري

جامعة نواكشوط (موريطانيا)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخّص:

لقد شكلت الدراسة المجتمع البيظاني حلا لإشكالية بناء السلطة في مجتمع يتميز بالبداوة وبترسيخ الإسلام فبين صاحب دراسة «البداوة والسلطة و المجتمع » إن ميكانيزمات نظرية المجتمعات بلا رأس لا تنطبق على مجتمع البيظان بشكل كامل حيث أنتج المجتمع البدوي الإسلامي أنماطا من السلطة المركزية تمثلت في الإمارات.

ثم إن الحياة المجتمعية ارتكزت على تطبيق واسع لمجمل الشعائر الإسلامية مما نتج عنه مجتمع تجاوز البنى الانقسامية إلى نظام أميري يراعي التعاليم الإسلامية معتبرا أن المرابطين و حركة ناصر الدين هي نماذج لتجاوز العصبية القبلية لإنشاء الدولة المركزية التي أصبحت تأثر بدورها في شكل العصبية و تطور الوضع الاجتماعي القبلي نفسه..

Résumé:

Nomadisme, Islam et pouvoir politique

L'étude de la société maure a permis de lever l'énigme de l'édification du pouvoir dans une société caractérisée par son nomadisme et son ancrage dans l'Islam.

L'auteur de l'étude intitulée « Nomadisme, Islam et société » a pu montrer que les mécanismes de la théorie des sociétés acéphales ne s'applique pas strictement à la société maure car ces nomades musulmans ont su produire des modèles de pouvoir central concrétisés par les émirats.

Aussi, la vie sociétal s'est accentuée sur les rites islamiques ce qui a produit une société dépassant les structures agnatique vers une forme plus évoluée du pouvoir central (les émirats) qui respecte les préceptes de l'Islam en considérant que les Almoravides et le mouvement de Nacerdine sont des exemple de ce dépassement des clivages de la parenté agnatique et tribale pour la formation d'un état central. Conçoit-il encore que ce pouvoir central commence à influer sur les rapports agnatiques et l'évolution de la situation de la tribu elle-même.

تمهيد:

لقد اهتم بعض الباحثين في موريتانيا بشكل خاص بالتمفصل الثلاثي بين البداوة والإسلام والسلطة السياسية أثناء وقبل تشكيل الدولة الموريتانية الحديثة لأن هذه السلطة مقترنة- في السياق الموريتاني- اقترانا وثيقا بنمط الحياة البدوية وبالإسلام الذي يقدم في آن واحد أخلاقا شاملة ونظرية شرعية للسلطة (الإمامة والحسبة). واهتموا بهذا التمفصل للكشف عن طبيعة تلك الأشكال التمهيدية ل"الدولة" التي ظهرت في الترارزة والبراكنة وأهل يحي بن عثمان وإيدوعيش. وأكد الباحث عبد الودود ولد الشيخ1 أن البداوة تفترض حركة إقليمية واسعة كانت مصحوبة في موريتانيا بتداخل معقد في الحقوق على الأراضي القبلية (ملكية فعلية للزوايا وحقوق معلومة لحسان)2، ومفهوم الدولة مرتبط أصلا بمراقبة فعلية لفضاء إقليمي محدد. وتساءل كيف استطاعت قبائل البدو الرحل الموريتانيين المتصارعين في حروب داخلية وخارجية شبه دائمة أن تقيم مشروع دولة مستقلة في ظل التعارض الوظيفي بين الزوايا وحسان؟

حيث أوضح أن أهمية الترابط العدائي بين حسان والزوايا، الذي يجعل من الممكن ظهور الدولة، تكمن في الخاصية التالية: فإذا كانت إيديولوجية الشرف ذات الأصل الانقسامي والمرتبطة عادة بالصراعات والنهب تغذي أعمالا انقسامية نابذة لقيام سلطة

الدولة، فإن النظرة الزاوية للعالم النابعة من الإسلام تسعى إلى إيجاد مسوغات لمركزة السلطة. وعليه فقد شكل الإسلام، الذي يتولى الزوايا تأويله، عامل تخطي البنى السياسية لبنى القرابة، وكان في الوقت نفسه أداة تمايز واندماج بنى حسان والزوايا في بنى سياسية تتجاوز الإطار القبلي والمراتبي هي النظام الأميري. وقد استوحى هنا جزئيا بعض ملاحظات ابن خلدون القائلة بأن الدولة لدى البدو لا يمكن أن تبرز إلا بفضل تيار ديني يدعمه الإشعاع الشخصي لنبي أو ولي: "فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو اثر عظيم من الدين على الجملة"3...

ودعم ولد الشيخ ذلك بتجربتي المرابطين وحركة ناصر الدين لمركزة الدولة التي اعتمدت على الإسلام، بل إن سلطة الأمراء قد تلاءمت معه واستندت إليه إيديولوجيا إلى حدٍّ ما.

فقد لعبت المثل الدينية في نظره دورا هاما في ظهور نوع من التنظيم المركزي –الدولة الأميرية- بين صفوف البيضان عموما. وهكذا مكن الإسلام المجتمع البيضاني ما قبل الاستعمار من الخروج من هيمنة القرابة والانقسامية والاتجاه نحو إقامة هيكل سياسي سائر في طريق الاستقلال، فشكل بذلك أداة التجاوز الاشكالي من القبيلة إلى الدولة في هذا المجتمع.

واستشهد في هذا الصدد برأي بيير بونت P. Bonte4 القائل: "إن ضرورة تغير البُنى الانقسامية خلال مسار تكون الدولة يتطلب في الواقع التغيير المسبق للوظائف السياسية المحددة من قبل بنى القرابة وإخضاعها للبُنَى السياسية المسيطرة". فتداخل التنظيم الانقسامي المتمثل في القبيلة مع التنظيم السياسي الممركز الأميري (أي تداخل الدولة والقبيلة في بنى الإمارة) جعل التنظيم الانقسامي يتغير جذريا في مختلف مستويات عمله. وفي ذلك يرى "بونت"5 : "أن الظروف الانقسامية تجد تفسيرها من حيث الأساس في البنى السياسية الممركزة، لأنه إذا كانت الميكانيزمات تبدو في الظاهر هي نفسها في كل النظم الانقسامية، فإن عملها هنا يختلف عنه تماما. فالانقسامية تتدخل في الغالب بوصفها إيديولوجية ومظهرا من مظاهر الممارسة السياسية يسوغ أثناء التنافس على السلطة أو بعده العلاقات بين المجموعات."

وبالفعل فإن المجتمع القبلي قائم على التناصر والتعاضد في إطار التنافس والتناحر، مما يجعل الحياة في العمران البدوي حياة صراع دائم، "العمران البشري لا بدَّ له من سياسة ينتظم بها أمره"6 كما يقول صاحب المقدمة، و"في نفس كل منا حاجة فطرية إلى السلطة" كما يقرر نيتشه.Nietzsche

فإذا كانت القرابة من خلال خصائص حركة الاندماج والانشقاق المستمرة التي تطبع الفضاء القبلي تشكل عائقا أمام انبثاق سلطة سياسية مستقلة، فإن النظرية الخلدونية حول عصبية القبائل توضح بجلاء أشكال وطرق انتقال المجتمعات القبلية إلى الدولة، لكن "الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك7.

وهكذا يصبح الانتقال من القبيلة إلى الدولة ضرورة وجودية ما دمنا نعرف أن الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه العصبية هو المصلحة المشتركة الدائمة للجماعة أكثر منه على النسب. غير أن القبيلة في ظل الإمارات لم تعد –في رأي عبد الودود- صانعة السلطة بالضرورة، وإنما السلطة هي بمعنى من المعاني صانعة القبائل .

كما يبرهن على ذلك تغير مراتب بعض المجموعات القبلية الذي يصاحب عادة فترة الصراعات السلطوية في صفوف بنى حسان (التوبة، اتزنكي، استحسين.(

وخلص عبد الودود8 إلى القول إن الإسلام ونمط الحياة البدوي وعلاقات القرابة كلها عوامل تفاعلت في سياق تاريخي معين فأفضت إلى ظهور شكل من أشكال الدولة (النظام الأميري) في مجتمع تطغى فيه إلى حدٍّ كبير الآليات الانقسامية. وبذلك تكون

النظرية الانقسامية عاجزة عن تفسير الحقائق السياسية والسوسيولوجية للمجتمع البيضاني في الفترة السابقة للاستعمار لأنها تريد أن تكون نظرية للسياسة في مجتمعات بلا سياسة (المجتمعات بلا دولة)، وهذا المجتمع مجتمع سياسي بطبيعته يعرف تراتبا اجتماعيا بارزا يتميز بالتعارض الوظيفي بين حسان والزوايا، والأسياد والأتباع، والأحرار والعبيد، فضلا عن الوجود الفعلي لسلطة سياسية ممركزة في شكل جنيني (الإمارات) منذ القرن 17 تفرض سيادتها على إقليم معين وتمارس –رغم هشاشتها التنظيمية- صلاحياتها السياسية في إقليم محدد، ولكن الإسلام جاء، ليس فقط ليساهم في تقوية اللحمة بين هذه الفئات ولكن ليساهم كذلك في قهر هذه الطبيعة القاسية.

حيث اتسم الإسلام الذي رسخه المرابطون في الصحراء بقوة الإيمان والصرامة في ممارسة الشعائر الدينية وشدة الزهد والتعلق بالكرامات والخوارق وغيرها من المعتقدات الغيبية التي من شأنها أن تساعد في قهر الطبيعة الصحراوية القاسية والتحكم في واقعها البشري المتسيب.

وقد امتاز إسلام أهل المنطقة باتباع صارم للمذهب السني المالكي . في روايته القاسمية9 . الذي يعتبر "الاحتياط في أمور الدين " وسد الذرائع من مبادئه الأساس على الصعيد الفقهي، وتبنى العقائد الأشعرية في قراءتها السنوسية10 في مجال التوحيد .

ولم يكن إسلام الموريتانيين إسلاما سوسيوجيا فقط، بل كانو مسلمين اعتقادا وسلوكا ومتمسكين بقوواعده الخمس وحريصين على أدائها كشعائر دينية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. غير أن التمسك قد تأثر بواقع التقسيم الوظيفي للمجتمع ونمط حياته البدوي و"منكبيته البرزخية "سياسيا وجغرافيا."

فقد أكد بن الأمين11 على أن هذا البلد "بقي ... منذ فتحه المسلمون إلى سنة 1317]1899[لا يوجد فيه فرد واحد خارجا عن الإسلام، إلا أن أهله متفاوتون في الاستقامة," فالأغلب على الزوايا الدين وربما وجد فيهم السفهاء وكما أنه وجد في حسان من ينسب إلى الاستقامة بالنسبة إلى غيره منهم."...

ويقرر صاحب النفحات الرندية12 "أن عامة البيضان على ملة الإسلام لم يجسر أحد منهم أن يقر بالخروج عنها وإن تغالى في الفسق وعدم الاعتناء بآداب الشريعة، وأجناسهم في ذلك سواء..."ويتجلى ذلك التعلق أكثر في ممارسة الصلاة إذ يرى ابن حامدن13 أنه " ما كان يبلغ الفسق والجهل بالعامي الموريتاني أن يترك الصلاة، إلا أن بعضهم يتيممون لها، إما بدعوى التضرر بالماء في الجهات الندية، وإما جهلا، وإما كسلا، وهذا الأخير نادر ."...

وسبق أن تعرض صاحب الوسيط14 لتلك الظاهرة في حديثه عن ما يحمد من أمر الزوايا وما يذم، فقال: "يحمد من أمرهم عدم شهادة الزور، والتحرج من مال الغير، وأن أهل الجاه منهم لا يأخذون على جاههم ثمنا، وأن التعليم والإمامة يكونان مجانا عندهم ... ومما ينتقد عليهم، كثرة التيمم صيفا وشتاء. وقد أنكر ذلك بعض العلماء عليهم وشنع. فمنهم من يحتج بأن النابغة الغلاوي أنكر ذلك عليهم. ثم إنه زكم بعد سنة، فصار يتيمم. وما أظن النابغة يتيمم إلا في أيام مرضه ثم يعود إلى الوضوء. وقد رأينا بعضهم يأخذ الدلو على فم البئر ويصبه في الحوض المسمى عندهم "بالتكدة" فيخوض في الماء إلى الكعبين، ثم يخرج ويتيمم(...). ومع هذا فإنك ترى أحدهم، لو ائتمن على مال ما خان فيه، ولا يرضى أن يمر بمزرعة في طريقه إلا بإذن مالكها، ولا تفوته صلاة في الجماعة، مع خشوع زائد، لكنه قام في ذهنه أنه متى توضأ ألقى بنفسه إلى التهلكة... وإذا كان العديد من فقهاء القرن 19م بالمنطقة المدروسة قد انتقدوا بشدة تلك الظاهرة، فإنها لم تكن وليدة ذلك القرن ولا مقصورة على تلك المنطقة، بل يخيل إلينا أن لها جذورا تاريخية راسخة في عموم صحراء الملثمين وظروفها البيئية ونمط حياة أهلها. ومن شأن حضورها البارز في قائمة مآخذ اللمتوني15 على مجتمعه في الربع الأخير من القرن 15 م أن يؤكد على بعدها البنيوي في الواقع الاجتماعي البيضاني.

ورغم مآخذ سراة فقهاء القوم وورعهم على مستوى أدائهم تلك الشعيرة فقد كانت " الصلاة أولى واجبات(البيضان) التي يؤدونها على أكمل وجه "على حد قول الرحالة الفرنسي ابريسوه Brisson 16 الذي أمضى فترة من الزمن أسيرا بين ظهرانهم. وقد اعتبروا الصلاة من الأمور الشرعية التي لايمكن التهاون بها وعبروا عن ذلك في أمثالهم الشعبية بقولهم "ياسر" الكفر دون ترك الصلاة."

وحالت حياة البداوة الطاغية بين سكان المنطقة مع أداء صلاة الجمعة والتفقه في أحكامها وأدبياتها الحضرية، إلى حد استبعاد الفقهاء لها من مؤلفاتهم واعتبارها من الأمور الخاصة بأهل المدن إذ "لا جمعة ولا تشريق إلا في مصر وجامع"17.

وحين نصل إلى شريعة الصوم وهو الفرض الأصعب في مناخ كمناخ موريتانيا فإنه لم يكن صوم رمضان عادة اجتماعية, بل كان واجبا دينيا تعتريه أحكام الشرع المختلفة. وقد وصف ربي كايي18 René Caillié ، الذي عايش سكان المنطقة بعض الوقت، ما يتخذ من إجرآت مع حلول شهر رمضان وعناية الناس بصومه، رغم مصادفته غالبا فصل الحرارة وشح نظام القوم الغذائي، فقال "يؤدي البيضان، المعروفون بتقاهم، فريضة الصيام بشكل صارم، ولايعدون إلا وجبة واحدة في منتصف الليل."...

وحين تحل الزكاة على أحد القوم وقل ما يقع ذلك لشحة المعاش آنذاك فإن أثر البنية القرابية في الواقع الفئوي للمجتمع البيضاني واضحا في الإشكالات المتعلقة بمصرف الزكاة، ونقلها من مكان الوجوب، وزكاة مال الأتباع...

ويبدو أن لتلك الإعالة حضورا ما في مدونة فقه الزكاة المحلي لميول بعض الملاك إلى دفعها لأقاربهم المشتركين معهم في المعاش رغم كراهيته المبدئية. فقد" سئل ابن متالي عن الزكاة على الأب ونحوه من المقلين ممن يشترك معهم في المعاش؟ فأجاب بالاجزاء في عدم وجوب نفقته."...

وتعدد هذا النوع من الاستشكالات في المدونات الإفتائية لفقهاء المنطقة خلال القرنين الماضيين مما يوحي بانتشار تلك الظاهرة وامتدادها في الزمان والمكان. ونكتفي هنا بنماذج معدودة لا تعالج البعد القرابي في المسألة فحسب وإنما بعدها المكاني كذلك {نقل الزكاة.{

وإذا كانت زكاة مال الأتباع قد شكلت السبب المباشر لتفجير الصراع بين الأورستقراطتيين : الزاوية والحسانية في حرب شربه {1671. 1677}، فإن تلك الزكاة قد أثارت كذلك على مستوى المنطقة ذاتها جدلا فقهيا حادا داخل صفوف الزوايا أنفسهم خلال القرون الموالية.

وبغض النظر عن البعد الديني للمسألة الكفيل وحده بتحريك الضمير الشرعي لدى الفقهاء، فإن بعدها الاقتصادي قد لا يكون غائبا عن أذهان أولئك المشرعين في مجتمع صحراوي يعيش اقتصاد القلة.

ويبدو على أية حال أن ثروة الأتباع {أزناكه} المتخصصين في تربية المواشي والمستظلين ببعض المجموعات الزاوية، قد تكاثرت أنذاك إلى حد أصبحت زكاة تلك الأموال تطرح نفسها كنازلة فقهية على فقهاء المنطقة ويقفون منها مواقف شتى.

فبينما اعتبر بعض فقهاء المجموعات المستظل بها أن زكاة ذلك المال غير واجبة شرعا بوصفه مال نزاع بين الأتباع القائمين عليه والزوايا المربى تحت حماهم غير كامل الملكية، قال آخرون أن لا وجه شرعي لسقوط زكاة تلك الأموال سواء حسم النزاع بشأنها أم لم يحسم.

الحج: حال نأي الدار وخوف الطريق دون اطراد أداء فريضة الحج حتى أصبح ذلك الأداء يمنح صاحبه مكانة رمزية جديدة لدى العامة والخاصة.

فلم يكتف اليدالي19، في استعراضه دواعي نقمة الناس على مواقف ناصر الدين المناهض للحاج عبد الله بن بو المختار الحسني، بفضل الرجل ومكانته العلمية المتميزة، بل أكد على "مكان حجه" في تقدير الناس له.

ورغم تلك المعوقات الموضوعية، كان لسكان المنطقة في بداية الفترة الحديثة ركبهم إلى الحج، في حين استأنسوا شيئا فشيئا بالسفن البخارية وخوض عباب البحار خلال القرن 19 ودونوا تلك الرحلات نظما ونثرا.

الأعياد ومستوى التدين العام: وتتحدث المصادر الفرنسية في القرون الثلاثة الماضية عن تعظيم الأعياد الدينية في المنطقة وطرق إحيائها، ولاسيما عيد الأضحى الذي تحدث ربي كابي20 عن حفاوة الناس البالغة به ووصف طرق كل من الزوايا وحسان في إحيائه، كما تعكس المدونات الإفتائية بعض جوانب العناية به، كا لاستشكالات المتعلقة بزكاة الفطر مثلا.

وأكد دوني21 Donnet ، الذي زار منطقة الترارزة في 1894، شدة تمسك سكانها بالدين الإسلامي الحنيف وتأسيهم بالسيرة النبوية وترسيخ تلك النزعة لديهم عبر القرون، واحتقارهم النصارى وملتهم الاجتماعية، خاتما ملاحظاته عن أولئك القوم بعبارته الشهيرة: "ما أتعسهم من أناس متحضرين أكثر من اللازم ." Pauvre gens trop civilisé وإن كان ابن الشيخ سيديه، في سياق عتابي معروف، قد طعن في مستوى تدين أبناء جلدته من الزوايا.

فإن مصادرنا المحلية . ولاسيما الإفتائية منها . تحاول النيل من مستوى تدين الفئات غير الزاوية في المجتمع، بل توحي للدارس بأن الإسلام لا يشكل وسيلة اندماج بين تلك الفئات فحسب بل يمثل كذلك أداة تمايز فيما بينها. فإذا كان الانتماء العقدي والمذهبي الواحد يشكل أهم أواصر تآلف واتحاد المجتمع الموريتاني، فإن اختصاص الزوايا بشؤون الدين في هذا المجتمع وانفرادهم بتأويل نصوصه يمثل سمتهم المميزة الأساس عن باقي فئات المجتمع.

وسبق أن أوضحنا أن التقسيم الوظيفي للمجتمع قد عمل على تكريس ذلك الدور بالنسبة للزوايا وحد من حظوظ الفئات الأخرى من المعرفة والتفقه في أمور الدين. ومن هذا المنطلق كانت مطاعن الفقهاء في مستوى تدين تلك الفئات الذي وجد التعبير عنه في إضفاء جملة من النعوت تراوحت بين وصفهم "بالعوام" و "مستغرقي الذمم" إن لم تطعن في إسلامهم.

الاحالات :

- 1باحث سيسيولوجي موريتاني مقيم في فرنسا، له نظريات ضمنها في كتابه البداوة والسلطة في المجتمع الموريتاني .

2- Nomadisme, Islam et pouvoir politique dans la societe maure precoloniale (XI-XIX eme siècle), op.cit.

3المقدمة، طبعة الدار التونسية للنشر)، ج1، ص:199.

4 "Segmentarite et pouvir chez les eleveurs nomads sahariens…", op.cit, p. 186

5نفسه.

6المقدمة، م س، ص:368.

7المصدر نفسه، ص: 185.

8 Nomadisme, Islam et poucoir politique…, op.cit., t.II, p. 651 et suivantes

9. نسبة إلى عبد الرحمن بن القاسم العتقي المصري (ت191هـ/806م) الذي يعد من أشهر الآخذين عن الإمام مالك وناشر مذهبه بالغرب الإسلامي.

– 10نسبة إلى محمد بن يوسف الحسني السنوسي التلمساني (ت.865هـ/1490.89م) الذي تعتبر مؤلفاته في العقائد (أم البراهين، العقيدة الوسطى والصغرى...) آخر صياغة مغربية للعق

-11الوسيط ...، م س، ص476

-12إبراهيم بن الشيخ سيديه: النفحات الرندية في العوائد البيضانية، م س ، ص 47

– 13الحياة الثقافية ... م س، ص91

– 14ابن الأمين: م س، ص 478 . 479

– 15جاء في الفصل الثاني والعشرين من فصول رسالته إلى السيوطي قوله: "منهم من صلاته بالتيمم أبدا فلا يتوضأون إلا نادرا ولايغتسلون من الجنابة إلا نادر، وتوحيدهم بالفم وما يعرفون حقيقة التوحيد، وزكاتهم يجلبون بها مصالح دنياهم أو يدفعون بها مضارهم، وحجهم بالأموال المحرمة."

16 -'' Histoire du naufrage et de la captivité de Mr de Brisson'' in : Maurice Barbier : Trois français au Sahra occidental 1781-1786 , l'Harmattan, Paris 1984 (195-215) , p.198.

-17ضعف أحمد رفع هذا الحديث وصحح ابن حزم وقفه، ولكن روي ذلك عن علي وحذيفة حسب ما أورده الشيخ منصور علي ناصف : غاية المأمول : شرح التاج الجامع للأصول في حاديث الرسول ، دار الفكر بيروت ، 1981، ص 276.275.

-18الرحلة م س ، ص 169

– 19أمر الولي ناصر الدين، م س، ص 154

-20الرحلة، م س، ص ص 173. 174

– 21الرحلة ، م س، ص 519

المراجع:

1. Nomadisme, Islam et pouvoir politique dans la société maure précoloniale (XI-XIX eme siècle), op.cit.

2. المقدمة، م س، ج1 (طبعة الدار التونسية للنشر)، ص:199.

3. "Segmentaire et pouvoir chez les éleveurs nomades sahariens…", op.cit, p. 186

4. المقدمة، بن خلدون، ع ص:368

5. Nomadisme, Islam et pouvoir politique Ould Cheikh. A…, op.cit.,T.II, p. 651 et suivantes

6. ابن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، ص476

7. إبراهيم بن الشيخ سيديه: النفحات الرندية في العوائد البيضانية، م س ، ص 47

8. الحياة الثقافية لموريتانيا، ولد حامدون المختار ص91

9. جاء في الفصل الثاني والعشرين من فصول رسالته إلى السيوطي قوله: "منهم من صلاته بالتيمم أبدا فلا يتوضأ ون إلا نادرا ولا يغتسلون من الجنابة إلا نادر، وتوحيدهم بالفم وما يعرفون حقيقة التوحيد، وزكاتهم يجلبون بها مصالح دنياهم أو يدفعون بها مضارهم، وحجهم بالأموال المحرمة."

10. -'' Histoire du naufrage et de la captivité de Mr de Brisson'' in : Maurice Barbier : Trois français au Sahra occidental 1781-1786 , l'Harmattan, Paris 1984 (195-215) , p.198.

11. الشيخ منصور علي ناصف : غاية المأمول : شرح التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ، دار الفكر بيروت ، 1981، ص 275.276.

12. الرحلة الحجازية محمد يحي ألولاتي ، ص 169

13. أمر الولي ناصر الدين، م س، ص 15

تاريخ الاستلام: 2017/01/03- تاريخ التحكيم: 2017/04/22 -تاريخ النشر2017/06/02

إرهاصـــات الفن البـــدائي

د. محمد رشدي جراية

جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي (الجزائر)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

ملخص

يعتبر الإنسان الكائن الحي الوحيد الذي يستطيع أن يعبر عن مشاعره و أحاسيسه و وجدانه من خلال قيّم جمالية فنية و الإنسان البدائي كان له السبق في هذا المضمار من العصور الحجرية القديمة التي كان فيها وحيدا ضعيفا أمام مظاهر الطبيعة وصراع الحياة المرير،و المخاطر المحدقة من كل حدب و صوب فوجد في ابتكاره الفن بكل أنواعه متنفسا له من ضيق ذلك العالم رغم رحابته و وجد في الفن أنيسا له في ظلمات الكهوف و المغارات و بذلك تجلت لنا الحضارات ما قبل التاريخية تحمل في طياتها جوانب جمالية فنية منقطعة النظير، و الى جانب ذلك قامت بتطوير حياته في العصور الإنتاجية الأولى(أي النيوليتية) فترقى الفن لزاما لذلك مما سهل لظهور الفن على المسرح الحضاري ابتداء من العصور التاريخية بكل تلك الروعة و التي بلغت درجة الكمال في الحضارات التاريخية القديمة بعد ذلك البقايا الفنية للشعوب البدائية في عصور ما قبل التاريخ تثير إعجاب أصحاب الحضارات المعاصرة حيث تجمع في المتاحف و تخصص لها ميزانيات هائلة حيث يقف الفنانون الحاليون أمامها مندهشين في ذهول لصيغتها الفنية الرائعة .

الكلمات المفتاحية: العصور الحجرية ، الإنسان البدائي ، العصر الباليوليتي، الفن ، الرسم الجداري ، النقش على العظم ، الأدوات الحجرية، النيوليتي،رسم الحيوان، الكهوف ، جدران المغارات. .

Abstract:

The human being is the only living organism that can express its feelings, sensations, and senses through artistic aesthetic values and primitive human beings. It was a pioneer in this era of ancient stone ages, in which it was alone in the face of the manifestations of nature and the bitter struggle of life. And found in his innovation art in all kinds of breath from the narrowness of that world despite his welcome and found in the art Anisa in the darkness of the caves and caves, and thus demonstrated to us the civilizations of the pre - historical bearing the aspects of aesthetic aesthetic unmatched, Developed his life in the first productive ages (ie Neolithic) art is necessary so it made it easy for the emergence of art on the stage of civilization from the historical times with all the magnificence and that reached the degree of perfection in the ancient historical civilizations after that.

The artistic remains of primitive peoples in prehistoric times are admired by the owners of contemporary civilizations, where they gather in museums and allocate huge budgets to them, where the current artists stand in astonishment astonished by their exquisite artistic form.

مقدمة:

الأعمال المنجزة في حياتنا اليومية كثيرة ومتعددة لكن ليست كلها أعمال فنية لغياب شروط معينة فالسيارات والعمارات وغيرها إنجازات تصادفنا يوميا وحيثما ولينا وجوهنا بينما نحكم على أعمال وإنجازات أخرى بأنها فنية كقصيدة شعر أو لوحة أو زخرفة أو صورة معينة أو قطعة موسيقية وهذا راجع لشروط يدركها الشعور الذي تتركه هذه الأعمال في النفس ولوجود شروط و مقابيس علمية أخرى متوفرة في العمل الفني.

ورغم اختلاف هذه الأعمال الفنية عن بعضها البعض في شكلها الفيزيائي فالمنظر الطبيعي يختلف عن مسرحية والأخرى تختلف عن قطعة موسيقية أو قصيدة شعر لكننا نحكم عليها جميعا بكلمة (فن). (كلايف، ب .2013: 08-09)

تعريف العمل الفني:

العمل الفني هو أي عمل جمالي يثير فينا إنفعالا خاصا يترجم في إحساس عاطفي و ذوقي و نشوة و تحرر الخيال نستمتع به نفسيا و حسيا من خلال إدراك مضمونه الجمالي في حواسنا المادية هذا بغض النظر عن المستوى الجمالي للعمل و مدى اختلافنا حول ذالك فيمكن لعمل فني معين أن يراه أحدنا بشعا بينما آخر يراه رائعا لكن صفة الفن موجودة فيه باعتباره عملا فنيا يخضع لشروط و مقاييس ترتقي به إلى درجة الفن. (كلايف، ب .2013: 11)

ماهية الفن البدائي :

ومن العجيب و الغريب في آن واحد أننا لا نستطيع أن نقارن هذا الفن البدائي ما قبل التاريخي وبين فنون الشعوب البدائية الحالية أو حتى قريبة العهد منها أو حتى فن الأطفال الصغار الآن (فن الرسم عند الأطفال) ، إذ أن فن البدائيين الحاليين تطغى عليه النزعة العقلية حيث يرسم ما يعرفه أما فنان ما قبل التاريخ فيرسم ما يحسه وما يراه بحواسه أيضا ولذلك يندرج هذا الفن ضمن الانطباعية التلقائية العفوية متحررة من الأناقة والقيود العقلية وهذا النوع لا يوجد له نظير في تاريخ الفن قاطبة إلا بظهور النزعة الانطباعية الحديثة في نهاية القرن 19م.(أرنولد، هـ. 2005: 16)

الفن الباليوليتي:

لاشك أن العمل الفني يجعلنا ننخرط في عملية وجدانية و نفسية مع الآخرين كما يمكننا من وضع إطار لإسقاطاتنا على الغير ، بسهولة و يسر و يعتبر الفن أهم نشاط إنساني يمكننا من التواصل بين الأشخاص في زمن معيّن كما يمكن للأجيال المتعاقبة من التواصل والأمر نفسه ينطبق على الأمم و الحضارات المتباينة لأن الفن لا يحده الزمان و المكان و اللون واللسان لأنه متحرر من العصبية و الحزبية. (كلايف، ب .2013: 33)

تظهر ملامحه جلية ومتطورة خلال الباليوليتي الأعلى خاصة في الفترة مابين (35000-30000) قام و من خلال البقايا الأثرية المتأخرة فإن أوروبا الغربية قدمت أقدم الإثباتات عن هذا الفن الذي اختفى في سنة (10000)ق.م حيث انحسر الجليد إلى الوراء تاركا منطقة السهوب,حيث فرض على الإنسان الزراعة و استئناس الحيوان ،و يمكن معرفة ذلك من خلال رسوم الحيوانات الموجودة آنذاك والتي ألهمت الفن الباليوليتي .(Groslier ,B.1955: 16) الشكل رقم 01.

شكل رقم 1 : حيوان بيسون -كهف الدوردوني- فرنسا.

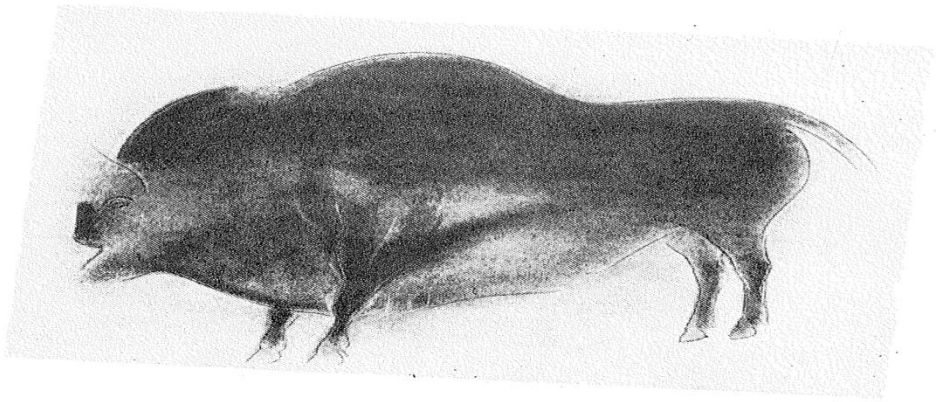

الأعمال:

نملك الكثير من العينات رغم ضياع نسبة معتبرة منها إما سبب نقلها أو تحويلها أثناء التنقيب أو أن المادة التي صنعت منها هشة مثل (الخشب – جلود الحيوانات – الطين...) أما الأدوات استخدمت خلال هذه الأعمال الفنية قليلة العدد نسبيا و هي

في العادة (أزاميل, نصال ومحكات من الصوان خصلات الشعر أو أعواد نباتية بالإضافة إلى استخدام أدوات حادة كأدوات الثقب وتستخدم الألوان من مستحضرات معدنية وعظام الحيوانات و قرون الرنة وعاج الماموث و الحجارة نفسها التي سيرسم عليها تكون لوحة حجرية أو جدار لكهف أو مغارة.

كما أن الأدوات المستعملة في عملية الرسم والنقش تكون هي نفسها في غالب الأحيان مزينة بأشكال هندسية أو نباتية أو إنسانية ، هذا الفن هو الشائع و الأدوات المزينة هي عبارة عن محاريب و سهام وعصي مثقوبة وألواح ودوائر وحيزها حيث رسما عليها غالبا رأس حصان هذا الفن الجزائري ارتبط عموما بمفاهيم وتصورات دينية. (Groslier ,B.1955: 16)

هذا بالإضافة إلى الرسم على ألواح حجرية منقوشة التي يبقى أهمها الرسومات والنقوش الجدارية التي كانت جدران الكهوف والمغارات مسرحا لها حيث رسمت أو نقشت عليها مشاهد جميلة جدا من الأعلى إلى الأسفل وحتى في سقف الكهوف وفي أروقة المغارات أيضا وحتى القاعات الواقعة تحت التجاويف الطبيعية الأرضية للكهف حيث كانوا يقومون فيها غالبا بطقوس العبادة وهكذا كان الإنسان الباليوليتي مرهف الإحساس للغموض الذي كان يحيط به من كل جانب مما جعل خياله لا يعرف القيود . (Groslier ,B.1955: 16) الشكل رقم 02

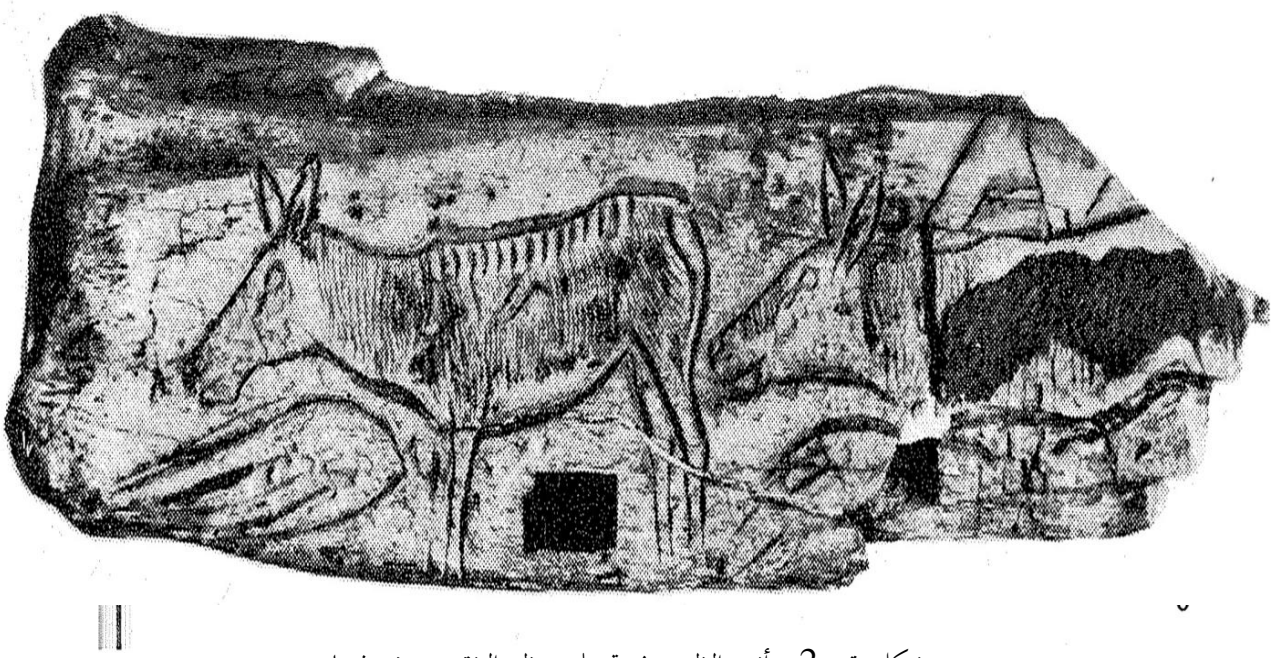

شكل رقم 2: أنثى الظبي محفورة على عظم الرنة (متحف فيينا).

المرجع :.Faure ,Elie.(1965) Histoire de l'art (l'art antique), p55

الهدف من وراء هذا الفن: يمكن أن نصل عبر التخمين إلى عدة فرضيات

- السحر و الشعوذة لامتلاك الحيوان في الواقع شهيل الحياة.
- الدين أي معتقدات خاصة.
- ملئ الفراغات التي بحياة إنسان ما قبل التاريخ .
- الرغبة في الخلود بسبب الخوف الدائم من المحيط .
- الفن لأجل الفن .
- قصد المتعة.
- الرغبة في التمتع باللعب والتزيين المربعات و الأشكال وزخرفتها بالألوان.

- إلحاح الطقوس .
- ربما رسالة عبر الزمن .(Furon,R.1958 :143)

هذا الفن لصيادين بدائيين غير مستقرين ربما لا يؤمنون بالحياة الأخرى بعد الموت فالأرجح أن هذا الفن كان له علاقة بحياتهم اليومية لذلك يرجح البعض أن يكون أسلوبا سحريا القصد منه تسهيل عملية الحصول على الغذاء وبتالي سهولة إيقاع الطرائد

حيث يعتقد صيادو العصر الباليوليتي أنهم يستطيعون الإمساك أو قتل الحيوانات الموجودة في الرسم حيث التصوير استباق للنتائج المتوخاة ربما تعاويذ سحرية على الصورة المرسومة ولقد وجد شيئ من هذا الخيال عند بعض الهنود الحمر عند غداة اكتشاف العالم الجديد. (أرنولد، هـ. 2005: 17)

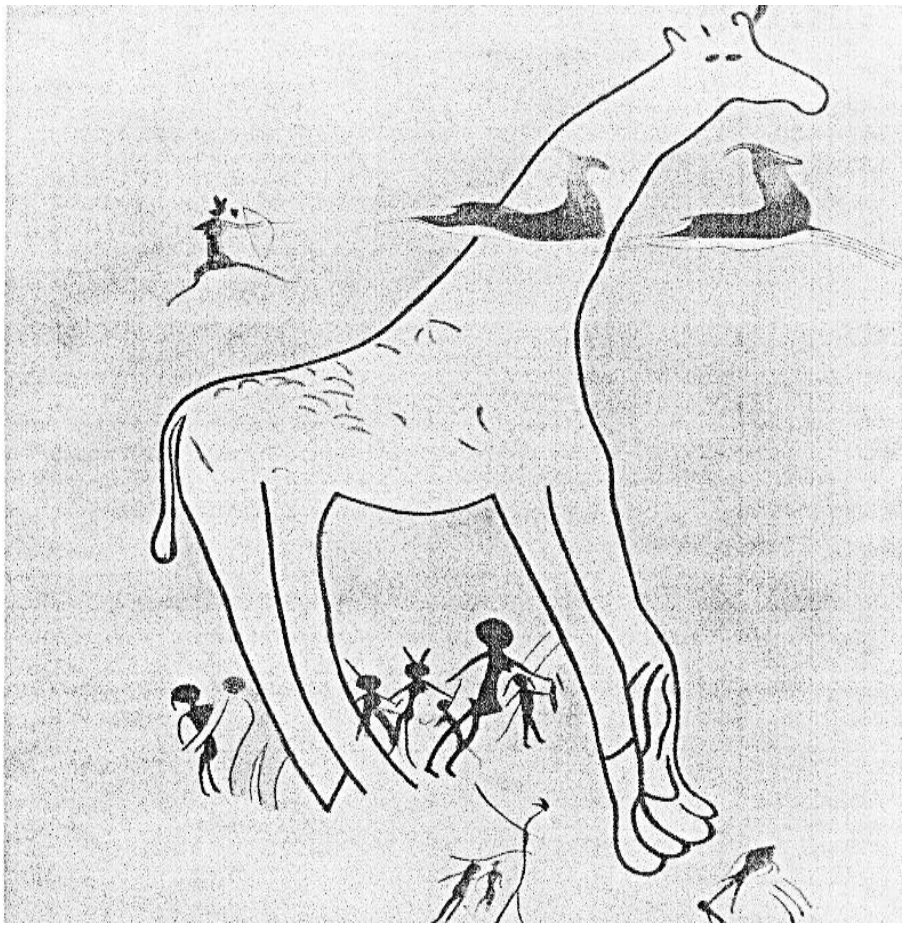

شكل رقم 3 :جدارية تمثل حيوانات ما قبل التاريخ بالطاسيلي

المرجع : Henri ,Lhote.(1973) a la découverte de fresques du

الأساليب و الكرونولوجيا:

يبدو أن الرسومات الأولى رسمت بين 30000 و 27000 ق.م لإنسان نياندرتال مثلما هو الحال في الحضارة الأورينياسية ويتعلق الأمر بألواح جيرية تمثل أكواب وأنصاف أكواب وأشباح حيوانات (وهذا ما يسمى الأسلوب1).

أما الأسلوب الثاني فيمكن ملاحظته في الدوردون ما بين 25000 و 18000 ق.م (الحضارة الغرافيتية والسولترية القديمة) البقايا كثيرة ومتنوعة تماثيل حيوانية إنسانية جميلة ويعتبر الأسلوبان أول ظهور للفن الجداري .

فيما بين 17000و13000 ق.م (السولترية المجدالمنية القديمة) يستمر الأسلوب الثاني من الفن وعلى رأسه رسم أشكال حيوانية و إنسانية محزوزة على الجدران. (Groslier ,B.1955: 17) الأشكال 03و 04.

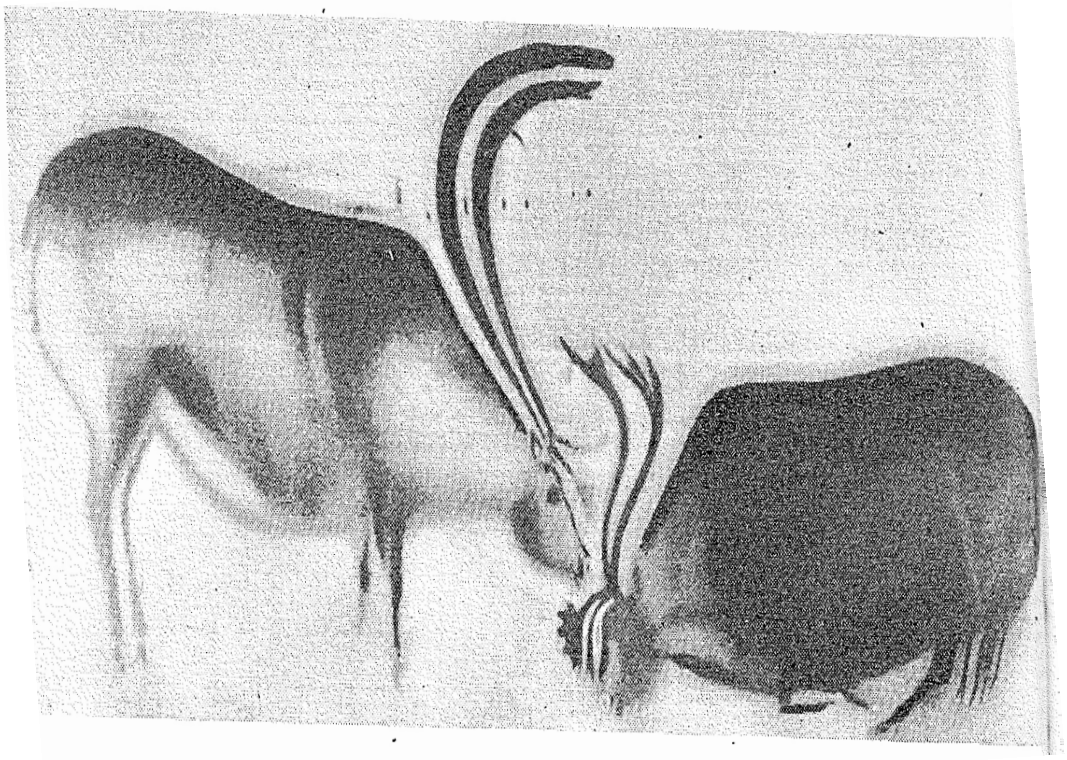

شكل رقم 4 : جدارية تصور عراك ذكور الرنة –كهف الدوردوني– فرنسا.

المرجع : Faure ,Elie.(1965) Histoire de l'art (l'art

فن العصر الحجري الحديث:

وفيما يخص الفن فيبدو أن الإنسان مارس فن التصوير على الصخور منذ العصر الميزوليتي فنقش على جدران الكهوف صورا و رسومات للحيوانات المعاصرة له ،كما عثر له أيضا على رسوم تمثل نساء، وكان الفن في مظهره الأول منبثقا من إعتقادات تسيطر على إنسان ذلك العصر فكان يظن أن رسمه للحيوانات التي يخافها يعطيه سلطة عليها. (علام ، ن. 1969 :20)

يبدو أن أسلوب وطرق الرسم تغيرت خلال العصر الحجري الحديث (النيوليتي) وهذا راجع لا محالا إلى الانتقال من الاقتصاد الاستهلاكي من خلال الالتقاط و الجمع و الصيد إلى الاقتصاد الإنتاجي من خلال تدجين الزراعة وتربية الحيوانات و الانتقال من المنطقة الواحد المبني على أساس السحر... الخ (أرنولد، هـ. 2005: 18)

وببداية العصر الحجري الحديث أتاحت الحياة الإقتصادية الجديدة فسحة من الفراغ مما أعان الإنسان على تحسين صناعته بما في ذلك الفخار وتزينه بزخارف ساذجة بسيطة هي في الغالب خدوش تحيط بحافة الإناء. (شكري ، م. 1965: 11 _ 12)

ولدراسة هذا المنتوج الفني يقابلنا عنصران أولهما التقنية المقدمة وثانيهما المفهوم الفني ، فالتقنية تابعة لمعارف الحرفة لأي شعب بدائي بينما يبقى الذوق الفني وضعية طبيعية خاصة بكل جماعة بشرية على حدى مشكلا جزء من ميراثها الحضاري . (De morgan, J.1924 :196)

ففي حضارات العصر الحجري الحديث بمصر كحضارة مرمدة بني سلامة، وحضارة تاسا والبداري وغيرها ، ظهرت أواني الفخار المطلية من الخارج والمزخرفة والمزينة ، تحليها رسومات محفورة تتألف من مجموعات من الخطوط الأفقية الرفيعة ومصنوعات عاجية وأواني ملونة بزخارف حيوانية وآدمية وتظهر الدمى النسائية عارية وأطرافها السفلى ملتصقة أما العليا فموشاة بالوشم.(شكري ، م. 1965: 12_ 13) (الأشكال رقم 5،6).

كما إشتهرت الأختام الإسطوانية في أواخر العصر الحجري الحديث ببلاد الرافدين وهي تحوي نقوش بارزة مصورة مع تنوع في المواضيع المختارة في العهود البدائية المختلفة ،كما حوت بعض هذه الأختام صورا آدمية وصل الفنان في رسمها الى درجة كبيرة من الدقة. (علام ، ن. 1969 :38)

كما دلت المشيدات الستة (معابد مشيدة بالطين قام بالكشف عنها المنقب الإنجليزي جيمس ميلارت ، في المنطقة الجنوبية لبلاد الأناضول، أنظر: نعمت إسماعيل علام ، المرجع السابق ، ص45) في موقع شطال هويوك (çatal huyuk) على فن بلاد الأناضول خلال العصر الحجري الحديث المبنية من الطين حيث زخرفت جدرانها بنقوش بارزة و تصاوير جدرانية ملونة ، ويبدو أن الدافع لظهور هذا العمل الفني كان دينيا فهي تقريبا مخصصة للعبادة لذلك أعتبرت من أقدم المباني الدينية التي عثر عليها حتى الآن. (علام ، ن. 1969 :45)

و بهذا فالرسم و النقش و النحت هي فروع أساسية للفن الذي عرف تقريبا عند أغلب الشعوب البدائية فيما قبل التاريخ وفي كل مكان تقريبا. (De morgan, J.1924 :197)

و هكذا كان فن العصر الحجري الحديث بكل فروعه يحمل في طياته قيما فكرية ذات مدلولات مهمة في زمانها ومكانها، ذلك ان الأشكال كانت محررة من وجودها المادي في الغالب، فهي عبارة عن رؤى روحية و رموز اعتقادية معبرة عن ضغط قوة الإنفعال في الفكر الإنساني بصفة عامة ، أو تعبيرا عن مفاهيم و إشكالات آنية تجتاز حركة الفكر الإجتماعي.

لا شك أن تطور الفكر الديني في هذا العصر قد إنعكس بصورة جلية عن تجليات الفن إذ بدأ أن الإهتمام بالفن و ممارسته كانت من ورائها على الأرجح أغراض و بواعث دينية محضة في أغلب الأحيان.

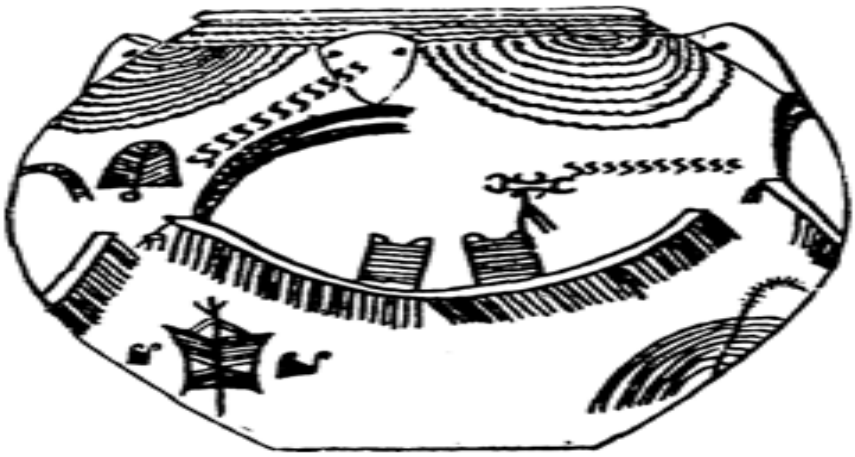

شكل رقم 5: قدر تزينه سفن و من حولها أشكال مختلفة .

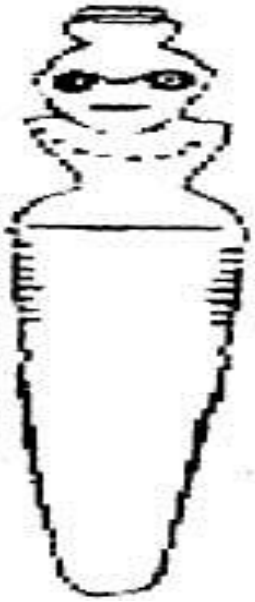

شكل رقم 6: جارية من عاج تحمل قدرا فوق رأسها.
المرجع: محمد أنور شكري :، الفن المصري القديم ص ص 20 ، 18.

حدثت تغيرات في الأسلوب الفني للعصر الحجري الحديث ويرجع ذلك لعدة عوامل أهمها سببان رئيسيان :

1. تحول الاقتصاد من الجمع والالتقاط عند صيادي العصر الحجري القديم إلى اقتصاد إنتاجي عماده زراعة الأرض ورعي الماشية .
2. تغيير نظرته إلى للحياة و العالم التي عمادها السحر إلى نظرة فلسفية بسيطة عمادها حيوية الطبيعة وفقا لنوعية الاقتصاد الجديد.

إن الإنسان البدائي في مرحلة الباليوليتي كان صيادا ومن ذلك اتصف بدقة الملاحظة وشدة التركيز من ملاحظة خصائص الحيوانات الخلقية و الخلقية من رائحتها و حتى هجرتها أوجه الشبه و أوجه الاختلاف ولهذا كان فنه مطابقا للطبيعة .

أما بعد استقراره وأصبح فلاح قلت دقة ملاحظته وضمرت حواسه وأصبح بعد توفر مخزون الغذاء و الاستقرار أكثر قدرة على التجريد والتفكير العقلي ومن ثم أصبح فنه تشكيليا تصميمي مبني على الزخرفة الهندسية. (أرنولد، هـ. 2005: 27)

2 مواضيع الفن :

كانت أغلب مواضيع الفن تنقش على أدوات الزينة (الحولي) من العظام و الأخشاب و المخالب و غيرهاو من سمات الفن البدائي :

- الإنسان البدائي رسم بأصابعه في البداية مستعينا بالعظام وألياف النباتات و الأشجار.
- الألوان عبارة عن مغرة مستخرجة من التراب ،منها الأمر والأسود والبني وحتى الأصفر و الأزرق و الأبيض
- رسم فنان ما قبل التاريخ على جدران الكهوف و المغارات .
- مواضيع الرسم تشمل الأيائل و الخيول و الماموث و النمور و الأبقار و الغزلان و الذئاب وحتى الإنسان.(Furon,R. 1958:128)

بالنسبة للفن الإفريقي تعود المتخصصون فيه تسمية المراحل الكبرى للفن الجداري باسم الحيوان الأكثر انتشارا بين رسوم تلك المرحلة وبهذا تم تمييز أربعة وحدات زمنية كبرى :

1- الحيرم 2- الثور 3- الحصان 4- الجمل.

مايهمنا الأول و الثاني اللذان ترجع صدرهما إلى ما قبل التاريخ بإفريقيا خاصة شمالها جانبه الكركدية و الفيل حيث رسم حوال 9000فيل الآن و إلى غاية 6000قبل الآن أما الثور فيرمز 6000 قبل الآن إلى غاية 3500 قبل الآن. (كي زيربو ، ج.1980 : 669)

فتعتبر الصورة الفنية البدائية في كهف (لاسكو) في فرنسا أقدم رسومات على جدران الكهوف و بذلك أقدم صورة للفن البدائي حيث مثلت صورة حيوانات تاريخها ما بين 15000 و 10000 ق.م.

لقد تم العثور دوما على التماثيل الطينية النيوليتية بملامحها التشكيلية ذاتها:

- رأس بيضاوية غير مفصلة
- رقبة إلى حد ما طويلة
- الأثداء والأرداف مضخمة

و لقد أطلق عليها العلماء الإلهة الأم وهي دون شك إحدى دلائل الخصوبة و العطاء. الشكل رقم 7.

شكل رقم 7: تمثال صغير لإمومة عثر عليه بالنمسا (متحف فيينا).
المرجع : Faure ,Elie.(1965) Histoire de l'art (l'art

ولقد عثر على نماذج منها في مصر (نقادة والبداري) وحضارة العبيد في العراق وفي أوروبا و اليونان (شاليا,سيسكولو) وفي إيطاليا كذلك . (السعدني ،م. 2003 : 12-28)

لقد زين الفن الأدوات و الأواني الأولى بأشكال هندسية و صور و زخرفها كانت كلها منقولة الطبيعة كما أن رسوماته في الكهوف و المخابئ لتحقيق سيطرته على الطبيعة بدافع داخلي يخفيه في نفسه لإمكانه بأن هناك ظواهر طبيعية وراء تلك الطبيعة و أن رسوماته تحدث فعالية فيها .

فالفنان البدائي سيلتهم زمانه وبيئته وبذلك يعبر عن انفعالاته و أحاسيسه . (حربي ، س .2014 :53- 54)

لاشك أن الفن الباليوليتي ظهر على يد رجال القبائل البدائية و هم يقصبون لتشكيل أحد العظام كتصور ماموث أو حيوان مجنح أو زهرة أو أسدا بعد عودتهم من الصيد حين كانوا يجلبون معهم الأغصان أو القرون حتى يتسلوا بها عند الليل فينحتونها أشكالا حيوانية طبيعية مختلفة.(Faure , E.1965: 43)

الخاتمة:

إذا كان أفلاطون قد حارب الفن لأنه يرى فه تزييفا لصورة الواقع وعلى اعتبار أنه تشويه له ، فيمكننا أن نتساءل في البداية من يصنع الفنان أهي الرغبة في الحصول على مأرب دنيوي مادي بحت أما هي الرغبة في التذوق و الجمال ؟أم الرغبة في التباهي ؟

فلقد عاش الفنان تتسيانو أرستقراطيا,و قضى رميراندت شيخوخته هاربا، أما فان غوغ فقد عاش شريدا لا يكاد يبيع لوحاته ،إن هؤلاء الفنانين العظماء الذين خلدهم التاريخ لم يأتوا للعالم لملأ بطونهم بل لكي يحضروا البشرية الى مستوى وجداني جديد.

و على ضوء ذلك يمكننا التقدير حالة أولئك الذين عاشوا قبل مئات الآف السنيين فلقد استطاع فنانو الباليوليتيك دون شك أن يميزوا الاختلافات والفوارق بين الألوان بدقة متناهية كما كانوا يرسمون ما يرونه في لقطة محددة.

فالفن البدائي آفقه بعيدة لايسعها الزمان ولا المكان حيث أن الدوافع و الوجدانيات البريئة بعيدة عن لماسته الإنسانية الآنية و الدنيوية لذلك كانت إبداعاته عفوية تلقائية لا يمكن حصرها في إطار ولا يمكن تطويقها بقوانين المنظور الحديث والمعاصر و استخدمت العظام والحجارة و الأخشاب و جدران الكهوف و المخابئ وقرون الأيائل وعاج الماموث لغرض الرسم و النقش عليها فخلدت لنا مواضيع فنية جميلة لا نضير لها اليوم.

اعتبرت ضمن الفن الباليوليتي أي فن العصور الحجرية القديمة وهذا لا يمنع بعد دخول الإنسانية مرحلة الإنتاج الغذاء ورعي الحيوان وبالتالي حصول فائض الإنتاج و استفادة الإنسان بقسط وفيرا من الراحة مما أدى إلى تطور هذا الفن ما قبل التاريخي في شكله و مضمونه فبدل رسم لقطات تعج بالحركة والحياة من خلال المشهد العام لطبيعة العصر الباليوليتي السابق أصبح الآن خلال النيوليتي يعطي رسوماته أبعاد ومفاهيم جنائزية وفنية ذات بعد عقلي ضعف فيه الجانب الروحداني إلى حد ما.

يمكننا الجزم أن ماوصل إليه الإنسان في وقتنا الحالي أي وقتنا المعاصر من تطور فني رائع هو في الحقيقة نتيجة التراكمات والتجارب التي خاضها الإنسان في هذا الجانب منذ العصور ما قبل التاريخية وإلى اليوم.

المراجع:

1_ كلايف، بل . (2013) . الفـن، ترجمة: عادل مصطفى ، مراجعة و تحقيق:ميشيل ميتياس(ط1) القاهرة: رؤية للنشر و التوزيع.

2_ هاوز، أرنولد.(2005) .الفن و المجتمع عبر التاريخ، ترجمة:فؤاد زكرياء(ج1)(ط1)الإسكندرية.دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر.

3_ علام إسماعيل، نعمت. (1969) . فنون الشرق الأوسط القديم . القاهرة . دار المعارف .مصر .

4_ محمد أنور، شكري .(1965). الفن المصري القديم ، منذ أقدم عصوره الى نهاية الدولة القديمة . مصر. الدار المصرية للتأليف الترجمة .

5_ حربي ،سعيد .(2014) . الأساليب و الإتجاهات في الفن المصري القديم (3800- 332ق.م). الإسكندرية . الهيئة المصرية العامة للكتاب، ،.

6_ السعدني ،محمد ابراهيم.(2003) . محاضرات في تاريخ الفن القديم. القاهرة. مكتبة الأنجلو مصرية.

7_ اليوت ، الكسندر.(1982). آفاق الفن(ط3). ترجمة:جبرا ابراهيم جبرا. بيروت. المؤسسة العربية للدراسات و النشر.

8_كي زيربو ، ج. (1980). الفن الإفريقي في ما قبل التاريخ (الفصل السادس والعشرون) تاريخ إفريقيا العام . المجلدالأول، جين أفريك ، اليونسكو.

9_ Groslier ,B.P.(1955) l'histoire de l'art . paris , LAROUSSE.

10_ De morgan ,J.(1924).L'humanité préhistorique .paris .la renaissance du livre.

11_ Faure ,Elie.(1965) Histoire de l'art (l'art antique). Paris. le livre de poche.

12_ Furon,R.(1958).Manuel de préhistoire génerale. France. bibliothéque scientifique.

تاريخ الاستلام: 2016/12/07- تاريخ التحكيم: 2017/03/15 -تاريخ النشر2017/06/02

حركة احتجاج النقيب الزبير ديسمبر1959 -فيفري1960 بالحدود الجزائرية المغربية خلال الثورة الجزائرية من خلال وثائق أرشيفية

د. احمد مسعود سيد علي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة- (الجزائر)

ملخص:

بحلول سنة 1959، شهدت الثورة الجزائرية حركات احتجاجية طالت جبهاتها القتالية بالحدود الشرقية والغربية للجزائر،كادت ان تعصف بمسيرة النضال التحرري للقضية الجزائرية برمته،حركات افرزتها جملة من العوامل والظروف مجتمعة صقلتها محنة حرب التحرير وسياسة القمع الاستعماري،يضاف الى ذلك الموروث الاجتماعي للقادة الميدانيين لوحدات جيش التحرير الوطني،حركات كان محركها الرئيسي قضية التموين بالسلاح نحو الداخل،وكانت في طليعتها تلك الوحدات التي كانت تتنقل بين الداخل والخارج بعد ان تتخطى خطوط الموت وجحيم الأسلاك الشائكة، ،لكن اشتداد سياسة التطويق الحدودي التي انتهجتها إدارة الاحتلال فرضت عزلة على الداخل الذي غدا يعيش حرب استنزاف،والحالة هاته كانت الوحدات المتواجدة بالداخل تئن تحت ضربات العدو ترى في قيادة الثورة بالخارج تعيش في نعيم ،في هذا الإطار جاءت حركة احتجاج النقيب الزبير بالحدود الغربية في ديسمبر 1959.

كلمات مفتاحية: تمرد، الحدود الجزائرية المغربية، السلطات الشريفية ، ولي العهد ،الحكومة المؤقتة، هيئة الأركان العامة.

Summary:

By the year 1959, the Algerian revolution saw the protest movements affected Jbhattha combat the eastern and western borders of Algeria, was almost rocking the march of the struggle for liberation of the case of the Algerian whole, the movements were produced by a number of factors and conditions combined honed plight of the liberation war and the policy of colonial oppression, In addition, the social heritage of the field commanders units the National Liberation Army, the movements were the main engine issue Supply arms inward, and has been in the forefront of those units that were moving between home and abroad after that transcends death and hell barbed wire lines, but Achtdad border cordon policy pursued by the occupation administration imposed isolation on the inside, which tomorrow , living a war of attrition, and the situation these circumstances were stationed units inside reeling under the blows of the enemy believes in the leadership of the revolution abroad live in bliss in this context came the protest Captain Zubair western border traffic in December 1959

Key words: Rebellion / Moroccan-Algerian border / authorities Sharifianism / Crown / Interim Government / General Staff

مقدمة:

شكلت الحدود الغربية للجزائر حركة جذب وانصهار بين سكان المناطق الحدودية لكلا الجارين سواء المغرب أو الجزائر بما كانت تشكله المنطقة من مصالح مشتركة ومحن واحدة عاشها سكان المنطقتين،فلقد ظلت هذه المنطقة ملاذ للمقاومين للاستعمار منذ بدايتها الأولى وصورة حقيقية للبعد الوحدوي الذي كان منغرس في وعي هؤلاء ،وحدوي دون الجزم أنه كان قومي لكن يبدوا حينذاك أن هذا البعد كان يخضع للانتماء الديني على اعتبار سكان المغرب الإسلامي الكبير كانوا أحفاد للموحدين والمرابطين.

إن هذه الشروط الموضوعية هي التي صقلت المقاومات التي ظهرت في تلك المنطقة ووحدتها لمواجهة الاستعمار الحديث،كما أنها بعثت من جديد روح الولاء الديني للقائد المقاوم أي كان موطنه الأصلي ،إذ لم يكن سكان المناطق الحدودية يأبهون أو يعيرون اهتمام للانتماء الجهوي لقائد المقاومة بقدر ما كان ينظر لتفانيه في المقاومة وإخلاصه في مسيرة الكفاح لأجل تحرير المنطقة

برمتها،والنقيب الزبير في الجبهة الغربية للكفاح المسلح الذي خاضته الثورة الجزائرية يبدو لنا مثال عن ذلك ،لكن هناك ظروف اجتمعت ألقت بالكثير من العتمة على محطات من نضاله خاصة في فترة(ديسمبر1959/فيفري1960) تمرده على قيادة جبهة التحرير بالمغرب الأقصى ممثلة في الحكومة المؤقتة وهيئة الأركان العامة بقيادة العقيد هواري بومدين،ظروف ساهمت فيها الحكومة المؤقتة والسلطة الشريفية ضد توجهات النقيب الزبير وذلك بتحالف ولي العهد حينها الأمير الحسن الثاني مع الحكومة المؤقتة لوضع حد لتمرد الزبير الذي طال الجبهة الشرقية للأراضي المغربية.

وهنا تكمن المفارقة ففي الوقت الذي كانت قضايا الحدود بين الثورة الجزائرية وتونس و المغرب على حد سواء تطرح بقوة، مفرزة خلافات روج لها كثيرا الجنرال ديغول حينها لأجل تسميم العلاقات المغاربية التي ظهرت في شكل جبهة بعد مؤتمر طنجة أفريل 1958، هذه الأوضاع مجتمعة كادت أن تسمم العلاقات بين الثورة الجزائرية و تونس المغرب اللتان تمادتا في المطالبة بمسائل تعديل الحدود فضلا عن المشاكل كانت تواجهها بفعل تواجد قوات جيش الحدود على أراضيها،بما كان يشكله من تهديد على نظامها،**فكيف نعلل استجابة السلطات الشريفية في فيفري1960 للتدخل بسبعة كتائب من الجيش المغربي لمحاصرة وحدات النقيب الزبير المنتفضة، والضغط عليها لقبول لقاء وزير الداخلية في الحكومة المؤقتة السيد لخضر بن طوبال ،ثم إقدام النقيب الزبير على حل كتائبه وتسليم نفسه للحكومة المؤقتة؟ لماذا لم تستغل السلطات الشريفيةّ أو بالأحرى الأمير الحسن الثاني انتفاضة النقيب الزبير لكي يضغط على الحكومة المؤقتة لتسوية القضايا الحدودية مع الحكومة المؤقتة؟ أم هل الأمر كان متعلق فقط باحترام الأمير لالتزامات الملك الأب محمد الخامس،التي لا تخضع للمنطق البراغماتي؟ أم أن النقيب الزبير كان يشكل خطر فعلي حتى على السلطات الشريفية؟**

لكن قبل الغوص في المحاولة للإجابة على هذه الإشكاليات ،وقبل التعرض الى دواعي وخلفيات هذا التمرد، ثم تداعياته وموقف السلطات الشريفية منه على اعتبار ان التمرد قام بأراضيها ثم كيفية تعاطي قيادة الثورة مع هذه الأزمة ممثلة في الحكومة المؤقتة وهيئة الأركان العامة قبل التعرض الى ذلك كله،يبدوا لنا من الضروري التعرض إلى الوضع العسكري تنظيميا الذي آلت إليه أوضاع الثورة بالجبهة الغربية قبل إعلان التمرد في ديمسمبر1959.

1- أداء تنظيم قيادة الاركان بالجبهة الغربية افريل1958- ديسمبر1959:

لعبت لجنة العمليات العسكرية بالجبهة الغربية منذ تأسيسها في أفريل 1958، دور بارزا في ميدان إعادة تنظيم وحدات جيش التحرير التي كانت رابضة على الحدود الغربية حيث قامت بتقسيم تواجدها بالأراضي المغربية إلى قسمين وكل قسم جزأته إلى ثلاث نواحي و ركزت على توحيد صفوف جنود جيش التحرير الوطني وربط التنسيق مع الولاية الخامسة كما أسست مجموعة من المراكز والمدارس (و.م.ث.ج، 1960/1959،ع.م.رقم 04)،وطورت مصالح الإمداد و الاتصالات التي ورثها بومدين عن سلفه العقيد بوصوف ،من جهة أخرى عملت على تعزيز الكفاح المسلح عبر الجبهة الغربية بتأسيس مجموعة من المراكز مستحدثة بذلك هيكلا جديد لجيش شبه احترافي، ومن بين هذه المراكز: (Guentari ,m , 2000, P ,648)

- مركز العربي بن مهيدي: شكل مقر للمنطقة الشمالية من الجبهة الغربية
- مركز الخميسات تم تأسيسه سنة1957،ثم شهد تطور مع ميلاد لجنة العمليات العسكرية وهو يقع بين مدينة مكناس والرباط المغربيتين ،تمكن من تكوين400جندي في مختلف الأسلحة،تحول بعد ذلك إلى مركز لإيواء أبناء الشهداء.
- مركز بركان: يقع على بعد 15كلم بين جبال تافوغالت، تم تأسيسه سنة1959،كون أكثر من 1500جندي.
- مركز بوعرفة :شكل مقر قيادة المنطقة الجنوبية من الجبهة الغربية

– مركز كبداني: يعتبر من أهم المراكز الذي طورتها لجنة العمليات ،يقع قرب مدينة الناظور، خصص لتكوين المحافظين السياسيين، التكوين العسكري، صناعة المتفجرات، استقبال الجنود الجزائريين الفارين من الجيش الفرنسي، استطاع تكوين4000جندي.

– مركز وجدة: يعتبر من أهم المراكز التي خصصت للتموين حيث كان يضم مصنع لخياطة البزاة العسكرية ويحتوي على مستشفى بسعة 100سرير ومدرسة لتكوين الممرضين ومركزا للتموين بالأدوية.

– مركز فقيق: وهو من بين المراكز الرئيسية لتوين وتخزين الأسلحة ومن ثمة إمداد الداخل بها بالجنوب الغربي للولاية الخامسة، عبر أدرار وتندوف.

وقد ساهمت هذه المراكز في إعادة تنظيم شؤون جيش التحرير الوطني بالحدود الغربية وأرست قواعد الانضباط في صفوف المجاهدين بحيث صقلوا على الولاء للقائد العسكري وليس للقبيلة أو العشيرة، وغدت تلك الوحدات تشكل أشبه ما يكون جيشا شبه احترافيا (GILBER,M . 2003 : 311).

إن ما يهمنا في موضوع هذه الدراسة هو مساهمتها في إمداد الداخل بالسلاح وتعزيز الكفاح المسلح وهو الهدف الذي لأجله استحدثت هاته اللجنة، غير أن الوثائق الرسمية للثورة في هذا الميدان شحيحة جدا،وعلى الرغم من اطلاعنا على كل الوثائق التي كان يتم عرضها على المجلس الوطني للثورة ،وإذا اعتبرنا جدلا أن اجتماع العقداء العشر كان بمثابة اجتماع تمهيدي لدورة طرابلس الأولى للمجلس الوطني للثورة في ديسمبر1959،وجانفي1960،فإنه خلال الاجتماع السابق الذكر لم يقدم العقيد هواري بومدين باعتباره قائد لجنة تنظيم العمليات العسكرية بالجبهة الغربية معلومات إلا ما تعلق بتنظيم شؤون الوحدات التي كانت رابضة بالجبهة الغربية.(شاوش ،ح. 2002: 692،693)

من جهة أخرى فإن كريم بلقاسم بصفته وزير القوات المسلحة أشار في خلال اجتماع المجلس الوطني للثورة في 17ديسمبر1959،إلى 1960/01/18،أشار إلى بعض النتائج الايجابية التي حققتها لجنة تنظيم العمليات العسكرية بالجبهة الغربية حيث تمكنت من إرسال خمس05وحدات نحو الداخل، اثنتان صوب الولاية الخامسة واثنتان أخريان نحو الولاية الرابعة والوحدة الأخيرة اتجهت صوب الولاية السادسة، لكن كريم لم يشر بدقة إلى تاريخ دخول هذه الوحدات ولا عددها وعدتها(و.م.ث.ج،دورة17/ديسمبر18/1959جانفي 1960. ع ،م رقم:C04).

وورثت لجنة تنظيم العمليات العسكرية بالجبهة الغربية الكثير من المراكز والوسائل التي كان قد استحدثها العقيد بوصوف، ومن بين هذه الوسائل المتعلقة بإمداد الداخل بالسلاح طرق وشبكات تهريب السلاح نحو الداخل بالاستعانة بالجزائريين المترددين على الأراضي المغربية في إطار الحركة التجارية عبر المنافذ الرسمية بواسطة شاحنات نقل البضائع التي عادة ما كانت تموه وتشحن كميات من الأسلحة،وذلك بالاعتماد على الخط الرابط بين وجدة ومغنية، ومنه يوزع السلاح عبر تراب الولاية الخامسة وبقية الولايات وبالرغم من المخاطر التي كانت تحدق بتلك القوافل إلا أن العملية استمرت إلى غاية تفطن إدارة الاحتلال لهذه الشبكات خلال سنة1960.

كما استغلت أيضا شبكات تهريب الأسلحة التي أخذت تشرف عليها لجنة تنظيم العمليات العسكرية بالجبهة الغربية بداية من سنة 1958،استغلت التجار الحرفيين الذين كانوا يصنعون الأواني الفخارية في المغرب ويصدرونها نحو الجزائر حيث كان البعض يقوم بتخزين الأسلحة بداخل هاته الأواني ثم تحمل لتنقل عبر خط السكك الحديدية الرابط بين وجدة ووهران، ومع اشتداد الرقابة الاستعمارية على الخطوط الرسمية الرابطة بين الجزائر والمغرب اتجهت جهود ذات اللجنة السابقة الذكر إلى الانعطاف نحو أقصى الجنوب الغربي(حفظ الله ،ب:276) للجزائر عبر بشار كمحطة عبور نحو الولايات السادسة ،وشمال الولاية الخامسة مرور بالولاية الرابعة، ثم استغل قادة لجنة تنظيم العمليات العسكرية الحركة التجارية لسكان الجنوب الكبير انطلاقا من أدرار على طول جبهة مالي نيجر،موريتانيا حيث كان يتم تخزين1الأسلحة في خزانات الوقود لشحنات تجار التي كانت تتجه من أدرار صوب

رقان،هذه العملية لعبت فيها شخصيات من قبائل التوراق دور الرئيس في مدّ شبكة تهريب الأسلحة بين مالي ونيجر والجزائر عبر رحلتين من كل شهر(قنطاري ،م . 1998: 181).

لم تتوقف جهود لجنة تنظيم العمليات العسكرية بالجبهة الغربية عند هذا الحد، بل ثمنتها لاحقا هيئة الأركان العامة باستغلال السمعة العالمية التي كان يحضا بها المناضل التحرري فرانز فانون خاصة في القارة السمراء، لأجل ذلك جند لمد صدى الثورة في إفريقيا الغربية.

(.م.و.ث.ج، دورة أوت 27/09/أوت1961.ع،م،رقم: معية المجاهد الرائد فرحات الطيب المدعو زكريا جهود انتهت بمد أواصل الصداقة بين كبار المسئولين في مالي والنيجر وتم التعرف على كبار شيوخ القبائل على طول الحدود الجزائرية المالية والجزائرية النيجرية مكنت من استحداث قواعد خلفية للثورة في منطقة قاو على الحدود الجزائرية النيجرية : senoussi, s. 2002) (157-147،ومنه حققت الثورة على طول الحدود الغربية من الشمال إلى منطقة قاو النيجرية حزاما إمداد لدعم الكفاح المسلح بالداخل،بالرغم من أن هذا المسعى الأخير جاء جد متأخر.

ويبدو أن الحركية التي ميزت نشاط لجنة تنظيم العمليات العسكرية بالجبهة الغربية ساهمت في إعطاء الكفاح المسلح بالولاية الخامسة على الخصوص فاعلية وديناميكية كانتا كفيلتين بانتعاش الثورة بالداخل، كما ساهمت أيضا في بداية التركيز الفعلي لاهتمام العسكريين الفرنسيين بالولاية الخامسة واعتبارها معقلا خطيرا للثوار في ظل الحركية التي ميزت قوافل الإمداد بالسلاح عبر الحدود الغربية، وهو الأمر الذي يفسر الانتعاش الحقيقي للولاية الخامسة في ميدان العمل المسلح عبر المعارك التي كانت تندلع في مناطقها الثمانية(بودغن ، علي:1959)، كما عززت من تواجد الثورة بأقصى الجنوب الغربي في وقت أخذت إدارة الاحتلال تحضر عمليا لفصل الصحراء الجزائرية عن الشمال، وهو ما جعلها تتصدر في تقديرنا قائمة برنامج شال (MAURICE, CH. 1968:119) لتطويق الثورة بداية من فيفري1959 ،عبر العمليات العسكرية الكبرى التي شنها بداية من التاريخ السابق الذكر وانطلاقا من أراضي الولاية الولاية الخامسة (MOHAMED,T . 1988 :375,378).

2- انتفاضة النقيب الزبير الدواعي والخلفيات:

إن ما ميز الجبهة الغربية للكفاح المسلح خلال ثورة الجزائرية إلى نهاية سنة 1959،هو صمودها في وجه جيش الاحتلال وتجاوزها للأزمات الداخلية التي نخرت الأجهزة التنظيمية للثورة، كتلك التي شهدتها الجبهة الشرقية،ذلك أن تنظيم لجنة العمليات العسكرية (حربي ،م . **2001**: 16) للجبهة الغربية ظل متماسكا، وببدء تطبيق سياسة التطويق الحدودي واشتداد حدة حصار الولايات عبر مخطط شال ،لم تبقى الجبهة الغربية بمنأى عن صراعات العامة التي كان يعاني منها تجاه الخارج ،فالأزمات التي شهدتها أجهزة الثورة ما بين كريم بلقاسم و .ح.م.ج.ج ،وما بين ها ته الأخيرة والولايات - اجتماع عقداء الداخل ديسمبر1958-وما خلفه من تطورات مشبوهة في مسار علاقة الداخل والخارج، كلها تفاعلت وأثرت سلبا على مسار الولايات.

والظاهر أن الرغبة الجامحة للنخبة الثورية الجديدة من العسكريين-مسؤولي قيادات العمليات العسكرية خاصة بالجبهة الغربية- قصد التشهير بكريم بلقاسم بصفته وزيرا للقوات المسلحة بعد أن سجل إخفاقا في ميدان تنظيم وحدات جيش الحدود وإمداد الداخل بالسلاح

جعل من هذه النخبة تضاعف جهودها في هذا الميدان، وفي هذا السياق قرر مسئولو تنظيم لجنة العمليات العسكرية بالجبهة الغربية الرمي بكل ثقلهم على مستوى منطقتهم العملياتية ،وذلك بتفعيل حركة الإمداد نحو الداخل بما يعني مواجهة السد المكهرب، لأجل ذلك أخذ

هؤلاء يزجون بالعديد من وحدات جيش التحرير الرابضة بالجبهة الغربية نحو مواجهة هذه السدود، لكن وبرأي مناصري تمرد النقيب سي زبير أنه في أثناء القيام بهذه المهمة كان مسئولو لجنة العمليات بالجبهة الغربية ينتقون ضباط دون غيرهم ،في حب أن

قرارات اجتماع العقداء 11أوت/15ديسمبر1959،كانت قد أكدت على ضرورة دخول جميع قادة الولايات إلى الداخل للإشراف على العمليات العسكرية عن كثب ومراعاة الواقع الميداني للثورة تجنبا للاختراقات التي طالت بعض أجهزة الثورة وتنسيق العمليات العسكرية بين الولايات(م.و.للأرشيف:و.م.و.ث.ج، ذدورة 16/ديسمبر1959/01/18/1960. ع ،م ، رقم: C010).

وعلى فرض أن الذرائع التي قدمها حينها مناصري سي زبير كانت واهية برأي الحكومة المؤقتة ،فإن ذات الذرائع طرحها قادة الثورة المؤتمرين في الدورة الرابعة التي عقدها المجلس الوطني للثورة الجزائرية بطرابلس خلال فترة 09الى 27/أوت1961،حينما ناقش المؤتمرون مسألة استحداث هيئة قيادية للثورة تشكل مكتب سياسي يشكل بدوره أعلى سلطة للثورة ويكون مقره بالداخل،.فبرأي الكثير من قادة الولايات ليس على سبيل الحصر—حاج لخضر عبيد،بن عودة عمار-أن مسألة رفض الدخول إلى التراب الوطني كانت تعني حينها سقوط نظام الهالة للمسئول الثوري الذي كان من المفترض أن يكون قدوة حسنة وإلا كيف يرفض مسئول سامي الدخول ويأمر الجندي البسيط للدخول باختراق الخطوط المكهربة أي نحو مواجهة الموت الحتمي.(م.و.للأرشيف :و.م.و.ث.ج، دورة 27/09/أوت1961. ع ،م ، رقم: C0021)

إن هذه العوامل حتى وإن لعبت دور في تحريك سي زبير نحو الإعلان عن تمرده ،فإنها في النهاية لم تكن العوامل الوحيدة بالنظر إلى التداعيات التي خلفتها حركة التمرد.

جاء إذا تمرد النقيب حمايدية طاهر(HAMOUD, C. 1992 : 271)المدعو سي زبير ،ليضع حد للانسجام الوهمي الذي كانت تتسم به لجنة تنظيم العمليات العسكرية بالجبهة الغربية للكفاح المسلح الذي ميز الثورة الجزائرية .

لقد قاد سي زبير حركة عصيان ضد وحدات جيش التحرير الوطني من مركز قيادته بالمنطقة الأولى —تلمسان، سبدو- الولاية الخامسة، بداية من ديسمبر 1959 إلى 24فيفري 1960 تمرد سرعان ما انتقل إلى الأراضي المغربية حيث كانت مراكز جيش الحدود بالجبهة الغربية(GILBER, M . 2003 :412).وخلال تمرده أكد سي زبير أنه يطالب بتطبيق قرارات اجتماع العقداء أوت1959،الداعية إلى ضرورة دخول قادة الولايات ،بما في ذلك قيادة لجنة العمليات الحربية الغربية، في الوقت الذي رفض فيه الدخول متذرعا بعدم دخول قيادة الثورة .

2-1- خلفيات التمرد :

يعتبر النقيب الزبير مثل الكثير من القادة الميدانيين للثورة بالداخل، فلقد عمل بعد فراره من الجيش الفرنسي والتحاقه بصفوف الثورة سنة1955،عمل خلال ثلاث سنوات في معاقل المنطقة السابعة تيارت حيث مسقط رأسه، واكتسب شعبية هناك في صفوف وحدات جيش التحرير الوطني ، بعد أن شاركهم محن التطويق ونفاذ السلاح ،خلافا لقادة الولاية الخامسة من أمثال قايد أحمد ابن منطقته(أي مدينة تيارت) الذي كان مجال تحركه العسكري بالمنطقة الثامنة من الولاية الخامسة،(أي منطقة تلمسان ومغنية والمرسى شمالا)والتي كانت تشكل بالنسبة لقادة مثل زبير درب من الدروب سرعا نما تنتهي طريقه إلى الأراضي المغربية حيث الآمان، وهو ما قد يفسر لاحقا إصرار قايد أحمد على ضرورة إعدام الزبير، فهو كان يشكل أي النقيب الزبير بالنسبة لقادة الولاية الخامسة العاملين بالأراضي المغربية منافسا عنيدا بما كان

يحمله من رصيد في ميدان الكفاح المسلح ثلاث سنوات مقارنة بقايد أحمد الذي لم يمكث بالداخل سوى بضعة أشهر(GILBER, M :413).

إن هذا الرصيد هو الذي جعل منه قائدا ميدانيا فذا يحظى باحترام الكثير من أفراد وحدات جيش التحرير الوطني بالولاية الخامسة وبالأراضي المغربية على حد سواء،كما أن حركته جاءت كتعبير لهاته الوحدات التي كانت ترفض بشكل غير مباشر التصرفات البوليسية التي كانت تمارسها أجهزة بوصوف ومن ورائه العقيد بومدين ضد الكثيرين ،كما جاءت حركته كاستجابة

أيضا للكثير من الضباط الذين كانوا يرون في قيادتهم العاملة بالأراضي المغربية تخضع نظام الترقيات للمحاباة وهو ما اعترف به الرائد مختار بوعيزم سي ناصر لاحقا (بوعيزم ، م . 2001 :29، **شهادة**) فضلا عن مطلبها الأساسي وهو الإمداد بالسلاح الذي كان زبير يلح على قادته بالجبهة الغربية بغية تحقيقه لتعزيز الكفاح المسلح بالداخل.

ويمكن رصد تذمر سي الزبير وفق ما ذهب إليه الرائد مختار بوعيزم (عضو مجلس الولاية الخامسة) في ثلاث مستويات بوعيزم ،م . 2001 :29، **شهادة**):

- مطلبه القاضي بالإمداد بالسلاح نحو الداخل.
- رفضه الدخول شرط دخول كافة الضباط والإطارات بناء على قرارات اجتماع العقداء، وتعليمة الحكومة المؤقتة التي حددت آخر أجل للدخول 31 مارس 1960.
- رفضه للترقيات التي تحصل عليها الرائدان أحمد مستغانمي المدعو رشيد، وعبد الغني عقبي المدعو عمار ، ويذكر الرائد مختار بوعيزم أن العقيد لطفي كان يخجل من عبد الغني عقبي بالرغم من أنه كان صهره كان يخجل من أدائه السلبي وعدم انضباطه في القواعد الخلفية للثورة بالأراضي المغربية.

من جهة أخرى فإن مشاعر السخط التي اجتاحت النقيب الزبير تجاه ضباط كان يراهم مدعاة للفشل و–الخيانة– جعلته يقدم على ضرب الرائد أحمد مستغانمي بحضور قائد الولاية الخامسة العقيد لطفي ويطلب من هذا الأخير عزله عن مهامه في قيادة الحدود. (GILBER , M :413)

ويبدو من خلال الشواهد المتوفرة أن العوامل السابقة الذكر خصوصا ما تعلق بها بعمليات الإمداد نحو الداخل وانعزال قيادة الولاية الخامسة بمراكزها المتقدمة بالأراضي المغربية، ضاعفت من حالة التذمر التي كان يكنها القادة الميدانيون للثورة بالداخل لقادة ولايتهم ومما زاد في حالة حدة هذا التذمر هو إقدام قادة الولاية الخامسة المتمركزون بالأراضي المغربية إقدامهم على إحداث ترقيات طالت ضباط كانوا في نظر أتباع سي زبير غير أهل لها وبالتالي رأوا في تلك الترقيات بعين ريبة بالنظر إلى أنها كانت تخضع للمحسوبية والعصبوية .

إن هذا الامتعاض لم يطل فحسب، فالنقيب سي زبير بصفته قائد ميداني حقق شعبية في منطقته الثامنة بالولاية الخامسة قبل انتقاله إلى الأراضي المغربية،بل حتى العناصر القيادية التي كانت تعمل بمقر قيادة الولاية الخامسة في وجدة،ذلك أن هاته الأخيرة بالرغم من مركزها في صفوف القيادة إلا أنها لم تحظى بفرصة الارتقاء في سلم الرتب العسكرية بل ظلت تعاني التهميش والإقصاء كالرائدين فراج ومختار بوعيزم قبل ترقيتهما في مطلع سنة1960[1](بوعيزم ، م . 2001 :29، **شهادة**).

لم ينتظر النقيب زبير أو بالأحرى لم يستسغ سياسة التماطل التي تلقاها من طرف العقيد هواري بومدين قصد إمداد الداخل بالسلاح في خريف 1959، اثر طلباته المتكررة، لأجل ذلك تنقل زبير إلى وجدة حيث التقى بقادة لجنة تنظيم العمليات العسكرية بالجبهة الغربية،ولما استشعر سياسة التسويف من طرف قيادة أركان الجبهة الغربية راح يحرض في وحدات جيش التحرير الوطني الرابضة بالجبهة الغربية ضد قيادة الولاية الخامسة المتقاعسة،و جر معه كل الفئات الساخطة سواء تلك التي كانت ترى في قيادتها تنعم بالعيش الترف في الأراضي المغربية بما كانت تملكه من سيارات فاخرة،وفئة المسجونين من ضباط وجنود جيش التحرير الوطني في مراكز العريشات وخميستي، ويذهب المؤرخ الفرنسي جيلبير ميني إلى أن زبير لما أعلن تمرده رفض أي وساطة إلا وساطة كريم بلقاسم في البداية، رغم رسائل حسن النية التي أرسلها له رئيس الحكومة المؤقتة فرحات عباس وبن طوبال و هواري مدين.

وفي 1959/12/26، نظم لقاء بين زبير والرائد عشمان –بوحدو بوحجار–عضو مجلس الولاية الخامسة على اعتبار أنه كان من قدامى الحركة الوطنية في صفوف حزب الشعب وحركة الانتصار، لقاء توج بلقاء آخر مع العقيد لطفي المسئول المباشر عن زبير Kلكن هذا الأخير أخذ يطالب في هذه المرحلة بمنحه قيادة المديرية المركزية لمصالح الإمداد المتواجدة بالمغرب

الأقصى(GILBER, M :413). وهو مكان ليقبل به قائد الجبهة الغربية العقيد هواري بومدين ولا إطارات مصالح المداد الذين كانوا يدينون بالولاء لبوصوف وبومدين.

2-2- حركة التمرد وموقف السلطات المغربية:

انطلاقا من مدينة وجدة المغربية قام النقيب الزبير بجر 1200 جنديا من جيش التحرير الوطني المرابط بالحدود في تمرد ضد وحدات أخرى من جيش حدود الجبهة الغربية ويذكر فيلب تريبي ان النقيب زبير حاصر مخيمات جبهة التحرير الوطني .(PHILP, T. 1972 :431)مدة أسابيع ،وهو ما أكده حمود شايد الذي ذكر أن السلطات المغربية تدخلت بثلاثة آلاف جندي مغربي بطلب من الحكومة المؤقتة،بعد أن رفض النقيب سي زبير في البداية لقاء مبعوثيها لخضر بن طوبال ومحمدي سعيد.

وفي أثناء اللقاء الذي جمعه في 1960/02/19،مع العقيدين بن طوبال ومحمدي سعيد دعاه وزيرا الحكومة المؤقتة إلى دعوة أنصاره للهدوء والعودة إلى وحداتهم الأصلية بغية حل الأزمة بطريقة تجنب الثورة تبديد قواها، لكن كتائب الزبير المنتفضة واصلت مسيرتها إلى منطقة بركان حيث أشرفت على حصار مركز قيادة الحدود بالجبهة الغربية في وجدة على بعد 60كلم ،كما حاولت تلك الكتائب تصفية وزيرا الحكومة المؤقتة في بركان لولا تدخل زبير الذي أثبت سيطرته على الوضع ،والحالة هذه تدخلت قوات الجيش المغربي بسبعة كتائب وحاصرت المنتفضين في بركان، حينها تدخل بن طوبال أمام الجنود المنتفضين وأكد لهم التزام الحكومة المؤقتة بالاتفاق الذي تم مع ولي العهد الحسن الثاني ،والذي يقضي بأن يسلم زبير نفسه للسلطات المغربية تحت رعاية الشخصية للملك ،وفي المقابل تحل الكتائب المنتفضة وتلتحق بوحداتها الأصلية(م.و.للأرشيف.:و.م.و.ث.ج، دورة 27/09/أوت1961)C0019 ع ، م ، رقم ،

وفي 1960/02/24، قبل النقيب زبير وساطة ولي العهد الملك الحسن الثاني الذي ضمن في حياته مقابل حل كتائبه والتحاقها بوحدات جيش التحرير الوطني.[1] (GILBER, M .:413).

ويبدو أن وساطة ولي العهد الأمير الحسن الثاني قائد أركان الجيش المغربي، حينها جاءت مسرعة لتفكيك خطر انتشار المذهب الزبيري إن صح التعبير ليس في صفوف جنود جيش التحرير الوطني الجزائري بل لدى بعض قدامى الضباط السابقين في جيش التحرير المغربي،الذين كانوا متذمرين من حكومة المخزن وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ الفرنسي جيلبير ميني دون الإحالة إلى مصادره في هذا الشأن أن السلطات المغربية خلال أزمة الزبير تخوفت من الشعبية الكبرى التي اكتسبها في صفوف الجزائريين بالمغرب،وعلاقاته المشبوهة مع بعض ضباط الجيش الملكي،لقد بدا في نظرها قنبلة مؤقتة يمكنها أن تتفجر ضد المغارب أنفسهم مثلما انفجرت ضد الحكومة المؤقتة ،لأجل ذلك ضغط عليه ولي العهد الحسن الثاني،لأجل حل كتائبه مقابل أن تضمن السلطات الشريفية في حياته.

وفي السابع والعشرين من شهر فيفري1960،دخل الاتفاق المغربي حيز التطبيق حيث نقل زبير من وجدة إلى الرباط حيث خصصت له الإقامة96 الجبرية تحت حماية الملك محمد الخامس، غير أن أنصار زبير ظلوا يطالبون بإطلاق سراح زبير وفي شهر مارس1960،تظاهروا في مدينة وجدة وطالبوا بضرورة الإفراج عنه، حينها تدخلت الحكومة المؤقتة ممثلة في بن طوبال بطلب للسلطات المغربية ودعتها إلى إطلاق سراحه وتحويله إلى مسئول بعثة جبهة التحرير الوطني السيد شوقي مصطفاي مع التعهد بحمايته وعدم معاقبته(Henri ,l, 1982)،و في شهر أوت 1960،تمكنت مصالح هيئة الأركان العامة من اعتقال زبير وافتكاكه من يد بعثة جبهة التحرير الوطني ،و مثل أمام محكمة عسكرية تكونت من لجنة ضمت : العقيد هواري بومدين والرائد محمد علاهم والعقيد عثمان، والنقيبين العربي طبيبي ،ونورالدين بن سالم، والملازم بختي، بوبكر، فرحات، عمر والملازم الثاني مقداد، وفي الأخير أعلنت اللجنة حكمها بالإعدام

(GILBER, M.P:413)حكما نفذ دون أن تتخذ الحكومة المؤقتة أي إجراء ضد هيئة الأركان وهي التي كانت قد وقعت على التزام سياسي بحماية حياة زبير مع السلطات المغربية(بومدين ، أ. 1997).

3- تداعيات أزمة الزبير ورد فعل الحكومة المؤقتة:

تزامنت أزمة سي زبير مع نهاية أشغال دورة طرابلس الأولى للمجلس الوطني للثورة 1959/12/17-1960/01/18، أي في نهاية جانفي 1960، لأجل ذلك قررت الحكومة المؤقتة إيفاد لجنة تحقيق بقيادة العقيدين بن طوبال وزير الداخلية ومحمدي سعيد وزير دولة للتحري في قضية سي زبير إلى المغرب الأقصى، لجنة أرفقت بتعليمات قضت بضرورة التعامل مع الأزمة بحكمة وعقلانية دون اللجوء إلى سياسة العقاب في حال استجابة الزبير لمطالب اللجنة الداعية إلى الحوار بمختلف المراكز التابعة لجيش وتنظيم جبهة التحرير الوطني بداية من05فيفري1960، إلى 14مارس، وفي هذا الإطار جاءت سلسلة الندوات الشهيرة التي عقدها بن طوبال مع إطارات جيش وجبهة التحرير الوطني. (م..و.ث.ج، دورة 27/09 أوت 1961 .ع، م، رقم : 039)

لقد ركزت هذه الجولات المارطونية التي قادها بن طوبال على مستويين، أما الأول فكان في صفوف كافة فئات جيش التحرير الوطني بالجبهة الغربية ومناضلي وإطارات جبهة التحرير الوطني ،بغية محاولة إعادة تقويم الوضعية وأكدت بصرامة على ضباط جيش التحرير التحلي بروح الانضباط وعدم تبديد أموال الثورة والعيش إلى جانب جنود جيش التحرير الوطني في الثكنات.. (GILBER, M:413)

أما المستوى الثاني فكان الأهم بالنظر إلى ما خلفه زبير من دعاية كبرى جر من ورائها شريحة كبرى من عموم اللاجئين الجزائريين، وبالتالي على تنظيم الجبهة بالمغرب أي فيدرالية جبهة التحرير الوطني، فلقد امتدت تداعيات أزمة الزبير على هذه الشريحة وأثرت تأثيرا بالغ الأهمية خصوصا بالجهة الشرقية للمغرب الأقصى،تداعيات استمر وطؤها إلى غاية شهر أوت1960[1](م.ح.م.ج.ج، أرشيف .1961/1960.ع ، ر:95)، أي حتى بعد أن سوي ملف سي زبير في الرابع والعشرين من شهر فيفري1960، ذلك أن عنصر الثقة كان قد تزعزع في صفوف اللاجئين تجاه قيادة الثورة الممثلة في تنظيم فيدرالية جبهة التحرير الوطني،وكاد أن يستأصل المشروع الثوري برمته من قلوب هؤلاء بعد عودتهم للتعلق بأسراب الجهوية والقبلية، لم يكن من السهل اعتماد الحل العسكري للتعامل مع أزمة زبير فقط،بل كان على الحكومة المؤقتة أن تقوم بعمل جبار قائم على الحوار والإقناع لإزالة اللبس الذي انتاب أذهان الكثيرين سواء أولائك الذين انتفضوا مع زبير أو تعاطفوا معه، فمحاولة إعادة تقويم تطلبت جهود كبرى لم تؤت ثمارها إلا في **أوت1960**(م. و.ث.ج، دورة 09 /27/أوت1961،ع، م، رقم C039).

لقد عاشت الحكومة المؤقتة خلال انتفاضة النقيب زبير حالة استنفار قصوى،بعد أن فشلت أجهزة بوصوف في اقتفاء أثر أزمات من ذلك النوع،بل راحت الحكومة المؤقتة تتصور في إمكانية تورط زبير مع المخابرات الفرنسية التابعة للقنصل الفرنسي بالمغرب،بما حققه الزبير من صدى في صفوف اللاجئين الجزائريين، لأجل ذلك عملت الحكومة المؤقتة على استئصال أصول الأزمة برمتها وإعادة بسط هيبة الثورة ومشروعها الوطني في قلوب اللاجئين الجزائريين بالمغرب الأقصى(م. و.ث.ج، دورة 27/09/أوت1961، ع، م، رقمC039).

وفي معرض تقريره حول حيثيات قضية تمرد سي الزبير بعد أن عرضت القضية على المجلس الوطني للثورة المجتمع في دورته بطرابلس من 09/ إلى 27 /1961، أكد لخضر بن طوبال باعتباره موفد الحكومة المؤقتة للتحقيق في القضية ،أن سي زوبير اعترف بأنه كان مدعوما من طرف السيد حسين قاديري مسؤول فيدرا لية جبهة التحرير الوطني بالمغرب حينها . (م..و.للأرشيف.:و.م.و.ث.ج، دورة 27/09/أوت1961، ع، م .رقم: C0019) .غير ان الشاهد الثاني في القضية السيد

محمدي سعيد الموفد الثاني رفقة لخضر بن طوبال أكد انه لم يتذكر ورود اسم السيد حسين قاديري من طرف سي زبير نفسه [2](م.م.و.للأرشيف :و.م.و.ث.ج ،دورة 27/09/أوت1961)

من جهته نفى مسئول فدرالية ج.ت.و بالمغرب حسن قاديري وعضو المجلس الوطني للثورة علاقته بتمرد النقيب الزبير ،كما تعرض إلى اللقاء الذي جمعه مع الزبير منذ أن كان ملازما في جيش ت.و مع العقيد لطفي وعبد الحفيظ بوصوف ،ثم برتبة نقيب أين كان متذمرا من ح.م.ج.ج لعدم إمدادها الولايات بالسلاح ،وأكد أيضا أنه دعاه الى ضرورة تنظيم لقاء مع مسئول التسليح والاتصالات العامة لكنه رفض ذلك، فقام مسئول الفدرالية بإبلاغ قائد الولاية الخامسة عن نوايا سي زوبير ،وفي تلك الأثناء قام هذا الأخير بتمرده كما أكد حسين قادري أنه كان متواجد عشية التمرد بطرابلس .كما تساءل عن سر بقائه في منصبه كمسئول عن فدرالية الجبهة بالمغرب إذا تأكدت ح.م.ج.ج من تورطه منذ فيفري1960(م..و.للأرشيف :و.م.و.ث.ج دورة 27/09/أوت1961 .نفسه) مع تمرد سي زوبير وهو الأمر الذي بدا واضحا لدى المؤتمرين في المجلس الوطني ،حيث أستفسر البعض عن دواعي إبقائه في منصبه طيلة 18 شهرا إن كان متهما. (م..و.للأرشيف.و.م.و.ث.ج دورة 27/09/أوت1961.).

غير أن المجلس الوطني للثورة الجزائرية في ذات الدورة تعامل مع قضية زبير وتداعياتها مثلما كان يعالج بقية القضايا التي اعترضت مسيرة الكفاح المسلح فهو سرعان ما أنهى هذا الملف وأقصى حسين قاديري من حضور أشغال الدورة[1] (و.م. للأرشيف، دورة 27/ماي- 05/جوان1962.ع، رقم:12.ملف03) دون تأكيد لبراءته أو اتهامه ،و خلفه الرائد نورالدين بن سالم[2](MOHAMMED, H:406) ليكتمل نصاب المجلس حفاظا على وحدة الصف وانشغالا بالقضايا الأساسية للثورة التحريرية [3](م..و.للأرشيف.:و.م.و.ث.ج 09.أوت 1961. ع . م. رقم: C0018) .

لقد كانت الأسباب الحقيقية لتمرد النقيب زبير متعلقة بدرجة رئيسة بمسألة الإمداد بالسلاح نحو الداخل،وهو المطلب الذي ظل يلح عليه كل قادة الداخل،غير أن تطورات أزمة التسليح أخذت مع قضية زبير مناحي أخرى واتجاهات بحيث حملت معها حالة تذمر سرعان ما تحولت الى سخط واحتجاج ضد قيادة عهدت الإشراف على ولايتها من الخارج، وأخذت تمارس في المحاباة في نظام الترقيات خرقا لقرارات المجلس الوطني للثورة الجزائرية،ويبدو أن هذه الأزمة هي التي جعلت من العقيد لطفي يعقد العزم على الدخول خلال شهر مارس 1960،للتراب الوطني تاركا وراءه عصبة هيئة الأركان تكابد تداعيات أزمة زبير ،دخول كان يحمل معه توقا شديد للاستشهاد في سبيل استرجاع السيادة الوطنية.

1- لم تشر محاضر دورة أوت1961،للمجلس الوطني للثورة لطريقة الاقصاء التي تمت في حق حسين قادري مسؤول فيدرالية جبهة التحرير بالمغرب، ولا الاجراءات التي اتخذها المجلس ،لكننا وجدنا في محاضر آخر مؤتمر للمجلس الوطني للثورة ماي/ جوان1962، اشارة الى ذلك عبر المناقشات ففي جلسة1962/05/30،أشار رئيس الجلسة السيد محمد بن يحي الى رسالة بعث بها السيد حسين قادري الى مكتب المجلس للفصل في قضيته، كما ذّكر رئيس الجلسة أن المجلس الوطني ديسمبر1959/جانفي1960 ،كان قد أوصى باستحداث لجنة للتحقيق في شأن قادري وعلاقته بتمرد سي زبير ، الرائد قايد أحمد أوضح من جهته في ذات الجلسة أي 30ماي1962 أن اللجنة لم تستكمل عملها وتوقفت بطريقة غامضة ،لقد طرح الناقمون على حكومة بن خدة حينها مسألة استدعاء قديري والتحقيق في شأنه مما يجعل الحكومة المؤقتة ذاتها محل اتهام على حد تعبير بن طوبال، هذا الأخير رفض العودة لملف قاديري واعتبر الحكومة المؤقتة هي المؤهلة للتحقيق في شأنه كما أكد أن المجلس الوطني لم يقص قادري بل علق عضويته في انتظار استجلاء علاقته مع تمرد سي زبير. ، مما يوحي بأن مؤتمر طرابلس الأخير شكل آخر جولة سجلتها حلبة المجلس للتموقع وحرب الوكالات والأصوات التي كانت على أشدها اذاك بحيث أخذ كل طرف يريد تعزيز صفوفه لاقصاء الخصم والتشهير به **أنظر**: و.م.للأرشيف، دورة 27/ماي-05/جوان1962،مداخلة بن يحي، وفرحات عباس، العقيد عثمان ،الرائد علي منجلي، وقايد أحمد، والعقيدان بن عودة وبن طوبال. علبة رقم:12ملف03

2- نور الدين بن سالم :عضو مندوبية حركة الانتصار ر للحريات الحريات الديمقراطية بفرنسا الى 1954ثم ضمن فيدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا .1956/1955 اعتقل من طرف البوليس الفرنسي الى سنة 1960بعد أن تمكن من الفرار حيث انتقل إلى المغرب وأصبح مسئول فيدرالية جبهة التحرير الو طني هناك , وعضو المجلس الوطني للثورة الجزائرية إلى الاستقلال، **أنظر**: MOHAMMED HARBI, **LE**. **F**.**L**.**N**.OPCIT .P.406

3- لقد طرحت مسألة حضور حسين قادري ونورا لدين بن سالم في آن واحد خلال انطلاق أشغال المؤتمر أي يوم1961/08/09، قضية تضاعف عدد عناصر المجلس الوطني ،لكن الغريب أن حضور بن سالم هو الذي كان مشبوها لأن الحكومة المؤقتة إلى ذلكم الحين لم تتخذ أي إجراء ضد حسين قاديري مسئول فيدرالية جبهة التحرير الوطني بالمغرب، مما يوحي أن حضور بن سالم حضر له في الكواليس قبل بداية الأشغال، **أنظر**: م..و.للأرشيف.:و.م.و.ث.ج جلسة09.أوت 1961. مدا خلة لخضر بن طوبال .علبة . مصورة رقم 0018 .

قائمة البيبليوغرافيا :

1- وثائق أرشيفية :

- و.م.ث.ج،دورة17/ديسمبر18/1959جانفي 1960، تقرير كريم بلقاسم وزير القوات المسلحة، علبة مصورة رقم:C04
- و.م.و.ث.ج،دورة أوت 27/09/أوت1961،جلسة 1961/08/24،مداخلة الرائد عزالدين والسيد بن يوسف بن خدة. علبة مصورة رقم :C022
- م.و.للأرشيف.:و.م.و.ث.ج،دورة 16/ديسمبر1959/01/18/1960. علبة مصورة .رقم: C010
- .م.و.للأرشيف.:و.م.و.ث.ج،دورة 27/09/أوت1961، جلسة يوم1961/08/18،مداخلة العقيدان عمار بن عودة ،وحاج لخضر،. علبة مصورة .رقم: C0021
- و.م.و.للأرشيف.:و.م.و.ث.ج،دورة 27/09/أوت1961، جلسة15.اوت 1961. تقرير فرحات عباس عن أزمة زوبير. علبة مصورة .رقم: C0019
- و.م..و.ث.ج،دورة 27/09/أوت1961، تقرير بن طوبال عن نشاط وزارة الداخلية ،علبة مصورة رقم: C039
- م.ح.م.ج.ج، أرشيف وزارة الخارجية،1961/1960،علبة رقم:c0095
- م..و.للأرشيف.:و.م.و.ث.ج، دورة 27/09/أوت1961، جلسة15.اوت 1961. مدا خلة لخضر بن طوبال. علبة مصورة .رقم: C0019
- و.م.للأرشيف، دورة 27/ماي-05/جوان1962،مداخلة بن يحي، وفرحات عباس، العقيد عثمان ،الرائد علي منجلي، وقايد أحمد، والعقيدان بن عودة وبن طوبال. علبة رقم:12ملف03
- م..و.للأرشيف.:و.م.و.ث.ج جلسة09.أوت 1961. مدا خلة لخضر بن طوبال .علبة . مصورة رقم 0018

2- جريدة المجاهد :

- بودغن ، علي .(1959 ماي) .الثورة في ولاية وهران أطوارها العظيمة وانجازاتها الخالدة، المجاهد

3- أرشيف منشور :

- شاوش ،حباسي: (2002) . من وثائق الثورة الجزائرية،محاضر جلسات اجتماع العقداء11أوت إلى16ديسمبر1959 . **مجلة العلوم الإنسانية** ،(العدد الثاني) .جامعة الجزائر.

4- شهادة منشورة :

- بوعيزم ، م .(ديسمبر2001) .شهادة في مجلة الراصد. مجلة الراصد . المركز الوطني للدراسة والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954،الجزائر ،ص:29.

5- المراجع باللغة العربية :

- حفظ الله ، بوبكر . التموين والتسليح إبان الثورة التحريرية1962/1954،رسالة دكتوراه كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ،قسم التاريخ ،جامعة وهران .

- قنطاري ، محمد.(1998) .إستراتيجية السياسية الفرنسية في محاولة فصل الصحراء الجزائرية، في دراسات وبحوث الملتقى الوطني الأول حول فصل الصحراء، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954، الجزائر.

-حربي ،محمد. مؤامرة العموري . (2001). **مجلة نقد** . الجزائر.

6- المراجع باللغة الفرنسية :

- Guentari , Mohamed **.(** 2000**). Organisation politico - Administrative et militaire de la révolution Algérienne de 1954-1962**, (tome2). Alger : O.P.U.

- GILBER, MINIER .(2003). **HISTOIRE INTERIEURE DU F.L.N1962/1954**. Alger :casbah

- Harbi , Mohamed.(1993). **LE F.L.N mirage et réalité.** ALGER**.** E.N.A.L.

- senoussi, saddar.(2002). **ondes de choc.** Alger **:** éditions ANEP.

- MAURICE , CHALLE**.(** 1968**). NOTRE Révolte**. Paris : presse de la cité.

- TEGUIA. MOHAMED**.(** 1988**) . L'ALERIE EN GURRE**. Alger. O.P.u.

- HAMOUD, CHAID .(1992).**SANS HAINE NI PASSION.**

- PHILP, TRIPIER.(1972) .**Autopsie de la gurre dalgerie**. Paris. France empire.

- Harbi,Mohamed .(1981).**Les Archives de La révolution Algérien .** paris **.**jeune Afrique.

تاريخ الاستلام: 2016/07/13- تاريخ التحكيم:2016/11/22 -تاريخ النشر2017/06/02

الموارد الخفية في نجاح آداء المنظمات–إدارة الوقت نظريا وتطبيقيا–

د.سماح بلعيد

جامعة الشاذلي بن جديد بالطارف – (الجزائر)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

ملخص:

يرتبط الوقت بعلاقة ايجابية أو سلبية، مع كل مناحي النشاط الإنساني ،حتى قيل الوقت هو الحياة. وتزداد أهمية الوقت بالنسبة للقادة والمسيرين ، باعتباره أحد الموارد الخفية، التي يحققون بها أهداف المؤسسة. عن طريق تبني مبادئ ومهارات ومفاهيم نظرية وتطبيقية، تتدفق في كل خطوة من خطوات الإنجاز. نحاول في هذه الورقة العلمية، التأكيد على التصور الناجح لتفعيل استغلال الوقت في كفاءة المشروعات وارتقاء الآداء إلى مستوى الجودة والتطوير

الكلمات المفتاحية: المورد الخفي، مجتمع الأعمال ،ادارة الوقت، المناهج الذكية، الكفاءة.

Résumé :

LE Temps EST ASSOCIE REIATION POSITIVE OU NEGATIVE, AVEC TOUTES LES SPHERES DE L'ACTIVITE HUMAINE, DE SORTE QU IL A ETE DIT : LE TEMP ci LA VIE.

LE Temps EST IMPORTANT POUR LES DIRIGEANTS ET LES GESTIONNAIRES COMME UNE DES RESSOURCES CACHEES, ENQUETE SUR LES OBJECTIFS DE L'ENTREPRISE EN ADOPTANT LES PRINCIPES , LES COMPETENCES ET LES CONSEPTS DE THEORIQUE ET PRATIQUE , qui S'IMPOSER A CHAQUE ETAPE DE PERFORMANCE ,POUR CE LA , CETTE CONFIRMATION DE PAPIE , CHERCHE SUR LE CONSEPT REUSSI POUR ACTIVER L'UTILISATION DU TEMPS DANS L'EFFICACITE DES PROJETS ET AMILIORER LA QUALITE ET LA PERFORMANCE AU NIVEAU DU DEVELOPPEMENT

Les mots clés : ressource cachée, la communauté des affaires, gestion du temps, programmes intelligent, performance

مقدمة:

إدارة الوقت من الجوانب المهمة، التي يحتاج القائد لأن يكون فعالا فيها ونجاح قيادته وحسن إدارة أعماله وعماله، يعتمد بشكل كبير على مدى إقترابه العلمي، في توزيع وقته بتفادي مضيعاته وحسن إدارة أجزائه.إن الشخص الذي لا يستطيع إدارة وقته وفقا (بيتر دركر) لا يستطيع إدارة أي شيء"(ربابعة ، ص7). فالتقدم اليوم لم يعد يتعلق بالقدرة على الإنتاج واستحداث المعدات واستثمار الموارد ، بقدر ما يتعلق بالسرعة والمهارة في القيام بذلك، ومن ثم أصبح الوقت واستثماره وإدارة أجزائه أحد العناصر الأساسية التي يحكم بها على الجودة في إدارة المنظمات و النجاح في دنيا الأعمال.

دلنا درس النمور الإقتصادية العالمية (الصين، اليابان، ماليزيا، سنغافورة، أندونيسيا...)، في تجاربها التحديثية، ووثباتها التنموية ،كيف تقدمت بفضل العلامة المسجلة **"سلوك الإنسان المستدمج في ثقافة الإنضباط الذاتي"**، فقد ذكر **تيماشيما أستاذ إدارة الأعمال بجامعة كيوشو اليابانية** عندما سئل عن سر **المعجزة اليابانية:**" قال ليس هناك معجزات ولاخوارق إن المدرسة والجامعة هما قوتنا الضاربة وأما الذخيرة فهي الإنضباط الذاتي، فنحن لسنا بحاجة إلى جيش من المراقبين يقضون نصف أوقاتهم في مراقبة النصف الآخر".إذن بيننا وبينهم مسافة من الرشاد والتيه في "تمثل الوقت" وإدارة عناصره.فإلى متى يستمرون هم

نمورا ونكون نحن مجرد أرانب، تابعة خاضعة...الحل في نظرنا هو السلوك والقيم والضمير ووازع المسؤولية في أي شيئ وكل شيئ... كما فعل اليابانيين (نموذجا) ومن ثم اعادة انتاج ثقافة تحديثية، تأخذ حصتها في دائرة الحلبة العالمية.أين تحوز إيقونة الوقت جزءا من كعكة هذه الثقافة المنتجة، المأمولة والواعدة...فهل نحن قادرين على تشكيل الكعكعة واستحضار مكوناتها أولا...فلنحاول لعل وعسى.

1-مجتمع العمل والمورد الخفي(الوقت لا يباع، لا يستورد، لا يستعار ،لا يستأجر)

تنطلق الباحثة من حقيقة علمية ،مفادها أن **الوقت حاسوب كل إنجاز**، فهو رأس المال الحقيقي ل**مجتمع العمل** ،أين تنتظم جهود الجماعة المشتركة بقصد تحقيق مصفوفة أهداف محددة ضمن مصفوفة أوقات محددة، وحينها نسأل مجتمع العمل عن معدلات الإنتاجية، الكفاءة ،الفاعلية فيما أقدموا على إنجازه. عند هذه الرؤية يحظى مورد الوقت بمكانة هامة في إدارة المنظمات بوصفه **أصل من أصول النجاح**، ولابد أن يدرس ويجرب في عالم الأعمال بالمكاتب والمؤسسات،وتكرس له فرق البحث والآكاديميات، خاصة أنه **مورد خفي** يصعب على الكثير من العاملين النظر فيه، فلا يمكن **شراءه ولا بيعه ولا استعارته**، بل تثمينه فقط.إن الوقت هو أن تعيش6 ساعات عمل و**أنت موقوف برضاك في مجتمع العمل**، لتمضي كل ساعاتك ودقائقك وثوانيك في **شفافية إنجاز** ويوم عمل طيب.

إن الكثير من يديرون الأعمال والمنظمات، يقاربون النجاح بمسوغات الملموس والموضوعاتي، كتجديد الموارد الفنية واستقطاب الكفاءات وتحيين الإدارة والبحث عن موارد بديلة، توسيع الحصة السوقية، مضاعفة القاعدة المالية... ولكنهم في كل ذلك، لم ينتبهوا إلى حقيقة هامة هي احتمال وجود كل هذه الموارد العارضة، ولكنها لا تحدث تعبئة كاملة لخريطة النجاح، فالخفي أعظم في عالم إدارة الأعمال والمنظمات، ويعتبر الوقت أقوى مورد في مصفوفة الموارد الخفية،التي تأخذ بتطلعات المنظمات والقائمين عليها.

القليل من العاملين من يدركون قيمة الوقت وتكاليف إهداره ،فالأفراد الذين يحققون انجازات كبيرة في حياتهم الشخصية والمهنية هم الذين ينظرون إلى الوقت بعين الاهتمام، وهم الذين يدركون في قرارة أنفسهم،أن الوقت قليل لتحقيق كل ما يريدون ،فتطوير أعمالهم وخط سير منظماتهم ومصالحهم، يعتمد إلى حد كبير على القدرة في استثماره وحسن إدارته.

من هذا المدخل تطرح قضية الإدارة – الوقت، كقضية متلازمة لتصبح إدارة الوقت، وهي موضوعة لم تأت بشكل عشوائي. فالإدارة بالمفهوم العام أورغانون لإنجاز الأعمال بشكل منسق وفعال ومنظم وبأقل التكاليف.ويعتبر عنصر الوقت الإيقونة المتاحة للمنظمة لإحتساب وتقييم أين وضعت الموارد؟ كيف استغلت؟ هل وظفت بشكل فعال، كامل أم جزئي؟ أين هو العامل الآن؟ هل ينجز؟ كيف يؤدي الإنجاز؟

وهكذا تأخذ هذه الورقة بأبعاد الموضوع إلى مسألة ذات بعد قيمي أخلاقي واقتصادي وعلمي على حد سواء، أي تمتلك الوقت بدلا من أن يمتلكك حتى تنجح أعمالك، كن سيدا على سواعديك ، لا تنتظر من يقول لك ماذا أنجزت ولماذا تأخرت ...ذلك أن الإدارة الفعالة للوقت لا تعني أن يعمل الإنسان كآلة بل يعمل بمسؤولية،على أن يكون عمله هدافا وصائبا،أن يعمل أكثر ويعمل أفضل، وأن يكف عن مضيعات الوقت بالمقاطعات التليفونية، استقبال الزوار بكثرة،احتساء القهوة ومضغ السيجارة، انعدام التنظيم والفوضى الشخصية، الإجتماعات غير الهادفة، المعلومات الناقصة، السفر،) وتبقى هذه االتجليات لمضيعات الوقت وغيرها كثير،جديرة بالمدارسة الفعلية، من أجل الحفاظ على استقرار المؤسسة وضمان سيرا متميزا للأعمال داخل المكاتب والمؤسسات.

2. مفاهيم في :الوقت، إدارة الوقت

1.2. مفهوم الوقت

أ/ **لغة:** وقت : الوقت : مقدار من الزمان ، وكل شيء قدرت له حينا فهو مؤقت ، وكذلك ما قدرت غايته فهو مؤقت.
والزمن والزمان : اسم لقليل الوقت وكثيره ، وفي المحكم الزمن والزمان العصر ، والجمع أزمن وأزمان وأزمنة ، وزمن زامن : شديد . و أزمن الشيء : طال عليه الزمان .

ب/ اصطلاحا: عرف بنجامين فرانكلين الوقت بأنه المادة التي صنعت منها الحياة ورأى أن الوقت: هو حياة الإنسان"(رشاد، 2008 ،ص29)

– "طاليس": عرف الوقت "بأنه تعداد الحركة" (الخضيري ،2000،ص 15))

–"اسحاق نيوتن" في القرون الوسطى: عرف الوقت بأنه شيء مطلق يتدفق دائما بالتتابع أو لإتساق نفسه وبصرف النظر عن أية عوامل خارجية (الخضيري ،2000،ص 15)

–"إيمانويل كانط" في العصور الحديثة أقر:أن الزمن ليس شيئا موضوعيا بذاته، وأن الزمن يعود في الأساس لآداء العقل" (الخضيري ،2000،ص 15)

–"ألبرت آينشتاين" :أعطى تعريفاً خاصاً للوقت:" لكل جسم مرجعي زمنه الخاص به ، وبدون معرفة النظام المرجعي للجسم وتحديد الإطار المرجعي لهذا الزمن يكون من غير المفيد ذكر الوقت الخاص بحدث معين للجسم المشار إليه". (الخضيري ،2000،ص 15)

2.2. إدارة الوقت

–إدارة الوقت هي الاستثمار الأمثل لكل دقيقة في حياة الإنسان" وهي المساحة التي يتحرك وينجز فيها الإنسان ويصنع حياته من خلالها"(ربحي ،2007، ص؟)

–إدارة الوقت بالنسبة لمهنة الخدمة الاجتماعية هي الاستفادة من الوقت المتاح لخدمة العملاء والمؤسسة والمجتمع وتحقيق النمو المهني للأخصائي الاجتماعي نفسه" "(رشاد، 2008 ،ص 258).

–إدارة الوقت المتاح هي إدارة الأعمال التي نقوم بمباشرتها في حدود الوقت المتاح، يوميا 24 ساعة وذلك بأقل جهد واقصر وقت ثم يتبقى لنا الوقت للإبداع والتخطيط للمستقبل وللراحة والانسجام" (القفي،2009،ص؟)

–إدارة الوقت هي محاولة ترويض الوقت وفرض سيطرتنا عليه، بدلا من أن يفرض سيطرته علينا" (رشاد، 2008 ، ص34)

– إدارة الوقت "هي إدارة لأندر عنصر متاح للمشروع، فإذا لم نحسن إدارته وبشكل فعال فإننا لن نحسن إدارة أي شيء آخر، فإدارة الوقت تمكننا من إنجاز أكبر كمية ممكنة من الأعمال في نفس الكمية من الوقت. أي تحقيق الاستفادة المثلى من الوقت . وبذلك فإن إدارة الوقت لها أهمية قصوى متنامية " (ربحي ،2007،ص29.)

– تفهم إدارة الوقت على أنها مرادفة للترتيب والتنظيم وإجراءات العمل اليومية وهذه العوامل كلها عناصر ذات فعالية كبيرة ،إلا أن إدارة الوقت أكثر تعقيدا من ذلك أنها حالة نفسية ،حالة استعداد للإلتزام الشخصي"(ربابعة،ص1)

–إدارة الوقت هي علم وفن الإستخدام الرشيد للوقت، هي علم استثمار الزمن بشكل فعال وهي عملية قائمة على التخطيط والتنظيم والمتابعة والتنسيق والتحفيز والإتصال، وهي إدارة لأندر عنصر متاح للمشروع، فإذا لم نحسن إدارته فإننا لانحسن إدارة أي شيئ" لذا لا يختلف إثنان على أهمية إدارة الوقت في حياتنا العلمية والعملية فالوقت قابل للإستغلال و الإستثمار بدون حدود أو قيود وهو كأصل ثمين كان سببا في تقدم غيرنا ،اكتسابه المهارات في كيفية إدارة الوقت وعدم هدره... وإن عدم إدارة الوقت جهلا أو عمدا هي أحد أسباب تأخر العرب والمسلمين في قضية التنمية ...فالتنمية هي قضية استثمار للوقت ونحن بحاجة إلى نظرية عربية متكاملة لإدارة الوقت لزيادة فعالية المديرين في استغلالهم للوقت وتعميق إحساسهم بالثروة التي في أيديهم".(القصي ،2003: ص 109).

3. أنواع الوقت: يقسم خبراء الإدارة والإستشارات في عالم الأعمال،الوقت إلى أربع أنواع، يمكن بيان الفصل فيها في النماذج الآتية:

1.3.الوقت الإبداعي: يخصص هذا النوع من الوقت لعملية التفكير والتحليل والتخطيط المستقبلي ، علاوة على تنظيم العمل وتقويم مستوى الإنجاز، ويلاحظ أن كثير من النشاطات الإدارية يمارس فيها هذا النوع من الوقت فهي بحاجة إلى تفكير علمي عميق وتوجيه وتقويم، كما تواجه في هذا النوع من الوقت المشكلات الإدارية من كافة جوانبها بأسلوب علمي منطقي بهدف تقديم حلول منطقية وموضوعية تضمن فاعلية ونتائج القرارات التي تصدر بشأنها.

2.3.الوقت التحضيري: يمثل هذا النوع من الوقت الفترة الزمنية التحضيرية التي تسبق البدء في العمل،وقد يستغرق هذا الوقت في جمع المعلومات أو حقائق معينة أو تجهيز معدات أو القاعات أو الآلات أو مستلزمات مكتبية هامة قبل البدء في تنفيذ العمل؛ويفترض أن يعطى الإداري هذا النوع من النشاط ما يتطلبه من وقت، نظراً للخسارة الاقتصادية التي قد تنجم عن عدم توفر المدخلات الأساسية /التحضيرية للعمل " (الأسطل، 2009، ص 125).

3.3.الوقت الإنتاجي: يمثل هذا النوع من الوقت ، الفترة الزمنية التي تستغرق في تنفيذ العمل الذي تم التخطيط له في الوقت الإبداعي والتحضير له في الوقت التحضيري ، ولزيادة فاعلية استغلال الوقت ، يجب على الإداري أن يوازن بين الوقت الذي يستغرق في الإنتاج أو تنفيذ العمل وبين الوقت الذي يقضى في التحضير والإبداع ؛ ويقسم الوقت الإنتاجي بشكل عام إلى قسمين رئيسيين هما:

1- وقت الإنتاج العادي، أو غير الطارئ،أو المبرمج.

2- وقت الإنتاج غير العادي، أو الطارئ،أو غير المبرمج .

ومادامت المؤسسة تسير ضمن خطة الإنتاج العادي، مع تحكيم في الإنتاج غير العادي، فهي في وضع جيد. وقد يحدث أن يظهر إنتاج غير عادى أو طارئ في المنظمة ويفترض أن يكون الإنتاج في مثل هذه الحالة محدود التأثير" (الأسطل، 2009، ص 125).

4.3.الوقت غير المباشر أو العام: يخصص عادة هذا الوقت للقيام بنشاطات فرعية عامة ، لها تأثيرها الواضح على مستقبل المنظمة وعلى علاقتها بالغير ،كمسؤولية المنظمة الاجتماعية وارتباط المسؤولين فيها بمؤسسات وجمعيات و هيئات كثيرة في المجتمع ، وحضور الإداري لندوات أو تلبية لدعوات أو افتتاح مؤسسات معينة" (الأسطل، 2009، ص 126).

هناك تقسيم للوقت من حيث القدرة أو عدم القدرة على التحكم فيه والسيطرة عليه أورده **"الرشيد"** حيث ذكر أن الوقت ينقسم إلى قسمين:

- **الوقت القابل للتحكم:** وهو الوقت الذي يستطيع الإداري التحكم فيه ، بملء إرادته وحريته.
- **الوقت غير قابل للتحكم:** وهو الوقت الذي لا يخضع لتحكم إداري أو رقابته ويصرف في الأعمال القليلة الإنتاجية كمقابلة الزوار أو المكالمات الهاتفية.

في اتجاه آخر ،يقسم الوقت من خلال ارتباطه بالحياة والنشاط الإنساني إلى تقسيمات أخرى حصرها" **القعيد** "في نوعين هما:

النوع الأول: وقت يصعب تنظيمه أو الإفادة منه في غير ما خصص له، وهو الوقت الذي نقضيه في حاجاتنا الأساسية، مثل: النوم، الأكل، والراحة والعلاقات الأسرية.

النوع الثاني: وقت يمكن تنظيمه وإدارته، وهو وقت العمل وهذا النوع هو مكمن التحدي الذي يواجه الإنسان، وهل يستطيع الإفادة منه؟ وهذا النوع يتكون من نوعين:

- **وقت الذروة:** وهو الوقت الذي نكون فيه في كامل نشاطنا وحضورنا الذهني.

- **وقت الخمول:** وهو الوقت الذي يكون فيه في أقل حالات تركيزنا وحضورنا الذهني(الغامدي، 2008،ص32).

إن هذه الأنواع ، التي عرضنا إليها ،يمكن تلخيصها في الشكل الآتي:

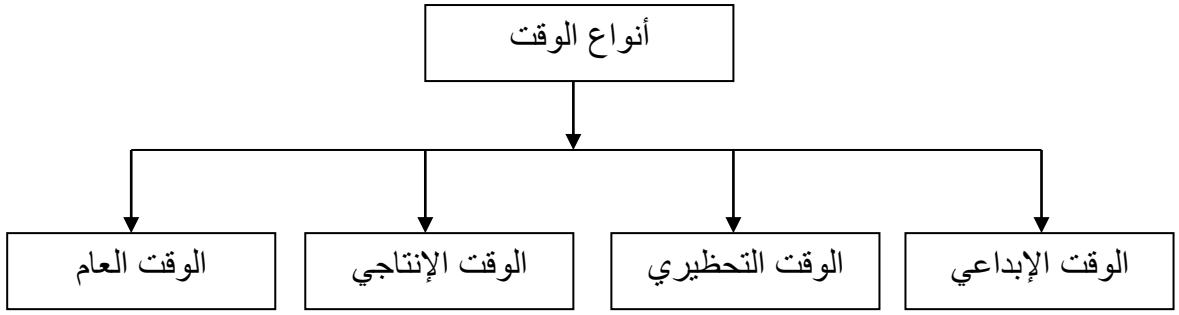

شكل (1) يبين أنواع الوقت،المصدر(الغامدي، 2008، ص32).

4.الوقت للجميع ولكن الكفاءة لمن؟ Le temps pour tout mais la performance pour qui

"إن الوقت له بركة يهبها لله لمن يشاء ،ومحق بركة الوقت المادية و المعنوية ،إنما هي من آثار المعاصي وإتيان ما حرم الله عز وجلى وما يقال على بركة المال ينطبق على بركة الوقت " (السعدي، ، دت، ص 68)

تدرك الباحثة أن الوقت، ثروة، مورد، متاح بمقاييس عالمية ،إنسانية، وجودية، فهو حقيقة ربانية وكلية كونية وحياتية واجتماعية،لا تسير بخصوصية أو تضاريس ولا تميز بين الآدميين. إذا يملكه كل فرد بالتساوي فكل انسان في عالم الوجود، يملك 24 ساعة في اليوم و 168 ساعة في الأسبوع، و52 أسبوع في العام. **إذن الوقت للجميع ولكن كفاءة ادارة الوقت لمن ؟**

وإذا كان الله جلى وعلا أقسم بالوقت في بينات قرآنه،أقسم بأوقات محددة وبأجزاء من الوقت نذكر:"والعصر إن الإنسان لفي خسر"، (قرآن كريم، سورة العصر ، الآية1)"والشمس وضحاها و القمر إذا تلاها، و النهار إذا جلاها، و الليل إذا يغشاها"، (قرآن كريم ، سورة الشمس، الآية 1-4)فإن المتعارف عليه لدى علماء التفسير أن الله إذ أقسم بشيء فذلك لتنبيه الخلق إلى أهمية آثاره وعظيم منفعته. كما حث الرسول – ص- على حسن استغلاله فعن أبي برزة نضاله بن عبيد الأسلمي رضي الله عنه ،قال :قال رسول الله –ص –"لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع :عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل به". (محمد العدل،2006، ص183).

يتميز الوقت بخصائص لا يشاركه فيها مورد آخر من الموارد التي نملكها في الحياة بصفة عامة والإدارة بصفة خاصة لذا يجب أن ندركها حق إدراكها ونتعامل معها على ضوئها ومنها:

- **الوقت محدد،** إذا يملكه كل فرد بالتساوي فكل فرد يملك 24 ساعة في اليوم و 168 ساعة في الأسبوع، و52 أسبوع في العام.
- **لاشيء أطول من الوقت لأنه مقياس الخلود،** ولاشيء أقصر منه لأنه ليس كافيا لتحقيق جميع ما يريد المرء، ولاشيء أعظم منه لأنه يمتد بلا نهاية،ولا أصغر منه لأنه قابل للقسمة من غير حدود، ولاشيء يمكن عمله بدون وقت، فالكثير من الناس يتجاهلون ولكن جميعهم يأسفون على ضياعه.

- **الوقت لا يحترم أحدا** فلا يمكن لأحد (كائنا ما كان) تغييره أو تحويله بغض النظر عما يريد تحقيقه، إنه يسير بنفس السرعة والوتيرة سواء كان زمن مسرة وفرح أم زمن اكتئاب وترح، وإن كان يبدو غير ذلك فهو في الشعور لا في الحقيقة.
- **الوقت سريع الانقضاء**، فهو يمر مر السحاب، ويجري جريان الرياح واستعادته مستحيل.
- **الوقت يختلف عن الموارد الأخرى الرئيسية** كالقوى العاملة فالأموال والأجهزة والمعدات في أنه، لا يمكن تخزينه، لا يمكن إحلاله، يتخلل كل جزء من أجزاء العملية الإدارية.
- **الوقت لا يمكن شراؤه، أو بيعه،أو تأجيره، أو سرقته، أو استعارته، أو اقتراضه**، أو توفيره، أو مضاعفته، أو تصنيفه،أو تغييره وكل ما يستطيع المرء عمله هو أن يقضيه سواء أختار ذلك أو لا وفق معدل ثابت، مقداره ستون ثانية لكل دقيقة (الأسطل، ص ص 122-123) ومن بين خصائص الوقت التي ذكرها الباحثون، ما يلي:
  - التساوي والملكية للجميع.
  - السير بخط مستقيم.
  - سرعة الانقضاء والمرور.
  - لا يمكن ادخاره للاستخدام في المستقبل.

كما أضاف القبيسي كذلك أن من صفات الوقت أيضا أنه يتحرك بموجب نظام معين لا يمكن تغييره أو إيقافه أو إعادة تنظيمه ولا يمكن تراكمه أو تغييره أو سرقته، وبذلك فإن للوقت خاصية مهمة وهو أن الوقت مصدر قابل للنفاذ ولا يمكن تعويضه أو تحديده"(غزاوي، 2012،ص23.)

5. خطوات إدارة الوقت –النموذج الذي ينبغي أن يدرس ويجرب –

هناك عدة خطوات يمكن أن يستخدمها المدير لإدارة الوقت في عالم الأعمال داخل المكاتب والمؤسسات، وإن هذه الخطوات تساهم في الحد من الأنماط السلوكية غير المرغوبة(ثقوب الوقت ومضيعاته) وتساعد الموارد البشرية المختلفة سواء تموقعت في الخط القيادي أو الإشرافي أو التنفيذي ، من إدراك أهمية الوقت واستغلاله وتنظيمه .يمكن حصر هذه الخطوات في الآتي:

1) **معرفة كل شيء عن الوقت المتاح**: حيث تعمل هذه الخطوة على مواجهة الأساليب الخاطئة التي تضيع الوقت ويتطلب ذلك وجود جدول زمني يومي يسجل فيه كل مهمة بدقة بالغة ولعدة أيام وتقسم كل ساعة إلى فترات من 15-20 دقيقة لتسجيل المهام والأنشطة وهذا يعطي صورة دقيقة لكيفية استخدام الوقت.
2) **التعرف على العوامل التي تؤدي إلى تضييع الوقت**: هناك عدة عوامل تتسبب في عدم الاستثمار الأمثل للوقت مثل:
   - تأجيل الأعمال من وقت لآخر،
   - المكالمات الهاتفية.
   - عدم التخطيط للأعمال لأسلوب جيد.
   - عدم التفويض.
   - الاجتماعات غير الفعالة.
   - عدد الزائرين المترددين يوميا.

3) **تحديد الأهداف وعمل الأولويات** :حيث ينبغي معرفة الأهداف والنتائج المتوقعة، فإذا كانت المكالمات الهاتفية تأخذ وقتا طويلا، أو الاجتماعات تستغرق وقت طويل فيمكن للمدير أن يقلل من الاجتماعات بحيث لا تستغرق من وقته أكثر من خمس ساعات في الأسبوع"(رشاد ،2007 ص 130).

4) **وضع خطة العمل** :هذه الخطة تحتوي على دليل للنتائج المرغوبة وكذلك تحديد خطوات العمل والوقت اللازم لها وعند عقد الاجتماعات لابد أن يبدأ أو ينتهي الاجتماع في الوقت المناسب وأن يتم الالتزام لجدول الأعمال .

5)توزيع الأوقات بطريقة تستثمر كل دقيقة في العمل:توزيع وتخصيص الوقت من الأمور المهمة لجعل العمل أكثر إنتاجية وفائدة وعند الوقت وتوزيعه يجب مراعاة ما يلي: "(رشاد ،2007 ص 131)

- وضع جدول مكتوب أمام المدير.
- إعطاء الوقت الكافي لكل مهمة أو عمل.
- تخصيص وقت كافي للتفكير
- وضع المهام الصعبة في بداية اليوم.
- تحديد موعد للهدوء والراحة.
- عمل جدول بالأهداف الرئيسية.
- جمع الأهداف والأنشطة المتشابهة.
- إعطاء الوقت الكافي للقيام بكل مهمة.
- التركيز على المهام المهمة والمهام ذات الأولوية.

6)البدء فورا في مواجهة المشكلات: حيث أن التأجيل أو المماطلة من الأمور الخطيرة في العمل والتي قد تجعل الأمور تتراكم ثم تتفاقم وبالتالي الفشل في تحقيق المهام أما البدء فورا في مواجهة المشكلات فهو مفتاح النجاح لأي عمل" (رشاد ،2007 ص 132)

7)التركيز على الأولويات:أي البدء بالشيء الذي يمكن تنفيذه والمهم للمؤسسة ثم التدرج إلى الأمور الصعبة حيث أن مواجهة المشكلات البسيطة يؤدي إلى النجاح ويؤدي في نفس الوقت إلى التمهيد لحل المشكلات المهمة.

8)عقد اجتماعات سريعة: ويطلق عليها أحيانا على المجتمعات على الواقف أي يظل المدير واقف وبالتالي سيكون الزائرين أو الذين حضروا الاجتماع وقوف ويدور النقاش في الموضوع وينتهي بسرعة.

9)الاستفادة من وقت الانتظار أو الهدوء: حيث يمكن للمدير أن يستفيد من الأوقات التي ليس بها عمل "الوقت الراكد" وذلك بالقيام بعمل مراجعة للأوراق كتابة تقارير سريعة ووضع خطة لليوم التالي.

10)مراقبة التقدم في العمل: وهي الخطوة الأخيرة في تحقيق أهداف إدارة الوقت، وهي خطوة مهمة لأنها تواجه العادات غير الجيدة لدى المدير فهو يعرف مدى التقدم في عمله أولا بأول وبالتالي إجراء التعديلات والإصلاحات المناسبة.

11)جمع المهام المتشابهة: وهذا الأسلوب يقلل من المقاطعات ويوفر استخدام الموارد والجهود، حيث يمكن تركيز المكالمات التليفونية في وقت محدد، وان يكون طلب المكالمات في وقت محدد ... وان تحدد كل العوامل المرتبطة بمشكلة معينة ويتم البحث فيها ... أي يحدد وقت مقابلة الزائرين، كل هذه المهام المتشابهة توفر الوقت والجهد للمدير وتجعله أكثر استعداد للقيام بالمهام الإستراتيجية للعمل" (رشاد ،2007 ص 133)

12)التحكم في المعوقات: يجب بذل كل الجهد لمواجهة المعوقات التي تحول دون أداء العمل (عدد المكالمات الهاتفية، عدد الزائرين البريد الوارد...) ويمكن الذهاب إلى مكان بعيد لإنجاز الأعمال ويمكن إخبار السكرتير أو السكرتيرة لمكان التوجه.

13)إتباع مبدأ باريتو parito لإدارة الوقت: إذا رتبت الأشياء حسب قيمتها فإن 80% من القيمة سوف تأتي من 20% من الأشياء بينما 20% من الأشياء تأتي من 80% من القيمة ولكي يكون المدير أكثر فعالية ورضاء عن كيفية استخدام الوقت يجب أن يدرك أن التركيز على 20% من الأنشطة ذات الأهمية والقيمة العالية هو أفضل استثمار للوقت.

14)تجنب الوقوع في مصيدة الانشغالات: وقد أشار إلى ذلك عالم الإدارة جورج أوديوم George odiome في كتابه عن Management and the activité trap حيث حذر من الوقوع في مصيدة الانشغال والتي قد تصرفنا عن الأعمال المهمة بالمؤسسة وتشير هذه الفكرة إلى الانشغال الكبير بالمهام بشكل تجعل المسؤول يفقد رؤية الهدف من العمل ... لذلك يجب تحديد الهدف والبدل في المشروعات الصغيرة وانجازها يقود إلى تحقيق الهدف وإكمال المشروعات طويلة الأمد. "(رشاد ،2007 ص 130)

15)الاحتفاظ بالأشياء المهمة: فإذا كنت تحتفظ بأوراق كثيرة فيمكنك مواجهة هذه المشكلة من خلال تصنيف الأوراق للاحتفاظ بالمهم والتخلص من الأوراق غير المهمة.

16)تسجيل الملاحظات أولا بأول: بعد تسجيل الأخطاء والملاحظات التي تتوارد على ذهن الإنسان بطريقة فعالة لتذكر ما يمكن القيام به وعند تسجيل هذه الملاحظات يمكن وضعها في ملف مناسبة يمكن الرجوع إليه عند الحاجة.في كل مرة تكتب معلومات أو بيانات يجب أن تضع التاريخ بجوارها حتى تعرف كيف تسير الأشياء بشكل متسلسل.

معظم الأفراد يقومون بتضييع ساعة أو أكثر على الأقل يوميا بحثا عن الأوراق التائهة المبعثرة في مكاتبهم ... ولكن كلما ازداد الأفراد تنظيما تحول الوقت الضائع إلى وقت يمكن إقفاله" (رشاد ،2007 ص 269)

17)نظام المتابعة الفعال هو مفتاح النجاح لاستثمار الوقت: يقصد بالمتابعة أن تقوم بالانتهاء من الأعمال التي سبق تحديدها حتى لا تكون السبب في تأخير مصالح الناس أو مصالحك وتحول دون استفادتك بالوقت حيث يستهدف نظام المتابعة الفعال على تحسين جودة العمل، فتح أكثر من ملف وإنجاز الأعمال المهمة، عدم التعرض للضغط أو التوتر وشد الأعصاب، الشعور بالفخر لأنك أنجزت أعمالك المهمة، توفير وقت يمكن الاستمتاع به مع العائلة والأصدقاء أو على الأقل قضاء الإجازة في المنزل دون عمل.

18) لن تستطيع أن تنجز كل شيء :وهذا يجعلنا نهتم بالتركيز على إنجاز الأشياء المهمة وأن لا تنسى التقاط التي لم تنجز ... فالهدف الأساسي هو أداء العمل أو المهمة على أكمل وجه كما يفيد ذلك الأمر في البند خلال الساعات الأولى من العمل في إتمام المشروعات خاصة الأكثر أهمية وعدم البدء في عمل اجتماعات أو القيام بالاتصالات التليفونية أو أي شيء يهدر الوقت ... وبالتالي يمكن إنجاز الأعمال بطريقة منظمة ونصف الوقت ونصف الجهد.

19) تجنب حدوث المشاكل واستعد للمشاكل غير المتوقعة: هناك ثلاثة أنواع من المشاكل هي:

1. مشاكل تحل تلقائيا.
2. مشاكل تنتظر منك حلول.
3. مشاكل تتطلب الانتباه ويجبرك على الاهتمام بها.

ومن ذلك نلاحظ أن كثير من المشكلات يمكن تجنبها وهناك مشكلات صغيرة إذا تركت أصبحت مع مرور الوقت كبيرة ويصعب التعامل معها ،ولهذا يمكن الاهتمام في بداية العمل بالمشكلات المهمة ومحاولة التخلص منها وأن ندرب من يعانون من المشكلات كيف يمكن مواجهتها بالاعتماد على أنفسهم.

20) افتتاح الاجتماعات بابتسامة ومصافحة اليد: تفعل الابتسامة ومصافحة اليد مفعول الشعور في إشاعة جو من الأمن والاستقرار بين الجميع ،بل يمكن من خلالها استثمار الوقت الأمثل حيث يمكن امتصاص كثير من المشكلات التي كانت قد تثار أثناء الاجتماع ولابد أن نجلس في المكان الصحيح ... فلابد من الجلوس بجوار الشخص الذي تود مقابلته ولا يكون هناك فاصل بينك وبينه عند الاستماع إليه وتقدير مشاعره ... لا تجلس على كرسي منخفض عن كراسي الآخرين لأن الشخص الذي يجلس على كرسي أعلى سيكون بمقدوره أن يراك من نقطة أعلى مما تراه وبالتالي سيكون له سلطة أعلى من سلطتك في إدارة الاجتماع (رشاد ،2007 ص 270)

21) تعامل مع من يعترضك عند اتخاذ القرار بفعالية: ولكي تتعامل مع الاعتراضات بأسلوب جيد يجب أن:

أ) ضع نفسك مكان المعترض.

ب) حاول تجميع كافة الاعتراضات حتى يمكنك الرد على كافة الاعتراضات المحتملة.

ت) لا تعطي الإعتراض أكبر من حجمه.

ث) رتب هذه الاعتراضات حسب أهميتها.

ج) البدء بالإجابة من الأكثر أهمية غلى الأقل حتى لا تستهلك الوقت في الاعتراضات البسيطة وتترك الاعتراضات المهمة والتي قد تؤثر على سير العمل""(رشاد ،2007 ص 271).

ما نستخلصه من هذه الخطوات أن الإدارة الفعالة للوقت،فاعل أساس في استقرار المؤسسة والتحكم في مصيرها، بل أن هذا الشكل غير الموضوعاتي(الوقت) من جوانب الإدارة، والذي يفلت من تفكير القادة والمسيرين(خاصة أولئك الذي يعدون مسألة ادارة الوقت على أنها إدارة محاسبة ومتابعة وجزاء للأشخاص)، شكل وثبة في نهضة أمم وتقدم مجتمعات(مجموعة دول جنوب شرق آسيا/ النمور الإقتصادية العالمية نموذجا)،حيث تكريس **مبدأ الإدارة بالثقة** بين الإدارة والأفراد العاملين في المؤسسة من خلال عقد أدبي غير مكتوب،أعطى نتائج طيبة وتوقعات سلوكية منتجة وفعالة...إن هذه هي الإدارة التي نرجوها في منظماتنا.

6.المناهج الذكية لإدارة الوقت في دنيا الأعمال:

من خلال الحفر المعرفي في المطارحة السوسيولوجية التي تتناول "الموارد الخفية في نجاح آداء المنظمات" إدارة الوقت في اقتراب علمي (نظري وتطبيقي)، حصلنا على مصفوفة من المناهج ، تقوم على افتراضات ومبادئ علمية، وحين تتلاقح مع الجهد ، المهارة ، المعرفة، الوقت ،تعطي هذه المناهج نتائج مرغوبة في عالم الأعمال داخل المكاتب والمؤسسات، تعد هذه المناهج بالتأكيد العلمي مرجعا للقادة والمسيرين. وبدلا من شراء ساعة جديدة لإدارة وقتك تمنحك هذه المناهج بوصلة تقودك لحياة أفضل، نعرضها في الآتي:

1- **منهج نظم نفسك:**

فمعظم مشكلات الإدارة تأتي من الفوضى أو من غياب النظام في حياتنا، فنحن لانجد ما نريده عندما نريده، تضيع منا الأمور ويصبح الحل المنطقي أن تمنهج نفسك في بناء النظم(نظام ملفات، بريد وارد، قواعد بيانات...) وتركز هذه النظم على التنظيم في ثلاث إحداثيات(**تنظيم الأشياء، تنظيم المهام، تنظيم الأفراد**)"(كوقي،دت ،ص 479).إن منهج نظم

نفسك،أساسه الإنضباط ونقاط القوة فيه،أنه يوفر الوقت ويقلل أو يمنع ضياع الموارد ويرفع الإنتاجية.كما أنه يمنع الكثير من الإجهاد.

2- **منهج المحارب (البقاء و الإستقلالية):**

الفلسفة من وراء هذا المنهج هي حماية الوقت الشخصي من الضياع حتى يتحقق التركيز والإنتاج ففي مواقع العمل هناك طلبات ضاغطة من بيئة مزدحمة (رسائل تحتاج الرد، هناك من يطرق الباب كل حين،...)نشعر بعدم وجود الفرصة للعطاء ،لأننا في حاجة للتفرغ و الذهن الصافي لوضع خطة للعمل المستقل.

منهج المحارب، يرى أنه إذا لم تتصرف بحزم حيال هذا الهجوم على وقتنا سينهار النظام كله ومن الأساليب المفيدة في هذا المنهج تطبيق بذكاء إحدى الأنظمة :

- **نظام العزل** (ايجاد حماية من خلال سكريتيرة، أبواب مغلقة، الغاء الحديث غير المجدي، أجهزة للرد على الهاتف...).
- **نظام الإنعزال:** الإنتقال إلى بيئة تضمن العمل باستقلالية ودون مقاطعة.
- **نظام التفويض:** ترحيل الأعمال للغير حتى يتاح المزيد من وقتك للأعمال الأهم"(كوقي،دت ،ص 481)

منهج المحارب أساسه الإنتاجية العالية ونقاط القوة فيه أنه يعول على المسؤولية الشخصية ، ويتيح الوقت و التفرغ للفعل والإنجاز في الأجل القصير.كما أنه يحطم الشعور بالعجز من خلال الثقة و الإيمان بالقدرات والإستغلال الأمثل لها.

3- منهج الهدف (الإنجاز):

يقول هذا المنهج "اعرف ما تريده ثم ركز جهدك لتحقيقه"، ويشمل هذا المنهج أساليب مثل التخطيط القصير والمتوسط وطويل الأجل، ووضع الأهداف ووضع السيناريوهات وحفز الذات وإنهاض الهمة والحماس من خلال حالة ذهنية إيجابية" .إن الواقع يثبت أن القادرين على وضع الأهداف والقادرين على الوصول إليها،يحققون ما يحلمون بالوصول إليه ،ويطلق على هذا المنهج ب منهج الأبطال الذين يزيحون كل عقبة في الطريق لكي يحققوا التنمية الذاتية. منهج الهدف أساسه الإلتزام والتركيز، أما نقاط القوة فيه ،أنه يحدد القيم ويضع أولويات تقوم عليها خطة إنجاز الأهداف.

4- منهج التسلسل (الأولويات وتحديد القيم):

يقول هذا المنهج ،"يمكنك أن تفعل ما تريد ولكن ليس كل ما تريد"، يعتمد هذا المنهج على الهدف ويضيف مبدأ هاما هو مبدأ التسلسل والأولويات،، بمعنى التركيز على أهم المهام لديك، باستخدام أساليب منها أسلوب تحديد القيمة، ترتيب المهام والإفتراض الأساسي هنا ،إذا كنت تعرف ما تريده وتركز على إنجاز المهم فإنك ستصبح سعيدا وتحقق النجاح في أعمالك"(كوقي،دت ،ص 484)

يعطي هذا المنهج أهمية للترتيب والتسلسل للأمور المطلوبة، يوما بعد يوم تستطيع تحديد الأهم فالأقل أهمية وتنتهي إلى قائمة مهام مبنية على أولويات، عليك التركيز عليها حسب الترتيب في القائمة. ومن نقاط القوة فيه أنه يحقق الإنضباط والتسلسل للمهام المطلوب إنجازها.

5- **منهج الأدوات السحرية(التكنولوجيا):**

يقوم هذا المنهج على فرضية أن الأدوات المناسبة (الجدول الزمني،المفكرة اليومية،الخطة، برنامج الحاسب) ستعطي المرء قدرة على الإدارة الأفضل للحياة، بشكل يضمن جودة الحياة، وإن هذه الأدوات تضمن لنا معرفة الأولويات وتنظيم المهام والوصول إلى المعلومات بسهولة، فالنظم و الهياكل تساعد على جعل الآداء أكثر فعالية...وعلى العموم فالأشخاص الأكثر تنظيما والأكثر

تحكما في حياتهم يعتمدون بشكل كبير على أدوت التخطيط الورقية والإلكترونية وإن الأدوات دليل عملي على التنظيم وتعطي الشعور بالرضا من تسجيل المهام المطلوبة ومتابعة تنفيذها أثناء مسيرة الحياة"(كوقي،دت ،ص 487)

إن منهج الأدوات السحرية أساسه التفوق، ومن نقاط القوة فيه ،أنه يقد وسائل قوية للإتصال و التقدم وتحقيق النتائج والتنظيم، يزيد من الإنتاجية ويساعد في تقديم منتجات ذات جودة عالية.

6- منهج المهارة في إدارة الوقت:

يقوم هذا المنهج على أساس أن إدارة الوقت مهارة شخصية تحتاج منا إلى إتقان عدة أشياء هي :

- استخدام تقاويم و أجندات المواعيد
- إعداد قائمة مهام
- تحديد أهداف
- تفويض
- تنظيم
- وضع أولويات".

حقيقة إعتماد الشركات على وسائل تعليمية كالكتيبات والنشرات والشرائط المسجلة ،قد أحدث تطوير بالمهارات المتعلقة بالعمل والتي من شأنها أن تؤثر في التنظيم ككل.منهج المهارة في إدارة الوقت يعتمد أساسا على المهارات ، ومن نقاط القوة فيه أنه يركز على مهارات تحقيق الأهداف ويرفع الآداء. مع هذا المنهج من المهم صرف الجهد و الطاقة ضمن الدائرة المعبر عنها "**أستطيع**" وترك الدائرة المعبر عنها " **لو**" التسويفية، الشكاكة، المرتابة، الخنوعة...

7- منهج التدفق الطبيعي(الإنسجام والنغمة الطبيعية):

هذا المنهج له رؤية مختلفة عن الحياة والوقت، منطلقه الإنطلاق مع التدفق الطبيعي بحياة منفتحة وتلقائية، وهو منهج مستمد من الحضارة الشرقية ، حيث التركيز على السلام و التوافق الداخلي للذات وتواءم المرء مع نغمة الطبيعة. يقر هذا المنهج أن حياتنا الميكانيكية المسرعة والمضبوطة بساعات وحاسبات وهواتف محمولة، تضعنا في وضع متعارض مع نغمة الطبيعة ، وهنا نسقط ضحية للمرض وغيره من المشكلات".

إن هذا المنهج يبعدنا عن الحياة التي تدق فيها الساعات والهواتف والحواسيب وكل ما يصدر ضجيجا.. يجعلنا نعيش خارج الزمن المحسوب، يربطنا بلحظات عندما نفعل شيئا نحبه (كالموسيقى، زراعة الزهور، لقاء صديق...) ، يجعلنا نضع أساسا لحياتنا لحظات تبعدنا عن إلحاح الطوارئ التي تضغط علينا وتساعدنا في تحقيق الإنسجام الداخلي والخارجي لحياتنا. ومن ثم الإبتعاد عن الطوارئ والتوافق في العيش مع وقع الحياة الطبيعي (كوقي،دت ، ص ص489- 490)

8- منهج الشفاء(إدراك الذات):

يركز هذا المنهج على المبادئ التي تشكل سلوكنا(بالإستناد على الماضي) ،وهي أسباب حقيقية للمشكلات،إنه يقود إلى إدراك عالي بالذات ويهيئ المرء لتغيير أساسي وتطوير النفس.

يساعد منهج إدراك الذات، في تحديد مصادر إنفاق الوقت بشكل خاطئ ، ويأتي على ذكر الأمراض النفسية التي تأتي من البيئة والموروثات وغيرها من المؤثرات التي تفرض نفسها مسببة سلوكيات الهزيمة والإحباط وغياب الإنجاز في إدارتنا للوقت. والحل هو علاج هذه العيوب النفسية و الإجتماعية التي تسب مشكلات إدارة الوقت. دلت تطبيقات منهج الشفاء أن الشخص الذي يؤجل عمل اليوم إلى الغد ويخاف تفويض المهام لغيره ويدخل في التفاصيل ويضيع الكثير من الوقت في أعمال بسيطة بشكل يتخطى الحد الأقصى،هو شخصية متأثرة بنموذج سلوكي أو مناخ عائلي معين في بداية حياته وقد يتحول إلى ما يسمى

بالشخص الكامل إلى حد الوسوسة" (كوقي،دت ، ص ص 491-492) وعليه ففهم ذاتك هو جزء من أجزاء التغيير الفعال في حياتك وأعمالك.

إن هذه المناهج تؤسس جميعها إلى قاعدة التحكم والسيطرة،الإستقلالية الفردية والفاعلية ورؤية الوقت بمعناه العادي وهي جملة، قد أضافت للمعرفة بموضوعة "الوقت" كمورد خفي في نجاح إدارة الأعمال داخل المكاتب والمؤسسات وتساعد إلى حد كبير في ظهور جيل جديد من القادة ، يديرون أعمالهم وعمالهم وفق مبدأ احترام القوانين الطبيعية للحياة، بشكل يرفع من نوعيتها وجودتها.دون احباطات أوتعقيدات أو تأزمات.

إن الوقت هو مادة الحياة، ونحن لا نستطيع التحكم في كم الوقت الذي لدينا ،إنما نستطيع فقط التحكم في استخدامنا له ونحن بمجرد إضاعتنا للوقت فإنه يكون بذلك قد أفلت منا ومضى عنا وهذا ما لايمكن استعادته أو تعويضه"(ماكينزي،2002، ص؟)

إن إدارة الوقت،يعد تسمية مظللة، ذلك أننا لا نستطيع أن ندير الوقت ،إن ما نستطيعه هو إدارة أنفسنا فإدارة الوقت تبدأ من الذات، ثم تأخذ مجراها في نجاح آداء الأعمال داخل المكاتب والمؤسسات. وحين تبلغ إدارة الوقت عادة جيدة في سلوكنا، نصل لا محاله إلى حياة أكثر توازنا وفاعلية في دنيا الأعمال وإدارة المنظمات.

المراجع:

- ابراهيم علي ربابعة،"مهارة إدارة الوقت"، ورقة علمية منشورة في مجلة الألوكة :قرأ واطلع على الصفحة يوم 2016/5/21 بتوقيت 09-00 www .alukah.net على موقع المجلة.
- رشاد احمد عبد اللطيف، إدارة المؤسسات الإجتماعية في مهنة الخدمة الإجتماعية، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر،ط1، 2008 ،ص29.
- الخضيري محسن احمد، الإدارة التنافسية للوقت المنظومة المتكاملة لإمتلاك المزايا التنافسية الشاملة في عصر العولمة وما بعد الجات – مصر الجديدة، إيتراك النشر والتوزيع،2000،ص 15
- ربحي مصطفى عليان، إدارة الوقت النظرية و التطبيق،عمان: دار جرير للنشر والتوزيع،ط2007،2، ص
- إبراهيم القفي، إدارة الوقت، مصر: دار إبداع للإعلام والنشر،2009،ص 34
- القصي راشد، إدارة الوقت في التعليم الجامعي مدخل لزيادة فعاليته(دراسة حالة) ،مجلة البحث في علم التربية وعلم النفس، العدد 1، جامعة المنيا ،2003: ص 109.
- اميمة عبد الخالق عبد القادر الأسطل، فاعلية إدارة الوقت وعلاقتها بالأنماط القيادية لدى مديري المدارس الثانوية بمحافظات غزة من وجهة نظرهم، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة ، 2009، ص 125.
- محمد احمد محمد الغامدي، إدارة الوقت لدى مديري المدارس الثانوية بمدينة الطائف، رسالة ماجستير، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، 2008،ص32.
- عبد العزيز السعدي، ثقوب الوقت، منشورات قسم الكيمياء، جامعة الملك فهد للبترول و المعادن، دت، ص 68
- قرآن كريم، سورة العصر ، الآية1 [1]
- قرآن كريم ، سورة الشمس، الآية 1-4
- أميرة محمد العدل، إدارة الوقت وعلاقتها بالفعالية الذاتية والضغوط لدى المرأة القيادية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة المنصورة ،2006، ص183.

- راوية تيسير غزاوي، إدارة الوقت وأثرها على آداء العاملين في دائرة الأحوال المدنية والجوازات في شمال الأردن، الأردن:جامعة اليرموك، 2012،ص23.
- ستيفن ر .كوفي، إدارة الأولويات الأهم أولا، ترجمة السيد متولي حسن، مكتبة جرير، دت ،ص 479.
- اليك ماكينزي، مصيدة الوقت، الطبعة الثالثة في سلسلة فن إدارة الوقت، مكتبة جرير، ط 1 ،2002، ص 20

تاريخ الاستلام: 2016/10/07 -تاريخ التحكيم: 2017/02/26 -تاريخ النشر2017/06/02

التفسير النفسي للذكريات الباكرة

د.خالد خياط ،أ.ريان حوحو

جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

ملخص:

يعتبر مصطلح الذكريات الباكرة بسيط من خلال مفهومه ولكنه عميق جدا لأنه يشمل الماضي والحاضر والمستقبل للفرد لذلك فالذكريات الباكرة كانت أداة أساسية مساعدة في كشف الجانب النفسي لشخصية الفرد منذ القدم حيث أخذت إهتمام العيادين منذ فترة طويلة ، فالاختلافات في استعمالاتها تتضح من خلال تفسيرات بعض العلماء وكذلك كيفية إستعمالها. كان يوجد موقفين مختلفين كبيرين لتحديد مغزى الذكريات الباكرة . موضوعنا يستعرض وجهة نظر مدرستي علم النفس الفردي والتحليل النفسي لمفهوم وتأويل الذكريات الباكرة وتوضيح الاختلافات بينهما .

الكلمات المفتاحية :التفسير النفسي . منهاج العيش (أسلوب الحياة).الذكريات الباكرة . الذكريات الستائر.

Abstract:

The term of early recollection is simple in its definition but deeply profound in its content because it includes the past ,present ,and future of individual . so early recollection is an essential psychological tool in assessing the person's character , that who it was widely applied by classical practianers but depeding on their theoretical background and premises , and their methodological orientation adlerian , the major methods of early recollections interpretation were individual psychology and freudien psychoanalysis. In this articale we will present both points of view and and their practical implications in the conception and interpretaion of early recollections, the refore, our problimatic to discussis . .

مقدمة:

إن الذكريات الباكرة من أهم اكتشافات علم النفس الفردي ، لان هذا العلم اثبت وجود هدف في اختيار ما نتذكره من المواقف و الأحداث الماضية , رغم ان الذكرى بحد ذاتها هي واعية و يمكن إسترجاعها بسهولة ، فهي تتحرر بطريقة واعية.

ان هذه الذكريات هي عبارة عن تقارير وأحداث يسردها الفرد عن الماضي فيمكن ان تكون حقيقية أو غير حقيقية أي من انتاج الخيال فالذكريات الباكرة التي يختارها الفرد عن سواها و عن باقي الذكريات فهي منتقا ت لأنها مشابهة لأسلوب حياة الفرد ومبني على أساسها ، فأذا أردنا تحديد منهاج العيش (أسلوب حياة) لدى فرد ما . ما علينا سوى أن نسأله عن ذكرياته الباكرة؟

واذا عاد الفرد للماضي بتفكيره و عقله فإنه سوف يتذكرالاشياء و المواقف التي تركت في نفسه تأثير كبير وخاصة من الناحية النفسية و الانفعالية و المطابقة لأسلوب حياته الحالي ، ولذلك يكون لنا القدرة على تفسير واستخراج اهم الذكريات الأساسية المساعدة في نمو شخصيته و المكونة لها بالأساس .

أولا : مفهوم الذكريات عند التحليليين :

❖ فرويد Freud:

قدم فرويد مفهومه للذكريات الباكرة ولقبها بمصطلح " memories screen " و اعتبر فرويد (1950-1899) ان الذكريات الباكرة للطفولة هي شاشة داخلية ، وتكمن وظيفتها في حجب الأحداث المؤلمة المكبوتة التي من شأنها ان

تهدد الانا اذا جلبته للوعي و أن الأشياء و المواد التي يتذكرها المفحوص مهمة فقط في توجيه المعالج نحو ما تم كبته. لذلك ركز فرويد انثاء سرد المفحوص لذكرياته على ما لم يقله في الذكرى وأكد على معناها الخفي و الغير ظاهر .
دون فرويد (1947-1917) "أن الذكريات لدينا هي ملكنا من تجارب سابقة من تركيبة بصرية فعلية وخبرة ومع ما سمعناه من الاخرين " ، ان شاشة الذكريات أو الذكريات الستائر تتكيف بشكل جيد في إخفاء الأشياء المكبوتة وتؤدي لظهور وظيفة الدفاعات، كما انه من واجب التحليليين العثور و التعرف على الأحداث المكبوتة والخفية وراء شاشة الذكريات ، وهذه الأخيرة تشبه الأحلام لانها تحتوي على عناصر الكبت ، الازاحة ، تكثيف ، الرمزية واخرون ذو وضع ثانوي (2006. P273 Roger P،. HMosak)

دمج فرويد باسم الشعور (العقل الظاهر) فصارت أقسام الذات الشعورية اثنين فقط هما: العقل الظاهر و العقل الباطن . وعلل فرويد الدمج بقوة خفية من شأنها صد الخواطر و الذكريات عن الظهور في منطقة الشعور لسببين :

- الأول : كون هذه الذكريات و الخواطر ضد العادات و التقاليد و قيم المجتمع .
- الثاني : كون هذه الذكريات من النوع الذي لا يقوى الشعور على تحمل مايصاحبها من ألام وقد أطلق فرويد على هذه القوة الصادة اسم قوة الكبت ، لذلك يرى أن قوة الكبت هذه تحوي الذكريات الطفولة و الحوادث النفسية المعاشة و المكبوتة ..(أسامة ، ح.2011 . ص 83)

وكذلك اهتم فرويد بالذكريات الأليمة ويجب كبتها بقدر الإمكان. وخصوصا إذا كانت هذه الذكريات هي ذكريات الطفولة، أي قبل أن تكتمل شخصية الفرد وتتبلور. في هذه الحالة، تدفن الذكريات في أعماق اللاشعور. وتستبدل في العقل الواعي بمكان خالي، أو بذكريات خاطئة مختلفة. المهم هنا هو طمس هذه الذكريات الأليمة التي تجعل الحياة لا تطاق عندما نتذكرها.

هذه الذكريات الأليمة المدفونة في العقل الباطن، والتي لا يتذكرها العقل الواعي، ليست بدون تأثير. فهي قد تشكل سلوك الفرد وتتحكم في قراراته وفيما يحب ويكره دون أن يدري.

ولم يكتفي فرويد بالذكريات الأليمة بل حتى الذكريات السارة يمكنها أن تُكبت هي الأخرى .فمثلا، الشعور بالدفئ والشبع والأمان والحب المصاحب للإرتماء في حضن الأم وتناول ثديها في الصغر، هي ذكريات لن تتكرر. هذه الذكريات السعيدة، لا يجب أن تترك لكي تتداخل مع النشاط اليومي للإنسان .إذا كنت تقود السيارة، أو في إجتماع مع رفاقك في العمل،ذكريات الطفولة الجميلة هذه لن تفيد وربما تكون معوقا للعمل والتفكير. ولهذا السبب يقول فرويد بأن الشعور باللذة الجنسية .لا توجد بكاملها في الذاكرة الواعية. لأنك لا تريد تذكر ذلك وأنت تقوم بالعمل. أو كما قالت القديسة تريزا في القرن السادس عشر: "من الصعب غسل الأطباق بعد رؤية وجه الرب."ويرى فرويد، ليست فقط بعض الذكريات الحقيقية هي التي تكبت في اللاشعور، ولكن أيضا بعض الذكريات الخاطئة أو الفالصو. هذه الأخيرة هي مجرد خيالات وتصورات.

الطفولة عند فرويد مليئة بالعقد النفسية والرغبات المكبوته الجنسية وعقدتي أوديب وإلكترا. وهو مفهوم يتعارض مع مفهومنا للطفولة البريئة النقية التي لا تشوبها أي علاقة جنسية من قريب أو بعيد،فالطفولة ليست بريئة كما كنا نعتقد. ولكنها مليئة بالرغبات الجنسية الموروثة منذ البداية حتى النهاية. ولأن المواضيع الجنسية محظورة بالنسبة للأطفال بسبب تقاليد المجتمع، لا يجد الطفل أمامه سوى تحويل هذه الرغبات إلى خيالات وتصورات. "الأنا الأعظم" يقوم في هذه الحالة، بربط هذه الخيالات والتصورات الجنسية لدى الطفل بالشعور بالذنب ثم يقوم بكبتها في العقل الباطن.

ليست فقط الرغبات والذكريات والتخيلات، تكبت في العقل الباطن، ولكن الشعور بالذنب المتولد عن "الأنا الأعظم" هو الآخر يمكن أن يكبت. العقل الواعي لا يمكنه العمل بكفاءة، طالما يتعرض لمضايقات مستمرة في صورة الإحساس بالذنب.

(http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=26182)

✓ **مثال : ذكرى لمفحوصة :**

" عندما كنت صغيرة أتذكر أنني غسلت دميتي في الحوض ووضعتها تحت الماء" :ان الاستقراء للمحلل للنفساني التحليلي لهذه الذكرى ان المنافسة الأخوية ظهرت بين العميلة أو الحالة وأخيها الأصغر ، حيث أنها كانت كبيرة جدا لدرجة أنه لديها مشاعر هائلة من الغضب تجاهه التي كانت ولا تزال غير مقبولة وتحتاج الى كبت وقمع من ذاكرتها ووعيها . فالمحتوى يعتبر ضار لذلك لا يظهر على الذكريات الستائر .

❖ **هولمز holmes**:

أيد هولمز فرويد في هذا الرأي وشكك في دقة الذكريات الباكرة كإختبار إسقاطي ككل ، أظهرت النتائج التي توصل إليها أن الذكريات الباكرة ليست واضحة ودقيقة لقياس عوامل الشخصية وأن أول الذكريات الباكرة المسترجعة بالتداعي الحر هي مشوهة بشكل دفاعي بعبارات النبرة العاطفية ، عكس الذكريات المتأخرة . استنتج أن هذا التشويه أو الستائر كانت بفعل مشاعر الأمن لدى الفرد مع ذلك فشل هولمز في أخذ بعين الإعتبار تعدد الذكريات الباكرة التي تحدث بشكل طبيعي.

✓ ذهب موساك الى أن إستنتاج هولمز للنتائج زائفة الأسباب تتعلق بالموضوع أو المواضيع العامة للذكريات الباكرة .احدى الذكريات قد تكون مختلفة عن البقية في النبرة او المحتوى وقد تعطي إنطباعا بوجود عدم توافق ، مهما يكن لا يمكن أن يوجد أي تنافر داخل الشخص . لذلك يقع على عاتق المعالج تحديد كيف أن النقطتين تبدوان متناقضتين يمكن الوصل بينهما بخط واحد . وأحيانا نستطيع إستعمال (إن _ فإن) على سبيل المثال ان كانت احدى الذكريات تطرح موضوع الأخذ والأخرى موضوع العطاء (فهما مبدئيا موضوعان متناقضان) ، ويمكننا رؤية الخط الجامع بين هاتين النقطتين عندما نضيف عبارة (إن _ فإن) التي يجب أن تتواجد لحل هذا التنافر "لذلك لابد أن أحصل على قدر المستطاع لكن إن كنت مع أصدقائي فإنني ينبغي أن اعطيهم" .

إقترح موساك لمقولة هولمز حول إختلافات النبرة التي تسير عكس وحدة الشخصية أنها لاتأخذ بعين الإعتبار الأداء الشمولي للشخص .انها نظرة لمركبات منفردة بدلا من البنية التكاملية . ومن الغير مستحسن وضع الافتراض من ذكرى واحدة ، كما أنه ليس من الحكمة أن نحكم على الفيلم بناءا على مقطع واحد .

ان كان هولمز يذهب للربط بين وظيفة الستار فإن ذلك مضاربة ومثل هذا الفعل يقتضي ان المؤولين للذكريات الباكرة يسقطون منهاج عيشهم على الذكريات الباكرة .

فمثلا تخيل نفسك في مسرح لمشاهدة مسرحية لكن الستار لم لم يرتفع و يجب عليك التخمين ما يحدث وراء هذا الستار ولكن المعلومات التي قد تتلقاها (صوت مكتوم ، خطى) لاتمثل عن ماذا يحدث ، و تخميناتك هي اكثر منها حقائق حول مايجري خلف الستار .

❖ **واصل كاهانا kahana و رفقائه :**

هناك ندرة في التراث الفرويدي المفسر للذكريات الباكرة حسب kahana واخرون حيث عرفوا الذكريات الباكرة على انها : "ان الذكريات الباكرة هي جزء حيوي من الشخصية" ، وعلى هذا النحو فهي تعكس اجماليا أداء الشخصية . وتساؤلنا هو كيف يمكن للفرويديين التصريح أن الذكريات الباكرة تعكس جميع جوانب عمل الشخصية ومادامت مصممة لاخفاء جوانب معينة من الأفكار والسلوكيات ، وخاصة الجوانب الصادمة جدا للأنا ؟وأشارو الى الخبرات الطفولية الصادمة انفعاليا ودفاعات الأنا الأساسية وأحيانا الميول الى التحويل.

✓ **وهذا يستلزم مجددا أن الاخصائي النفساني** : قد يتنبأ بصرعات اللاوعي في التراث الفرويدي يوصف الانا بأنه يستخدم جزءا مركزيا في إستعادة الذكريات الباكرة حيث أن الوظيفة التركيبية للأنا تجعل من الممكن إعادة تنظيمها وإعادة هيكلة الذكريات الباكرة ، هذه إعادة الصياغة حوصلها niederland

❖ **نايدرلاند niederland** :

حيث قال أنه من خلال الذكريات الباكرة نجد:

المحتوى و العاطفة في الذاكرة يمكن التعامل معه بطريقة مراجعة من قبل كل من الأنا و الأنا الأعلى والسماح لحل اكثر واقعية للصراع بين القوى البدائية و الغريزية و الدفاعية التي خلفت الحدث الأصلي الصادم و المؤلم و المسبب للامراض .

مهما يكن وكما قرأت سابقا الأشخاص يتذكرون الذكريات الأليمة و كما قرأنا أعلاه أن هذا الإجراء يمكن أن يصبح إختبار إسقاطي للمحلل أكثر منه للمفحوص ، المعالجون مدعوون لإسقاط ما يعتقدونه خلف الستار والتخمين حول ما لم يقله المفحوص أليست المضاربة على المادة التي لم تقدم في الذكرى مساوية لمحقق يصيغ حالة بناءا على نقص في الأدلة ؟

انه يشبه ان تدين شخص بجريمة دون حجة بل الدليل الذي يعتقد محقق انها موجودة هناك . نقترح توجيه العلاج على قاعدة نقص الأدلة امر خطير على كل مفحوص والمعالج يعتدي ويحرف المعنى الحقيقي للمحتوى الظاهر للذكرى الباكرة وهدفها .

✓ احد العيوب الأخرى في المنهجية الفرويدية للتأويل هي أن ممارسيه يجب أن يكونوا على دراية بكل المصطلحات التحليلية مثل : كبت ، رغبة جنسية ، اللاوعي ... وما الى ذلك أولئك اللذين لم يتبنوا بالمسلمات الفرويدية لايمكن ان يفهمو كيفية تأويل مايطلق عليه الفرويديون بالذكريات الستائر . ومن بين المشاكل الأخرى التي يرونها الفرويديين هو مفهوم screen memories الذكريات الستائر ، انه تركيز الرجعي و السببية ، وجهة النظر التحديدية لايشترك فيها غير الفرويديين الذين يتمسكون بوجهة نظر حدية للإرادة ، بالنسبة للفرويديين الأشخاص هم نتاج ماحدث لهم ، ومع ذلك نحن نعتقد ان الناس قادرون على تجاوز الصدمات وان يباشروا حياة منتجة ، وانهم قادرون على تفسير الأحداث واختيار كيفية التعامل معها وحتى توقعها ، بالإضافة يفسرون ويتجاوبون مع الصدمات و الاحداث الصدمية بأشكال مختلفة ، فالمفهوم الفرويدي يقول ان الناس تستجيب بطرق معينة تجاه الصدمات ، ثم يخفونها عن الوعي لحماية ذواتهم ومن وجهة نظر الغير فرويديين يمكن أن يفعلوا أو لا يفعلوا .

وما يثير مناقشتنا هو ان مفهوم الذكريات الستائر يمكن أن تميت من هو تحت العلاج لان المعالج سيسقط على ماضي المفحوص سبب كل مشكلات المفحوص (. Roger P،. HMosak . ibid. Pp 273 – 275)

ثانيا : مفهوم الذكريات في علم النفس الفردي :

❖ **ألفرد أدلر Adler**:

نحن لانستطيع أن نقرر بصفة نهائية معنى أحد هذه المواد (الجزئيات) ، بل إنه من الواجب علينا أن نرى الدور الذي تقوم به تلك الجزئية ، وكل الجزئيات (المواد) التي تقول الشيء نفسه ، وإذا ما أمعنا النظر فيه فإننا سنجد هي التي توجهنا نحو الحل .[i] نحن مثل عالم الاثار الذي يجد شظايا و بقايا من أدوات و حوائط و مباني و اثار محطمة وأوراقا من البردى ، ومن خلال هذه الشظايا يتمكن من الاستدلال على طبيعة وشكل الحياة في تلك الفترة البائدة و لكننا لا نتعامل مع أشياء بائدة ودائما نتعامل مع ألاف الجزئيات و المواد المرتبطة يبعضها البعض ، و التي تشكل الانسان و شخصيته .حيث إن مهمة فهم إنسان ليست بالمهمة السهلة، وعلم النفس الفردي يعتبر من أصعب فروع علم النفس التي يمكن ممارستها ، وإنه من المفروض علينا أن نصغي إلى المشكلة برمتها ، وأن نظل حذرين حتى يصبح مفتاح الشخصية واضحا .

كما ان من الواجب علينا ان نجمع الكثير من الاشارات و اللمحات التي تأتي بصورة عفوية: من الطريقة التي يدخل بها غرفة ما ، ومن الطريقة التي يصافح بها الاخرين ، ومن أسلوبه في الضحك و الابتسام ، وطريقته في المشي و الكلام .

ربما جانبنا الصواب في فهم واحدة من تلك النقاط أو الجزئيات لكن باقي الجزئيات ستقوم بتصحيح فهمها وتصويب الإنطباع الذي نأخذه عن هذا الفرد ..

من الطرق السهلة لكسب تعاطف و حب المرضى التساهل المستمر و التدليل الزائد لمن إعتاد منهم ذلك ، ولكن رغبتهم الدفينة في السيطرة ستكون مختفية تحت السطح ولو اننا حاولنا الاستخفاف بهم سوف نكسب عداوتهم بسرعة ، وحتى أنهم سوف ينقطعون في العلاج ، وإذا استمروا في العلاج فإنهم سيفعلون هذا بغرض تبرير أنفسهم وجعلنا أسفين على الإستخفاف بهم ، لذلك علينا أن نظهر لهم الاهتمام الحقيقي بهم الذي يجب أن يكون متبادل بين البشر .

ومن الواجب علينا التعاون معهم في محاولة اكتشاف أخطائهم ، لان هذا سوف يحقق الفائدة لهم وللآخرين في نفس الوقت ، وإذا وضعنا هذا الهدف نصب أعيننا فإننا لن نواجه تلك التحويلات السلبية / الإيجابية .لأنه من أكثر التعبيرات النفسية لها دلالة على شخصية الفرد هي ذكرياته .

يمكن إعتبار العلاج في حد ذاته تدريبا واختبارا للقدرة على "التعاون" ، إننا يمكن أن ننجح فقط إذا ما كان اهتمامنا بالآخرين حقيقيا ، فيجب أن نطور قدرتنا على الرؤية من خلال عيونهم و السماع بإستخدام أذانهم حتى نحصل على مساهمتهم في تحقيق هذا الفهم المتبادل ، فحتى لو شعرنا أننا تمكنا من فهمهم فإنه لا يوجد دليل على صحة شعورنا هذا حتى لحظة تمكنهم من فهم أنفسهم .

إن الحقيقة غير المهذبة وغير لبقة لايمكن أن تكون كل الحقيقة ، لأنها تفضل مدى فهمنا الكافي لتلك الحقيقة ، ولعلى الفشل في فهم هذه العبارة الاخيرة هو السبب في أن الكثير من مدارس علم النفس طورت مفهوم " التحويلات السلبية والايجابية" ، التي هي عوامل لا نصادفها في العلاج باستخدام علم النفس الفردي.

- ✓ **مدلول الذكريات الباكرة :**

هي مانحمله معنا دائما ليذكرنا بمحدودية قدراتنا وبالمعنى الذي نضفيه على الأحداث لايوجد ما يمكن أن نطلق عليه "ذكريات بالمصادفة " ، فمن بين الاف التعبيرات التي تمر بالفرد يختار أن يتذكر تلك التعبيرات التي تترك انطباعا عليه وعلى مشاكله وإن مثل هذه الذكريات تمثل قصة حياته ، وهي قصة يسترجعونها المرة بعد المرة ، بغرض تشجيع أنفسهم على التركيز على

هدفهم الأساسي ، أو يعدون أنفسهم عن طريق الخبرات السابقة لمواجهة المستقبل بطرق مجربة و موثوق بها .(أدلر.أ.1931 /2005 .ص ص105 -107) .

ثالثا : الفرق بين الذكريات الباكرة عند فرويد و أدلر :

اخذت الذكريات الباكرة منذ فترة طويلة اهتمام العياديين و لكن لم تتلقى الأسلوب المنهجي للاسقصاء و البحث التي كانت ممنوحة للتقنيات و البيانات المماثلة الأخرى وقديما كان يوجد موقفين مختلفين كبيرين لتحديد مغزى الذكريات الباكرة :

أكد **فرويد** على وجود تقسيم و على انهم نتاج من تجارب الوعي و يتم خزنها و كبتها و خاصة الغير المرغوبة ووضع لها مصطلح screem memories و هذا التركيز و التدقيق أدى الى تجاوز محتوى الظاهر للذكريات و لاستخراجها و كشفها يجب على الفاحص بذل جهد كبير و العلاج المركز لكشف ما ورائها)Friedman،Schiffman ;J ،H . 1962.) Vol 18. p57

وأيضا لايزالون يستدعون الذكريات الباكرة عن طريق التداعي و بالاعتماد على المفهوم الفرويدي و استمروا باعتبارها شاشة الذكريات الباكرة و ذلك بالرغم من أن فرويد وأدلر يرون أن الذكريات الباكرة مهمة كأداة لفهم المريض وراء الغرض منها بشكل مختلف.

فرويد ينظر الى الخبرات السابقة بحكم ان الاناس تستخدم الذكريات الباكرة كشاشة او ستار لحجب الاحداث المؤلمة والصدمات . (. Roger P،. HMosak . ibid . P 276)،ومن ناحية أخرى أكد أدلر أن الذكريات الباكرة للفرد تشير و تدل على أسلوب حياة الفرد في حد ذاتها ، فهناك علاقة وطيدة بين الذكريات الباكرة و تعبير الفرد عن نفسه واختياراته و عن عدائه .)Friedman،Schiffman ;J ،opcit . P 57)،وأيضا يرون أن الناس تستخدم الذكريات الباكرة لتحقيق أهدافهم .

H . Roger P . ibid.. P 276)، (Mosak

رابعا : كيفية تحليل الذكريات الباكرة من طرف الفرويديون و الادلريون :

- ✓ **ذكرى باكرة :**

" في يوم من أيام المدرسة عاقبتني المعلمة لشيء من خلال وضعي في حجرة مضلمة و اعتقد انها نسيت أمري وعندما صرت جائعا أكلت وجبة غدائها ، وبعدها إضطررت للذهاب للمرحاض وكنت مضطرا ولم أكن أعرف ماذا يجب القيام به ولذلك حاولت وكان الباب مفتوحا .و عندما كنت راجعا على الطريق ملأت سروالي على الرغم من أنني قرب المنزل و اعتقدت ان والدتي ستكون غاضبة مني لهذا السبب كالمعلمة. ثم ظهر لي ثلاث أولاد يريدون مني بعض المال ولم يكن لدي ، فأخرجو لي سكين وقطعوا ثلاث شقوق في حزامي ، عندما رجعت للمنزل لم اكن أتذكر ماحدث لي ".

- ❖ **أعطى موساك التفسير من وجهة نظرالتحليليين :**

قد نرى في هذه الذكرى خلاصة التطور النفسو جنسي للمريض . الطفل في غرفة مظلمة (الرحم) ، ثم أكل وجبة المعلمة (مرحلة فمية) ، ملأ سرواله (مرحلة شرجية) ، يذهب نحو الام (بداية المرحلة الاودبية) ويجتمع بثلاث أولاد (ثلاث هي

رمز الأعضاء التناسلية الذكرية و يمكن ان تكون ممثلة للاب) الذي قطع شقوق حزامه (ان الحزام كان طويلا نقطة هادفة على أنه مخصى رمزيا).

❖ **أعطى موساك التفسير من وجهة نظر الأدلريين :**

ان هذه الذكرى معقدة نوعا ما لانها تحتوي على اعتقاد مضاد للمجتمع ، ولم يتحمل المسؤولية وأن أستاذته هي المسؤولة عن سبب كل ذلك ، والية الاسقاط ظهرت على الواجهة و تحمل لنا دليل الذعر و التي تؤخذ الى جانب احتمال ظهور جنون العظمة و انه معفى من الأدوار و كان لديه امتياز عدم المطابقة ، وهناك الكثير مما لايحترمون هذا الامتياز وانها غير عادلة ، وان تصور العالم على انه ذكوري عدائي وتشير و تهدد سجلات المشفى الى ان يتم تشخيص المريض واقعيا بجنون العظمة وفصام البارانوي و اللثوع أنه يمارس أنشطة جنسية مثلية علنية .

✓ **تفسير الذكرى الباكرة وفق منهاج العيش (ذكرى المفحوص) :**

من خلال الذكرى شرح موساك وجهة نظره ، و التي قام بها على شكل منهاج العيش للمقاربة المقنعة لديه :

➢ **مفهوم الذات :**

- أنا لا أعرف ما الخطأ الذي إقترفته (المعلمة عاقبتني على شيء) .
- انا أنخرط في الأعمال المضادة للمجتمع (أكلت وجبة المعلمة) .
- عندما أقوم بالخطأ ، أدفع الثمن (عوقبت بوضعي في الخزانة) .
- أراد الذهاب للمرحاض بعد تناوله وجبة المعلمة ، وهذا وضعه في حالة الضغط : "كنت مضغوطا ولم أكن أعرف ماذا أفعل " .
- المرأة نسيت أمره(أظن أنها نسيت أمري) .
- أنا لست رجلا للدفاع عن نفسي بما فيه الكفاية (من ثلاث أولاد إعترضوا طريقي وقطعوا حزامي) .
- لاأستطيع السيطرة على نفسي (خسرت بنطال سروالي) .
- أخاف كيف يمكن أ تتفاعل النساء أمام فقداني لسيطرتي .

➢ **الذات المثالية :** (طريقة المثالية للحياة . يجب أن) .

- لايجب أن أعاقب .
- أود أو أحصل على إهتمام النساء .
- يجب أن أكون قادرا على الابتعاد مع الأشياء .
- يجب أن أكون قادرا على الوقوف في وجه الرجال .
- يجب أن يكون لدي الكثير من المال .

➢ **نظرة العالم الخارجي :**

- المرأة عاقبتني (المعلمة انثى) وضعته في خزانة مظلمة .
- المرأة تركتني (نسيت أمري) .
- الرجال تهددني وتحاول إضعافي (الأولاد هددته وقطعت حزامه) .
- أتوقع أن المرأة سوف تخوض المعرك لأجلي (اعتقد أنه عند الذهاب للمنزل ستكون أمي غاضبة مني مع المعلمة لهذا السبب) .

- رجال و نساء عاملوني بأسلوب سيء .

➢ **القناعات الأخلاقية :**

- اذا أخطأ الناس في حقي ، سأخطأ فيهم جميعا (عندما أصبحت جائعا ، أكلت وجبة غدائها) .
- النساء تهملني وهذا خطأ .
- الرجال يطلبونني وهذا خطأ .
- اذا قمت بشيء خاطئ ، حتى لو لم أكن أعلم ماهو سوف ادفع الثمن حول ذلك .

✓ عندما أظهر فرويد مفهوم شاشة الذكريات أكد المعاني الخفية للذكريات و المشكل الأساسي هي أنها يمكن أن تنقلب الى اختبار اسقاطي للمحلل أكثر من المفحوص(Mosak H ، 273 – 278 .opcit. Pp Roger P)

خامسا : التوظيف النفسي للذكريات :

إن استخدام الذكريات لتهيئة المزاج الشخصي نحو تحقيق هدف ما يمكن رؤيته بوضوح في السلوك اليومي للأفراد . لو أن فردا ما عانى من عقبة أدت إلى تخاذله وتثبيط همته فإن مثل هذا الشخص سوف يسترجع في ذاكرته العقبات السابقة , فإن كان هذا الفرد يعاني من المنخوليا فإن كل ذكرياته ستكون باعثة على التشاؤم والحزن . بالمقابل ، إن كان فرد ما مرحا وسعيدا وشجاعا فإنه يختار أن يتذكر مجموعة مختلفة من الذكريات ستكون كلها تتسم بالتفاؤل والسعادة ، وبالطريقة نفسها إذا ما واجه عقبة ما فإنه سيستدعي ذكريات تساعده على تشكيل الموقف الذي سيواجه به تلك العقبة . (أدلر،أ. مرجع سبق ذكره .ص 108)

إن مثل تلك الذكريات تعطينا فكرة واضحة عن الطريقة التي يتعامل بها معظم الناس مع الحياة ، فنحن نتخذ من انطباع واحد ذريعة لتبرير الكثير من أفعالنا . نحن نستنتج منه ونبني عليه ونتصرف كما لو كانت أفعالنا حقائق لا جدال فيها ... عموما ، أي شخص يكره فعلا من الأفعال فإنه يحاول تبرير هذه الكراهية عن طريق اختيار حدث من الخبرات التي مرت بهم في الماضي وتحميل هذا الحدث وزر تلك الكراهية . (ألفرد أدلر، أ.مرجع سبق ذكره. ص 121) .

هكذا نرى أن الذكريات تخدم الفرض نفسه الذى تخدمه الأحلام ، فعندما يكون على البعض اتخاذ قرار ما فإن الكثير منهم يحلمون بأحد الامتحانات التي تمكنوا من اجتيازها بنجاح ، فهم هنا يرون أن القرار ما هو إلا امتحان ، ولهذا هم يحاولون إعادة خلق الجو السابق والذى تمكنوا فيه من اجتياز الامتحان بنجاح .

ما يصدق على تنوعات المزاج داخل منهاج عيش فرد ما ، يصدق أيضا على بنية وتوازن مزاجاته عموما . فالشخص المنخولي لن يبقى منخوليا استذكر أوقاته السعيدة ونجاحاته لابد أنه يقول لنفسه : " لقد كنت تعيس الحظ طوال حياتي " وينتقي الأحداث التي يؤولها كأمثلة على قدره التعيس(Adler A. 1931 .p46)

سادسا : ما هي الذكرى الدالة نفسيا :

بالنسبة إلينا ، كل ذكرى –مهما بلغت تفاهتها– مهمة جدا لأنها تمثل أمرا ينبغي تذكره بالنسبة لهذا الشخص. وترجع أهميتها إلى كونها تصور الحياة كما يعرِّفها ذلك الشخص فهذه الذكريات تقول له :

" إن هذا ما يجب عليك أن تتوقعه " ... ، أو " إن هذا ما يجب عليك أن تتجنبه " ... ، أو " هذه هي الحياة ".

علينا أن نؤكد هنا حقيقة هامة وهي أن الخبرة التي مر بها الفرد في حد ذاتها غير هامة ، إنما المهم هو أن هذه الخبرة ظلت في الذاكرة وساعدت على بلورة المعنى المنسوب للحياة – تعريفه لـ "معنى الحياة" – وكل ذكرى ما هي إلا دافع للتذكر(أدلر، أ .مرجع سبق ذكره. ص 41) .

إن الذكريات الخاصة بالطفولة المبكرة ذات فائدة خاصة في إظهار طول المدة التي احتفظ بها فرد ما بتعريف معين لـ "معنى الحياة" ، وفي كشف الظروف التي بلور فيها موقفه من الحياة لأول مرة . وتحتل الذكرى الأولى مقاما مرموقا لسببين :

أولا : أنها تتضمن التقييم الأساسي للفرد ووضعه ؛ هي أول حوصلة قام بها الفرد للمظاهر من حوله ، هي أول رمز متفاوت الكمال حول ذاته والمطالب الواقعة عليه .

ثانيا : إنها تمثل نقطة الانطلاق الذاتية له ، هي مطلع سيرته الذاتية التي كتبها بنفسه لنفسه. بالتالي ، غالبا ما نجد فيها التباين بين وضعية ضعف وعجز يشعر بنفسه فيها ، وهدف القوة والأمن الذي يراه مثالا له) Alfred Adler .ibid. Pp13-14(

ولا يهمنا أن تكون الذكرى – التي يعتبرها الفرد أول الذكريات — هي حقا أول شيء يستطيع هذا الفرد تذكره عن طفولته المبكرة أم لا ، فقد يستطيع الفرد تذكر حدث ما سابق عن ما اعتبره "أول الذكريات" ؛ إنما المهم أنه يعتبره هو أول الذكريات ، حتى إنه من غير المهم معرفة ما إن كانت هذه الذكرى الأولى حقيقية أم من صنع خياله . إن الذكريات تهمنا فقط بسبب ما تمثله ، لكونها تمثل طريقة فهم الحياة وتأثيرها على الحاضر والمستقبل. (أدلر،أ. مرجع سبق ذكره . ص42 .)

وليس فقط الذكريات التي يتم الاحتفاظ بها بقوة بل حتى تلك الناقصة و صعبة التذكر وحتى تلك التي لم يتم التعبير عنها بكلمات ولكنها متواجدة فقط كنغمات عاطفية وذهنية .

وكما نعلم ان الانا لا يعبر عن نفسه بالكلام بل أيضا بالعواطف في موقفها وان علم وحدة الانا مدين لعلم النفس الفردي لاكتشافه organ- dialect حيث اننا الان أصبحنا على اتصال بالعالم الخارجي بكل أشكال الجسم و العقل) Adler A . Pp1-2 1933/1938.

من هذا نرى أن الأحداث التي يتذكرها الفرد في طفولته قريبة جدا من الاهتمام الرئيسي للفرد ، ولهذا فإنها ستمكننا من الاقتراب من معرفة اهتمامه الرئيسي ؛ فإن عرفنا الاهتمام الرئيسي للفرد فإننا سنعرف هدفه الرئيسي ومنهاج عيشه . وهذا ما يجعل الذكريات الأولى ذات أهمية خاصة في إرشاد الأفراد إلى الوظيفة المناسبة لهم ، كما أن الذكريات الأولى توضح لنا طبيعة العلاقة بين الطفل وأمه وأبيه وباقي أعضاء الأسرة . (أدلر، أ. مرجع سبق ذكره .ص 109).

بيد أنه ينبغي لنا أن لا نفرق أكثر مما يجب بين الذكريات القديمة والحديثة ، لأن الذكريات الحديثة تنطوي هي أيضا على خط العمل كما تنطوي عليه الذكريات الباكرة . والعثور على خط العمل في بداية الحياة أسهل وأهدى لنا ، لأن من اليسير علينا في تلك الحقبة أن نكشف عن موضوع فحصنا ، ونستطيع أن نتبين أن منهاج عيش الشخص لا يتغير تغيرا حقيقيا . وفي وسعنا أن نجد في منهاج العيش – الذي يتكون في سن الرابعة أو الخامسة – ما بين ذكريات الماضي وأفعال الحاضر من صلة . ومن ثم نستطيع بعد كثير من أمثال هذه الملاحظات أن نستمسك بالنظرية القائلة أن في مقدورنا أن نجد هذه الذكريات الباكرة جزء حقيقيا من النموذج الأول للمفحوص . (ألفرد أدلر،أ . 1929 / 1944 . ص ص 77-78).

وعلينا أن نذكر هنا حقيقة غريبة ألا وهي أنه من غير المهم ما إن كانت هذه الذكريات دقيقة أم لا ، أو حتى ما إن كانت تحتوي على أي قدر من الحقيقة ، فالشيء المهم هو أنها تمثل حكم الفرد ورأيه في هذه الذكريات (أدلر،أ. مرجع سبق ذكره . ص 110)،سواء حدثت الذكرى حقا كما تذكرها أو رواها الفرد (وهذا مستبعد) أو أن افتراضات وشروحات وتفسيرات الفرد حولها كانت مضافة ، أو أن الذكرى لم تقع بتاتا ، فالنتيجة هي نفسها : هذه الذكرى الباكرة سوف تعكس وجهة نظر الفرد حول الدنيا وحول ذاته ومسار السلوك الذي اختاره لنفسه للتعامل مع عالم معقد ;PAPANE) .H.. JIP. Vol 28 . Nr2 . 1972 . Pp 169-170)

عندما يعود مفحوص بذهنه إلى ماضيه فليس ثمة شك في أن كل ما تنطق به ذاكرته سيكون من الأمور التي يهتم بها من ناحية انفعالاته ، لذلك يكون بوسعنا أن نجد فيه بابا ننفذ منه إلى معرفة شخصيته (أدلر، أ. مرجع سبق ذكره. ص 78 .)

لأن هذه الانفعالات تنسجم مع الكيفية التي يتحرك بها المفحوص في الحياة).; p ibid.. Roger P Mosak.H 280.)

ولسنا ننكر أن للذكريات التي نسيت شأنا ما في منهاج العيش وفي النموذج الأول للفرد . لكن من الصعب في كثير من الأحوال أن نعرف الذكريات المنسية ، أو الذكريات اللاواعية كما يسميها المحللون . على أن الذكريات الواعية واللاواعية تشتركان في أن كلتيهما تؤدي إلى هدف السمو نفسه ، وأن كلتيهما جزء من النموذج الأول الكامل . لذلك يستحسن أن نعرف الذكريات الواعية واللاواعية معا إن استطعنا إلى ذلك سبيلا . ويكاد النوعان في آخر الأمر أن يكونا متساويين في الأهمية . وكلاهما عموما لا يفهمه صاحبه ، وغيره هو من يجب عليه أن يعمل على فهمهما وتفسيرهما له.(أدلر، أ. رجع سابق.ص 78 .)

بديهي أننا لا نأخذ الذكريات الباكرة كتقارير صحيحة عن الوقائع التي تكون قد جرت في ماضي الفرد وطفولته. فلو أن شخصين عاشا وقائع خبرة ما معا واسترجعاها في ذكرياتهما الباكرة لوجدنا تباينا واضحا بين القصتين المسرودين من قبل كل واحد منهما ، لذلك لا نتوقع أن تكون الذكرى مطابقة للواقع ، بل ما يهمنا هو أن ذلك يعود إلى تباين في الاهتمام الرئيسي لكل واحد منهما ، في منهاج عيش كل واحد منهما ، الذي جعل إدراك كل واحد للخبرة نفسها مغايرا لشريكه فيها .

وكثير من هذه الذكريات هي أيضا من إنتاج الخيال . وأكثر هذه الذكريات يتبدل ويتغير خلال الحقبات اللاحقة من حياة الفرد ، وهذا لا ينقص إطلاقا من قيمتها ومغزاها . ما تبدل أو تخيل من هذه الذكريات يملك دائما القدرة على التعبير عن هدف المفحوص . ورغم أن عمل الذاكرة يختلف عن عمل المخيلة ، إلا أننا نستطيع بدون مخاطر أن نستخدم الذاكرة والمخيلة ، وأن نربطهما بالعوامل الأخرى التي نعرفها . لكننا رغم ذلك لا نستطيع أن نقدر بصورة دقيقة قيمة ومغزى هذه الذكريات إلا إن ربطناها بمنهاج العيش الشامل ووافقنا بينها وبين خط الكفاح الرئيسي للفرد في سعيه نحو السمو .

في الذكريات التي تعود إلى السنوات الأربع أو الخمس الأولى من حياة الفرد نجد بشكل رئيسي قطعا وأجزاء من نموذج الفرد وإشارات مفيدة حول الأسباب التي أعطت تصميم العيش شكله الخاص . ونستطيع – هنا أيضا– أن نلمس الإشارات الأكثر ضمانة حول الجهد الشخصي والتمرن الشخصي لمواجهة القصورات والمصاعب العضوية الجسدية في البيئة الأولى . إن علامات درجة الشجاعة والنزعة الاجتماعية تظهر في كثير من هذه الحالات . (أدلر، أ 1929 /1982 ص ص 258 – 259.)

الخلاصة :

إن السعي الفرد نحو الاكتمال الذي يعتبر الهدف الطبيعي لكل فرد ، فهو ينبع من شعور الفرد بالنقص و بما ان الفرد لا تعيش و حده ، بل يعيش في مجتمع و محيط اسري يحيط به ، وهذا الاخير له دور اساسي في تكوين شخصية الفرد وتكوين منهاج عيش الفرد وأسلوب حياته من خلال الخبرات التي يعيشها و الذكريات الباكرة التي بإمكان الفرد من خلالها التعرف على الفهم الخاطئ و المشكل الذي يعاني منه فلا يمكن ان تكون الذكريات الباكرة معاكسة لمنهاج العيش و أسلوب الحياة الذي يتبعه الفرد فهي مشابهة له تماما و كذلك اذا تغير منهاج العيش تتغير معه اختيار الذكريات فهو يكون مناسبا لها تماما فإحساس الفرد بعدم المساواة هو الذي يولد الشعور بالنقص مما يجعل الفرد يختار ذكريات تدل على القصور والعجز ويتخذ اسلوبا محددا لتعويض القصورات التي توجد عنده ، فهو يسعى لتحقيق اهدافه الغائية وبلوغ السمو .

قائمة المراجع :

I. بالعربية :

1. أدلرألفرد (1929).**الحياة النفسية**..ترجمة : محمد بدران واخرون لجنة التأليف و الترجمة والنشر. القاهرة (1944).

2. أدلر ألفرد (1929) .**العصاب**. ترجمة : أحمد الرفاعي و فارس ضاهر . دار ومكتبة الهلال . بيروت . (1982) .
3. أدلر ألفرد (1931) . **معنى الحياة**. ترجمة: عادل نجيب بشرى. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة . (2005).
4. أسامة سمير حسين (2011). **الاحتلال الالكتروني (الأسباب و الحلول)** . ط 1 . الجنادرية.

II. بالاجنبية :

5. Harold H. Mosak، Roger Di Pietro . **Early Recollections: Interpretative Method and Application** . Routledge، . new york . 2006.
6. Adler،Alfred**. 1931. What Life Should Mean to You.** The Classical Adlerian Translation Project .p46

III. المقالات :

7. Adler ،Alfred (1933). **social interest : a challenge to mankind .** traduit par Herbert stein henry **.** der des lebens. German . 1938. Pp1-2.
8. Friedman، Joseph; Schiffman، Harold .1962 . Journal of Individual Psychology. Vol 18
9. PAPANE Helene. **The Use of Early Recollections in Psychotherapy**. JIP. Vol 28 . Nr2. 1972.

IV. مقالات الانترنت :

محمد زكريا توفيق . الخميس 1 ديسمبر 2010 . منبر حر للثقافة و الفكر و الادب . سيجموند فرويد والتحليل النفسي١ .استرجعت على الساعة 37: 15 يوم 21 . 09 . 2016 من الموقع الالكتروني:
http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=26182

تاريخ الاستلام: 2016/10/08 -تاريخ التحكيم: 2017/01/23 -تاريخ النشر2017/06/02

العنف اللفظي الممارس ضد الطفل داخل المحيط العائلي

أ.نور الهدى قدوح

جامعة لونيسي علي العفرون البليدة- (الجزائر)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

ملخص :

يتكون أي مجتمع من مجموعة من الأسر التي تعد وحدة أساسية في بنائه و يتوقف نموه و تقدمه على مدى تماسك العائلات التي يتكون منها . و قدرة هذه العائلات على أداء وظائفها بكفاءة و فعالية ، حيث لكل عائلة مجموعة من الوظائف التي عليها أن تؤديها من إشباع حاجياتهم بالإضافة إلى القيام بتربية الأطفال و تنشئتهم و توفير المناخ الاجتماعي الملائم لتوجيههم و لكن قد لا تقوم العائلة بأداء الأدوار الواجبة عليها كالتنشئة السوية و العادلة لأطفالها ، حيث لاحظنا في المجتمع الجزائري بعض العائلات يقومون بتنشئة أطفالهم تنشئة لفظية عنيفة فالوالدين الذين يستعملون العنف كوسيلة للتأديب دون إدراك منهم أن مستوى ذلك العنف يزيد مع نمو الطفل و تقدمه في العمر فالعنف اللفظي هو من أخطر أنواع العنف بقاءً و رسوخا في ذاكرة الطفل .

Résumé :

Toute communauté se constitue de plusieurs familles qui sont considérées l'unité de base dans sa construction, sa croissance et son dépendent de l'interconnection des familles qui la constituent, la capacité de ces familles à fonctionner en toute efficacité , où chaque entité a ses propres fonctionnalités qu'elle doit performer pour satisfaire ses besoins , en plus d'élever les enfants et fournir l'atmosphère sociale convenable pour les orienter. mais la famille peut ne pas effectuer le rôle qu'elle est censé de faire comme une éducation juste et impecable de ses enfants d'où ou observe que dans la société algérienne, quelques familles utilisent toutes sortes de violence verbale pour élever leurs enfants . les parents qui utilisent la violence comme outil de punition sans rendre compte au grand effet que cette violence peut avoir sur l'enfant.

مقدمة :

العنف اللفظي أصبح مؤشر يهدد العلاقات على مستوى الأفراد داخل العائلة ، ويعمل على تحطيم نفسية الطفل باعتباره الضحية المباشرة لهذا العنف حيث تهتز مكانته اجتماعيا ، فهذا النوع من العنف يعتبر هجوما كاسحا على النمو العاطفي والاجتماعي للطفل كانت أولى الدراسات حول موضوع الإساءة اللفظية دراسة ني (Ney) عام 1988 و الدراسات حول هذا الموضوع قليلة بشكل عام ، كما أن العنف اللفظي ضد الطفل يتبعه إهمال عاطفي كما أنه يزداد أو ينقص ضد الطفل باختلاف متغيرات معينة تتعلق بالأسرة و البيئة الاجتماعية ، فالأسرة تبقى الوحدة الأساسية في البناء الاجتماعي ، فهي المسؤولة عن نقل المعايير و القيم ومن واجباتها أن توفر للطفل بيئة مريحة و سوية في عملية تنشئته ، وهذا نظرا لأن مرحلة الطفولة حساسة و مهمة فمن خلالها يبدأ الطفل ببناء شخصيته التي تؤثر على حياته و سلوكه الاجتماعي ، فالممارسة الدائمة و اليومية للعنف اللفظي من طرف الوالدين أو الإخوة بالسب و التهديد و الانتقاد و تحطيم شخصيته ينجر عليه سلوك هجومي إضافة إلى العدوانية المفرطة مع الآخرين و عدم الاندماج في نشاطات اللعب و طريقة تفاعله مع الآخرين ووصف ذاته بعبارات سلبية فالأساليب التنشيئية المتبعة من طرف الوالدين هي التي تحدد ملامح الشخصية المستقبلية للطفل فالأمر لا يقتصر فقط على الإنجاب بل التنشئة مهمة بالنسبة للطفل ، إذن يبقى العنف اللفظي سلوك موجود في كل المجتمعات و في كل الأسر و يأخذ أشكالا متعددة كما أن هذه الأفعال لا تعتبر أفعالا غريبة و لا مستهجنة في بعض المجتمعات أو في بعض الأزمنة قد يعتبر شتم الأطفال و إهانتهم ضمن

برنامج التربية و التنشئة الاجتماعية [1] ، هذا وتعتمد الكثير من الأسر أساليب خاطئة و غير سوية في التنشئة العائلية فهذا يؤدي إلى علاقة ملئها التوتر بين الطفل ووالديه ، و من خلال هذا المقال سنتطرق لمختلف مظاهر العنف اللفظي المتبعة من قبل الوالدين تجاه طفلهما ، ونركز كيف أصبح المحيط العائلي مكان خطير على الطفل في عوض أن يكون المكان الأكثر أمنا عليه .

حيث سنتبع في عرض المقال الخطة التالية وهي :

- تحديد المفاهيم الأساسية في هذا الموضوع
- عرض الدراسات العلمية ذات الصلة مع هذا الموضوع
- مظاهر العنف اللفظي المرتكبة ضد الطفل داخل المحيط العائلي
- آثار العنف اللفظي على الطفل

1/ تحديد المفاهيم الأساسية :

سنقوم بعرض أهم المفاهيم الأساسية المعتمد عليها في عرض المقال وهي كالآتي :

العنف اللفظي :

كل ما هو سب و شتم و استخدام عبارات التهديد و الإهانة ، و هذا العنف لا يعاقب عليه القانون لأنه من الصعب قياسه و تحديده أو إثباته [2] .وهو أيضا المضايقة اللفظية المستمرة و المعتادة من قبل والدي الطفل أو المحيطين به و ذلك عن طريق التقليل من قدره أو نقده أو تهديده أو السخرية منه و كذلك التقلب في مشاعر الحب تجاهه [3] .

و يعتبر إيذاء الطفل سلوك متعمد و متكرر يصدر من طرف الوالدين أو المحيطين به و يتسبب هذا في إحداث أي نوع من أنواع الضرر و الأذى النفسي للطفل و ذلك بالسخرية منه و تهديده و تخويفه [4] . و أشارت إليه الباحثة (سوسن شاكر مجيد) بأنه يتجاوز التطاول اللفظي أي هو النمط السلوكي الذي يهاجم النمو العاطفي للطفل و صحته النفسية و إحساسه بقيمته الذاتية و هو يشمل الشتم و التحبيط و الترهيب و العزل و الإذلال و الرفض والتدليل المفرط و السخرية [5] .

من خلال هذه التعاريف المقدمة حول العنف اللفظي نستنتج بأن العنف اللفظي هو نشاط لغوي الهدف منه إيذاء الآخر

وتحطيمه نفسيا عن طريق استخدام ألفاظ سيئة و قاسية بالشتم و الإهانات و التهديد و الانتقاد تجاه الطفل بهدف تخويفه وتطويعه .

التنشئة اللفظية العائلية الغير السوية :

نقصد بهذا المفهوم أسلوب التنشئة اللفظية الغير السوية المتبعة من طرف الوالدين تجاه طفلهما وهي :

الأسرة أولى المؤسسات التنشيئية المسؤولة على تنشئة الطفل ولها دور حاسم في صقل السلوكات العنيفة في الطفل من خلال الأساليب التشيئية الخاطئة التي يعتمدها الوالدان في تنشئتهما ويتجسد ذلك من خلال اللجوء إلى العقاب البدني واللفظي في كل موقف [6] .

التنشئة الأسرية الخاطئة هي التي تفتقد إلى تعلم المعايير والأدوار الاجتماعية السليمة والمسؤولية الاجتماعية كالإهمال والتسلط والنبذ والتمييز والتفريق بين الأبناء في المعاملة [7] .

هي تلك المظاهر السيئة والخاطئة في عملية التنشئة وتتمثل في عدم تقدير سن الطفل وعدم احترامه منذ الصغر فيسمى بالجاهل كنوع من الاحتقار له وأنه صغير و لا يستطيع التمييز بين ما هو سيء و ما هو جيد [8] .

و تعرف كذلك على أنها المضايقة اللفظية المعتادة والمستمرة من قبل الوالدين أو المحيطين به من خلال استخدام أساليب لفظية وغير لفظية كالنبذ والتخويف والإزعاج والإفراط في استخدام التهديد كمحاولة للتحكم بالأبناء [9] .

و نستنتج من خلال التعاريف المقدمة حول هذا الأسلوب التنشيئي الغير السوي أن اعتماد الوالدين على هذه التنشئة اللفظية العنيفة و الخاطئة تماما كالانتقاد المتكرر ومقارنتهم بآخرين والتهديد بمعاقبتهم جسديا أو بحرمانهم من شيء يحبونه ومناداتهم بأسماء وصفات بغيضة ودنيئة من شأنها أن تحسسهم بالنقص وسبهم و اهانتهم بواسطة ألفاظ قاسية في اعتقادهم أحسن من العنف الجسدي وأن العنف اللفظي لا يؤثر عليهم مادام ليست هناك آثار جسدية .

العائلة : هي تلك المجموعة المنزلية التي يطلق عليها"عايله" تتكون من أفراد تربطهم صلة قرابة يكونون كيانا اجتماعيا قائم على علاقات الالتزام المتبادلة أي التعاون والخضوع [10] .كذلك هي المصدر الأول والأساسي في إعداد الطفل إعدادا مباشرا ومستمرا من النواحي الجسمية والعقلية واللغوية والانفعالية والنفسية حيث يتحول من مجرد كائن بيولوجي بشري إلى فرد سوي داخل المجتمع [11] .

الطفل : هو كائن حي يتميز في هذه المرحلة بصغره في السن ، و يكون في مرحلة تطوره الجسدي و النفسي و الاجتماعي و تطلق هذه التسمية على كلا الجنسين الذكر و الأنثى .

2/ عرض الدراسات العلمية ذات الصلة بموضوع البحث :

نتطرق في هذه الفقرة للدراسات العلمية التي تناولت موضوع الإساءة ضد الطفل ومنها اللفظية ، هذا لأن الدراسات حول موضوع العنف اللفظي بشكل محدد لم تكن محل للدراسة العلمية ، لذلك سنحاول إمداد القارئ لهذا البحث نظرة أكاديمية حول أهم ما عُرض حول التنشئة الغير السوية ضد الطفل ، و نذكرها كالآتي :

دراسة حسان عربادي حول العنف ضد الأطفال في الوسط الأسري (دراسة ميدانية لعينة أفراد من أسر مقيمة ببلدية براقي) .

حيث جاء السؤال العام للإشكالية كالتالي : ما هي الأسباب التي تؤدي إلى العنف الممارس على الأطفال في وسطهم الأسري ؟.
و جاءت فرضيات البحث كالتالي :

– إن الإحباط الذي يعانيه الآباء نتيجة للحرمان الممارس عليهم في حياتهم اليومية يزيد من احتمال ممارستهم للعنف على أطفالهم .

– إن العنف الممارس على الأطفال من طرف آبائهم هو نتيجة للتنشئة الاجتماعية التي تلقاها هؤلاء الآباء و التي تجيز استعمال العنف في التعامل مع الأطفال .

– إن عدم معرفة الآباء بالأساليب التربوية الصحيحة للتعامل مع الطفل يجعلهم أكثر قبولا لتبني نماذج السلوك العنيفة في تعاملهم مع أطفالهم .

منهجية البحث : اعتمد الباحث منهج الوصفي التحليلي الذي يعتمد على الإحصاء الوصفي .

عينة البحث : تم اختيار عينة البحث عن طريق المعاينة اللاحتمالية ، حيث شملت هذه العينة الأشخاص البالغين 20 عاما فأكثر من الذكور و الإناث القاطنين مع أسرهم ، والذين تضم أسرهم على الأقل طفلا واحدا .

تقنيات البحث : اعتمد الباحث على تقنية الاستمارة و التي ضمت 45 سؤال مقسم على خمسة محاور [12].

نتائج البحث : خلص الباحث من خلال بحثه لهذه النتائج نذكر منها كالآتي :

– تزيد ممارسة العنف المترلي لدى كل من الذكور و الإناث مع انخفاض مستوى رضاهم بالوضعية المهنية ، فالأفراد الغير الراضين بالوضعية المهنية أكثر ممارسة للعنف المنزلي من الأفراد الراضين بالوضعية المهنية . و يكون ارتباط مستوى الرضا بالوضعية المهنية بممارسة الإناث للعنف المنزلي أكبر من ارتباطه بممارسة الذكور للعنف المنزلي .
– تزيد ممارسة الذكور للعنف المترلي مع انخفاض مستوى تقييمهم للوضعية السكنية للأسرة، فالذكور ذوي التقييم السيئ للوضعية السكنية للأسرة أكثر ممارسة للعنف المنزلي من الذكور ذوي التقييم الحسن للوضعية السكنية للأسرة .في حين لا يوجد ارتباط بين ممارسة الإناث للعنف المترلي و مستوى تقييمهن للوضعية السكنية للأسرة.
– ترتبط ممارسة الذكور للعنف بمؤشر الشعور بالراحة في المترل، فالذكور الأقل شعورا بالراحة في المنزل هم أكثر ممارسة للعنف المترلي من الذكور الذين يشعرون بالراحة في المترل .بينما لا ترتبط ممارسة الإناث للعنف المنزلي بمؤشر شعورهن بالراحة في المنزل .
– يرتبط تصور الأفراد لاستعمال الضرب في التعامل مع الأطفال بتصورهم لاستعمال العنف في التعامل مع الآخر .
– ترتبط ممارسة الأفراد للعنف المترلي بتصورهم للضرب كأسلوب للتعامل مع الأطفال، فالأفراد الذين يتصورون الضرب أسلوبا ناجحا للتعامل مع الأطفال أكثر ممارسة للعنف المنزلي من الأفراد الذين يتصورون الضرب أسلوبا غير ناجح للتعامل مع الأطفال .
– يرتبط استخدام الأفراد للضرب في تعاملهم مع الأطفال باستخدام الأب و الأم للضرب، فالأفراد الذين يستخدم آباؤهم الضرب أكثر استخداما للضرب في تعاملهم مع الأطفال من الأفراد الذين لا يستخدم آباؤهم الضرب و يرتبط مؤشر استخدام الأب للضرب باستخدام الذكور للضرب أكثر من ارتباطه باستخدام الإناث للضرب أكثر من ارتباطه باستخدام الذكور للضرب في تعاملهم مع الأطفال.

- ترتبط ممارسة الأفراد للعنف المترلي بمستوى معرفتهم بالأساليب التربوية للتعامل مع الطفل، فالأفراد الذين لا يعرفون الأساليب التربوية الصحيحة للتعامل مع أطفالهم) الأقل استخداما للتعزيز الإيجابي، و الأكثر تصورا للتوبيخ ، والتهديد، و الضرب، والعقاب و الإكراه كأساليب تربوية للتعامل مع أطفالهم (أكثر ممارسة للعنف المترلي من الأفراد الذين يعرفون الأساليب التربوية الصحيحة للتعامل مع أطفالهم، و يظهر ارتباط مؤشر مستوى المعرفة بالأساليب التربوية بممارسة الإناث للعنف المترلي أكثر من ارتباطه بممارسة الذكور للعنف المترلي [13].

هذه النتائج تعتبر أهم ما توصل إليه الباحث من خلال دراسته حول العنف الممارس ضد الطفل في الوسط الأسري ، تعتبر هذه الدراسة واحدة من الدراسات الجزائرية الأكاديمية التي برهنت أن الطفل داخل المجتمع الجزائري يقع ضحية للعنف داخل عائلته ويتأذى من أقرب الناس إليه .

و من الدراسات العربية التي تناولت هذا الموضوع نذكر كالآتي :

دراسة هند خلقي (الأردن) عام 1990 : هدفت هذه الدراسة إلى معرفة العلاقة بين الإساءة للطفل و بين المتغيرات الديموغرافية للأسرة ، و قد دلت النتائج على أن الأطفال تقع عيهم الإساءة بغض النظر عن جنسهم .

دراسة محمد عبد الرحمن الشقيري (الأردن) عام 2001 : هدف الباحث إلى حصر الألفاظ الشائعة التي يستخدمها الوالدان في الإساءة اللفظية ، و ما هي الفروق بين الطلاب الذكور في التأثر العام و المفصل على الإساءة اللفظية و تكرارها و علاقة استعمال الإساءة اللفظية بمتغيرات أسرية معينة و قد دلت النتائج إلى أن الأطفال الإناث أكثر تأثرا بالإساءة اللفظية من الذكور و أن الأطفال الذكور أكثر تعرضا لتكرار الإساءة اللفظية من الإناث [14] .

دراسة مها العلي (الرياض) عام 1999 : أجريت الدراسة على 1000 طالب و طالبة في الفئة العمرية من 10 إلى 12 عام عن أساليب العقاب المتبعة من قبل أمهاتهم و كان العقاب البدني يشتمل على الضرب بالعصا أو استخدام آلة حادة و الصفع و الحرق أما عن العقاب النفسي فكان يشتمل على التوبيخ و الاستهزاء بالطفل أمام الآخرين و السب و الصراخ في وجهه وتخويفه و كانت هذه الأساليب أكثر انتشارا بين الأمهات اللاتي لا يجدن القراءة و الكتابة و صغيرات السن و ذوات المستوى الاجتماعي و الاقتصادي المنخفض كما وجدت الدراسة أن الذكور أكثر تعرضا للعقاب من الإناث وأنه لا فرق بين الأمهات العاملات و الغير العاملات في طرق استخدام الأساليب العقابية [15].

ومن الدراسات العالمية التي تناولت هذا الموضوع نذكر كالآتي :

دراسة ني (Ney) عام 1988 : هدفت هذه الدراسة إلى فهم الأسباب التي تجعل الوالدين يسيئون لأطفالهم بنفس الطريقة التي تمت بها الإساءة إليهم ، لقد شملت هذه الدراسة أنه نظرا لاتساع جوانب العنف و أسبابه المتعددة و أبعاده ، أخذ علماء الاجتماع في تقسيمه و تصنيفه بأساليب متعددة فقد صنفت على أساس العنف المدرسي و الأسري و الإعلامي و الحكومي ، تعتبر دراسة ني (Ney) من أوائل الدراسات التي تتحدث عن آثار الإساءة اللفظية على نفسية الطفل .

دراسة كارلين (Karlen) عام 1996 : كانت هذه الدراسة استطلاعية و هدفها التعرف على العوامل التي تكمن وراء السلوك العدواني لدى الطفل ، و قد بينت نتائج هذه الدراسة أن أساليب المعاملة الوالدية الخاطئة التي تُشعر الطفل بأنه مرفوض من والديه كانت من أهم العوامل التي تؤدي إلى ظهور و استثارة السلوك العدواني لدى الأطفال .

دراسة ونتزل و أشير (Wintzel & Asher) عام 1995 : تهدف هذه الدراسة إلى فحص العلاقة الاجتماعية بين الطفل ووالديه للتعرف على طبيعة علاقتها بكل من سلوكه العدواني وتحصيله الدراسي ، و تشمل عينة الدراسة 423 طفلا ممن يدرسون بالصفين السادس و السابع ابتدائي و لقد توصلت الدراسة إلى نتائج أهمها : أن شعور الأبناء بالرفض الوالدي يرتبط بالسلوك العدواني لدى الأطفال بعلاقة موجبة ، كما أوضحت النتائج أيضا أن الرفض الوالدي و سلوك الطفل العدواني يرتبط

بانخفاض التحصيل الدراسي لدى الطفل [16] .من خلال هذه الدراسات المقدمة يتبين لنا أن ظاهرة العنف اللفظي ضد الطفل و الممارسة داخل محيطه العائلي ليست محصورة في مجتمع معين بل أخذت أبعاد عالمية ، حيث تنوعت و تعددت أشكال ممارسته على الطفل داخل محيطه العائلي .

3/ مظاهر العنف اللفظي المرتكبة ضد الطفل داخل المحيط العائلي :

نهدف من خلال هذه الفقرة إلى إبراز مختلف مظاهر العنف اللفظي الممارسة ضد الطفل من قِبل عائلته و نذكرها كالآتي :

– **تحقير الطفل و الحط من شأنه** : يضع الطفل عن نفسه صورة منحطة بسبب ما ترسمه ألفاظ والديه على شخصيته ، مما يحد من طاقته و يعطل إحساسه الذاتي كإطلاق أسماء على الطفل مثل حمار أو أي إسم يؤثر على إحساسه بقيمته و ثقته بنفسه خاصة إذا كانت تطلق عليه بصفة مكررة ، وخصوصا عندما يُنتقد الطفل من طرف والديه انتقادا هداما كإنتقاد شخصيته [17] .

– **البرود** : يتعلم الطفل كيف يتفاعل مع الآخر من خلال تفاعلاته المبكرة مع والديه فإذا كان سلوك الوالدين مع الطفل مفعما بالدفئ والمحبة فإن هؤلاء الأطفال يكبرون وهم يرون العالم مكانا آمنا ، أما إذا كان سلوك الوالدين يتسم بالبرود فإن الأطفال في المستقبل سيرون العالم مكانا باردا مثيرا للسأم كما أنهم لن يشعروا أبدا بالثقة المحفزة للاستكشاف و التعلم ، فعندما لا يحضر الوالدان لمدرسة الطفل خاصة عندما تكون هناك فعاليات يشارك فيها طفلهما و يتغيب والداه لسبب لا يراه مقنعا و لا سيما إذا تكرر فيرسخ في عقله أن والداه لا يهتمان له و يقابلانه ببرود عاطفي [18] .

– **القسوة** : الطفل بحاجة كبيرة للشعور بالأمان حتى ينطلق في اكتشاف العالم و لكن حين يتعرض لمعاملة قاسية من طرف والديه ستتأثر مجالات التعلم لديه وعندها سيتعطل نموه الاجتماعي و النفسي كالقسوة التي تتخطى الحدود على أخطاء لا تستحق هذه الدرجة من القسوة ، مثلا من القسوة اللفظية الممارسة على الطفل حرمانه من حقه في التعبير مثلا يقال له (اسكت ، بلع فمك ماتهدرش ، ماتعرف والو) ، طبعا هناك أمور لا يسمح له سنه بالتدخل فيها لكن على الوالدين منعه من التحدث في أمور لا تعنيه بأسلوب سوي و ليس بصوت عالي و مخيف يفقد الطفل معه إحساسه بالأمان النفسي ، كأن يقال له مثلا (انت ما زالك صغير ، روح تلعب ، روح تقرى) ، هنا الوالدين يحسسان الطفل بأنه لديه أمور أهم يهتم بها كالدراسة ومن هنا يمكن حتى أن يتعلم الطفل تحمل المسؤولية تجاه ما يقوم به .

– **المضايقة و التهديد** : يشتمل على تهديد الطفل بعقوبات قاسية أو غير مفهومة تثير الفزع في نفس الطفل مما يؤدي إلى تشويه نفسيته وخاصة إذا ما بقى ينتظر متى سيعاقب و كيف و قد تصل المضايقة إلى التهديد أي بتحقير الطفل أمام الآخرين وذلك نتيجة للضغط و الخوف الذي يعيشه حيث أن التهديد يعطل قدرة الطفل على التعامل مع المواقف العصيبة أو الضغوط [19] ، و الخوف المستمر وانتظار معاقبته يفقده إحساسه بالأمان و يصبح دائم التوتر و قليل التركيز و لكن الأمر لا يقتصر فقط على الجانب النفسي بل تظهر عليه أعراض جسدية كالضعف المستمر و عدم القدرة على مقاومة الأمراض فالطفل الذي يعيش تحت طائلة التهديد و المضايقة لديه فرصة ضئيلة في النمو النفسي السليم و القدرة على إيجاد علاقات سليمة [20] .

– **الرفض** : عندما يرفض أحد الوالدين الطفل فإنه يشوه صورته الذاتية و يشعر بعدم قيمته و الطفل الذي يتعرض للرفض منذ صغره فإنه يمتلك فرصة ضئيلة بأن يصبح طبيعيا عندما يكبر [21] .

يضيف بازارد (Bassared) ستة أشكال أخرى و هي :

– **الإزدراء** : و هو يجمع بين الرفض والذل أي رفض الوالدين مساعدة الطفل و قد يتحول الأمر إلى مناداته بأسماء تحط من قدره

– **الترهيب** : و يتمثل بالتهديد أي تعرض الطفل للتهديد من طرف أشخاص يحبهم .

– **العزلة** : و هي عزل الطفل أو يترك بمفرده لفترات طويلة و يمنع من التفاعلات مع الكبار أو الزملاء داخل و خارج العائلة .

– **الاستغلال و الفساد** : و يتضمن تشجيع الطفل على الانحراف مثل تشجيعه عل الهروب من المدرسة و تعليمه سلوكا إجراميا

– **إهمال لردود الأفعال العاطفية** : تتمثل في إهمال الطفل عند محاولته التفاعل مع الآخرين أو مع والديه كالعناق و الكلام حيث يُشعران الطفل بأنه غير مرغوب فيه.

– **السخرية** : تتضمن التحقير والاستهزاء من كل شيء والمساهمين في هذه العملية يشاركون في ديمومتها كإلصاق الألقاب المضحكة المستندة على تشوه أو صفة شاذة فهي بمثابة اعتداءات لفظية متكررة تمنع الضحية من التعبير عن نفسه والقصد من ذلك التحكم من نقاط ضعفه والسخرية منه أمام الناس [22] .

نستنتج من خلال هذه الفقرة أن العنف اللفظي الممارس ضد الطفل يتخذ عدة أشكال حيث نجد أن بعض العائلات في المجتمع الجزائري تمارس أحد هذه الأنواع أو كلها في آن واحد ، فالوالدين حسبهم قد يمارسون العنف اللفظي ضد أطفالهم ليس بسبب كرههم لهم ، و إنما لفرض السيطرة عليهم و لتشجيعهم على الدراسة ولكن أسلوب التحفيز يكون غير صائب لأن الطفل يحتاج لأن يحس بالثقة و الأمان من والديه ليتطور نموه الاجتماعي و النفسي دون الإحساس بالخوف و الظلم من والديه ، أيضا مشكل مناداة الأطفال بأسماء نسبة لحيوانات أو لأشخاص لديهم عاهات ، مثلا نجد في مجتمعنا كثيرا من ينادون طفلهم أو إخوتهم نسبة للحيوانات مثلا (يالحمار) ، و فئة من الأطفال من لا يكون تحصيلهم الدراسي جيد فيوصفون بصفات سيئة أو يهددون بالعقاب الجسدي و حرمانهم من اللعب أو القيام بنشاطات تفاعلية و الأسوء من ذلك مقارنتهم بأقرانهم من المجتهدين بصفة سيئة و سلبية خصوصا إذا ما كانت هذه المقارنة تتم أمام الأشخاص المقارن بهم ، هذه المقارنة الهدامة تطور لدى الطفل أحاسيس سلبية كالحقد و الكره وحتى الانتقام من الشخص المقارن به ، فهم بذلك يدفعون بهم للانحراف ما قد يجعلهم يتخذون العنف مستقبلا كوسيلة لاسترجاع مكانتهم ، فمثلا يقولون له (يالحمار شوف صاحبك يقرى خير منك وانت والو) ، أيضا انتقادهم بصفة متكررة و مستمرة لهم مثلا (علاش درت هكدا ، نتا ما تعرف والو) هذه الكلمات تجرح الطفل في العمق وتجعله يحس بأنه دون قيمة بالنسبة لوالديه فالوالدين يُحملون أطفالهم ما فوق طاقتهم ، و يطالبونهم بأن يكونوا مثاليين وفق مخططاتهم حيث تجد الطفل يحاول بكل طاقته و جهده أن يكون مصدر فخر لوالديه ، وقد نربط هذا بعملية الغش في الامتحانات فالطفل التلميذ يطالبه والديه بأن يكون المتفوق و المجتهد قد لا يكون هذا التحفيز هدفه التفكير بمستقبل طفلهما بل فقط للمباهاة به أمام العائلة الكبيرة و الجيران والمعارف ، وعندما تخيب توقعاتهما ينهالا عليه بوابل من الألفاظ و الصفات المسيئة ما يؤدي بالطفل لأن يعيش معاناة مزدوجة تحصيله الدراسي السيئ و معاملة والديه اللفظية العنيفة ، ما قد يفسر أيضا ظاهرة هروب الأطفال من المنزل بعد حصولهم على نتائجهم الدراسية المتدنية ، ففي الفقرة التالية من هذا البحث سنتطرق عن آثار العنف اللفظي على الطفل .

4/ آثار العنف اللفظي على الطفل :

أي سلوك عنيف يترك آثار على ضحيته سواء كانت مرئية أو غير مرئية ، و ممارسة العنف اللفظي على الطفل تترك آثار ملاحظة وهذا راجع لأن شخصية الطفل في مرحلة الطفولة تكون هشة ، حيث لا يملك القدرة البيولوجية أو النفسية لمقاومة

السلوكات العنيفة و منها اللفظية فتترك آثر يطبع سلوكاته لذلك يجب معالجته و مساعدته للتخلص منها و إلا تتطور مع تطور مراحل حياته ما قد يسبب مشاكل له في حياته من مختلف المستويات ومن هذه الآثار كالتالي .

حيث هناك ما يسمى اضطراب ما بعد الصدمة عند الأطفال وهو يظهر في شكل أعراض كالهلع ، الخوف الشديد و السلوك المضطرب و غير المستقر ووجود صور ذهنية أو أفكار و ذكريات متكررة عن الصدمة و صعوبة التركيز و تبقى هذه الصدمة نشطة التأثير على الطفل لأنها تبقى كخبرة تعيش مع الطفل و لا تقتصر فقط على هذه الآثار بل أيضا العجز عن الاستجابة ، لوم الذات و عدم تقديره لذاته و شعوره بالذنب و هناك أيضا الانتقاد اللاذع و المتكرر و الشتم و الإهانة و السخرية [23] هذه الآثار قد تجعل من ذلك الطفل البريء ، طفل جانح و لقد بينت دراسات كثيرة أن الأحداث المنحرفين يعانون من قصور عاطفي نتيجة لعدم اكتراثهما به و برودتهما و أنانيتهما و عجزهما أن يحباه و في حالات أخرى يعيش الطفل في مناخ من العطف الفوضوي حيث يشاهد العنف و الضجيج و الصخب في تعبير الأم عن حبها لطفلها و لا يكون هناك أبدا تناغم في التعبير عن حبها للطفل و تارة أخرى يشكو الطفل بعجزه عن التمثل بوالديه الذين من المفروض أن يكونا قدوة له [24] .

العنف اللفظي لا يترك أثر مرئي لكنه يضرب بقوة الطفل في نفسيته و هويته و في تقديره لذاته و في كرامته و يشعر بأنه غير نافع و ليس لديه أية قيمة و كأنه مذنب ، الطفل يستقبل هذه الرسائل اللفظية و يؤمن بها ، هذا ما يؤدي به إلى معركة و يشعر بالغضب و مشاعر اللاعدالة . ومن المؤشرات السلوكية لدى الطفل هي :

- السلوكيات الطفولية كالهز و العض .
- العدوانية المفرطة .
- السلوك المخرب و الهجومي مع الآخرين .
- مشاكل النوم و الكلام .
- عدم الاندماج في نشاطات اللعب و صعوبة تفاعله مع الأطفال .
- الانحرافات النفسية كالانفعالات و الوساوس و المخاوف و الهيستيريا .
- وصف الطفل لذاته بعبارات سلبية .
- الخجل .
- سلس البول .
- التأتأة .
- قضم الأضافر [25] .

من خلال هذه الآثار ، نلاحظ أنه هناك آثار تطال الطفل على المستوى الاجتماعي و النفسي ولعل أهم ما أثار انتباهي هو وصف الطفل لذاته بعبارات سلبية ، هذا يدل على الأثر القوي الذي أحدثه العنف اللفظي على نفسية الطفل حتى أصبح يؤمن

بما يقال له ، فإذا تعود على سمع كلمة (حمار) يوميا يتبنى هذه الصفة و قد يصبح يتصرف على أساسها كأن يكرر بنفسه (أنا حمار ، أنا بهلول .... إلخ) و غيرها من الصفات .

و آثار العنف اللفظي قد لا تظهر بصورة مباشرة بل قد يظهر تأثيرها في سنوات لاحقة من عمر الإنسان ، حيث يعاني الأطفال المتعرضون لمختلف أشكال العنف اللفظي من تناقص مستمر في الوظائف العقلية كما أنهم يعانون من زيادة في إصابتهم بالإعاقات أو الاكتئاب أو تعاطي المخدرات حيث يعوق النمو العقلي و البدني و الاجتماعي و النفسي للطفل و قد يؤدي به مستقبلا إلى الانتحار و العنف و الجنوح [26] ، كل هذه المؤشرات تساعد في تكوين حدث جانح فهي تكون مصحوبة بشعور عميق بالظلم عما يلاحظه بين حالته و حالة الأطفال الآخرين ثم يتهم المجتمع بأكمله بالظلم الذي يقاسيه و هذا يجعلهم يرتكبون السرقات ويندفعون إلى الوشاية و سرد قصص خرافية همهم الوحيد إثارة الانتباه حيث يصبحون شديدي الأنانية و هم في حاجة لإثبات ذواتهم [27] .

من خلال ما عرضناه حول ممارسة العنف اللفظي على الطفل ، لا حظنا أنه من الممكن أن تكبر آثاره معه و تعيش معه و تُسير حياته فيصبح يريد إثارة الانتباه ، لأن العائلة من خلال ممارستها لهذا النوع من العنف تقوم بإلغاء هوية الطفل الشخصية حيث يصبح يصارع ليثبت و جوده و مكانته بين عائلته مثلا يحاول بجهد النجاح في دراسته ليفتخرا به و يشجعانه ، فالطفل يحتاج لدفئ وأمان عائلي حتى كما ذكرنا سابقا ينمو بأمان اجتماعيا و نفسيا .

خاتمة :

يعد العنف اللفظي ظاهرة سلبية يؤدي وقوعها على الطفل إلى إحداث ضرر و إلى أثر نفسي و اجتماعي مما يحدث تعوقا لنموه النفسي و الاجتماعي و عدم الاعتماد عليه كطاقة منتجة في المستقبل ، لأن بناء و تنشئة الطفل تنشئة سليمة يساهم في مجتمع أفضل ، فممارسة العنف اللفظي على الطفل من قِبل والديه يدل على وجود خلل داخل العائلة و أي خلل في العائلة سيحدث خللا في المجتمع كله فتنشئة الطفل ليست تنشئة فجائية بقدر ما هي تتابعية تبدأ منذ الولادة و تتدرج لبلوغ مراحل أخرى ، و في ظل غياب المعلومات الدقيقة و الإحصاءات الرسمية و قلة الدراسات المرتبطة بالعنف اللفظي على الطفل لا يمكن تحديد حجم الظاهرة و أنواعها و تصنيفاتها و أسباب وجودها و لمواجهة هذه الظاهرة يجب أن تكون دراسات معمقة في مختلف التخصصات في علم الاجتماع ، علم النفس ، القانون تنتج عنها سن تشريعات للتصدي لها فبحماية الطفل نحمي المجتمع .

هوامش البحث :

(1)- مصطفى عمر التير ، العنف العائلي ، مركز الدراسات و البحوث ، الرياض ، ط1 ، 1997 ، ص 15 .
(2)- عاطف علي العبد عبيد ، مدخل إلى الإتصال و الرأي العام الأسس النظرية و الإسهامات العربية ، بيروت ، ص 263 .
(3)- منيرة بنت عبد الرحمن آل سعود ، إيذاء الأطفال أنواعه أسبابه خصائص المتعرضين له ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، الرياض ، ط1 ، 2005 ، ص 66 .
(4)- نفس المرجع ، ص 63 .
(5)- سوسن شاكر مجيد ، العنف و الطفولة : دراسات نفسية ، دار صفاء ، الأردن ، ط1 ، 2008 ، ص 130 .
(6)- زين العابدين درويش، علم النفس الاجتماعي ، مطابع زمزم، بدون بلد، ط1 ،1983، ص34.
(7)- عبد الله ناصر السدحان ، قضاء وقت الفراغ ، دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية و التدريب ، الرياض ، 1994 ، ص 78 .
(8)- أحمد محمد مبارك الكندري ، علم النفس الأسري ، مكتبة الفلاح للنشر و التوزيع ، الكويت ، ط2 ، 1992 ، ص 162 .

(9)- منيرة بنت عبد الرحمن آل سعود ، نفس المرجع ، ص 66 .

(10)- Rebzani Mohamed ; La vie familiale des femmes algériennes ; édition l'harmattan ; paris ; 1997 ; p.13.

(11)- رابح أشرف رضا ونية، علاقة الأسرة بانحراف الأحداث.(رسالة ماجيستر تخصص علم اجتماع الجريمة والانحراف)، جامعة الجزائر ، 2001/2000 ، غير منشورة ، ص 26 .

(12)- حسان عربادي ، العنف ضد الأطفال في الوسط الأسري .(رسالة ماجيستر تخصص علم الاجتماع الثقافي) ، جامعة الجزائر ، 2005/2004 ، غير منشورة ، ص ص ، 17-25 .

(13)- نفس المرجع ، ص ص ، 261-262 .

(14)- سوسن شاكر المجيد ، نفس المرجع ، ص 70 .

(15)- علي إسماعيل عبد الرحمن ، العنف الأسري الأسباب و العلاج ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط1 ، 2006 ، ص 21 .

(16)- نفس المرجع ، ص ص ، 132- 134 .

(17)- سوسن شاكر مجيد ، نفس المرجع ، ص 94 .

(18)- عباس محمود عوض ، علم النفس الاجتماعي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1994 ، ص 82 .

(19)- نفس المرجع ، ص 97 .

(20)- طه عبد العظيم حسن ، سيكولوجية العنف العائلي و المدرسي ، دار الجامعة الجديدة ، المغرب ، 2006 ، ص 26 .

(21)- نفس المرجع ، ص 99 .

(22)- ماري فرانس هيرغوين ، تنكيد المعنويات(عنف الإنحراف في الحياة اليومية). (تر: فاديا لاذقاني)،بدون دار نشر، بدون بلد، بدون تاريخ ، ص 231 .

(23)- نفس المرجع ، ص 75 .

(24)- جان شازال ، الطفولة الجانحة . (تر : أنطوان عبده) ، منشورات عويدات ، بيروت ، 1980 ، ص 34 .

(25)- نفس المرجع ، ص 39 .

(26)- منيرة بنت عبد الرحمن آل سعود ، نفس المرجع ، ص 63 .

(27)- علي إسماعيل عبد الرحمن ، نفس المرجع ، ص 46 .

تاريخ الاستلام: 2016/11/13- تاريخ التحكيم: 2017/04/25 -تاريخ النشر 2017/06/02

العلاقات الاجتماعية التقليدية داخل الأسرة في المجتمع السوفي.

د. عريق لطيفة (جامعة الوادي)

د. ادريس سفيان (جامعة الجزائر2)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص

تهدف هذه الدراسة لمحاولة التعرف على طبيعة العلاقات الاجتماعية التقليدية داخل الأسرة في المجتمع السوفي، فتم التطرق إلى كل من مفهوم القيم، المعايير، المعتقدات، العلاقات الاجتماعية، التماسك والتواصل الأسري، ثم أشكال العلاقات الاجتماعية، فدور الأسرة وأهم خصائصها، وأخيرا طبيعة وأشكال العلاقات الاجتماعية في المجتمع السوفي.

وتوصلت الدراسة إلى أن سيطرة كبير العائلة ما زالت ليومنا هذا رغم التقدم الحاصل في المنطقة الذي مس أغلب جوانب الحياة خاصة الاجتماعية والثقافية، وقد ساعدت هذه السيطرة على تماسك أفراد الأسرة السوفية رغم تحرر الأفراد من العيش مع الأسرة الكبيرة، الأمر الذي رجع إيجابا على جودة العلاقات والحياة الأسرية داخلها.

Résumé:

Cette étude visé à essayer d'identifier la nature des relations sociales traditionnelles au sein de la famille dans la société de oued souf on a prie comme notion les valeurs, les normes, les croyances, les relations sociales, le rôle de la famille et de la communication, et les formes de relations sociales, le rôle de la

famille et les caractéristiques les plus importantes, et enfin, la nature et les formes des relations sociales a oued souf .

L'étude a révélé que le contrôle du grand de la famille est encore à ce jour, malgré les progrès réalisés dans la région, qui a touché particulièrement la plupart des aspects de la vie social et culturel, cet contrôle aider a la cohésion des membres de la famille dans la société de oued souf malgré la libération des individus de vivre avec une grande famille, qui a rendu un impact positif sur la qualité des relations et la vie familiale .

مقدمة:

تعرف العلاقات الاجتماعية بأنها العلاقات التي تربط بين أفراد المجتمع سواء كانت بين أفراد الأسرة الواحدة أو الأقارب أو الجيران أو الأصدقاء أو زملاء العمل....، إلا أن هذه العلاقات الاجتماعية تختلف من فرد إلى آخر ومن أسرة لأخرى ومن مجتمع لآخر من حيث مدى قوة ارتباط الأفراد فيما بينهم، وهذا راجع لعدة عوامل منها العامل الزمني فطبيعة وشكل العلاقات الاجتماعية قديما ليست مثل العلاقات الاجتماعية حديثا، وكذا العامل البيئي فالذين يعيشون في مناطق حضرية روابطهم الاجتماعية تختلف عن الأفراد الذين يعيشون في مناطق نائية أو ريفية.

ويعد المجتمع السوفي من المجتمعات المحلية التي تتميز فيها الروابط الأسرية بقوتها فهي أساس العلاقات الاجتماعية داخله، والذي يحاول أن يكسر هذه العلاقة أو يثور ضدها كأنما ثار على العرف والعادات والتقاليد المتوارثة في المجتمع، فكبير العائلة هو الشخص المسيطر والمتحكم في الشؤون الأسرية والمسير داخلها وعلى غالبية الأفراد سواء نساء أو رجال الانصياع لقراراته وأوامره وبالرغم من تقدم الزمن بقيت هذه الميزة مسيطرة ليومنا هذا.**فما هي أشكال العلاقات الاجتماعية التقليدية التي تربط بين أفراد المجتمع السوفي؟**

ويندرج تحت السؤال الرئيسي تساؤلات فرعية وهي:

1-هل سيطرة الشخص الأكبر سنا داخل الأسرة السوفية يعتبر من أهم العوامل التي ساعدت على الحفاظ على قوة العلاقات الاجتماعية داخله؟

2-هل هذه السيطرة تجسد مظاهر جودة العلاقات الأسرية داخل المجتمع السوفي؟

3-هل يعد الخوف من العقاب سواء من طرف الأفراد أو المجتمع عند رفض هذه السيطرة هو الذي يجسد مظاهر الجودة في العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع السوفي؟

أولا: تحديد المفاهيم:

1-مفهوم القيم: هي عبارة عن الأفكار المجردة التي تحدد ما يعتبر مهما ومحبذا ومرغوبا في ثقافة ما (جدنز، أ. 2005: 111)، وهي انعكاس للأسلوب الذي يفكر الأشخاص به في ثقافة معينة، وفي فترة زمنية محددة (خليفة، ع. 1992: 15).

2-مفهوم المعايير: تمثل القواعد والمقاييس الثقافية التي يجب على الإنسان أن يأخذها بعين الاعتبار عندما يسلك أو يفكر أو يعبر عن شعور في موقف معين، بهذا تعتبر المعايير منظمة للسلوك الاجتماعي، مما يجعلنا قادرين على اختيار السلوك المقبول اجتماعيا، وتوقع سلوك الآخرين (عثمان، إ. 1999: 169)، كما تعني الاتجاهات والعادات والقيم المشتركة، تلك التي توجه استجابات أعضاء الجماعة وتحقق التطابق في التصرفات البسيطة أو في الأحكام الخلقية المعقدة مما يزيد من وحدة الجماعة فهي تعتبر بمثابة إطار يرجع إليها الفرد كي تكون مرشدا له لما ينبغي أن يكون عليه سلوكه (حجازي، أ. 94-95).

3-مفهوم العرف: العرف عبارة عن طائفة من الأفكار والآراء والمعتقدات التي تنشأ في جو الجماعة، ويمثل العرف مقدسات الجماعة ومحرماتها، وينعكس فيما يزاوله الأفراد من أعمال وما يلجئون إليه في كثير من مظاهر سلوكهم الجمعي، ويضطر الأفراد إلى الخضوع لهذه المعتقدات لأنها تستمد قوتها من فكر الجماعة وعقائدها (رشوان، ح. 2006: 157-158).

4-مفهوم المعتقدات: هي عادات العقل الفكرية، التي تدلّ على الصواب والخطأ. وهي حاكمة على القيم المولّدة لسلوك الإنسان. وبالتالي فإن المعتقدات تؤثر بشكل مباشر ليس فقط على فكر الإنسان، وإنما على مشاعره وسلوكه أيضاً ((_____)، مفهوم المعتقدات وطرق اكتشافها).

5-مفهوم العادات والتقاليد: العادات ليست إلا أنماط السلوك الجمعي التي تنتقل من جيل إلى جيل، وتستمر فترة طويلة حتى تثبت وتستقر وتصل إلى درجة اعتراف الأجيال المتعاقبة بها، وفي بعض الأحيان نجد أن العادة تقوم مقام القانون في المجتمع.

ويفرق بعض العلماء بين العادة والتقاليد بأن العادة تتعلق بالسلوك الخاص بينما التقليد يتعلق بسلوك المجتمع كلية، فحيث يشترك المجتمع أو الدولة نجد تقاليد، وحيث لا يشترك نجد عادات، فالاحتفال بأعياد الزواج أو الميلاد الخاصة يعتبر عادة أما الاحتفال بميلاد نبي أو زعيم فيعتبر تقليدا (حجازي. أ. 96-97).

6-مفهوم العلاقة الاجتماعية:

توجد العلاقات الاجتماعية بوجود المجتمع بمختلف بنياته (جمع بنية) ومؤسساته، ويمكن أن نعرفها، بشكل مبسط بالقول أنها: "طريقة في أن نكون معا، وبالتالي تتجسد حسب ما أبرزها البحث العلمي في لحمة العلاقات القائمة بين البشر وعبر الأشكال التالية: علاقات صداقة (بين مختلف الأعمار، وبين الجنسيات المختلفة، والفئات الاجتماعية)، وعلاقات الارتباط من خلال الخطوبة، والزواج والمصاهرة....."((_____) . الشباب في دولة الإمارات والانترنت – مقاربة للتمثلات والاستخدامات. ص 2).

وتعرف بأنها: الروابط والآثار المتبادلة بين الأفراد والمجتمع وهي تنشأ من طبيعة اجتماعهم وتبادل مشاعرهم واحتكاكهم ببعضهم البعض ومن تفاعلهم في بوتقة المجتمع ((_____)، **العلاقات الاجتماعية).**

كما تعريف بأنها: السلوك الذي يصدر عن مجموعة من الناس إلى المدى الذي يكون كل فعل من الأفعال أخذاً في اعتباره المعاني الذي تنطوي عليها أفعال الآخرين (https://www.facebook.com/permalink.php?id=45).

7-مفهوم الأسرة: هي مؤسسة اجتماعية تتشكل من منظومة بيولوجية اجتماعية، وتقوم على دعامتين: الأولى بيولوجية، وتتمثل في علاقات الزواج وعلاقات الدم بين الوالدين والأبناء وسلالة الأجيال، أما الثانية: فهي اجتماعية ثقافية، حيث تنشأ علاقات المصاهرة من خلال الزواج، ويقوم الرباط الزوجي تبعا لقوانين الأحوال الشخصية حيث يتم الاعتراف بها (حجازي، م. 2015: 15).

8-مفهوم التماسك الأسري: بأنه عملية نفسية-اجتماعية تؤدي إلى تدعيم بنيان الأسرة النفسي-الاجتماعي وترابط أعضائها من خلال روابط الدم والمصاهرة والتآلف والتآزر وتكامل الأدوار، ويقوم ذلك كله الالتزام وحسن المسؤولية المشتركة والتضحية حفاظا على الرباط الزوجي وروابط الوالدية والبنوة، بما يوفر متانة البنية الأسرية واستقرارها ونماءها (نفس المرجع: 42-43).

9-مفهوم التواصل الأسري بكونه الاتصال الذي يكون بين طرفين (الزوجين) أو عدة أطراف (الوالدين والأبناء، الأبناء والأبناء)، والذي يتخذ عدة أشكال تواصلية، كالحوار والتشاور والتفاهم والإقناع والتوافق والاتفاق والتعاون والتوجيه والمساعدة (سليمان، س. 2014: 122).

ثانيا: أشكال العلاقات الاجتماعية:

بحسب "تونيز" فإن جميع العلاقات الاجتماعية تنبع من الإرادة الإنسانية، غير أن هذه العلاقات يمكن تقسيمها إلى نوعين مختلفين، ففي المجتمع المحلي نجد أن العلاقات الاجتماعية تسودها (الإرادة الفطرية) فالفلاحون والقرويون يعيشون في ظل علاقات بسيطة تميز الجميع كعلاقات الآباء بالأبناء، والعلاقات داخل الأسرة وعلاقات القرابة والجوار، فهؤلاء يعيشون ويعملون معا في اتصال وثيق قائم على الانسجام (خريف، ح. 47)، وتتجسد العلاقات الأسرية فيما يلي:

1-علاقة الزوج بالزوجة: (الاتصال بين الأزواج): إن نوع الزواج والأسرة ومدى ما نتوقعه من تماسك في الأسرة وسعادة زوجية يتوقف إلى حد كبير على مدى إشباع الحاجات الشخصية لكل من الزوجين، فإذا وجدت الزوجة أن حياتها الزوجية مشبعة، وأنها تحقق ما تطلعت إليه من أهداف، وما تشعر به من حاجات، فإن ذلك بلا شك يؤدي إلى حرصها على تماسك الأسرة وإلى حرصها على مصدر إشباع حاجاته وهي الأسرة، وكذلك الزوج الذي يجد في زوجته ما كان يأمل فيه عندما تزوج، وإذا وجد في حياته الزوجية مصدرا لإشباع حاجاته، فإنه بدوره يعمل على تماسك الأسرة وإسعاد زوجته. وقد وجد -**ليفين مونرو**- أن هناك نمطين للحاجات النفسية يشبع وجودهما في الأسرة، فالأول هو الحاجة إلى الحب والإعجاب والحماية، أما الثاني فهو الحاجة إلى الاستقلال والحاجة إلى المركز وإشباع الذات (علي، أ. 2012: 206-207)، فيمكن القول أن العلاقة بين الأزواج تمثل صورة للتواصل الجسمي واللفظي والقلبي والفكري (سليمان، س. 2014: 123).

2-علاقة الوالدين بالأبناء: يؤكد العلماء أن الأسرة كوسيط اجتماعي يتفاعل فيه ما هو نفسي عاطفي وما هو معرفي تربوي، فهي التي تؤمن للطفل توافقه الشخصي والنفسي وتكيفه الاجتماعي من خلال إشباع رغباته البيولوجية والعاطفية والاجتماعية والثقافية، وفي كنفها يتعلم الطفل قواعد الحوار وآداب التواصل، وفي ظلها يدرك حريته ويميز بين حقوقه وواجباته (نفس المرجع: 126).

3-علاقة الأبناء فيما بينهم: ترى -**سعدية بهادر**- أن التفاعل المتبادل بين الأخوة له دور لا يذكر في عملية النضج الاجتماعي للطفل واكتساب العناصر المكونة للشخصية، ويعتبر الأخوة مساعدين في عملية النضج، فمنهم من يتعلم النظر في سلوكه وتصرفاته، فيدرك الممنوع والمرغوب والمسموح به والصواب والخطأ، ويبدأ في التفكير في نفسه، من خلال تصرفاته ونظرتهم إليه ورأيهم فيه، كما يعتبر الطفل إخوته الكبار نموذجا له يحتذى بهم ويتعلم منهم أساليب السلوك الاجتماعي المقبول، وعن طريقهم يشعر بالحب والعطف والحنان، ويتمكن من تبادل نفس المشاعر معهم فيشعر بالطمأنينة والسعادة وراحة البال (علي، أ. 2012: 209).

ثالثا: دور الأسرة وأهم أنماطها: تتمثل في ما يلي:

1-دور الأسرة: تعتبر الأسرة مؤسسة اجتماعية لها وجود في كل المجتمعات البشرية، وهي كذلك الوحدة الاجتماعية الأساسية التي يقوم عليها بناء المجتمع، مما جعل من دراسة الأسرة إحدى الضرورات التي تحتمها ظروف المجتمعات الحالية باعتبار أن الوظائف التي تؤديها ضرورية المجتمع لكي يحافظ على توازنه واستمراره، ويأتي هذا الاهتمام في زمن كثر الحديث عن الفردانية وتصاعدها، ومنها خطر اندثار وانتهاء –زمن الأسرة- (حمدوش، ر. 2009: 237).

ويتمحور دور الأسرة التقليدية حول ثلاثة أهداف: التجدد البيولوجي الديموغرافي، تنشئة الأطفال على الانتماء والالتزام، ونقل الموروث القيمي والثقافي والحفاظ على استمراريته، وذلك في سلسلة متماسكة من دوائر الانتماء والالتزام من الأسرة المصغرة إلى الممتدة، إلى العشيرة إلى القبيلة والوطن، قد يكون هناك أوجه ظلم أو غبن أو تدني عدالة في الأدوار والحقوق، إلا أن الالتزام بالأسرة وتماسكها هو مسألة كيانية حيوية وليست مسألة خيار فردي قابل للتعديل والتغيير.

ولكن مع شيوع الأسرة النواتية لم يعد الالتزام مسألة حتمية، حيث تراخت القوى الضاغطة وأفسحت المجال لبروز العوامل الفردية وتزايد وزنها، ذلك أن الأسرة النواتية المعاصرة فقدت الدور الحيوي الضامن لتلاحم الأسرة الممتدة والعشيرة ومنعتها، كما أن إنجاب الأطفال وتنشئتهم ونقل الموروث الثقافي إليهم لم يعد وظيفة حتمية للأسرة النواتية، بل هو أصبح خيارا ذا قيمة نفسية أساسا، ولم يعد الابن ضامنا لاستمرار الذرية بالضرورة، ولا حامل للتراث، بل أصبح الأطفال مسألة رضى نفسي اجتماعي، وبالتالي لم يعد الطفل هو إسمنت تماسك الأسرة، بل أصبح خيار نتاج عاطفي- عقلاني عند الأهل (نفس المرجع: 45-46).

فالأسرة لم تعد تلك الوحدة الإنتاجية التي توفر اليد العاملة وتضمن إعادة إنتاجها، كما أنها لم تعد تحتكر عملية التنشئة الاجتماعية، بحيث أصبحت الأسرة تتقاسم هذه العملية مع مؤسسات أخرى، وهي بالتالي لم تعد لها تلك المكانة والمركز الأساسي فيما يخص العلاقات الاجتماعية (نفس المرجع: 239).

2-أنماط الأسرة: الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى والأساسية التي يتجسد فيها التقاطع بين خصوصيات الجماعة، خصوصيات الفرد لا تهوى التقنين، وخصوصيات الجماعة تفترض التعميم، وعلى ذلك تقوم دينامية الحياة الأسرية: على قاعدة المكان الذي يجمع ذوي القربى برابط القرابة مهما كبر عددهم أو صغر، وعلى قاعدة النظم التي ترعى هذه العلاقات وتراقبها لتعين منها المسوح والممنوع، وإذا كانت الجماعات الأخرى غير جماعة الأسرة تقوم على مبدأ نسبية عمر هذه الجماعات، فإن الجماعات الأسرية تعيش الزمن كله وهي القدر الذي لا مفر منه، سواء أنتج التعامل بين أفرادها إحباطا أو انفتاحا.

والمنطق الذي يحكم العلاقات الأسرية هو منطق كل التبادلات بيم البشر، فهو إما أن يكون منطق التبعية لجهة الارتهان المطلق أو النسبي بإرادة وسلطة رب الأسرة في المجالات اليومية، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعاطفية، وإما أن يكون منطق الاستقلالية لجهة التحرر المطلق أو النسبي في المجالات اليومية المذكورة.

وإن حركة الأسرة في أجواء هذين المنطقين، منفصلين، يؤدي إلى صياغة البنية الأسرية الواسعة والممتدة في إطار منطق التبعية، أو إلى صياغة البنية الأسرية النواتية في إطار منطق الاستقلالية، كما أن حركة الأسرة في أجواء هذين المنطقين، متداخلين، يؤدي إلى صياغة البنية الأسرية المتحولة (مكي، ع. 2007: 191)، فالبنية الأسرية لا تعني فقط عددا محددا من العناصر التي تعيش معا في مكان واحد، واتي إن توزعت نهارا فهي تعود لتلتقي ليلا، وإنما هي تعني بشكل أساسي مجموعة من النظم التي تربط عناصر الأسرة، ومجموعة من الانطباعات التي توجه مسار هذه العلاقات بالمواقف الايجابية والسلبية المتداخلة والمعقدة (نفس المرجع: 192).

كما ينشأ الضغط بسبب الاختلاف في المواقف الحياتية، المتنوعة، فكل عضو يشكل رأيا شخصيا في قضية معينة، إلا أنه عندما يكون مع الجماعة يحاول أن يقرب رأيه مع أراء أعضاء الجماعة حتى يصبح رأى الجماعة متوحدا.... وتمارس الجماعات الصغيرة نوعين من الضغط الاجتماعي، ضغط داخلي يهدف إلى جعل الأفراد يمتثلون للثقافة، ومعايير وقيم الجماعة عن طريق الجزاءات، والنبذ والسخرية، وقد يصل الأمر إلى حد العقاب البدني، وضغط خارجي يتمثل فيما تمارسه الجماعة من ضغوط على التنظيم، والأبنية الرسمية للعمل، والإدارة، والنقابة، حيث يكون تدخل أعضاء الجماعات في القرارات التي تتخذها الإدارة، ولا تناسب جماعات العمل، فترفضها، كما أنها ترفض

المشاركة في اجتماعات النقابة، وتحاول إحباط قراراتها إن كانت لا تحقق أغراض الجماعات (الجيلاني، ح. 2014: 167-168).

ومع ذلك يعد المجتمع الجزائري المعاصر على غرار المجتمعات العربية الأخرى عمد إلى التخلي وإهمال النموذج التقليدي للأسرة الكبيرة الممتدة، واتخذ من الأسرة النووية أو الزواجية نموذجا، بحيث إذا ما جئنا إلى إحصائيات الديوان الوطني للإحصائيات التي قام بها سنة 1998، نجد بأنه من مجموع 5.1 مليون أسرة أحصيت سنة 1998، 3.1 نجدها مستقرة في الوسط الحضري، وأن الأسر النووية أو الزواجية –الزوجين + الأطفال- تشكل 78.2% من هذا المجموع، وإذا أضفنا تلك الأسر التي تفتقد إلى أحد الزوجين التي تشكل 12.1% سيصبح المجموع 90.3% من الأسر هو من صنف الأسر النووية أو الزواجية، ويعتبر هذا مؤشرا هاما للتغيير الاجتماعي، والملاحظ هو أن هذا التغير تم بسرعة فائقة، بحيث لم يتجاوز مدة وزمن وجيل واحد، فالتغير بهذا الشكل يفترض تحولا جذري للشروط المادية للحياة، وكذا التغيير في الذهنيات (حمدوش، ر. 2009: 239)..... فعندما تحصل هناك تغيرات من هذا الحجم وفي فترة زمنية قصيرة مثلما هو الشأن في المجتمع الجزائري، نجد أن ممثلي الجيل السابق –جيل الآباء- الممثلين للنظام –القديم- أو –التقليدي-، لم يرحلوا بعد حتى يدركهم الجيل الموالي، جيل التجديد أو –الجيل المتطلع- (نفس المرجع: 239).

إن التعقيدات والتحولات العديدة التي عرفها المجتمع أدت بدورها وأثرت هي الأخرى على أنماط وأساليب وطرق تبليغ الوظائف والأدوار الأسرية (نفس المرجع: 244).

فنمط العلاقات وكل ما هو إنتاج علائقي داخل الأسرة الجزائرية المعاصرة –ممتدة كانت أو نووية، نجده يأخذ شكل رباط وعلاقات أين يتعايش في انسجام عناصر –ثقافية- تنتمي إلى الماضي، مع عناصر أخرى تم استدخالها حديثا، أي عناصر ذات خصوصيات المجتمعات الموصوفة بالحديث والمعاصرة، نجد بأن الأفراد إذا داخل الأسرة مهما كان نوعها، يعملون على تسطير استراتيجيات عند بناء علاقاتهم مع الغير على أساس معادلة ثنائية تتمثل في الاحتفاظ بتلك الطرق –التقليدية- و-الماضية- في السلوك، مع تبني واستبطان لطرق أخرى –حديثة- في التصور والسلوك (نفس المرجع: 281).

وفيما يخص الأنماط الثلاثة للأسرة الجزائرية المعاصرة التي تم استلهامها حسب –**حمدوش رشيد**- من الأنماط والنماذج الفكرية والتفكيرية للدراسات التي قام بها، هي:

النمط الأول: النمط المفتوح أو النمط المجتمعي/ التعاقدي (الحديث) (نفس المرجع: 288): ومن خصائص هذا النمط كونه أكثر تقبلا للأفكار والتكنولوجيا الحديثة ومنه أكثر مثلا وامتثالا للتجديد..... أما بخصوص اتخاذ القرارات في مثل هذا النمط، فهي تتم على أساس من العقل والمنطق بما يحقق الأهداف المسطرة، كما يشجع على رؤية الذات في الآخرين (نفس المرجع: 289).

كما يجب أن يتم الزواج خارج الأسرة القريبة والشكل الأحادي هو المحبذ أما بخصوص التقاليد فالأغلبية منهم ترى بأن الحفاظ عليها غير ضروري ولا تفيد في شئ،.....، وفيما يخص اتخاذ القرارات داخل الأسرة يرى هؤلاء بأن القرارات يجب أن تتخذ بكل ديمقراطية، وتشاور بين الزوجين مع إشراك الأولاد في بعض المسائل، فالانفصال عن الأسرة

والمجموعة الأسرية المحلية بالنسبة لهم، هو ضروري ووسيلة للحفاظ على العلاقات الأسرية الجيدة، ففي الانفصال طريق لتقوية الروابط الاجتماعية (نفس المرجع: 290).

و**مصطفى حجازي** يمثل هذا النمط بالدار تصدعت جدرانها وانهار سقفها ولم يعد فيها نواة سلطة وقواعد وحدود مرجعية مفروضة فوقيا أو متوافق عليها، قد نكون بصدد نوع من التماسك الشكلي الظاهري كما هو الحال في أسر التصدع الأفقي، تتحول الحياة الاجتماعية إلى مجرد تواجد يحافظ على الظواهر، فيما يسمى البيت الفندق، كل عضو في الأسرة يعيش حياته الخاصة في حالة من سيادة الفردية ومصالحها وأهوائها وتوجهاتها، ولكل عضو حياته المرتبطة بالخارج أساسا مع الحد الأدنى من التفاعل مع الداخل، هناك غياب شبه كامل تجاه الأسرة وحياتها، وتجاه أعضائها لبعضهم البعض، وهناك بالتالي غزو للعالم الخارجي لحياة الأسرة حيث تصبح منظومتها شكلية محضة، هنا لا يتهدد التماسك الأسري وحده وإنما منظومة الأسرة ذاتها هي التي تتهدد بالتصدع والتفكك ، وبالتالي فإن هذه المنظومة الأسرية هي الأكثر تعرضا للمخاطر الاجتماعية بعد أن فقدت تماسكها الذاتي (حجازي، م. 2015: 44-45).

النمط الثاني: النمط المغلق أو النمط المحلي/الجماعي (التقليدي): فهي أسرة ترمي أولا وقبل كل شئ للحفاظ على نظام داخلي محدد بشكل صارم، تكون فيه نوع السلطة عمودية، والتركيز فيها يكون حول احترام التقاليد، وحدة المجموعة، والاندماج الستاتيكي مع الخارج والتعامل معه يكون بحذر وتحفظ الشباب في هذا النمط يتلقى تنشئة اجتماعية يشجع الاتصال الدائم، المكثف والقوي للفرد بمجموعته المرجعية القريبة (الأسرة)، وعدم الانفصال عنها، فمثلا فيما يخص الزواج، لا يبالي الشاب المصنف ضمن هذا النموذج –المغلق/التقليدي، في أن يكون الوالدين هما المشرفان على اختيار زوجة أو زوج له، ..... كما أن الزواج من داخل الأسرة شئ مرغوب فيه ولا يدعو إلى القلق، أي أن الشاب هنا يسجل حضوره على امتداد مع الجيل السابق (جيل الآباء) (حمدوش، ر. 2009: 290)، فالأسرة في النمط المغلق/المحلي يشجع على الامتدادية والاتصال بالجماعة المرجعية الضيقة، بحيث يرى في هذه الامتدادية ضمانا للتواصل الجيلي وتخليدا للعادات والتقاليد وترسيخها في المجتمع (نفس المرجع: 291).

ويضيف كذلك **مصطفى حجازي** بوصف هذا النمط بالدار المغلقة الأبواب والشبابيك على العالم الخارجي ، لا يقوم بين الأسرة ومحيطها الاجتماعي إلا الحد الأدنى من علاقات التفاعل والتبادل ، يقتصر أحيانا على رب الأسرة باعتباره السلطة المركزية.... يذوب أعضاء الأسرة في عالمها الداخلي المغلق ويفتقدون التواصل مع المحيط إلا بالحدود الدنيا، وبإشراف متشدد من رب الأسرة الذي يشكل المرجعية ويضع القواعد في علاقة تسلطية ذات اتجاه واحد من أعلى إلى أسفل ، تفرض أحادية القرار والتوجه، يؤدي هذا التماسك المتصلب والمغلق إلى تراكم مشاعر الاختناق والتوتر الذي يولد بذور التمرد والثورة حين تتراخى السلطة المركزية لأي سبب كان، وهنا قد تنفجر المنظومة الأسرية ذاتها (حجازي، م. 2015: 43-44)، وكان يشيع هذا التماسك المغلق في بعض الشرائح الأسرية فيما مضى، ولكنه الآن يتراجع باضطراد مع انفجار الانفتاح وتحولات التحضر السريع (نفس المرجع: 44).

النمط الثالث: النمط البيني أو الوسيط: وهناك من الباحثين أمثال –**كنطور ولهر**– من يطلق اسم النمط العشوائي أو للتعبير على ذلك النمط من الأسر الذي يعتمد الوسطية والتنوع في العلاقات والتفاعلات ضمن الأعضاء المصنفين والمنتمين لهذا النموذج..... فالنمط البيني هذا هو ذلك النمط الذي يمتاز بطابعية أو عادة مكتسبة متشضية أو

مشتتة كما يعبر عنه **بيار بورديو** أو طباعية ممزقة مبعثرة ما يعبر عنه عبد الحفيظ حموش (حمدوش، ر. 2009: 293).

فالأسر المصنفة ضمن هذا النمط تقوم على أساس تنوع كبير فيما يخص تنظيمها وعلاقاتها الداخلية، أي ما يميزها هي المرونة والليونة، فالقيمة والميزة الأساسية لهذا النموذج من الأسر هو الإبداع الذي يختص فيه أفراده، إبداع عن طريق اعتماد استراتيجيات المفاوضة، وكل أنواع المراوغة والمناورة للوصول إلى تحقيق الهدف المسطر وإلى نسج شبكة علاقاتها الاجتماعية والرباط الاجتماعي ككل (نفس المرجع: 294) ، ومنه فإن الانفصال ما هو إلا انفصال ظرفي ومؤقت من كل تلك الانتماءات والمرجعية الأسرية أو العشائرية، فالحديث إذا في مثل هذا النمط البيني يكون عن ذلك التغير الذي يأخذ مجراه من النمط المحلي/التقليدي نحو النمط التعاقدي/الحديث (نفس المرجع: 295).

ومن جهته كذلك يصف **مصطفى حجازي** هذا النمط بالدار المفتوحة الأبواب والنوافذ على العالم الخارجي، والتي تنشط فيها وسائل الاتصال والتفاعل مع المحيط الاجتماعي المحلي والمجتمعي والدولي، للدار حدودها المعروفة التي توفر لها الاستقلالية الكيانية والحياة الداخلية الخاصة، إلا أن لها حدودا ومنافذ واضحة على العالم الخارجي الذي تتفاعل معه، هناك سقف يمثل المرجعية والسلطة ويتمثل في قواعد وأدوار ومكانات بين أعضاء الأسرة تتكامل فيما بينها، وهناك علاقة شبكية أفقية تفاعلية تبادلية بين كل من الزوجين وبينهما وبين الأبناء، القواعد والنظم والتوجهات والحدود متوافق عليها عادة وتتصف بالمرونة بما يجعلها تتكيف مع المتطلبات التي تفرضها مراحل نمو الأسرة من ناحية، ومن المستجدات التي يفرضها التكيف مع متغيرات البيئة المحيطة، منظومة الأسرة بحدودها المرنة تشكل كيانا ناميا يتبادل التأثير والتأثير مع المحيط، وبالتالي فهي منظومة متطورة توفر قطاعا ذاتيا لكل من أعضائها، وقابلية استقلال الأبناء من ضمن أطر التماسك الداخلي وقواعد يلتزم بها الجميع ويستفيد منها الجميع (حجازي، م. 2015: 44).

خامسا: العلاقات الاجتماعية التقليدية والحديثة في المجتمع السوفي:

شهدت روما القديمة بدايات مجتمع سيطرة الأب، وما زالت سيطرة الأب قائمة في معظم المجتمعات في والوقت الحاضر، كانت قوى الأب مطلقة في أسر روما حيث كان يقوم بفحص طفله عند ميلاده، ويقرر ما إذا كان سوف يسمح له بالحياة أم لا، وتستمر قوة الأب المطلقة خلال حياته كلها حتى بعد أن يكبر أطفاله ويتزوجون طالما أنهم يعيشون في منزله، وكان القانون يعطي الأب الحق في جلد أطفاله بالسوط أو بيعهم كعبيد أو نفيهم أو حتى قتلهم (موسى، ف. 2004: 20-21).

وهذا النظام الاجتماعي لا يختلف كثيرا عن النظام الاجتماعي في المجتمع السوفي من حيث سيطرة الأب على باقي أفراد أسرته، إذ يندرج النظام الاجتماعي في وادي سوف من الأسرة إلى العائلة فالعرش ثم القبيلة ثم الحي، وهكذا، والأسرة هي النواة الأولى للمجتمع وقائدها الأعلى هو الأب وقد تصل القيادة إلى الجد، لأن العادة قضت بتجمع الأسرة في أحيان كبيرة حتى تصل الأحفاد وليس من السهل الانفصال إلا للضرورة قصوى، وتتحول القيادة للابن الأكبر في حالة وفاة الأب، أما المرأة فهي نواة هذه الأسرة ومنسقة شؤون البيت والقائمة على تربية الأولاد (منصوري، أ. 2015: 21)، قبل التطرق لأشكال العلاقات الاجتماعية التي تجمع بين أفراد الأسرة في المجتمع المحلي السوفي

نتطرق إلى مكانة كل من كبير الأسرة، ومكانة كل من الرجل والمرأة والفتاة حتى نستطيع تحديد شكل العلاقة من خلال الصورة والقيمة التي يعطيها أفراد المجتمع السوفي لكل فرد داخله حسب مكانته الاجتماعية وحسب جنسه (ذكر/أنثى).

أ-قيمة كبير الأسرة: لكبير الأسرة في المجتمع السوفي قيمة كبرى، فهو الأب والقائد والقائم على شؤون الأسرة، وهو المستشار والمدير لأمورها، ولا يتم شئ فيها إلا بإذنه ووفق إرادته (نفس المرجع:21).

ب-قيمة الرجل عند المرأة السوفية: مستمدة من الشريعة الإسلامية السمحاء، فهي مطيعة لزوجها أمينة على ماله حافظة لعرضه، وهي المثل للمرأة الصالحة..... فالمرأة السوفية لا تعصي لزوجها أمرا وتمتثل لأوامره في جميع الأحوال، فلا تخرج من المنزل إلا بإذنه ولا تعطي شيئا إلا بإذنه ولا تتصرف في شئ إلا بأمره فهو المسؤول عن إطعام وكسي العائلة، وهو الآمر الناهي، حتى أنها تستشيره في نوع الطبخ الذي يناسبه في الفطور أو العشاء (نفس المرجع:10).

هذا وإن المرأة السوفية لا تأكل أمام الرجل وبحضوره، وقد بلغ بها الأمر حتى أنها لا تذهب إلى المحاض للاستراحة وهو يشاهدها، ولا تظهر أمامه إلا بالمظهر الحسن والريح الطيب، أما إذا خرج من البيت إلى السمر مع رفاقه ليلا فإنها لا تنام حتى يعود، وإن طالت مدة سمره.... إلا إذا أذن لها بالنوم لأن سهره سيطول، هذا إن كان حاضر ومقيم في البلد، أما إن غاب عنها إلى الشمال أو إلى بلد مجاور –تونس أو ليبيا- لطلب الرزق أو من أجل الدراسة وطلب العلم، فإنها تبتذل ولا تتزين، ولا تلبس الثياب الفاخرة ولا تمس الطيب إلا للضرورة، ولا تخرج عند غيابه أبدا.... إلا إذا أذن لها بذلك قبل غيابه، وقد تطول مدة غيابه سنوات عدة، وإن سئل عن وضعها أو عن غيابها لزيارة الأهل أو الأقارب في بعض المناسبات فيقولون: إن زوجها غائب أو امرأة غائب (نفس المرجع:10-11).

ج-قيمة المرأة عند الرجل السوفي: إذا ما أصبحت الفتاة زوجة لأحد الرجال فإنها تلتزم بيت زوجها وتقر فيه ولا تخرج منه إلا بإذنه، أو عند الضرورة القصوى، كموت أب أو أم أو أخ أو أخت.... وإذا ما غابت عن المآتم أو العرس فيقولون: إنها زوجة غائب ولم يأذن لها بذلك، هذا ولا ننسى أن من عادات وتقاليد أهل سوف، المحافظة الشديدة على الحريم.

ويظهر ذلك في تصرفاتهم فإن أرادت المرأة المرأة الخروج لزيارة أهلها أو تهنئة قريب أو تعزيته فإنها تخرج لذلك في أوقات محددة وعند فراغ الطرقات من المارة، وخلو السوق من الرجال، وغالبا ما يكون عند صلاة المغرب أو العشاء، بعد دخول الرجال إلى المساجد لأداء الصلاة، ولا تخرج نهارا إلا عند الضرورة القصوى، وإن أرادت الخروج فإنها تتحجب بغطاء ساتر لكامل جسدها وغالبا ما يكون برنس الزوج، كما أنها تربط خلخالها حتى لا يسمع رنينه عند المشي ويكون الزوج أو المحرم خلفها حارسا لها، ولا تخرج وحدها منفردة أبدا (نفس المرجع: 9-10)، بالإضافة إلى ذلك فإن المرأة عند الرجل السوفي هي الشرف وهي الحاضنة للأسرة، وهي المربية للأطفال (نفس المرجع: 10).

د- قيمة الفتاة في المجتمع السوفي: منذ أن تبلغ الصبية سن المراهقة أو الرشد تصبح مراقبة من طرف الأم والأب والأخ والعم والخال.... وجميع أفراد الأسرة والأقارب.... ثم تحجب عن أنظار الأجانب تماما، ولا يراها أحد خارج المنزل أبدا... ويطلق عليها اسم فلانة المحجوبة، والويل لها أحد من الأسرة خارج المنزل. هذا ولا تخرج من المنزل إلا عند الضرورى القصوى، وإن خرجت فلا تكون إلا برفقة أحد أفراد الأسرة أو الأقارب ولا يكون خروجها إلا عند الأفراح أو الأتراح، وإن هي غابت عن مناسبة ما وسئل عنها فيقولون: إنها محجوبة (نفس المرجع: 9)، أما إذا خطبت الفتاة

فتتوسع مراقبتها من الأسرة إلى الخاطب ويطلق عنها اسم فلانة المخطوبة إلى أن يتم الزواج فتصبح حرم فلان، وهذا غالبا ما يكون الخاطب ابن عم أو ابن خال أو قريبا من الأسرة أو جارا (نفس المرجع: 9).

ومنه يمكن تحديد أشكال العلاقات الاجتماعية التقليدية داخل المجتمع السوفي أن أساس أو عماد الأسرة السوفية كان ولا زال عند بعض الأسر يقوم على كبير العائلة، فيكون فيها الشيخ (الشايب) المتحكم، المتصرف والآمر الناهي في كل شئ داخل المنزل، كما لا يستطيع أحد من أفراد العائلة التكلم أو الاعتراض لما يقوله أو يفعله أو يأمر به، كما لا يمكن أن يخلفه أحد إلا إذا غاب أو مات، فتتولى زوجته (العزوز) أو ابنه الأكبر بعده القيام بمهامه، أو يتولى ذلك أخيه (عم الأبناء) إذا كانوا يعيشون في منزل واحد.

كذلك تجد أن الشيخ هو الذي يتحكم في زواج أبنائه وبناته، وهو المسؤول على الإنفاق عن المنزل وتلبية حاجاته، والمتحكم في دخل أبنائه والمسؤول عن الصرف عليهم وعلى زوجاتهم وأحفاده، حيث يقوم بكسوة الجميع مرة في السنة وبالعدل، ودون أن يكون للأبناء رأى أو موقف في ما يفعله الشيخ حتى عند تطليق زوجته التي يرغب العيش معها، فكان الاتصال النازل هو نمط الاتصال السائد داخل الأسرة السوفية.

إلا أنه خلال السنوات الأخيرة شهد المجتمع السوفي تغيرات مست البناء الاجتماعي داخله ومنها طبيعة العلاقات التي تربط بين أفراد، فأصبحت أكثر مرونة عن قبل بالسماح لجميع أفراد الأسرة بإبداء رأيهم وعدم التدخل المباشر في شؤون الآخر وخصوصياته خاصة علاقة الزوج مع زوجته، واتجهت الأسر إلى الأسر النووية أكثر مع بقاء ارتباطها بالأسرة الممتدة في كثير من الأمور والقرارات، وهنا نلاحظ أن الأسر السوفية في الوقت الحالي يمكن تصنيفها ضمن نمط الأسر التي تصنف على **النمط البيني أو الوسيط** بعدما كانت تعيش سابقا تحت **النمط المغلق أو النمط المحلي/الجماعي (التقليدي)**، مع أن هذا لا يمنع أنه توجد أسر لحد الآن تعيش تحت وطئة النمط المحلي.

وعلى الرغم من التحولات التي طالت أشكال العلاقات داخله من مرونة واحترام رأي الآخر إلا أنها حاليا لا تختلف هذه الأشكال عن السابق من حيث التحكم والسيطرة التي ترجع لكبير العائلة فمبدأ الحوار في التشاور حول الأمور التي تخص العائلة سواء بناء المنزل أو شراء سيارة أو بيع أو خطبة أو زواج أحد الأبناء أو البنات أو السفر لقضاء العطلة لم يحدث اختلاف فيها من حيث سن القرارات وهذا راجع إلى احترام الجميع لكبير العائلة وسيطرة العرف والتقاليد على سلوكياتهم وعلى طريقة تفاعلهم مع بعضهم البعض، فبرغم من تشاورهم يبقى رأيه هو الرأي الصائب والذي سوف يتم تطبيقه، ولو كان رأي كبير الأسرة مرفوض عند بعضهم، وهذا ما نجده يندرج تحت ما تسميه –**اليزابيث نيومان**– دوامة الصمت أنه نتيجة لخوف الفرد من نبذ الجماعة يوافق رأيهم بالرغم من رفضه للمبدأ أو الفكرة في قرارة نفسه.

الأمر الذي يرجع بالإيجاب على قوة الروابط الاجتماعية بين أفراد الأسرة السوفية نتيجة لقلة المشاحنات والوقوف على رأي واحد في الكثير من القضايا والمواضيع المتعلقة بالأسرة أو غيرها، الأمر الذي يثبت أن جودة العلاقات الأسرية في المجتمع السوفي كانت ولا زالت مبنية على مبدأ الطاعة والخوف من النبذ الاجتماعي وإتباع للعرف والعادات والتقاليد المتعارف عليها في المجتمع على الرغم من التغيرات الاجتماعية والثقافية التي مست المجتمع السوفي نتيجة احتكاك أفراده بالمناطق المجاورة سواء عن طريق الدراسة أو التجارة أو لقضاء العطل، وبالرغم من خروج المرأة

للعمل والدراسة وإعطائها مجال من الحرية عما كانت تعيشه سابقا، وكذا بالرغم من غزو الوسائل التكنولوجية الحديثة إلي ساعدت على نقل قيم وثقافات دخيلة على ثقافة المجتمع المحلي السوفي إلا أن جودة العلاقات الأسرية والاجتماعية بقيت قوية بين أفراده.

قائمة المراجع:

-الكتب:

1- الجيلاني، حسان . (2014). قضايا اجتماعية معاصرة. بن عكنون: ديوان المطبوعات الجامعية.

2- بن الطاهر منصوري، أحمد . (2015). قيم وعادات وتقاليد المجتمع السوفي قديما. الوادي: مطبعة مزوار.

3- جدنز، أنتوني. (2005). علم الاجتماع (ط.4). ترجمة فايز الصباغ. بيروت: مؤسسة ترجمان.

4- حجازي، مصطفي. (2015). الأسرة وصحتها النفسية (المقومات، الديناميات، العمليات). المغرب: المركز الثقافي العربي.

5- خريف، حسين. (د.س.ن). المدخل إلى الاتصال والتكيف الاجتماعي. (د.م.ن): (د.د.ن).

6- حمدوش، رشيد. (2009). مسألة الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصر امتدادية أم قطيعة (دراسة ميدانية: مدينة الجزائر نموذجا توضيحيا). الجزائر: دار هومة.

7- عبد الحميد أحمد رشوان، حسين. (2006). الثقافة (دراسة في علم الاجتماع الثقافي). الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

8- عبد الفاتح على، أماني. (2012). مهارات الاتصال والتفاعل والعلاقات الإنسانية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

9- عبد الفتاح موسى، فاروق. (2004). النمو النفسي في الطفولة والمراهقة. (ط.2). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

10- عثمان، إبراهيم. (1999). مقدمة في علم الاجتماع. الأردن: دار الشروق.

11- مجدي حجازي، أحمد. علم الاجتماع العام (الأسس والقضايا والمشكلات). (د.م.ن): (د.د.ن).

12- محمد سليمان، سناء. (2014). سيكولوجية الاتصال الإنساني ومهاراته. القاهرة: عالم الكتب.

14- محمود مكي، عباس. (2007). دينامية الأسرة في عصر العولمة (من مجالات الكائن الحي إلى تكنولوجيا صناعة الجينات). بيروت: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

-المجلات:

محمد خليفة، عبد اللطيف. (أبريل 1992). ارتقاء القيم – دراسة نفسية -عالم المعرفة. (عدد 160). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

-المواقع الإلكترونية:

1- مقال منشور على الموقع. استرجعت في تاريخ 11/03/ 2016. على الساعة 13:54:

https://www.facebook.com/permalink.php?id=454624881310242&story_fbid=454634351309295

2- (_____). الشباب في دولة الإمارات والانترنت – مقاربة للتمثلات والاستخدامات. استرجعت في تاريخ 2014/12/12. على الساعة 23:22. حمل من الموقع:
ecat.kfnl.gov.sa:88/.../ipac.jsp ...الشباب%20-%20الامارات%20العربية%20المتحدة...?
3- (_____). العلاقات الاجتماعية. استرجعت 2016/10/15. على الساعة 14:37. حمل من الموقع:

http://www.alhadiah.com/page6.html

4- (_____). مفهوم المعتقدات وطرق اكتشافها. استرجعت 2016/10/15، على الساعة 20:29.حمل من الموقع:

https://www.facebook.com/notes

تاريخ الاستلام: 2017/01/13- تاريخ التحكيم: 2017/04/09 -تاريخ النشر 2017/06/02

كارل أوتو آبل ، قارئا لكانط" القراءة التاسعة لكانط "

دراسة تحليلية من وجهة نظر البراغماتيكا المتعالية.

أ.بن محمد توفيق

جامعة الحاج لخضر – باتنة1- (الجزائر)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص:

تأثر كارل أوتو آبل بفلسفة كانط، وجد المسألة تتعلق بإعادة قراءة مؤلفاته من جديد، وصياغة فلسفة هيدغر بمفاهيم كانط بإعادتها إلى إشكالية المعرفة، لكنه لم يجد عند هيدغر إجابات كافية عن تساؤلاته.واعتبر تأسيس كانط للقواعد الأخلاقية أرضية لتجسيد السلام، حاول استخلاص منطلقات الأخلاق الملائمة للوضعية الراهنة، والمتأمل في قراءة آبل لموروث كانط يتوسّم دعوة إلى تأسيس أخلاق كونية. استعمل آبل في تجاوز الكوني في أخلاق كانط البراغماتيكا المتعالية، قصد تخليصها من عوالق الميتافيزيقا، ثم نقلها إلى المجال الاجتماعي و المشاركة مع الغير، منح بذلك معنى جديد للأخلاق ، وتصورا مغايرا للمفاهيم في المجتمع التواصل ما بعد الحداثة.

الكلمات المفتاحية:الكوني- أخلاق - كارل أوتو آبل – البراغماتيكا المتعالية – مدرسة فرانكفورت – مجتمع التواصل – كانط – الفلسفة النقدية

Résumé:

Karl Otto Apel ,Une des figures les plus qui ont été touchés par la lecture de la philosophie de Kant, impressionné par la pensée de la crise , influencé par la philosophie de Heidegger, Aple prévoit que la problématique était, liée a relire Kant à nouveau ,car les concepts qui expose le problème de la connaissance , n'ont pas donné de réponses satisfaisantes aux questions éthiques . Apel considéré comme fondateur des règles déontologiques il a essayé de tirer les perspectives appropriées de déontologie de la situation actuelle , et celui qui observe la lecture de Kant déduira une invitation à la nécessité d'établir une éthique universelle, différente pour la societe communicationnelle postmoderne

تمهيد: تعتبر الأخلاق شكلا من أشكال الوعي الإنساني كما تمثّل مجموعة ،القيم والمبادئ التي تحرك الأشخاص والشعوب كالعدل والحرية والمساواة بحيث، ترتقي إلى درجة أن تصبح مرجعية ثقافية لتلك الشعوب وتكون سنداً قانونياً تستقي منه الدول الأنظمة والقوانين. و هي السجايا والطباع والأحوال الباطنية التي تُدرك بالبصيرة والغريزة، و عكس ذلك يمكن اعتبار الخلق الحسن من أعمال القلوب وصفاته، فأعمال القلوب تختصّ بعمل القلب بينما الخلق يكون قلبياً ويكون في الظاهر، ويعتبر الدين بشكل عام سندا للأخلاق، والأخلاق دراسة تقيم السلوك الإنساني على ضوء القواعد الأخلاقية التي تضع معايير للسلوك، يضعها الإنسان لنفسه، و يعتبرها التزاما وواجبا تتم بداخلها أعماله. هي كذلك، محاولة لإزالة البعد المعنوي لعلم الأخلاق، وجعله عنصرا مكيفا، أي أن الأخلاق تمثّل محاولة التطبيق العملي، والواقعي للمعاني التي يديرها هذا العلم، بصفة نظرية ومجردة.

جاءت الكلمة في الإنكليزية «Ethic» مستخلصة من الجذر اليوناني «ἤθεα» (إيثيه) أي "عادة"، وتكون الأخلاق طقما من المعتقدات والمثاليات الموجهة، التي تتخلل الفرد أو مجموعة من الناس في المجتمع، والديونتولوجيا من الجذر اليوناني «δέον» (ديون) أي «ما يجب فعله» و «λογία» (لوغيا) أي العلم أو علم الواجبات، و هو مفهوم يستخدم كمرادف للأخلاق المهنية، ومنه يختصّ هذا المجال بالواجبات، ويحكم على الفعل، لأنه راجع إلى القواعد والقوانين (لاند،أ.2001: 370).

تُعَدُّ قراءة آبل لفلسفة كانط احد القراءات التسع المشهورة، ميّزتها دراستُهُ النقدية لمبحث الأخلاق التي أعاد فيها تأهيل القيمة الخلقية و منَحها صورة كونية صالحة في الزمكان، حتى لا تبقى مجرد قراءة متباينة لفلاسفة ونقاد. اكتشف آبل في قراءة فلسفة كانط، عدم فهم فلاسفة الحداثة و مدرسة فرانكفورت، تصوّر كانط للأخلاق، سواء كان ذلك في مستواها العملي الذي ارتبط بأفعال الإنسان في العدالة و الحرية أو في مستواها النظري الذي تناول فيه كانط مشكلة المعرفة و العلم، في علاقات السببية و المنطق من ثمّ أصبحت مشكلة إعادة تأسيس فلسفة الأخلاق مسألة خلافية بين آبل و رواد مدرسة فرانكفورت . (الخوني،م. 200: 11).

الاشكالية: كيف كانت قراءة آبل لفلسفة كانط ؟ ماهي الأدوات المنهجية الجديدة التي استعملها آبل، و ما السبيل إلى تحقيق مبدأ كوني تكون فيه جميع قواعد الفعل خاضعة لصورة الآمر الكلي و متناسبة مع الوضع الراهن؟ و ما العبرة من الدراسة المقارنة بين آبل و كانط؟

لقد أظْهر آبل صورة الكوني في الواجب الأخلاقي كما وصفه كانط في قوله: « افعل الفعل بحيث يمكن لمسلمة سلوكك أن تصبح مبدأً تشريعيا عاما » أو في قوله: « افعل الفعل بحيث تعامل الإنسانية في شخصك و في شخص كل إنسان سواك، باعتباره دائما و في الوقت نفسه غاية في ذاته ولا تعامله أبدا كما لو كان مجرد وسيلة» (كانط،ا. 1980: 11). نفهم من القول أن الواجب الذي تكلّم عنه كانط ظهر بوضوح تام ، في مجال واسع، غايةً في ذاته دون أن يكون وسيلة، خصوصا عندما طلب منّا معاملة الناس بنفس الطريقة التي نريد أن نُعَامَلَ بها، فيما يجب معاملة كل إنسان على هذا النحو، تعتبر هذه القاعدة حسب آبل أداة اختبار لكل سلوك نابع من الذات و موجّه إلى الآخر و معيار واضح للتعرّف عن الأخلاقية.

قام آبل بعد ذلك بتوسيع مجال الواجب الأخلاقي الذي ظهر في صورة الآمر القطعي، ثمّ ذهب بالإنسان في تصوّر كانط إلى ابعد منتزه له في مملكة الغايات، فضمن له معرفة الحق وامتلاك الصواب ثم رفعه إلى مستوى إصدار الحكم. لَمّحَ آبل في هذه القاعدة إلى المبادئ الكونية التي سعى إليها، وظهر ذلك في محاولته إرساء قواعد عامّة للسلوك الإنساني قائلا: « لقد فُهِمَ مبدأ التشريع في أخلاق كانط بطريقة لم يحرز فيها معيار الأخلاقية، عن موافقة جميع الأشخاص المعنيين ومن ثم تم إقصاؤه » (Duchesneau, F. 2000: 208) نفهم من قوله أن مبدأ التشريع لا يتناسب مع كل الأشخاص، حيث اكتشف آبل في قراءته لأخلاق كانط التصوّر الكوني الذي اعتمده في

تأسيس الأخلاق، و تفطّن في ذلك إلى ضرورة الإجماع و التعاقد بين جميع الناس، في مختلف مستوياتهم وفي مختلف طبائعهم وبتغير ثقافتهم، الفكرة التي لم ينتبه لها كانط و غابت عن تصوراته.

رغم الاختلافات الموجودة بين تصوّر آبل و الصُّورة التي حقّق من خلالها كانط القانون الكلي، الا أن آبل ألح على محاكاة القانون الكلي و تأسيس الكوني، فالعقل العملي الذي اعتبره كانط مبدأ كوني، تضمّن سلطة خفية لمبدأ عدم التناقض داخل القاعدة الأخلاقية الفردية، وفي الإرادة العامة الكلية ، فأتْبع آبل ذلك رفضه لبراديغم الوعي الذاتي الذي برّر به كانط المبدأ الكوني، لأنّه لا يستجيب لشروط الكوني في مفهوم تحوّل الفلسفة المتعالية . ثم وجد آبل نفسه في وضعية لم تسمح له العثور عن طريقة يؤسّس بها الكوني في مفهومه الجديد، من ثمّ بحث عن بديل لبراديغم الوعي الذاتي الذي أسّس عليه كانط الكوني في فلسفته و عن المبدأ الذي سيعوّض مبدأ عدم التناقض ويرافق عملية تأسيس الكوني في مفهومه الجديد.(Karl Otto,A 2007 : 414-415).

1- نقد المبدأ الكوني و تحوّل الفلسفة المتعالية.

استعمل آبل وسيلة النقد التي مكّنته من شقّ الطريق إلى صرح الكونية من المنظورها النّقدي، الذي صاغه كانط، ثمّ تساءل عن إمكانية اكتسابه خاصّية التعميم و الشمول في زمننا الحاضر، ما جعله يعيد قراءة الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة خصوصا تلك التي جاءت في قالب نقدي و اجتماعي.

تبنت مدرسة فرانكفورت المنهج النقدي، و اعتبرته آداة تحصيل المعرفة، إلا أن المعرفة لا تتحقّق، إلاّ إذا سبقتها خبرة تجريبية مبنية عن فكْر و منطق هيوم، الذي قسّم وظائف العقل البشري إلى وظيفة مقارنة الأفكار بعضها ببعض والاستدلال في مسائل الواقع (Kleibere,M. 1981: 18-20) يعني ذلك أن الموضوع الذي يفكّر فيه العقل لا يخرج عن احد لأمرين: إمّا أن يكون متّصِلاً بعلاقات قائمة بين فكرتين أو يكون متّصِلاً بموضوعٍ من مواضيع الواقِع، غير أنّ الذي يدقّق في هذا الادّعاء يجد المعنى النقدي لهذه النظريّة معيقًا لعمليّة المعرفة، ما يجعلها لا تقبل التحوّل إلى فلسفة متعالية.

بدأ آبل عمله من خلفيّة هذه الأفكار، فحلّل مفهوم الإنسان الذي أخذ مكانة السيّد على الطبيعة و صنع منه نموذجًا للهيمنة، مرسّخا مصير العقل و الوجود في معاني مدرسة فرانكفورت فتبيّن له في ما بعد أنّ صفة الإمكان التي أضفتها هذه المدرسة على مفاهيم المعرفة، مقترنة بضرورة التجربة ومبدأ الظهور في الوجود. أدى المعنى النقدي المعيق للمعرفة في مدرسة فرانكفورت إلى عدم اكتمال مفهوم الإنسان و عدم استقرار الحقيقة في عالم الظواهر، يقول آبل في ذلك:« تبقى المعرفة عائقا أمام ذاتها دون تحوّلها إلى فلسفة متعالية، كما أن الحقيقة لن تجد لنفسها مستقرا، لا في عالم الظواهر و لا في الأحكام البعدية» (karl Otto,A . 1996 : 41). نقف في هذا القول عند مفهوم الحكم ألبعدي الذي استبعد فيه آبل، إجراء مقارنة مع غيره من المفاهيم، فمحتوى هذا الحكم يتضمّن ظواهر بسيطة ناتجة عن أسباب

منهجية يمكن حصرها في شروط موضوعية بين ذاتية، كما يمكن حصرها كذلك في الشروط المرافقة للبحث التجريبي السابقة لبناء المعنى.

كما يعرض آبل في هذه القراءة مجموعة من الأمثلة التوضيحية والمتطابقة لطريقة بناء الحكم، فمثلا عندما نتحدث عن اشكلة المعرفة و نسأل عن غايتها و نبحث في موضوعها ومناهجها وفق شروط موضوعة مسبّقا، نجد فرقا بين "الخبرة التجريبية" التي أثارها رواد مدرسة فرانكفورت و ما ورد في فلسفة كانط عندما حدّثنا عن الأوامر القبلية ومنه نقول أن الفرق الذي بيّنه آبل جعل كل من الخبرتين نسبية و جعل الغرض من جمعهما دافعا لتطوير شروط المعرفة العقلية.

لقد عبرت الأمثلة التي قدّمها آبل عن محاولة قام فيها بتحويل المعرفة من طبيعتها التجريبية إلى مبادئ قبلية مطلقة، مثلما وردت في النّص الأصلي في فلسفة كانط، ثمّ حاول استبعاد ثنائية الميتافيزيقا التي وردت في فلسفة الأخلاق، فاصطدم بصعوبة إعادة بعث النمط الميتافيزيقي المرافق لعملية النقد في تأسيس الفلسفة المتعالية (Karl Otto,A. 2004:49) فعملية تقويض دعائم الأفكار الخاطئة في مبادئ الفلسفة النقدية و الاهتمام بدراسة المعرفة خارج نطاق التاريخ، لا غرض لنا فيه، إلا إذا كان في خضم العملية المعرفية، فيجب على الباحث في مجال الأخلاق التميز بالطموح و الاجتهاد في صنع أدوات المعرفة الضرورية للبث في عملية النقد، دون التوقف عند حد صنع هذه الأدوات. فالأشياء الموجودة في الخارج، تمثل ظواهر مقابلة للذات و مواضيع ذات معنى قابلة للمعرفة، فطبيعتها لا تعيق مسار البحث، و متحققة في الوجود لمحال (Höffe,H. 2004 : 49).

بناءا على ما سبق نقول: إذا كان للواجب في فلسفة كانط معنى، فان الواجب متحقق بالضرورة و منه يكون كل ما هو أخلاقي و ظاهر في صورة الواجب، بطبيعة الحال، ظاهرا في صورة حياد و بعيد عن كل غاية أو هدف، أي: ليس لوجوده سبب أو غاية (Stanguennec, Aris. 1994: 38-41). نجد لهذا الكلام أثر في تحليل آبل للقاعدة الأساسية في أخلاق كانط التي قدم لنا فيها مثال عن قيمتي الخير و الشر من حيث أنهما مقولتان تعبران عن القيمة الأخلاقية، فكل منهما يمثل مفهوم أبدي وكلي، فالخير ما ينطبق مع القانون الأخلاقي الكامن في كل كائن عاقل دون أن يرتبط بظروف معيشته، في حين أن الشر هو كل ما يتنافى مع القانون الأخلاقي و لا يسايره، فمصدر القيمتين هو الطبيعة الإنسانية المرتبطة بظروف الحياة و نشأة الإنسان و سمة هذه الأخلاق تعد ميزة للبرجوازية ومحاولة لإيجاد أسس تبرير استغلال الشعب من طرف حكام لا يملكون شرعية، أو تسلط منظمات غير مدنية على الشعوب، فإذا كان للإنسان إمكانية معرفتهما معا، فأعلم أنها لن تتاح له إلاّ إذا اتفق فكره مع تصور وجود مجموعة من الناس يؤدون واجبهم في المعنى الأخلاقي.

يسوقنا المثال السابق إلى الخوض في مؤلفات كانط، فإذا تأملنا مثلا كتاب "مشروع السلام الدائم" نجد فيه حديث عن مجموعة من الناس يعيشون حياة تسودها الطمأنينة و التفاهم و الاتفاق لأن هذه المجموعة تسعى إلى الحفاظ و الدفاع عن قوانين يعتبرها هؤلاء الناس كونية في ذاتها، فحفاظهم عن القوانين، تجعلهم يحافظون على خصوصيتهم

الفردية في المجتمع، فالطبيعة إذْ يسرت للناس الحياة على الأرض، أرادت أن تكون لهم ضرورة يخضعون لها دون أن تكون لفكرة الواجب الذي يلزمهم باسم القانون الأخلاقي دخل في هذه الضرورة. (كانط، ا . 2000: 60).

قام آبل بتأويل محتوى كتاب "مشروع السلام الدائم" و فسره بمعنيين: تصور تحدث فيه عن معنى التمييز بين الأخلاق و القانون، لا يمكن لنا فيه إلزام الأفراد بالواجب وفق عرف النية الآمرة، إذْ نجد فيه الإنسان يتصرف بطوعية لأنه مجبول على رفض أيّ إلزام مستقل عن سلطة الواجب الذي يؤديه و تصور ثاني يؤكد لنا فيه معنى قوة القانون المقترنة بسلطة الواجب، الذي يتصرف وفقه الأفراد دون الخروج عنه(Höffe,H. 2004 : 54). نفهم من ذلك أن الإنسان حسب آبل يسير بطوعية من ذاته و في نفس الوقت بدافع من الواجب، أما إذا قمنا بإسقاط هذا التفسير على وجود الدولة فسنجدها تحتاج لشرعية أخلاقية أكثر مما تحتاج فيه لسلطة القانون.

لقد قدم آبل هذا التفسير عن خلفية حاول من خلالها تبرير نظرية العقد الاجتماعي التي كان لها الأثر البالغ والفضل في نجاح المقارنة التي أجراها بين الأفراد و الجماعات، التي نظر فيها من زاوية المصلحة التي تجمع بين الفرد و الجماعة و من زاوية الفردية و الأنانية التي تميز كل إنسان، أنتجت هذه المقارنة أفكارا ذات دلالة في فلسفة آبل، فعندما تحدث عن الصعوبة التي واجهها في التمييز بين التصور النقدي والتصور الاجتماعي، أسقط المعنيين على المؤسسات الاجتماعية بما في ذلك الدولة في حالتها الطبيعية، دون تحديد هوية أفرادها و نمط أخلاقهم.

فنجد لهذا الطرح خلفية واضحة في كتاب كانط " الانثروبولوجيا التجريبية " الذي تساير أفكاره، الأفكار الجديدة التي جاء بها آبل، يقول كانط في هذا الكتاب: « يمكن لنا تجاوز المشكلة التي تعيق عملية التأسيس في أي دولة، من خلال تصور ميكانيزم طبيعي» (Bimbenet, É. 2002: 149). نفهم من هذا الكلام أن الكائن العاقل بطبيعة الحال يسهر على تجسيد صيغة القانون و يسعى للحفاظ عن الميكانيزم الطبيعي لتجسيد الكوني، لكن ما يثير اهتمامنا هنا هو التطابق الموجود بين الفكرة التي صاغها آبل و أفكار كانط، ثمّ الاختلاف الموجود بين الفلسفة النقدية في مسألة العقل الأداتي و أفكار المدرسة الاجتماعية في عملية تأسيس الغايات، لكن الاختلاف يظهر في أوُجِّهِ بين النظريتين في مسألة التأسيس الثنائي للميتافيزيقا داخل الفلسفة النقدية التقليدية وفي التبرير الأخلاقي والتفسير التجريبي لدولة القانون ووظائفها في المدرسة الاجتماعية.

تضمّن المعنى الأول لتأويل آبل كتاب " مشروع السلام الدائم " اختلاف واضح بين المدرسة النقدية و المدرسة الاجتماعية في تفسير تأسيس المجتمع و الدولة و تضمّن المعنى الثاني التساؤل عن مبررات الثنائية في الميتافيزيقا، فوجدناهما تختلفان في التصور المنطقي، فرغم واقعيتهما لا نجد فيهما دلالة ربط ظاهرة بينهما، كما لا يمكن تصوّر واقع في تاريخ البشر يكون قد وُجد فيه مواطنين قاموا بإبرام مثل هذا العقد، الّذي يقنعنا بتفسير مصدر و أصل دولة القانون بهذا المفهوم (Foisneau, L. 2005: 17-19). و منه نستنتج ما يلي: إذا لم تكن الحياة الاجتماعية مسيرة من

طرف دولة القانون، بمعنى أن تمتنع ضرورة القانون من الوجود في الدولة فإنَّهُ يُثْبَت لنا وجوبا امتناع الدولة هي الأخرى عن الوجود .

لقد رأينا في ما سبق أن المؤسسات الاجتماعية بما فيها الدولة مبررة حسب آبل بنظريتين النظرية النقدية التقليدية التي أخذنا عنها فكرة الثنائية و النظرية الاجتماعية بتفسيرها التاريخي وتأسيسها التجريبي، رغم التبرير الذي قدمته كل من النظريتين، تبقى مسألة الميتافيزيقا معلقة لأنها لا تزال منفلتة من شمولية أي حكم صادر بشأنها، ولا يشملها هذا الحكم إلا إذا ركزنا أثناء تحول الفلسفة المتعالية على معالجة ثلاثة تصورات. فنعالج في التصور الأول معنى الحرية الإنسانية حيث افترض كانط في كتابه "مشروع السلام الدائم" وجود مجموعة من الناس مولعين بالتفاهم يمثلون موجودات عاقلة تسعى إلى الحفاظ عن قوانين كونية، يكفي النظر إليهم و هم يتصرفون طواعية وفق الواجب، لندرك أن الكوني يمثل الصورة الواضحة التي تظهر فيها سلطة القانون ودافعية الواجب.

حسب التفسير النقدي لهذا التصور تحتاج الدولة إلى شرعية أخلاقية، مبررة بنظرية العقد الاجتماعي، التي تفسر التقارب بين الأفراد بالمصلحة والأنانية، لكننا نجد صعوبة في التمييز بين المفهوم النقدي و المفهوم الاجتماعي، فكلاهما يعيد الدولة إلى الحالة الطبيعية دون تحديد هوية الأفراد الذين يمثلون نمطية هذه الأخلاق، فتصور كل من النظريتين يقترب بكثير من التحليل الذي توصل إليه آبل في دراسته للتعاليم التي حددها كانط في الانثروبولوجيا التجريبية (Bimbenet, É. 2002: 149). فالنظرية النقدية والمدرسة الاجتماعية تشتركان في نظرتهما التشاؤمية عن الإنسان، التي لا يوجد لها مبرر تاريخي يجعل المواطنين في دولة القانون قد ابرموا مثل هذا العقد وبناءا على ذلك يجب معالجة مشكلة التأسيس في الأخلاق من خلال تحول معنى الحرية من وجهة نظر نقد المعنى في ميتافيزيقا كانط. (لوران، ب ب.1990: 62).

بدأ التصور العقلي طريقه، من تمييز مفهوم الحرية بين الأشياء و عالم الظواهر الذي يخضع في وجوده لتسلسل الأسباب و تتابعها، ما جعل الميتافيزيقيا تخلط بين حرية الفعل والضرورة السببية. فإذا قبلنا ثنائية الميتافيزيقا عند كانط، فإنه يستحيل علينا مبدئيا افتراض وجود علاقة منطقية في الإقرار بالفعل كتصوّر حر و قبول حدوث ظاهرة في العالم التجريبي. يمكن توضيح هذا الكلام من خلال إعادة النظر في آفاق نظرية نقد المعنى، فعندما نتكلّم عن مفهوم مستقل عن المعرفة الواقعية في المثال: (إن النهار موجود) وجب إقران مفهوم المعرفة الممكنة مع الواقع – وبناء على ذلك– إذا أردنا توظيف ميتافيزيقا كانط وجب علينا استبدال تمييزه بين الأشياء في ذاتها " النومين " وعالم الظواهر" الفينومين" من خلال التمييز بين مجال المعرفة اللامحدود القابل للمعرفة (أي المجال الواسع الذي يتضمّن كل مواضيع المعرفة) و ما يمكن معرفته (أي المواضيع التي تقبل لأن تكون مواضيع معرفية متحققة، عندما تتوفر فيها الشروط و القابلية للمعرفة (Puech,M. 1990: 305-308)

حاول آبل في التصوّر الثالث تحرير الفعل الأخلاقي من كلّ العوالق، لأن معنى الفعل يلازم معنى الحرية، فإذا فقد احدهما ملازمة الآخر، فقد العالم صورته الحدسية و لم يبق منه سوى تفكير على منوال ما تحدّث عنه دلتاي، عندما تكلم عن ظواهر قابلة للمعرفة و التجريب ، فإذا أمكن لنا ضبط التوافق بين الحرية و الفعل الذي يحدد لنا معنى (أخلاقي) فسنعتبره بطبيعة الحال صورة لتحوّل ثنائية الميتافيزيقا، إلى علاقة التلازم الموجودة بين معنى الفعل و معنى الحرية (GENS, J. 2002: 222).

2- نقد و تجاوز العقل العملي :

شرع آبل في بناء مشروعه من خلفية وجدها في فلسفة هيجل عندما استعمل هذا الأخير الروح المطلق، الموضوعي و المجال الفنومنولوجي بين القانون و الأخلاق ليتجاوز ثنائية كانط، لذلك نرى بكل وضوح أن تحليل هيجل هو الأقرب في ضبط موضوع العلوم الإنسانية، يُظْهِرُ لنا هذا التحليل عدم كفاية المقارنة التي أجْراها كانط بين الأخلاق و القانون للوصول إلى نتيجة تسمح له بالتغلغل داخل الأخلاق، لكن ثنائية الميتافيزيقا التي ميزت هذه الأخلاق، حالت دون السماح بذلك من حيث هي ظاهرة عامة ووظيفة مطابقة للإلزام، و بين القانون من حيث هو إلزام يفرض سلطة الأقوى. توصل هيجل في طرحه إلى أن تمييز كانط بين مفهومي الأخلاق و القانون غير قابل للدراسة والمعرفة، ما جعل فلسفة القانون واقعة في تناقض مع نقد العقل المحض.

يُظْهِرُ النقد الذي وجهه هيجل لنظرية المعرفة عند كانط، تراجعًا للعلم من حيث هو نمط معرفي، أما بالنسبة للنقد الموجه للمقاربة المنهجية للظواهر الأخلاقية، فقد كشف فيه عن ثلاثة ميادين واضحة (الأخلاق، القانون، والأخلاق الاجتماعية) اتفق هيجل مع كانط في حدي القانون والأخلاق واختلف معه في حد الأخلاق الاجتماعية، فهي ثمرة توصّل لها هيجل بعد تحليل فلسفة كانط جدليّا، لكن ما العبرة من الدراسة المقارنة التي عرضها آبل بين هيجل و كانط؟

للإجابة عن السؤال وجب البحث في الظواهر المأخوذة من الميادين الثلاثة التي ضبطت روح الأخلاق في فلسفة أرسطو، ثم النظر في النتائج التي استخلصها آبل من نقد هيجل الموجّه الى كانط فالأنا تمثّل وحدة أولية خالصة في علاقتها مع ذاتها بشكل غير مباشر، فتكون كذلك لخلوها من التعيين ومن أي محتوى، ثمّ ارتدادها إلى حرية مساواتها مع نفسها (هابرماس، ي. 1999: 47). نفهم من هذا الكلام أن الذات لا تشكّل وحدة مع ذاتها إلا من خلال الوحدة التركيبية الأولية للإدراك الواعي و هي الصورة التي أخذها هيجل عن كانط، إذ يتصور الأنا وحدة خالصة في علاقتها مع ذاتها تمثل خبرة أساسية لفلسفة التفكّر، بمعنى خِبْرَةُ وحدة الأنا في التفكّر الذاتي، أي خبرة الذات العارفة التي تتجرد من سائر مواضيع العالم و ترتد في الأخير إلى علاقة مع ذاتها باعتبارها الموضوع الوحيد، لذلك حدّد هيجل الذات من خلال علاقة معرفة الذات نفسها بنفسها، لكي تنشأ في وحدة وتتصف بوعي ذاتي.

يتصور آبل من التقسيم الثلاثي الجدلي الذي صاغه هيجل، نموذجا للظواهر الأخلاقية داخل المجتمع في معناه الأرسطي، فهي تظهر في صورة حدسية و بداهة يميز فيها هيجل بين المجتمع المدني و معنى الدولة الذي يتجاوز مفهوم كانط، المؤسس عن الحجة و النقد يقول آبل في ذلك :«إن مفهوم مجال المجتمع المدني، المنظم اقتصاديا وقانونيا، يعتبر دفين الإستراتيجية العقلانية للفرد المتحرر و الرائد في قواعد اللعبة التي تعود عليه داخل مفهوم الدولة بالمبدأ الذي يدفع الفرد إلى آفاق تضامن داخل المجتمع » (WILLM, J. 1949: 3).

يتبين لنا من هذا القول اعتراض واضح على التصور الذي صنع من الدولة واسطة، بين الحرية المطلقة وكونية الحق الفردي، في وضع الأساس لأخلاق الذات كما رأينا عند كانط ولأخلاق المجتمع مثلما هو ظاهر عند هيجل، يدفعنا المفهوم الجديد للمجتمع المدني للغوص داخل مشكلة المعايير الأخلاقية، كما يجعلنا نقف أمام نقد مزدوج للأساس الأخلاقي لكل من كانط و هيجل. وضع آبل نصب عينيه فهم كانط الذي انطلق من مبدأ تشريع فردي و وصل إلى قانون كلي تجاوز الزمان والمكان، وشبّه تصور هيجل، بمثال الفرد الذي امتلك الجرأة و تنصل بفكره الشخصي ليسمو إلى مستوى الروح الذي اعتبره في ذاته الكوني، أما الكوني الذي نبحث فيه مع آبل فيتجاوز من حيث التأسيس فهم كانط و هيجل معا، لأن كانط، اعتمد على سبب زوال القوام الأخلاقي الإغريقي المرتبط باختبار الوعي الأخلاقي، الذي نجد فيه تجاوز لمعنى الحرية التي شيَّد عليها مفهوم الواجب، ثم طالب بكونية الأخلاق الفردية. أما بالنسبة لسبب رفض آبل فلسفة هيجل فيعود إلى ربط هيجل حق الإنسان بالقانون الطبيعي الرواقي، وقوله بالحرية المطلقة في نطاق الإله، ثم تجاوز هذا المعنى في ما بعد، إلى الفهم المسيحي المقترن برفض الأعراف و الأخلاق الاجتماعية التي بنيت على أساسها الدولة الحديثة.

حاول آبل تحسين هذين التصورين من خلال وضع تماثل بين آلية التحديد الذاتي للحرية المطلقة و كونية الحق الفردي في الأخلاق الاجتماعية وأدرك أن هناك ضرورة للبحث عن مفهوم جديد للدولة داخل الأخلاق وتصور مصيرها بشكل عام.

نصل إلى أن الكوني الذي نتفق فيه مع آبل أصبح يكاد يكون محسوسًا، انطلاقا من اجتماعه في وحدة مع الحقيقة التاريخية – بين فلسفة كانط و هيجل- في صورة يقيد فيها مصير الأفراد وتصبح الصعوبة التي تعترضنا في تحقيق التأسيس الشامل له، بادية في تضامن الأفراد و تعريفهم بالحرية الشخصية اللاآمشروطة، الحرية التي اعتبرها آبل ركيزة أساسية لإثبات إستراتيجية الذات و تحقيقها دون فرضها، من ثمّ نرفض تصور هيجل الذي تجاهل آفاق التضامن داخل أخلاق المجتمع الخارجة على نطاق التاريخ الكوني.

نصل من الانتقادات التي وجهها آبل لمفهوم الكوني بين فلسفة كانط و هيجل، إلى هذا السؤال: هل يمكن لأخلاق كانط التي أسست قانون إصلاح البشر لان تتجاوز القانون الطبيعي الذي أسسه هيجل داخل المجتمع الأممي؟

يوحي لنا قانون إصلاح البشر الذي اجتهد فيه كانط، بالمعنى الذي جاء في صورة مدينة الله التي رسمها أوغسطين من تعاليم الأسفار المسيحية، أو في معنى الدولة الخالدة المستترة وراء المفاهيم التي استعملها كانط، عندما تحدث على مملكة الغايات و الكنيسة الخفية، تمثل هذه الأفكار الجانب الذي رفضه آبل في فلسفة كانط، و ما يتفق فيه مع هيجل (لو فيفر ، ج. 1993: 116) ، و عليه فإننا إننا نرى بكل وضوح أن حق الإنسان مضمون في الحياة بمجرد ظهوره إلى الوجود، كما أن مقتضى احترام هذا الحق راجع إلى العقد المبرم في ما بين البشر، لكن ما لا نتفق فيه مع هيجل في هذا الطرح هو انطلاقه من نقد مبدأ واجب الوجود المجرد الذي يقصد به وجود الحقيقة العقلية في إطار الصراع المستمر و التاريخي بين البشر، أو في معنى الوجود باعتباره منفذ إلى حقوق الإنسان.

انطلق آبل من هذا التصور النقدي المثالي متجاوزا التصور الاجتماعي، و من إقرار الوجود لحرية الإنسان التي تمثل وجوده الحقيقي، أو لما فرضه المجتمع من شرائع و عقود بين البشر تضمن لهم الحقوق، لكن الحديث على افتراض أسبقية الدولة في الوجود لغرض ضمان هذه الحقوق، يعد افتراضا مرفوضا، كما أن الحديث عن ضرورة الصيرورة لأجل هذه الحقوق وإقحامها داخل الصراع المستمر بقوة الإرغام أفكار لا يقبلها آبل.

رغم واقعية فلسفة هيجل و تحققها التاريخي، تبقى معاني نظريته حديثا عن هوية و تضامن الناس في مجتمعات خالية من كل أعراف العداء، كما أن عصر الأنوار و فترة ظهور الأديان الكونية جعلت تصور هيجل مثال بعيد المنال. اهتمت فلسفته في جزئها الأول بالتاريخ الكوني وقدمت فكرة الوعي و الحرية (هابر ماس ، ي . 2001: 34) و اهتمت في جزئها الثاني بالروح المطلق في الفن و الدين دون إعادة اليقين إلى فلسفة الحق، ما جعل هوية الإنسان في فلسفته تتميز بدينية الأخلاق، مع نوع من الصبغة الكونية، ما دفع البشر إلى الدخول في حروب عقائدية كونية، في غياب وعيهم لذاتهم وللأخلاق الاجتماعية من حولهم، لذلك نقول إن الكوني الذي وصل إليه هيجل يعد إحباطا للوجود الإنساني لما تسببت فيه من حروب كونية.

نصل إلى مرحلة يُظهر فيها آبل عجز هيجل عن تحديد هوية الإنسان وفق آلية موحدة لتأكيد ذاته، ما جعله يضحي بوجوده لأغراض خاصة بالهوية في غياب دوافع أخلاق كونية تمنح الإنسان شعورا بالعجز و عدم القدرة على الأداء، في حين نجد من يرغب في تنظيم أدائه يسأل ويبحث على ما ينبغي أن يكون، و أن لا يقبل ما هو سابق و يرسمه في صورة نظرية للواقع (Baudart, A. 2004: 27-30). نحتاج لفهم مصطلحات هيجل إلى الاستعانة بالتأويل، و تظهر الحاجة لذلك في الصعوبة التي نواجهها في فهم هذه الفلسفة التي تريد أن تصنع لنفسها منهجا بعيدا عن الواقع، و تغوص في ثنايا المعقول بحثا على مبدأ كوني للحرية و العقل في فلسفة كانط، مستعملة في ذلك مفاهيم الاحتقار والمساومة، ضد آلية الوسطية العامة بين الوجود و واجب الوجود، فبعد اغترابها و تجوالها في عالم المجردات، عادت إلى ذاتها وهي تحمل عبارات مثالية على مفهوم الحقيقة في عالم العقل وعلى مختلف صور الإمكان.

لقد أجرى آبل تعديلا على مفهوم التأسيس في الأخلاق، يفرض علينا موقفا لا يسمح لنا بالتساؤل عن الراهن و الواقع المعاش، فالذات مهما كانت تعيش صراعا مع ذاتها لا ينفرج عليها الوضع إلا في ظل نظرية الأخلاق التي تشعر فيها بالمسؤولية، في مجتمع يسوده الأمن و متجه نحو مستقبل معلوم، لذلك نرى في فلسفة آبل صورة واضحة لفلسفة كانط و أثرا من فلسفة هيجل و لكي نفهم تصوره للأخلاق التي اشتقها من الفلسفتين معا، رأينا أن نقوم بهذا الإسهاب في الشرح لكل منهما.

عندما تكلم هيجل عن الأخلاق القائمة في فهم الظاهر و العقلاني في التاريخ أصبح الحكم معيارا متزامنا مع نتائج العقل و أصبحت نتائج المثالية الموضوعية مقاربة للروح المطلق، لذلك نقول أن فهم هيجل يتطلّب فهم كانط، في حين أن فهم آبل يتطلب فهم كل من كانط و هيجل معا، ومنه يظهر امتناع الجمع بين معنى الحقيقة و الأخلاق و الوجود المطلق، في صورة واضحة في صفحات التاريخ الكوني، يقول آبل عن تصور هيجل للتاريخ الكوني: « إن فلسفة هيجل تمثل اختبار وفهم أخلاقي، بوجهة نظر قبلية ناتجة عن فرضية، تعمل لإخفاء مشكلة الوساطة في ملكة الفهم، إذا أخذنا بها يصبح الواجب غير قابل للتفكير و الفهم في العملية الاستدلالية» -149 :Greish, J. 2000) (151 يظهر في قول آبل أن تصور ما يجب أن يكون، يمثّل مصادرة غير مفهومة، لا تقبل التفكير في العالم، فالعجز الذي ظهر عن هيجل في عدم قدرته تجاوز العقل العملي، لكنه لم يظهر على آبل أثناء تجاوزه له بالوساطة بين التيار الوجودي والماركسي فطالت هذه الوساطة الاتجاه البراغماتي.

ظهر الفشل المتتابع داخل المدارس الفلسفية في محاولة تأسيسها مبدأ معياري خاص تكون له ميزة الطابع الإجباري الكوني، لكنها لم تفلح في بناء نظرية تسمح بإعادة صياغة التاريخ و تحققه. فالتصور الماركسي عجز عن تجاوز الأساس الوضعي، المأخوذ من نظرية التاريخ الكوني هذه النظرية التي وضعت قواعد مرجعية لقراءة المستقبل ومحاولة التنبؤ به (Baudart, A. 2004: 27-30) لكنها لم تفلح في إيجاد بديل للمفارقة التي وقع فيها هيجل، أما بالنسبة للتيار الوجودي فظهرت محاولته في خصوصية الذات لقرار الوعي الديني و الأخلاقي ثم وقوفه في المسار العلمي، و الحديث على إمكانية وصول نتائج العلم إلى الكونية وفق مبدأ استقلال الأخلاق على الفرد، أو أنها تظهر في اللاّعقلاني المفخم للقرار الوجودي و اختبار الذات، أو أنها تمثل تجاوز للذات كحقيقة كونية مستقلة HAAR, M (2002: 136-139 .) .

حول آبل مشكلة العالم و الوجود في فلسفة هيدجر إلى مشكلة متعالية، اظهر من خلالها الفهم، كما مثلته البراغماتية في قالبها القاري، فمثّلت بداية الفلسفة الوجودية عداء عصر الأنوار لكل ما هو مثالي، خصوصا فلسفة زوريل و باريتو و استعمالهما العقل الأداتي لفهم الحياة ونظامها الوظائفي، ففقدت هذه الفلسفة بعدها المعياري المتعالي و انفتحت بصورة واضحة عن الحقيقة، في حين اعتمدت الفلسفة البراغماتية عن المنهج السلوكي، و تبنت موقف الفلسفة التحليلية في رفض الميتافيزيقا. فوصفية ستراوسن المتميزة بالتحليل الصارم للغة- كما هو ظاهر في مقالات

دافيدسون عند ربطه اللغة بالتواصل- عبرت على الصورة التي رسمها فيتجنشتين عن العالم و جعلنا ننظر إليها و نتقاسمها على أنها حقيقة في خطوطها العامة، أما ما ظهر من نتائج عن تلك الخطوط فيمثل واقع و طريقة لتتبع الميتافيزيقا، التي تقوم عليها دراسة لبنى عامة في لغتنا (Engel, P .1994: 283) .

ومن هذا المنطلق حوّل آبل البراغماتية إلى معرفة في إطار الوجود، جعلها تمثل نظاما متكاملا للأيديولوجية الفردية التي يوحدها الدين و تطبيقات القانون الوضعي، ثم انطلقت البراغماتية في مرحلة المقاربة لما بعد فلسفة فتجنشتين و لفلسفة هيدجر التي ارتبطت بالتاريخ ما دفع آبل إلى إعادة بناء العقل العملي على قوام معياري وعلى شرعية الأسس والقانون، يمثل القوام المعياري دعوة و إرغام للعودة إلى الأخلاق، لكنه في الوقت نفسه يعتبر مبدأ صوري مجرد من القوى الكونية للإرغام، لذلك ضمّنه آبل وضعيات لها قابلية التحقق في الواقع التاريخي، من خلال مقاربة أجراها داخل المدرسة الواقعية في فلسفة كل من "غرييم" و "سافيني" و استبعد فكرة فصل الفهم عن التفكير الواقعي للتاريخ ثم رسم بلوغ الكوني في صورة المطلق و العالمي من خلال الوساطة بين واجب الوجود والوجود. يظهر أن تصور الفكرة الشاملة للواقع التاريخي تراجع و ترك مكانه للكوني، في الفهم الهرمنيوطيقي الذي أفصح عن الواقع الموضوعي، و أوقع الأخلاق في مشكلة التاريخانية.

كان وصف ارنولد قيهلن للمثقفين الألمان الذين وجدوا أنفسهم مطلع القرن الماضي، مغمورون بروح الأسطورة الجديدة، وسط أفكار نيتشه و زوريل، ركيزة قوية لآبل للبحث في مؤسسات النظام الاجتماعي، دون أن يحتاج فيه لأيّ إضافة، فَوصْفُ آبل لِأصالة الخطاب الإنساني جاء مقابلة للفكر الهرمنيوطيقي المهتم بشرح الوجود و تأويل لمشكلة الأخلاق المفروضة في فلسفة هيجل(HOTTOIS,G. 1989: 126-132) ، الذي جعل الهرمنيوطيقا تدفع بالأخلاق إلى أغوار التاريخانية و البحث في ملكة الفهم داخل فلسفة التحليل،ثمّ مقارنة كل ما هو سابق في التاريخ مع المبدأ الأخلاقي الصارم، في صفته الارغامية الموصوفة بالكونية، المتسبب في اختفاء المشكلات المحيطة بالوعي النقدي، و الذي تبعه تراجع صارخ في الخطاب و ضرورات العلاقة بين الواقع و الحقيقة في معناهما العقلي .

3- تطبيق المنهج البراغماتيكي المتعالي وتحول فلسفة كانط المتعالية:

كان لفلسفة آبل حضورًا قويًا و متزامنا مع مسالة التأسيس الكوني في الأخلاق التي دعا إليها كانط في قالبها البراغماتي، أصبحت منطلق كل فلسفة تبحث لنفسها عن التأصيل من خلال عملية التأسيس في نظرية المعرفة. تظهر حاجتنا لهذه الفلسفة من مدى صلابة أرضية الأخلاق التي رفع منها كانط قواعد الميتافيزيقا، رغم الثنائية التي تميزت بها إلا أنها عبرت عن أسلوبها الخاص في التأسيس، الذي أصبح أرضية لتصورات هيجل في الفلسفة المتعالية و بناء جديدا للأخلاق وتشريع لنظرية العقل.

تعود فكرة التأسيس النهائي إلى كانط، عندما رفض اعتبار العقل مسلمة و اخضع العقل للتأسيس النهائي وجعله مثال لتأسيس الأخلاق في صيغتها النهائية في مؤلفه" تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق "، الذي شغل تفكير آبل لمدة طويلة،

فطرح المشكلة من ضرورة جاءت للإجابة عن مسألة لماذا العقل؟ و لماذا الأخلاق؟ التي أثارت فلسفة كانط من جديد في الأفاق، ذلك لأن مأْخذُ الأخلاق عند كانط مرتبط بالعقل العملي و باستقلال الإرادة، ثم ميّزها بتأسيس تضمّن معنى الوعي، أما تأسيس آبل فقد جعل من المطالبة و الإلحاح ضرورة للأخلاق، لذلك نرى أن السؤال الذي بحث به كيفية تحول الفلسفة المتعالية وفق نظرية نقد المعنى، يطلب لنفسه هو الآخر تأسيسًا لكي يضمن التجاوز الجديد، و من ثم أصبح التأسيس للتجاوز مدار الحديث سواء كان بالنسبة للمعنى أو لثنائية الميتافيزيقا في النظرية النقدية، ثم أعاد الطرح من زاوية ركّز فيها على الواقع التاريخي من حيث هو أحداث ماض في علاقتها بالمستقبل، انتبه بعدها إلى الثنائية المميزة للتأسيس في التاريخ، التي مثلت مشكلة المقاربة بين العقل العملي والعقل النظري في صورة وساطة جديدة بين فلسفة كانط وتصورات هيجل.

ثمّ ضبط آبل مفاهيمه من بداية حديثه عن تأسيس الفلسفة المتعالية و الأخلاق تأسيسا نهائيا، فتميز مصطلحه بالغرابة و جاءت معانيه أعمق ممّا تحمله الألفاظ من معنى، فالنقد الذي وجهه الى هابرماس(هابرماس ضد هابرماس) كان مبني بنفس المنوال الذي وجهه هذا الأخير الى هيدجر- سقوط هابرماس في نفس المأزق التاريخاني الذي سقط فيه هيدجر(هيدجر ضد هيدجر)- يجب التعمق في تشكيل المعنى في مفهوم الميتافيزيقا القائم في فلسفة كانط و إشكالية التكون و الصلاحية (معنى المنطوق و تبرير مزاعم الصلاحية) فيبدو ذلك ممكنا منهجيا، قبل وضع مساهمة هادفة للمعرفة، غير معصومة ولها قابلية للدحض (فيري، ج. 2006:70) .

لقد كرّس آبل عمله للبحث في شروط الفكر و قابليته لإصدار الحكم، فلا يمكن قيام أي نظرية توضح معنى أفعال الحجاج، دون الوقوع في تناقض براغماتي ذاتي – لا تقيد حجاج من يتبنى أو يعارض- أو أن تصدر أي فرضية من أي حكم، دون احتياجها لمبرر منطقي أو تجريبي ليكون الحكم بديهي أو ليعاد تأسيسه لضمان تحققه في الفلسفة المتعالية، كما أن إجابة آبل عن مسألة لماذا بطل التأسيس في الفلسفة التقليدية كانت مبنية عن عدم صلاحية التأسيس الذي يعود بصورة مباشرة للغموض السائد في أفعال الحجاج و منه وقعت اللائمة على نظرية الحجاج. أسس آبل بعد ذلك مبدأ التحوّل في الفلسفة المتعالية من نظرية الحجاج ووضع لها شروطًا تأسيسية حجاجية، متجاوزا بداهة التفكير و سذاجة الآراء السطحية، ثم شرع في العمل وفق مبدأ النقد الذاتي، الذي أبرزت وظائفه آفاق نظرية تأسيس أخلاق المناقشة بتفكير مختلف وفق مبادئ الفلسفة المتعالية (LADRIERE, J. 2002: 134-140)

تعد الفلسفة المتعالية الجديدة نموذجًا مقابلاً لكل نظرية أصابها العوز في التفكير و في النقد والتحليل، من ذلك وجدت الفلسفة التحليلية نفسها رهينة الفلسفة المتعالية الجديدة، التي طورت مفاهيمها في التأسيس، فعندما أنتج آبل منطلقات التفكّر بأفعال الحجاج و استند في بنية الأداء على أفعال اللغة. عثر عن طرح آخر صاغه عند حديثه عن العبارات الصريحة في الفلسفة المتعالية، التي أخذت وضعية السيمياء المتعالية، و تضمّنت أسس نظرية أفعال اللغة بطريقة البراغماتيكا

المتعالية، ثم انطلق في تأسيس شامل للعلوم الإنسانية، حوَّل من خلالها الهرمنيوطيقا الموروثة عن هيدجر إلى نوع آخر من الهرمنيوطيقا المتعالية (ما وراء اللغة و ما تتضمنه الأفعال استنادا إلى مبدأ أوستين "عندما نقول نفعل")، ثمّ اهتم بالفلسفة المتعالية التي كان لها الحظّ الأوفر في تأسيس المعايير الأخلاقية (Chauvire, C. 2003: 108-112).

لقد فصل آبل بصورة نهائية بين الفلسفة التقليدية و الفلسفة المتعالية، ثمّ بيّن لنا عملية "التحوّل" transformation de la philosophie من خلال إظهار الفارق بين الفلسفتين في ضوء دراسة براغماتيكا متعالية. توجز "إزابيل توماس فوجيل" Isabelle Thomas-Vogiel هذا الفصل النهائي بقولها: « ينتهي بنا الكلام إلى التشكيك في ما عُرِفَ عند فايرباند و رورتي منذ شروعهما في إعادة بناء المذهب النقدي، لما هو مستعمل في نقد ملكة الحكم و منه نصل إلى صناعة قضايا منتقدة من طرف النزعة الإنسانية » (Fogiel,I .2006: 166). منحت لنا إزابيل فوجيل تبريرا منطقيا للمعنى الذي نتج عن عملية التحوّل في الفلسفة و كشفت عن مراحل تميّزت بالضعف أثناء إعادة كل من "رورتي" و "فايربند" صناعتهما للمعنى و انتقادهما ملكة الحكم، ثمّ تأسيس المذهب النقدي الجديد، الذي علّق فيه ريكور عن مسألة أفعال اللغة، التي حضت بالاهتمام عند إعادة بناء المذهب النقدي في ضوء براغماتيكا اللغة.

حمل مضمون براغماتيكا اللغة معنى نظرية أفعال الكلام، التي أظهرت من خلالها الفلسفة النقدية الحاجة إلى إعادة بناء منهجها، بعد أن اخترقه الشك و طعن في قيمته ، من ثمّ كشف آبل عن تناقض صريح في الفلسفة النقدية، وعن إفلاس و بؤس مشروعها في الحفاظ على إرث كانط في نقد العقل، و حول الفلسفة المتعالية من خلال المنعطف اللغوي Cossutta, Frédéric.(2003, 25 Avril). Pour une critique sceptique de la pragmatique transcendantale de K. O. Appel, [En-ligne], 3- 2003, mis en ligne le 05 avril URL : http://methodos.revues.org/118، ففي حين بقي كل من فلاسفة العقل والنقد قيد الفلسفة الاسمية، استعان آبل بأعمال فتجنشتين في عملية تحول الفلسفة المتعالية وطرق أبواب البراغماتيكا في محاولة تصور العالم، يقول آبل: « لم استعن قط بتجربة يقينية خاصة باللغة – بمعنى ديكارت أو هوسرل- لكن بالمعنى الذي جاء به فيتجنشتين أقصد هنا اليقين المنبثق عن ألعاب اللغة، اليقين البراغماتي المؤول من خلال أفعال اللغة » (Karl otto, A.1981:21).

يجيب آبل عبر هذه المقولة على السؤال الذي صاغه من تحليل شروط خطاب الحجاج الذي أصبح دلالة على تمثيل الواجب في أخلاق المناقشة، كما أظهرت براغماتيكا اللغة التأسيس الذي جاء بديل عن فلسفة الوعي و دفع بالبحث إلى قلب المعرفة الموضوعية و رفض تفكير الغير، منحت براغماتيكا اللغة معيار الصدق لمبدأ العقل القبلي و صلاحيته في المفهوم الكوني، و بحثت في نمط غائي متعالي مؤهل لتأسيس مبدأ أخلاقي صوري ، يكون معيارا خاصا وأصيلا في مسار الحجاج، كما عمل على تأصيل مبدأ عدم التناقض في المنطق البراغماتي. نستنتج من التحليل الذي قدمه آبل كفاية مفهوم الحجاج الذي يضمن فرضية تحقق مجتمع التواصل، التي يتلخص هدفها في تحقيق مجتمع مثالي و ضمان سلام دائم بين البشر(Brisart , R. 1988 : 336-346) صاغ آبل فرضية مجتمع التواصل بمنهج استدلالي "براغماتيكي متعال"، بدأ البحث بالمناقشة والحجاج ومثّل هذا المنطلق مرجعية عليا للتأليف المتعالي بين المجتمع المثالي و ضمان السلام

الدائم بين البشر و مسلّمة كفاية الحجاج وتحقق مجتمع التواصل، باعتبارها مسلّمة ما قبل لغويّة «Méta-Langagiere » و ما قبل تواصليّة« Méta-Communicationnelle » في البراغماتيكا المتعالية. وحوّل بعدها الفلسفة المتعاليّة وأخضعها لتطبيقات براغماتيّة اللغة و لشروط بين ذاتية مصممّة كقواعد براغماتية كونيّة، سمحت بميلاد أخلاق المناقشة، وفي مقابل ذلك استعان بشروط ومعايير المنطق المتعالي في قالب ميتافيزيقي و منه ضمن التفكير البراغماتي المتعال في عمليّة التواصل مراعاة شروط الحجاج في كل من العقل النظري و العقل العملي، كما ضمن تجاوز فلسفة الوعي دون ظهور عجز في الإجابة عن مسألة شروط التفكير البراغماتي للّغة، من ثمّ سمح التفكير المتعال في عمليّة التأسيس، بالتفكُّر في شروط تواصلٍ تصلح لأن تكون شروطًا للحجاج (Grondin, J., 1989 : 63-65). لقد بلغت مقاربة التفكير المتعال درجة من الدقّة أهلتها لبيان دور العقل في تأسيس الأخلاق ولتأسيس المقاربة التفكُّرية «Approche Réflexive »في براغماتيكا متعالية « pragmatique transcendantale » وأصبحت غاية في وعي الذات، ومعرفة الغير التي كشفت عن حقيقة العقل بعد تحقّق شروطِ أخلاق المناقشة في المجتمع المثالي التواصلي، ثمّ تجاوزت الفلسفة المتعالية ازدواجية الميتافيزيقا وحقّقت استقلالية الوعي الأخلاقي الذاتي الذي مثّل رهان الواقع العقلاني.

نستنتج من التصورات الثلاثة السابقة أن موضوعية العالم و خضوعه لمنهج بسيط و دقيق تكون فيه التجربة هي المعيار في الاختبار، هذا ما جعل آبل يتصور إمكانية صنع منهجا خاصا للتواصل يكون فيه الغير موضوع للذات، كما يكون هذا المنهج خليقا بالمنهج التجريبي، بحيث تتم فيه معرفة الظواهر التي تستبدل واقعها التجريبي بالنسبية المعقولة، هذه الظواهر التي يمنح لها أساسا موضوعيا من خلال فهم أفعالها و من ثم تستجيب لكل الدوافع الأخلاقية، هذا ما نلمسه في أعمال آبل عندما حدد الفعل الناتج عن مواجهة الطبيعة و أداء الغير لفعالية معينة، فلا يعرِّفُ الطبيعة الموضوعية بالمعنى الذي صاغه كانط فقط، بل يجعل معظم الناس في مفهوم الغير يتعرّفون عن الاغتراب الذاتي الذي منح لهم أملاً للعيش من اجل الحرية.

ونصل إلى نتيجة ، ثامرة مفادها، أن أخلاق المحادثة العامّة الموجودة في الواقع تمثّل وسيطًا أكثر وظيفية، و معيارًا للفكرة المنظِّمة « idée régulatrice » في مستواها المتعال و نموذجًا للمناقشة بين الأشخاص المعنيين و ممثّليهم، ثمّ سمحت لنا بتأسيس معايير مأخوذة من الأخلاق الاجتماعية، دون حاجةٍ للوسطيّة بين (الوجود و الواجب)، كما عبّر التأسيس المتعال للأخلاق عن تلبيّة الشّرط المعياري في الحجاج، من خلال جعْل مجتمع التّواصل المثالي شرطًا مسبّقا، بمفهوم هابرماس، مع اختلافه في الشرط المعرفي المفترض في المنطق المتعال (التغييرات التي خضع لها المنطق انطلاقا من كانط الى هيجل ثم البراغماتيّة المتعالية) الذي جعل معنى الجوهر نزيهًا عن كل تصوّر طوباوي « Utopique » ومنه نقول: إنّ التأسيس المتعال للأخلاق سبَق عقلانيّة الواقع، الناتجة عن وسطية عرضها آبل بشأن مفهوم التاريخ بين كانط و هيجل، و منه نصل إلى معيار نموذج التأسيس المتعال في الأخلاق الذي يتطلّب الفهم و التفسير « Expliquer /Comprendre » لتقاليد وعادات و أعراف المجتمع، و بهذا المنظور نفتح نافذة المناقشات على واجهة التأسيس

لمعايير مشروعة، و تتضح الوسطيّة في طبيعة المعيار مانحةً إيّاه في الوقت ذاته مقياسًا نقديًّا مُعتمدًا في تأويل التاريخ (Karl Otto, A. 1990 : 45).

المراجع:

- لالاند ، أندريه (2001)، موسوعة لالاند الفلسفية، بيروت، لبنان ،ا ط2 ، لمجلد الأول، منشورات عويدات،

- الخوني، محسن (20056)، التنوير و النقد (منزلة كانط في مدرسة فرانكفورت)، سورية ، الطبعة الأولى ، دار الحوار للنشر و التوزيع.

- كانط، امانويل، (1980) تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

-Duchesneau , François, (2000) , Kant actuel hommage à Pierre Laberge, Paris, Les Editions Fides..

Apel, Karl Otto, (2007), Transformation de la philosophie, Traduit par - Christian Bouchendhomme et Thierry Simonelli et Denis Trierweiller, Paris, Les Editions du Cerf,

Kleiber, Morand,(1981) La Loi dans l 'Ethique Chrétienne, Bruxelles, -Facultés universitaires Saint-Louis

- Apel,Karl Otto, 1996, Discussion et responsabilité (1- l'éthique après Kant), Paris, Les Editions du Cerf.

Höffe, Otfried, (2004) , Otfried Höffe: Hegel on ethics and politics, New - York, Cambridge University Press

- André Stanguennec : Études post-kantiennes Raison analitique et raison dialectique dans la pensée post-kantienne, Volume 2, L'AGE D'HOMME, Paris, 1994

- كانط ايمانويل: مشروع السلام الدائم، ترجمة: عثمان أمين، مهرجان القراءة للجميع، مطبعة الرعاية الكاملة، مصر2000،

-Bimbenet, Étienne, (2002) La nature, approches philosophiques, Librairie Foisneau, Luc, (2005) Kant et Hobbes de la violence à la politique , France, ,J. Vrin,

- لوران اسون ، بول، (1990) مدرسة فرانكفورت، بيروت ، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع،.

- Puech , Michel, (1990) Kant et la causalité étude sur la formation du système critique, , France, Vrin..

- Jean-Claude GENS: La pensée herméneutique de Dilthey entre néokantisme et phénoménologie, Presses Universitaires Septentrion, Villeneuve- d'Ascq (Nord), 2002, p : 222

-Apel , Karl Otto, (2001) , La Réponse de l'Ethique de la Discussion, au Défi Moral de la Situation Humaine Comme telle et Spécialement Aujourd'hui , Institut supérieur de philosophie, Neuve, Louvain) Peeters

- هابرماس ، يورغين (1999) ،التقنية و العلم كايديولوجيا، ، ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة .

WILLM ,Joseph,(1949) Histoire de la philosophie allemande depuis Kant jusqu'à Hegel, Paris, tome quatrième, Librairie philosophique de la Drange, quai des Grands Augustins..

– لو فيفر، جان بيار (1993) هيجل و المجتمع ، بيروت، لبنان. الطبعة الاؤلى.

– هابر ماس، يورغن(2001) ، المعرفة و المصلحة، ط1، مصر، منشورات الجمل.

Baudart, Anne, (2004), La morale et sa philosophie, Paris, Librairie philosophique J. Vrin.

- Greish, Jean, (2000) le Cogito Herméneutique –L'herméneutique Philosophique et L'héritage Cartésien, Paris, Temps moderne, librairie philosophique J.Vrin.

HAAR , Michel,(2002) Heidegger et l'essence de l'homme , Paris, Edition Mellon, collection krisis.

Pascal, Engel , (1994) , davidson et la philosophie du langage, L'intérrogation philosophique, collection dirigée par michel meyer, , paris presse universitaire de France

HOTTOIS, Gilbert, (1989) , Du sens commun a la société de communication, étude de philosophie du langage, Paris, Librairie philosophique J. Vrin..

- BAZEBIZONZA, Raphaël :L'Etat de droit entre la domination et la rationalité communicationelle, par la Faculté de Philosophie Saint Pierre Canisius de Kimwenza. http://www.memoireonline.com/08/09/2525/m

فيري، جان مارك، (2006) فلسفة التواصل، الطبعة الاؤلى، الجزائر ، منشورات الاختلاف.

–LADRIERE, Jean,(2000) , La responsabilité de la raison Hommage à Jean Ladrière à l'occasion de son 80e anniversaire, Paris Bibliothèque Philosophique de Louvain -.

- Chauvire, Christiane, (2003) Le Grand Miroir - Essais sur Peirce et sur Wittgenstein, Paris, Editeur, PU de Franche-Comté..

- Thomas –Fogiel, Isabelle, 2006 : Référence Et Autoréférence: Etude sur la mort de la philosophie dans la pensée Contemporaine, Paris,Vrin.

- Apel ,Karl otto, (1981), « la question de la fondation ultime de la raison »,critique .

- Robert et Raphaël Celis,(1988) : La Voix des Phénomènes, Brisart

Contributions à une Phénoménologie du Sens et des Affects, Ed. G. Florival, Paris, Bibliothèque philosophique de Louvain..

-Grondin, Jean ,(1989) Kant et le problème de la philosophie l'A Priori, , Paris, Librairie philosophique Vrin.

Cossutta, Frédéric.(2003, 25 Avril). Pour une critique sceptique de la pragmatique transcendantale de K. O. Appel, [En-ligne], 3- 2003, mis en ligne le 05 avril URL : http://methodos.revues.org/118

- Apel, Karl Otto, (30 avril 1990). Penser avec Habermas contre Habermas, (30 avril 1990). Editions de l'éclat.

تاريخ الاستلام: 2017/01/30- تاريخ التحكيم: 2017/03/25 -تاريخ النشر 2017/06/02

الحوكمة الجامعية والمقاربة الحديثة في تسيير مؤسسات التعليم العالي

د. سمير بارة

جامعة قاصدي مرباح ورقلة- (الجزائر)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص:

تعتبر الحوكمة الجامعية من أهم المقاربات الحديثة التي اتبعتها مؤسسات التعليم العالي حاليا، في ظل تزايد التحديات المعاصرة، وتعقد وديناميكية البيئة المحيطة بالجامعات المعاصرة، ووفقا لإيجابيات تطبيقها فقد حققت نتائج فعالة على مستوى المخرجات التعليمية، مضاهية بذلك كبرى المؤسسات الاقتصادية، التي تتميز بجودة خدماتها، ووفق لذلك تتجلى أهمية هذه الدراسة التي تهدف إلى الكشف عن طبيعة الحوكمة الجامعية كمقاربة حديثة، وكيفية تطبيقها، ومميزاتها بعد التطرق لأهم التجارب العالمية والعربية لها.

الكلمات المفتاحية: الحوكمة الجامعية، الجامعة، الجودة.

Abstract:

The university governance of the most modern approaches followed by institutions of higher education, in the light of contemporary challenges, the complexity of the dynamic environment surrounding contemporary universities, in accordance with the positives of applied had achieved effective results on the level of the educational output, matching the major economic institutions, which features the quality of its services, approved that reflected the importance of this study to reveal the nature of the university governance كمقاربة modern, and how to apply, the traits after addressing the most important global experiences and Arabic.

Keywords: University Governance, University, Quality.

مقدمة:

تعتبر الحوكمة من الموضوعات الهامة ومن المقاربات الحديثة والمعاصرة، التي جرى تطبيقها في كافة المؤسسات والمنظمات المحلية والوطنية والإقليمية والدولية، وهذا جراء ما حدث خاصة بعد سلسلة الأزمات المالية المختلفة التي وقعت في الكثير من الشركات والمؤسسات العالمية في نهاية القرن الماضي.

وإذا كانت مهمة الجامعات اليوم كمؤسسات تعليمية هو تحقيق ثالوث نشر المعرفة، والتعليم والتكوين، وخدمة المجتمع، فإن هذه الوظائف حاليا لا تقوم لها قائمة في ظل التحديات المعاصرة والبيئة الديناميكية المحيطة بالجامعة إلا بانتهاج العديد من الآليات والمقاربات الحديثة، التي ذاع انتشارها وأهميتها الميدانية عبر دول العالم، وأهمها مقاربة الحوكمة، والتي تعبر على مجموعة من الإجراءات والعمليات التي يتم من خلالها توجيه المنظمات، وفق منهجية أساسها تحديد وتوزيع الحقوق والمسؤوليات على مختلف الأطراف في المنظمة، من مجلس إدارة ومدراء ومساهمين وغيرهم من أصحاب المصلحة، ووجود نظام فعال لصنع القرارات وتحقيق الفعالية فيها.

إن الأزمات التي تواجهها الجامعات المعاصرة وخاصة العربية، من ارتفاع تكلفة التعليم الجامعي، والاكتظاظ الطلابي، وتحدي الجودة التعليمية،.. وغيرها كثير، يدعو إلى الوقوف على ضرورة معرفة جوهر الحوكمة وتطبيقها، نظرا للأثر الذي تحدثه من جراء تطبيقها على مواجهة مشكلات الجامعات اليوم، وخاصة على متلقي الخدمة التعليمية.

وفقا لذلك تتجلى أهمية هذه الدراسة، والتي تنبع من أهمية موضوع الحوكمة كمقاربة حديثة، ودورها في تعزيز دور الجامعات كمنظمات تجسد التوجه نحو تطوير وتنمية المجتمع، وخلق الكادر المتميز.

لذا فإن أهم ما تهدف له هذه الورقة البحثية هو:

- كشف جوهر وطبيعة الحوكمة الجامعية كمقاربة حديثة.
- كشف كيفية تطبيق الحوكمة الجامعية ودورها في تحقيق الجودة الشاملة.
- تحديد إيجابياتها في ظل تقييم تجارب تطبيقها على المستوى العالمي والعربي.

وعليه سأناقش في ظل هذه الأهداف والأهمية التساؤلات البحثية الآتية: فيما تتمثل طبيعة الحوكمة الجامعية كآلية ومقاربة حديثة لتسيير مؤسسات التعليم العالي؟ وكيف يتجلى دورها في تحقيق الجودة الشاملة وفقا للتجارب الميدانية لها عربيا وعالميا؟

وبانتهاج المنهج الوصفي التحليلي، سأحاول الإجابة على هذه التساؤلات وتحليلها وإثراء هذا الموضوع، وذلك باتباع المحاور الآتية:

أولا: الحوكمة الجامعية: أساسيات في الماهية

1. مفهوم وأهمية الحوكمة الجامعية:

بالرجوع إلى الأدبيات التي تناولت مفهوم الحوكمة على المستوى المؤسسات الدولية أو على مستوى الباحثين، سنجد أن هذا المصطلح شكل جدلا مفاهيميا عميقا، سواء بخصوص أصل ونشأة المصطلح، أو مدلوله.

فمن حيث أصله ونشأته، عرف مصطلح Good Gouvernance عدة ترجمات إلى اللغة العربية، عكستها عدة مصطلحات تشير إليه نذكر منها: الحكمانية، الحاكمية، الحكم، إدارة الحكم، إدارة شؤون الدولة والمجتمع، الحكم الصالح، الحكم الراشد وتفسر طبيعة العلوم الإنسانية والإجتماعية تعدد هذه الترجمات، ففي الوقت الذي تبنت فيه العديد من مراكز الدراسات والبحوث مثل المنظمة العربية للعلوم الإدارية مصطلح الحكمانية كترجمة لـ Good Governance تبنى مجمع اللغة العربية ترجمة الحوكمة.(باروت، 2004، ص174)

في حين ترى (الشعراوي،2001، ص3) أن أنسب ترجمة لهذا المصطلح هي إدارة شؤون الدولة والمجتمع، لكن ما تم تداوله في معظم الكتابات والأدبيات الأكاديمية هو مصطلح الحكم الراشد أو الحوكمة.

فقبل أن يدخل مفهوم الحكم الراشد "La Bonne Gouvernance " في أدبيات السياسة والإقتصاد، كان يعبر عن كيفية إدارة السياقة أو إدارة التسيير مجمع إجتماعى معين (Jessop,1998,p32)، وكان يشمل جزئيا مفهوم الحكومة "Gouvernement"فحسب "Gary Stoker" يمكن إرجاع أصل الكلمة إلى تعابير كانت تستعمل للدلالة على قيادة السفن في العصرين اللاآتيني و اليوناني القديمين (deAlcantara, 1998, p115)، ومنذ ذلك الحين بقي المفهوم يستعمل

أساسا و لمدة طويلة في القضايا ذات العلاقة بالمسائل الدستورية والقانونية المتعلقة بتسيير شؤون الدولة المدينة أو إدارة بعض المؤسسات المهنية.

إلى أن تم استخدامه من طرف المؤسسات المالية الدولية وعلى رأسها البنك العالمي حيث استعمل مفهوم الحكم الراشد"Good Governance" ولأول مرة في تقريره السنوي لعام 1992 المعنون بـ "Governance and Development" (The World Bank, 1992,p1)

وبتتبع التعريفات المقدمة له، يتضح أن هذا المفهوم ظهر في الأدبيات الاقتصادية على مستوى الشركات، وقد تم استعارته من طرف الباحثين في مجال التعليم العالي، ليتم تكييفه وتطبيقه على مستوى المؤسسات الجامعية باعتبارها مؤسسات خدمية، نظرا لما أصبحت تعانيه هذه المؤسسات من أزمات متعددة المستويات، ورغم ذلك هناك عدم إجماع حول تعريف الحوكمة الجامعية ونشأتها.

فقد ظهر مفهوم حوكمة الجامعات في الآونة الأخيرة ليعبر عن الأزمة الحقيقية التي تمر بها مؤسسة الجامعة والحلول المقترحة لها، تلك الأزمة التي تتمثل في أن هناك إدارات جامعية وضعتها السلطة التنفيذية فوق الطلاب وأعضاء هيئة التدريس، لتكون مهمتها اتخاذ القرارات المتعلقة بشؤون هؤلاء، دون أن يكون لأي منهم(الطلاب، أعضاء هيئة التدريس) حق مناقشة هذه القرارات أو الإعتراض عليها. وهو ما يعزز استمرار ثقافة العزوف عن المشاركة في الحياة العامة سواء داخل الجامعة أو خارجها، كما يضعف تطور الجامعة بوصفها المؤسسة الأكاديمية المفترض فيها أن تعيد صياغة التوجهات الثقافية والعرفية والعلمية للمجتمع، نظرا لوضع القرار في يد طرف واحد من أطراف المؤسسة الجامعية، ووضع باقي الأطراف من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس في وضع المتلقي لهذه القرارات والملتزم بتنفيذها دون مناقشة. (حلاوة وطه، 2013، ص89)

ومن حيث النشأة أكد (Yang,2007,p12) أن الولايات المتحدة الأمريكية قامت بتفعيل نظم الرقابة على التعليم الجامعي، وتحقيق ضمان مستوى جيد من الأداء الجامعي، ودعم القرارات الجامعية القائمة على المشاركة، وتدعيم اللامركزية، والإدارة الذاتية، وبذلك تعد الرائدة في تطبيق هذا المفهوم عالميا.

أما من حيث التعريف فقد تعددت واختلفت، حيث يعرفها البنك الدولي (The World Bank, 2000, p59) بأنها السلوكيات التي تعبر عن كيفية ممارسة السلطة وتحقق الرقابة الذاتية للجامعات، بحيث تركز على بنية هيكل ووظيفة مؤسسات التعليم الجامعي ككل، والإطار التنظيمي والتشريعي للرقابة عليها، وأدوار ومسؤوليات الإدارة الجامعية، وعلاقتها بالمجتمع، ومدى محاولتها لتحقيق الجودة والتميز في الأداء الجامعي.

يرى كل من (Berman and Jekowski,2002, p5) أن الحوكمة الجامعية تعبر عن مجموعة من القوانين والنظم والقرارات التي تهدف إلى تحقيق الجودة، والتميز في الأداء عن طريق اختيار الأساليب المناسبة والفعالة لتحقيق خطط وأهداف المؤسسة الجامعية، وتحقيق النجاح التنظيمي، والإدارة الجامعية المتميزة، إلى جانب تنظيم العمليات، والعلاقات بين الجامعات، والجهات المعنية الأخرى.

ف ي حين يعرفها (العريني، 2014، ص 118) أن الحوكمة في الجامعات عبارة عن قُدرة الجامعات على تحقيق أهدافها، بمستوى عال من الجودة، وتحسين أدائها باتباع خطط فاعلة، وأساليب مناسبة من خلال الإدارة الرشيدة".

أما (نعمة، 2011، ص 511) يعرفها بأنها كيفية توجيه المنظمة لنفسها وللعمليات وللنظم داخل هذه المؤسسات، وأنظمة اتخاذ القرار وعلاقات هذه المؤسسات مع الهيئات الأكاديمية المختلفة داخلها ومع الدولة وعالم الأعمال والمجتمع خارجها".

ويعرفها كل من (خورشيد ويوسف، 2009، ص 13) بأنها "مجموعة من القوانين والأنظمة والتعليمات التي تهدف إلى تحقيق الجودة الشاملة والتميّز في الأداء عن طريق اختيار الإستراتيجيات المناسبة والفعّالة لتحقيق غايات الجامعة وأهدافها الاستراتيجية، وهي بذلك تعني النُظم التي تحكم العلاقات بين الأطراف الأساسية التي تؤثّر في الأداء، كما تشمل مقوّمات تقوية الجامعة على المدى البعيد وتحديد المسؤول والمسؤوليّة".

ويرى (ناصر الدين، 2012، ص9) أن الحاكمية الجامعية نظام لمواجهة الاستبداد الإداري في الجامعات، الذي توجده العلاقة الهرمية بين الرؤساء والمرؤوسين أو بين مصدري القرارات والمتلقين لها، وهي بذلك:

- مجموعة من الأنظمة الخاصة بالرقابة على أداء الجامعة.
- تنظيم للعلاقات بين مجالس حاكمية الجامعة (مجلس الأمناء، مجلس الجامعة، مجلس العمداء).
- مجموعة من القواعد يتم بموجبها إدارة الجامعة والرقابة عليها وفق هيكل معين يتضمن توزيع الحقوق والواجبات فيما بين إدارة الجامعة ومجالس حوكمة الجامعة بما يضمن جودة مخرجات الجامعة.

كما يرى (عزت، 2009، ص12) أن الحوكمة في الجامعات عبارة عن منظومة متكاملة تتمثل في مجموعة من القوانين والأنظمة والتعليمات التي تهدف إلى جودة العمليات، والمخرجات وتميزها، وذلك من خلال اختيار الاستراتيجيات المناسبة والفعالة لتحقيق غايات الجامعة.

وعليه نخلص للقول أن مفهوم الحوكمة الجامعية هي مجموع الآليات التي تستخدمها الجامعة لإدارة مؤسستها، ولتحديد وتطبيق أهدافها، على كافة المستويات سواء على المستوى الأكاديمي أو البيداغوجي أو الوظيفي أو المالي، وأهم هذه الآليات هي: الشفافية، والمساءلة، والرقابة، والاستجابية، والاستقلالية، والعدالة، والرؤية الاستراتيجية، والفاعلية.

ومن التعاريف السابقة نستنتج أن تطبيق الحوكمة كآلية وعملية على مستوى المؤسسات الجامعية ضرورة لا بد منها، ولعل أهم مبررات اتباع نهج الحوكمة بمؤسسات التعليم العالي هي:

- التوسع في أنظمة التعليم العالي بسبب تزايد أعداد المستفيدين من خدماته.
- التنوع في الوسائل المستخدمة وتعدد عروض الخدمات التعليمية.
- ظهور أشكال جديدة للتعليم العالي.
- اعتماد البحث العلمي والإبداع كروافع لمخرجات مؤسسات التعليم العالي.
- تنوع الأطراف المستفيدة من الخدمات التعليمية.
- اعتماد الحكمانية كأداة رئيسية لتحسين الجودة في مجال التعليم العالي.
- السعي المتواصل لمؤسسات التعليم العالي لتطبيق خصائص الحكمانية لزيادة قدرتها على مواجهة تحديات الأزمة المالية. (الطائي، 2012، ص 443)

إن هذه المبررات تحتم على المسؤولين الجامعيين تبني الحوكمة، لما لها من فوائد عديدة، أهمها أن تطبيق الحوكمة يعمل على تعظيم قيمة الجامعة ومقدرتها التنافسية، وخاصة في مجال مخرجاتها ووضعها الإقليمي والعالمي، وبذلك فهي تعمل على تحديد الاتجاه

الاستراتيجي للجامعة عن طريق اتخاذ القرارات الاستراتيجية الصائبة للمحافظة على الموارد والمكاسب المادية والمعنوية للجامعة.(ناصر الدين، 2012، ص 6)،وبشكل عام يمكن تحديد أهميتها في إدارة الجامعات كما يلي:

- تُسهم في إيجاد مؤسسات مستقلة، لها مجالس وهيئات حاكمة مسؤولة عن تحديد الاتجاه الإستراتيجي لهذه المؤسسات، والتأكّد من فعالية إدارتها.
- مساعدة الجامعات في تحقيق أهدافها بأفضل السبل الممكنة.
- تفيد في الكشف عن أوجه القصور في الأداء وضعف المخرجات.
- ضمان التّوازن بين المسؤوليات الاستراتيجية بعيدة المدى، والمسؤوليات التشغيلية قصيرة المدى.
- تساعد الحوكمة في تعزيز القدرة التنافسية، وتجنب الفساد الإداري والمالي للجامعات.
- ضمان موارد الجامعات والاستثمار الأمثل لها.
- تضمن حقوق ومصالح العاملين من الهيئتين الإدارية والأكاديمية دون تمييز.
- تعتبر الحوكمة نظام رقابة واشراف ذاتي، والذي يؤدي إلى سلامة التطبيق القانوني للتشريعات، وبالتالي حُسن الإدارة وضمان حقوق العاملين وذلك يحقق رضا المجتمع عن الجامعات وأدائها.

(العريني، 2014، ص118)

إن هذه الأهمية التي تكتسيها الحوكمة الجامعية هي نتيجة حتمية لما تهدف إليه من غايات وأهداف أهمها:

- تعزيز فاعلية الجامعات، وزيادة كفاءتها الداخلية والخارجية من خلال تكوين بيئة صالحه للعمل.
- وضع القوانين والقواعد التي يسترشد بها قيادات ومسؤولي الجامعات في تولي الأعمال الإدارية، بما يكفل الديمقراطية والعدالة لجميع الأطراف المعنية.
- تعزيز مشاركة جميع الأطراف من الأعضاء الأكاديميين والإداريين، والقيادات، والطلاب في عمليات صنع القرارات.
- تحقيق العدالة والمساواة بين العاملين في الجامعات؛ للحصول على أداء مرتفع من جميع الفئات.
- توفير حق المحاسبية والمساءلة لجميع الأطراف المستفيدة من وجود الجامعات.
- تحقيق الشّفافية من خلال العمل وفق آليات، وأطر تتسم بالوضوح، وتمكّن العاملين من ممارسة أعمالهم بشكل كامل، ومساعدتهم على العطاء، والمشاركة الفاعلة في جميع الأنشطة داخل وخارج الجامعات.(العريني، 2014، ص119).

إن ما حققته الحوكمة من نجاحات على مستوى المؤسسات الاقتصادية كفيل بأن يُحقق على مستوى المؤسسات الخدماتية، والجامعات أهمها، يبقى أن على صانعي القرار التعليمي ومنفذيه على مستواها أن يرفعوا تحدي تحقيق هذه الأهداف ويلتزموا بضرورة تطبيق مبادئها وآلياتها بالشكل الذي يساهم منطقيا في تعزيز نهجها.

2. مبادئ وأشكال الحوكمة الجامعية:

على غرار المبادئ التي جاءت بها المؤسسات الدولية فيما يخص الحوكمة بشكل عام كمبادئ البنك الدولي (WB) والبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP)، ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) فإن مبادئ تطبيق الحوكمة الجامعية لم تخرج عن تلك المبادئ، وقد لخص (الفرا ،2013، ص 5) أهم تلك المبادئ في:

1. وجود رؤية استراتيجية واضحة للمؤسسة تراعي بيئة المؤسسة الداخلية والخارجية.
2. التوزيع المتوازن للمسؤوليات بين مجلس الإدارة والإدارة التنفيذية والمستفيذين بما يضمن الكفاءة والفعالية في الأداء.
3. الشفافية والإفصاح الكافي عن أداء المؤسسة المالي وغير المالي.
4. وجود نظام متكامل للمحاسبة والمساءلة مع تطبيقه على جميع متخذي القرار.
5. وجود أنظمة وسياسات وإجراءات واضحة للمؤسسة، تضمن السلاسة والتجاوب السريع عند التعامل معها، إضافة إلى التفاعل مع قضايا المجتمع ذات العلاقة بنشاط المؤسسة.

كما خلص (السوادي، 2015، ص 42-44) باستقراء العديد من الكتابات في هذا المجال إلى أن أهم مبادئ تطبيق الحوكمة في الجامعات هي:

- الإفصاح والشفافية – المساواة والعدالة – صيانة حقوق أعضاء مجلس الجامعة – ضمان حقوق أصحاب المصلحة- مسؤولية مجلس الجامعة – تجنب تضارب المصالح لأعضاء مجلس الجامعة – السلطة – الاستشارة – التمثيل – الاتصال – المشاركة – التقييم – المساءلة – الفعالية – المراجعة الداخلية والخارجية – الاستقرار المالي – الحرية الأكاديمية.

هذه المبادئ هي في الحقيقة تعد أيضا آليات استراتيجية يعتمد عليها في تطبيق الحوكمة، ولا تقوم قائمة إلا بها. أما عن أهم أشكال الحوكمة الجامعية فقد لخصها (الضحاوي، 2011، ص 60-61) في:

- الحوكمة الأكاديمية التشاركية: وهي مجموعة من الممارسات والنشاطات التي في ظلها تقوم المؤسسات الجامعية وأعضاء هيئة التدريس العاملين فيها، بالمشاركة الفعالة في عمليات صنع القرار المرتبطة بالعمل.
- التنظيم الخارجي: ويشير إلى سلطة الإدارة العليا، او سلطة الدولة، وحقها في وضع اللوائح والقوانين الحاكمة لعمل المؤسسات الجامعية.
- الرقابة الخارجية: وتشير إلى عمليات التوجيه والرقابة المستمرة من المساهمين والمعنيين وأصحاب المصالح كأعضاء في مجلس إدارة المؤسسة الجامعية، والذين تم تفويض بعض السلطات لديهم من قبل الإدارة العليا.
- الحوكمة الإدارية الذاتية: وتشير إلى أدوار ومسؤوليات القيادة الإدارية وإدارة الأفراد العاملين بالمؤسسة الجامعية، والتي تضع الأهداف، وتتخذ القرارات في الاتجاه والسلوك الذي تتقبله المؤسسة.
- الحوكمة الأكاديمية الذاتية: وتشير إلى عمليات الرقابة الذاتية وإدارة أداء أعضاء هيئة التدريس ذاتيا وفقا لمهامهم الوظيفية.
- الحوكمة الإلكترونية: تشمل العمليات والإجراءات التي تضمن توصيل الخدمات الإلكترونية والمعلومات عن المؤسسة الجامعية لعملائها الداخليين والخارجيين باستخدام تكنولوجيا المعلومات.

هذه الأشكال وغيرها كثير نظرا لتطور المنظومة الجامعية عالميا، تعتبر الواجهة التي من خلالها تظهر الحوكمة الجامعية، وباعتبار الجامعة كمنظومة تتعدد ممارساتها وعملياتها، فهذا يجعل من أشكال الحوكمة متعددة أيضا، وهذا ما يفرض تحدي الإلتزام بها.

ثانيا: كيفية تطبيق الحوكمة الجامعية ودورها في تحقيق الجودة الشاملة:

إن تطبيق مقاربة الحوكمة الجامعية ينطلق من وجود آليات ومراحل تسلسلية من خلالها يتم ضمان التحقيق الفعال لها وهي:

1. آليات تطبيق الحوكمة الجامعية: ويمكن تقسيمها إلى آليات تعزيز المشاركة وآليات تعزيز الرقابة وآليات تعزيز المنظور الاستراتيجي.

1.1. آليات تعزيز الرقابة:

إن من أهم العوامل الأساسية لنجاح حوكمة مؤسسات التعليم العالي هي مدى الاحترام والتقيد بمبادئ الحوكمة المؤسسية ذلك أنها تساهم في إصباغ صفة الحوكمة المؤسسية عليها، وتتمثل أهم مبادئ حوكمة مؤسسات التعليم العالي التي تساهم في تعزيز آليات الرقابة الداخلية والخارجية في:

– الشفافية Transparency: تنبني على تقاسم المعلومات والتصرف بطريقة مكشوفة ووفق إجراءات واضحة لكيفية صنع القرار، والوضوح والتبيان في كل مجالات العمل التي تتم بين الإدارة العليا والمستويات الإدارية الأخرى، وتكون المعلومات متاحة للجميع كل حسب اختصاصه من أداء المهام. (عثماني، 2015، ص 09)

وبالتالي إن الجامعات يجب أن تراعي الشفافية عن طريق نشر وتوضيح ايراداتها ومصروفاتها المالية للمجتمع المحلي، وتوضيح الحقوق والواجبات لجميع منتسبيها، وغرس المصداقية والثقة فيهم، ومنحهم المعلومات التي يحتاجونها في أي في وقت. وكذا إعداد أدلة إرشادية واضحة لخطوات إنهاء المعاملات، وتقبل الاقتراحات والشكاوى.

– المساءلة Accountability: أي مدى تواجد جهات وسبل لمساءلة كل فاعل من الفواعل في الجامعة، بالإضافة إلى الممارسات والخطوات التي يتم اتخاذها فعليا لمساءلته ومحاسبته ماليا، قانونيا، إداريا وفنيا (خضري، 2012، ص 77)، ويتم ذلك باتخاذ العديد من الإجراءات أهمها: تحديد مسؤوليات كل العاملين في الجامعة وجود لائحة نظامية لمساءلتهم، ووجود قوانين تكفل ذلك، مع تطبيقها بكل موضوعية، وتطبيق نظام مجزي للعقاب والثواب، ووجود نظام فعال للرقابة، مع تحديد أسس ومعايير جودة الأداء.

وهي بذلك ستساهم في قياس الانجاز والتقدم المحرز في بلوغ الأهداف، ويجب أن تكون المساءلة تتميز بالوضوح في تحديد خطوط المساءلة والرقابة على جميع المستويات، وهي بذلك تتضمن: الأساليب المستخدمة لتقييم الأداء، نظام للمراجعة المالية، اعتماد إجراءات إدارة المخاطر والتعامل مع سوء الإدارة.(العابدي، 2013، ص 68)

– اللامركزية والاستقلالية: Decentralization and Autonomy

استقلالية الجامعات تعني عدم خضوعها إلى السيطرة الخارجية في المسائل المتعلقة بالفعاليات الأكاديمية وصياغة وتنفيذ السياسات والبرامج التعليمية، وأن تدار من قبل إدارة معينة أو منتخبة من قبل هذه المؤسسات و ليس من خارجها، بمعنى التمتع بشخصية مستقلة بما يتناسب وبيئتها المحلية، مع وجود نظام مالي مستقل، ولوائح تنظم الحرية الأكاديمية، وبناء هياكلها التنظيمية وممارسة وظائفها وفقا لذلك دون أي تدخل خارجي، مع ترك إدراة كافة شؤونها العلمية والبيداغوجية لها دون التأثير عليها.(السوادي، 2015، ص46).

وعليه تتضمن استقلالية الجامعات ثلاثة أبعاد هي:

1.الاستقلالية المؤسساتية أي مدى قدرة وسلطة المؤسسات في تحديد أهدافها الخاصة وتعيين مجلس إدارتها والموظفين والأكاديميين.

2.الاستقلالية المالية: قدرة هذه المؤسسات على الحصول على التمويل وتحديد الرسوم الدراسية وامتلاك الإدارة و المباني.
3.الاستقلالية الأكاديمية(الحرية الأكاديمية): وهي التي تكفل حرية التعبير وحرية العمل ونشر المعلومات و البحوث و المعرفة دون قيود.

ومهما يكن فان الاستقلالية واللامركزية مفهومان مرتبطان فالاستقلالية تتحقق بقدر تجسيد اللامركزية في جميع المستويات المالية، الإدارية والبيداغوجية.

2.1. آليات تعزيز المشاركة: حتى يكون هناك تدعيم وتعزيز لحوكمة مؤسسات التعليم العالي وحتى تؤتي النتائج المتوخاة منها، فانه يجب إيفائها لمجموعة من المبادئ وأهمها:

– المشاركة والاستجابية: Participation and responsiveness

لتحقيق الحوكمة يجب أن تكون هناك مشاركة لجميع الأطراف الجامعية في صناعة القرارات، والمشاركة تكون في جميع معاملات المؤسسة سواء في السياسات العامة للمؤسسة كيفية تحديد مصادر التمويل، في وضع الخطط الإستراتيجية، آليات الرقابة أو تحديد قواعد الحوكمة، وهي بذلك تتضمن عمليات الاستشارة والإصغاء لجميع الأطراف المعنية وتوزيع السلطة.

إذا هي تتضمن اتاحة الفرص لكافة المنتسبين لها، وكذا المجتمع المحلي في عملية صنع القرارات، وبمراعاة الصالح العام في ذلك، مع تبني أسلوب الحوار والشورى في ذلك، وتشجيع التعاون والعمل الجماعي المشترك بين كافة الأطراف.

ومن ابرز نتائج المشاركة نجد:

- زيادة المساءلة، الشفافية والثقة العامة.
- تحسين مستوى الاستجابية والتي يقصد بها قياس درجة استجابة القيادة الإدارية للمؤسسة لمشكلات واحتياجات جميع الأطراف الفاعلة ولتغيرات السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والمؤسسية المتعلقة بالتعليم العالي.(خضري، 2012، ص 77)
- تحقيق الجودة الأكاديمية والغير أكاديمية والتي تكسبها السمعة الأكاديمية والعلمية تحقيقا لرسالتها العلمية والبحثية.
- استغلال أقصى قدر من الإيرادات و تعظيم الربح والحد من التكاليف.

– حكم القانون و العدالة و المساواة: Rule of law and Quality

بمعنى توفير منظومة قانونية وتشريعية عادلة الأطر، تتضمن حقوق أصحاب المصالح ووجود جهة قيادية نزيهة وحيادية تعمل على تنفيذ هاته القوانين، وفي مؤسسات التعليم العالي فإن حكم القانون يتطلب وجود منظومة قانونية وتنظيمية تضمن حرية البحث العلمي وتشجعه وتكفل استقلالية هذه المؤسسات، وتحدد كيفية توزيع السلطات وصلاحيات كل الأطراف المعنية خاصة منها القيادة الإدارية وكيفية عمل الأجهزة الإدارية والعلمية والطلابية (السر،2015، ص 48-49)، وهذا كله في ظل المعاملة العادلة والمتساوية لجميع العناصر الفاعلة في المؤسسة.

– الفاعلية والفعالية: Efficiency and Effectiveness

تتطلب الحوكمة الجامعية تحقيق الأداء المتميز الذي هو انعكاس لكيفية استغلال المنظمة لمواردها المادية والبشرية وبالصورة التي تجعلها قادرة على تحقيق أهدافها، وهذا يكون عن طريق تفعيل مبدأ الفاعلية والفعالية، فهما تعتبران مؤشران مهمان لقياس الأداء

من خلال تحقيق مدى جودة الخدمات ودرجة استقلالية عمل هذه المؤسسات وجودة الأنظمة وتطبيقها ومصداقية الالتزام بها. (البسام، 2014، ص187)، ويتم قياس الفاعلية الجامعية على أساس الخدمات المقدمة وتطوير القوى العاملة، والتنسيق بين المناهج التعليمية، وضبط المصروفات والعلاقات بين الطلاب والعاملين والسمعة العامة لها لدى الغير. (آل ياسين، 2012، ص63)

3.1. آلية تعزيز الإستراتيجية

لتحقيق الإستمرارية في الحوكمة الجامعية يجب تبني رؤى مستقبلية تساعد على ذلك، أهمها **الرؤية الإستراتيجية: Strategic Vision** وهي التوجه المستقبلي للجامعة ولمسار أعمالها، ترشدها لمكانة متميزة مستقبلا، تضمن استمراريتها وبالتالي الكفاءة في خدمة المجتمع.

وصياغة الرؤية الإستراتيجية داخل الجامعة تحتاج إلى مشاركة جميع العناصر الفاعلة فيها لضمان الوصول إلى أفضل رؤية معبرة عن طموحات المؤسسة (دويدار،2012، ص130)، إن الرؤية الإستراتيجية ما هي إلا مرحلة أولية يتم على أساسها إعداد خطة إستراتيجية (التخطيط الاستراتيجي) تحدد أهداف المؤسسة وكيفية تحقيقها.

كما أنها حسب (فاروق جعفر، 2012، ص 164) عملية تهدف على مستوى المؤسسات الجامعية إلى تطوير وتحسين البيئة الدراسية والتعليمية من خلال دراسة التغيرات المستقبلية التي يمكن أن تواجه هده المؤسسات ووضع خطط إستراتيجية للتعامل معها.

هذا عن أهم الآليات، وهنا نشير أيضا من باب المساهمة الدولية في إثرائها، ما قدمه البنك الدولي في سنة 2013م (كاراميو، 2013، ص18-31) من تطوير لبطاقة فحص للحوكمة الجامعات، وهي خاصة بمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وهي كأداة قياسية تتيح للجامعات في المنطقة قياس مستواها مقارنة بالجامعات العريقة في العالم، وهي تتكون من خمسة معايير:

1. السياق العام والرسالة والأهداف.

- توجه الإدارة.
- الاستقلالية.
- المساءلة.
- المشاركة.

وقد تم تطبيقها على 100 جامعة حكومية وخاصة في الجزائر ومصر والمغرب وتونس ولبنان والعراق وفلسطين، وكشفت الدراسة في مجال تطبيق هاته الآليات، أن الجامعات الجزائرية (22 جامعة) مقيدة مركزيا، أي نسبة استقلاليتها ضعيفة جدا، تغيب فيها مؤشرات الأداء اللازمة لتحقيق النتائج على المستوى الإداري، ورغم أنها تتبع نظام مجزي للحوافز، إلا أنه في ربع جامعات العينة لا يوجد نظام لضمان الجودة فعال، بالإضافة إلى ضعف نظام المساءلة والمسؤولية الإجتماعية، والنزاهة المالية، أما بخصوص المشاركة فهي تفتقر لإشراك ذوي المصلحة من طلاب وغيرهم في قراراتها وسياساتها.

2. مراحل تطبيق الحوكمة الجامعية:

لتجسيد الحوكمة الجامعية على أرض الواقع، فإن ذلك يتطلب تتبع مراحل محددة وهي:

1. مرحلة التعريف بالحوكمة الجامعية: من حيث معالمها أبعادها وأهدافها وأهميتها وأدواتها ووسائلها، كما يتم هنا التّفرقة بين الحوكمة كثقافة، وكأسلوب إداري يتم الالتزام به، حيث يتم توضيح طبيعة الحوكمة ومنهجها بشكل وافي.
2. مرحلة بناء البنية التحتية الأساسية للحوكمة القادرة على توفير كل الظروف الضرورية لتحقيقها.
3. مرحلة عمل برنامج قياسي للحوكمة بحيث يتم وضع برنامج زمني محدد الأعمال والمهام، حتى يمكن متابعة مدى التّقدم في تنفيذ الحوكمة الجامعية، وكذا تحديد المعوقات التي تحول دون التنفيذ الفعال.
4. مرحلة التنفيذ والتي تتطلب عدد من الممارسات كاستقلالية السلطة، الشفافية، المسالة... ودراستها وتحليلها لتحديد مواطن الضعف في التنفيذ .
5. مرحلة المتابعة والتطوير وهذا بالتأكد من حسن التنفيذ والرقابة والمراجعات الداخلية والخارجية والتدقيق في آلية التنفيذ والإجراءات والعمليات الإدارية. (ضحاوي، 2011، ص66-67)

إن المرحلية في تطبيق الحوكمة الجامعية ضروري، وهي كنمط وأسلوب حديث لا تحقق فعاليتها إلا بالإلتزام بآلياتها وفقا لمراحل تخضع للتسلسلية والتراتبية.

3. مؤشرات مدى فعالية الحوكمة الجامعية:

هناك مجموعة من المؤشرات التي يتم بموجبها قياس مدى فعالية الحوكمة الجامعية، من خلال مجموعة معايير تعكس وتوضح بصفة عامة القيم التي تسود وتؤثر في تطبيق حوكمة الجامعات وهي:

- وجود بيان بالقوانين والأنظمة والتعليمات المتضمنة لأفضل أساليب ممارسة سلطة مجالس الحوكمة العليا في الجامعة وقياداتها الإدارية.
- مدى المشاركة النسبية لغير أعضاء مجالس الحوكمة والمديرين في صنع القرارات وفي توجيه مسار العمل في الجامعة.
- مدى وجود فصل وتقسيم العمل وأدوار مجالس الحوكمة والموظفين في الجامعة.
- مدى وجود لجان رئيسة تابعة لمجالس الحوكمة تتناول الأعمال التي تحتاج إلى بحث ودراسة تفصيلية.
- مدى درجة الإفصاح عن رواتب ومكافآت أعضاء مجالس الحوكمة والموظفين وما يتصل بها من إنجازات وأعمال تم القيام بها، ومدى ما حققه كل منهم من نتائج واتساقها مع ما يتم التعاقد عليه معه.(ناصر الدين، 2012، ص17).

ورغم أن العديد من الجامعات في دول العالم حاولت تطبيق هذه المؤشرات للتأكد من مدى تطبيق الحوكمة، إلا أن البيئة الجامعية تبقى تفرز العديد من المعيقات والصعوبات تحول دون ذلك، لعل أهمها التشتت القانوني لمبادئ الحوكمة، والثقافة السائدة في البيئة الجامعية سواء الداخلية (التنظيمية) أو الخارجية (المجتمعية)، وطغيان مفاهيم المركزية بكافة أشكالها والتي تقوض تحقيق الديمقراطية والحوار والمشاركة في وضع القرارات، وضعف التعاون بين الأطراف التعليمية (طلبة، أساتذة، إداريين، أولياء..).

4. دور الحوكمة الجامعية في تحقيق الجودة الشاملة.

أكدت العديد من الدراسات كدراسة (ناصر الدين، 2012) و(حلاوة وطه،2013) و(الجوزي، 2013) و(السوادي، 2015)، وجود علاقة بين الحوكمة الجامعية وتحقيق الجودة الشاملة.

حيث تكمن العلاقة بين الحوكمة الجامعية والجودة الشاملة، في كون الحوكمة تعتبر بمثابة الأداة التنفيذية لتحقيق الهداف الأساسي للتعليم الجامعي، والمتمثل في توفير خريجين على مستوى عال من الجودة، مع الأخذ في الاعتبار أن لا يتم ذلك بمعزل عن دراسة الدور المنوط بالحوكمة الجامعية في تحقيق هذا الهدف، ففي عصرنا الحالي وهو عصر الجودة والنوعية يُنظر إلى جودة التعليم العالي باعتبارها ضرورة ملحة تتطلب توفير شروط لضمانها، ووضع الخطط الكفيلة بضبطها، وحسن إدارتها، وذلك بجانب الآليات اللازمة لتنفيذ هذه الخطط مع المعايير وأدوات القياس المناسبة لتقويم الإنجازات، والتي تستهدف بالمقام الأول إعداد خريج متميز لديه من المعارف والمهارات والخبرات الملائمة لمتطلبات سوق العمل، وهنا يأتي دور الحوكمة الرشيدة في توفير تلك المعايير. (مرعى، 2009، ص 52)

كما أنه من الصعب على مؤسسات التعليم العالي الاستجابة لمتطلبات الجودة، ما لم توجد أرضية مناسبة للحكم الراشد الذي تحدد بموجبه المسؤوليات وتصاغ في ظله الحقوق، لأنه بمثابة الإطار القانوني والعادل والعملياتي الذي يسمح للجماعات أصحاب المصالح بالمشاركة في وضع أهداف الجامعة ومراجعة نتائجها، كما يعتبر ضمانا للرشادة والكفاءة في استغلال الموارد العمومية المخصصة للتعليم العالي، وزيادة القدرة على الاستباق وحل مشكلات التعليم والتدريب والبحث والإبداع في الجامعات، حيث تضمن حوكمة الجامعات الوصول إلى الجودة وبتكاليف معقولة، والاستفادة ليس فقط من تكوين الطلبة، وإنما من تحقيق النمو الاقتصادي وتنمية المجتمع.(الجوزي، 2013، ص13-14)

كما يرى (Wang, 2010) أن حاكميّة الجامعات تُعد من المقاربات الحديثة التي حظيت باهتمامات كبيرة في السنوات الأخيرة عبر استخدامها في تحقيق الجودة الشاملة والتميّز في الأداء الجامعي، وهو المصدر أو المرجعيّة التي يُستند إليها في حُكم الجامعة.

ويرى (ناصر الدين، 2012) أيضا، أن تطبيق الحوكمة في الجامعات يعد من أهم الأنظمة الحديثة، والتي تهدف إلى تحقيق جودة القيادة والإدارة والأداء وجودة العمليات، والمخرجات وبالتالي تحقيق الجودة الشاملة، كما أن التعليم العالي بمؤسساته المختلفة يمثل الأرضية المناسبة لتطبيق قواعدها ومبادئها، وخير مثال على ذلك نجاح المملكة المتحدة في تطبيقها للحوكمة في جامعاتها، مما أسهم بشكل واضح وفاعل في بلوغ تلك الجامعات مراكز متقدمة في التصنيف العالمي للجامعات.

وعليه نخلص للقول أن الحوكمة هي آلية لتحقيق غاية الجودة، ولا يمكن عمليا فصلهما عن بعض ضمن متطلبات الخدمة التعليمية في مؤسسات التعليم العالي.

ثالثا: إيجابيات تطبيق الحوكمة وفق منظور تقييمي لتجارب عالمية وعربية

لا يمكن الحكم على مدى نجاعة مقاربة وآلية الحوكمة الجامعية إلا بعد تطبيقها، وبما أن الجامعات العريقة قدمت وما زالت تقدم نموذجا يُحتذى به، جدير بنا الحديث عنها ولو بإيجار لتوضيح كيفية تبنيها للحوكمة، مع التنويه للتجربة العربية الرائدة في ذلك، والتي لا يستهان بها.

1. تجارب عالمية:

– في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا:

معظم الجامعات الأمريكية والبريطانية تحكم بواسطة مجلس أمناء يتكون في غالب الأحوال من رجال الأعمال والمهنيين وممثلي الهيئات المختلفة ممن قدموا الهبات لصالح الجامعة إضافة إلى ممثلين للطلاب ولأعضاء هيئة التدريس من خارج الإدارة التنفيذية ويتم اختيار أعضاء المجلس عن طريق الانتخاب العام لجعل الجامعة ممثلة بشكل كبير من المجتمع الذي يقوم بدوره بمحاسبة الأعضاء وتغييرهم إذا لم يقوموا بأداء واجباتهم على نحو مناسب ولما تقتضيه مصالح مجتمعهم.

وتشير بعض الدراسات في هذا المجال أن مجلس الأمناء في الولايات المتحدة الأمريكية يتكون من عدة مجالس علمية وطلابية مختلفة، ففي جامعة شيكاغو مثلا يتكون من 07 أعضاء، وفي كاليفورنيا من 25 عضو، ويعتبر حاكم الولاية هو رئيس المجلس في أغلب الجامعات الأمريكية الحكومية، يقوم بإدارة المجلس، وهذا المجلس يتولى مهام اتخاذ القرارات التي تتعلق بتخصيص الموارد، والقرارات الإستراتيجية المختلفة، ومتابعة ومراقبة أداء الإدارة التنفيذية بالجامعة، ولتنفيذ مهامه يشكل العديد من اللجان الفرعية المساندة له في اتخاذ قراراته، مثل لجنة السياسات التعليمية ولجنة المراجعة، ويتم اختيار مدير الجامعة ممن يختارهم وصوت عليه مجلس الأمناء، بعد اختياره يعين مجلس إدارة الجامعة، الذي بدوره يقوم باختيار مجلس أكاديمي يتولى إدارة الشؤون الأكاديمية بالجامعة وتقديم التوصيات بذلك لرفعها إلى مجلس الأمناء ليتم الموافقة عليها، كما تهتم الجامعات الأمريكية بمهام الرقابة والمراجعة الداخلية. (آل عباس، 2005، ص 16-17)

وعموما إن مجالس الأمناء في الدول المتقدمة تقوم بإنتخاب أعضاء المجالس التنفيذية بالجامعة ومنها مجلس ورئيس الجامعة وعمداء الكليات وتتضمن المجالس التنفيذية أعضاء غير تنفيذيين من الأساتذة الجامعيين (يتم انتخابهم) وطلاب (يتم انتخابهم عن طريق مجلس الطلاب)، وفي بعض الجامعات البريطانية يوجد ما يسمى بالمحكمة، فوق مجلس الجامعة تناقش التقرير السنوي للجامعة وتنظر في القضايا المختلفة وتصدر قرار تعيين كل من رئيس الجامعة والرئيس التنفيذي وأعضاء المجالس الأخرى.

إن الاستقلال الأكاديمي المطلق الذي يدعو له الكثير من الأكاديميين في الدول النامية، غير موجود في جامعات الدول المتقدمة، فالجامعات أنشئت لخدمة مجتمعاتها، وهي تشعر بطلب من دولها ومجتمعاتها، وتستشعر مسؤولياتها بدورها المحلي الوطني والعالمي، تتسم بتطبيق الشفافية وقيم المساواة والعدالة، وتحقق متطلبات الهيئات المهنية الوطنية، ومؤسسات التقويم والاعتماد الوطنية والدولية، وتقدم إنتاجية تتيح لها الاستمرار في الحصول على تمويل الحكومة للتعليم والتدريب، (أبو عمة، 2016، ص 2). وقد أثبتت دراسة قام بها كل من (بزاوية وسالمي، 2011، ص17)، حول الحوكمة الجامعية في بريطانيا أن:

- أن الحاكمية تعد أحد الأنظمة الأساسية التي تهدف إلى تحقيق الجودة، كما ان التعليم العالي يمثل الأرضية المناسبة لتطبيق مبادئها.
- أثبتت التجربة البريطانية أنها تعد أهم التجارب العالمية حاليا، إذ تملك نظام معلن لتطبيق مبادئ الحوكمة، وقد أسهم ذلك وبشكل واضح في بلوغ الجامعات بها مراكز متقدمة من التصنيف العالمي.
- أثبتت الدراسة مدى ارتباط جودة التعليم العالي بنظام حوكمة الجامعات البريطانية.

مما تقدم نؤكد أن التجربة الأمريكية والبريطانية في تطبيق الحوكمة الجامعية تعد من أهم التجارب الرائدة التي تقدم إثباتا ميدانيا عن أهميتها وضرورتها كمقاربة حديثة عالمية، خاصة بعد التأكد من إيجابيات تطبيقها إن على المستوى الداخلي في تحقيق الجودة التعليمية، أو على المستوى الخارجي في علاقاتها بالمجتمع المحلي.

2. تجارب عربية :

تعتبر التجارب العربية حديثة مقارنة بالتجارب الغربية، حتى من حيث الدراسات الأكاديمية هناك نقص كبير في تغطية وتقييم حالة الحوكمة الجامعية في الدول العربية، لكن في هذا المقام سيتم التطرق لبادرتين رائدتين في ذلك وهما:

– المملكة السعودية:

حيث تؤكد العديد من المواد والنصوص القانونية مدى تكريس مقاربة حوكمة الجامعات، فما تنص عليه المواد 2 و3 و14 و15 مثلا من نظام مجلس الجامعات على حق التملك والتصرف والتقاضي وكذا تحديد الصلاحيات والمسؤوليات بشكل واضح لكل المعنيين في الجامعة (السوادي، ص65-68) ، يؤكد وجود صرح تشريعي بحاجة لتكريس فعلي ميدانيا، حيث يرى (آل عباس، 2009) في دراسته المقارنة بين الجامعات السعودية وبعض الجامعات العالمية، أن هناك ضعف في مستوى تطبيق الحوكمة، في حين أقرت دراسة (الزهراني، 2011)، أن الجامعات والكليات الأهلية السعودية تمارس الحوكمة بدرجة كبيرة من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس.

وبين التقييم الإيجابي و والتقييم الناقد لواقع الحوكمة في المملكة السعودية، تؤكد النخبة العلمية فيها أنه ولضمان تحقق الأهداف المرجوة من الجامعات، فلا بُدَّ من حوكمة عملها، وضبط الجودة فيها، وهذا يتجسد من خلال مجالس الأمناء، التي تحوكم عمل الجامعات، وتضبط الجودة في قرارات الجامعة، وتخلق نوعاً من التوازن في توزيع السلطات داخل الجامعة، وتضمن عدم هيمنة جهة واحدة على القرارات الأكاديمية والإدارية، وهذا يعني أنَّ الجميع في الجامعة يتحملون مسؤولياتهم لتحقيق الغاية الأسمى من وجود الجامعة. كما يكفل هذا مجلس منح الجامعات الاستقلالية، والسير قُدماً نحو الإصلاح المنشود بحيث يكون مجلس الأمناء في الجامعة هو السلطة العليا المسؤولة عن شؤون الجامعة الأكاديمية والإدارية والمالية فيها.

هذا وتبقى الدراسات حثيثة في هذا المجال على مستوى العديد من الجامعات السعودية، لتقديم تقييم واضح حولها، نظرا لإيمان النخبة الحاكمة والنخبة العلمية فيها بإيجابياتها وضرورتها.

– المملكة الأردنية:

تعتبر التجربة الأردنية مهمة، نظرا للمجهودات التي يبذلها صناع القرار التعليمي من تجسيد لمبادئ الحوكمة، فمثلا تنص المواد 3-25 من قانون الجامعات الأردنية 2012، (السوادي، ص61-64)، على العديد من مبادئ الحوكمة الجامعية كالاستقلالية، ووجود مجلس الأمناء ومجلس الجامعة المكونين من مسؤولون في الإدارة وفي التعليم وممثلين من الطلبة ومن المجتمع المحلي، وهذه المجالس لها من الصلاحيات التعليمية والإدارية والمالية ما يجعلها تحقق هذه المقاربة بشكل لا يستهان به.

كما أكدت العديد من الدراسات التي أجريت في الأردن وأهمها التي يتبناها مجلس حوكمة الجامعات العربية، والتي تؤكد أن هناك تطبيق للحوكمة الجامعية، وهذا ما أقرته مثلا دراسة عن جامعة الشرق الأوسط قام بها (ناصر الدين، 2012)، خلصت إلى أن واقع تطبيق الحوكمة مرتفع بشكل عام، وكان لتحفيز العاملين وتقديم الدعم لهم أثر واضح في ارتفاع مستوى تطبيقها والمحافظة عليه.

في الأخير جدير بالذكر أن معظم نتائج الدراسات المقارنة التي قام بها كل من البنك الدولي، واليونيسكو وسلطات التعليم الوطنية لتقييم تجارب الدول النامية في مجال التعليم العالي في عصر العلم والمعرفة إبان الألفية الثالثة، أوصت بضرورة الأخذ بعدد

من التوجهات والسياسات الإصلاحية لتحقيق أهداف تطوير الأداء في ظل تراجع التمويل الحكومي وتنامي الطلب المجتمعي على التعليم العالي

وفقا لما سبق وما تم ذكره من تجارب عالمية وعربية، نؤكد وبإيجاز إيجابيات تطبيق الحوكمة الجامعية، وفي ظل الأهمية التي سبق التطرق لها، في كونها:

- باعتبار أن حوكمة المؤسسات تحقق ثقة أكبر في القدرة على توليد العوائد، وحماية حقوق المساهمين وغيرهم من الأطراف المعنية، والسماح بإفصاح أكبر عن المعلومات، الأمر الذي يحسّن فرص الحصول على رأسس المال ويقلّل تكلفته، وتحسين سمعة المؤسّسة، وتقليل المخاطر لأدنى حدّ، وتدعم الاستدامة في المدى الطويل، الأمر الذي يضمن الاضطلاع بدور الجامعات في المجتمع . ومن الناحية العمليّة، يعمل إطار حوكمة المؤسسات للجامعات على تحقيق التوازن بين مبادئ الكفاءة الاقتصادية والاستدامة المالية من جانب، وبين القيم الاجتماعية وخدمة متلقّي الخدمة التعليمية من جانب آخر.
- كما تسهم الممارسات السليمة لحوكمة المؤسّسات إسهامًا كبيرا في تحسين الاستدامة التنظيمية، خاصّة حينما تتضمّن الإرشاد إلى سلوك مسؤول وتشاركي في الأعمال، وهو ما يعني أنّ تطبيق هذه الأفكار يضمن قيام الجامعة بأنشطتها وتحقيق أهدافها الحالية دون المساومة على أهدافها المستقبليّة.
- إن تحقيق الإدارة الرشيدة أو الحوكمة يستوجب التخفيف من وطأة التدخل المركزي وإعادة توزيع المسؤوليات بين السلطة المركزية والجامعات لتمكينها من بناء قدراتها في مجال الإدارة الذاتية، فإعطاء الجامعات العربية صلاحيات أوسع في مجالات التصرّف الإداري والتخطيط المستقبلي، وتمكينها من الوسائل اللازمة للعمل المستقلّ، بشكل يجعلها مركزا للقرار والتوجيه والمبادرة، من شأنه أن يحسّن أداءها، ويدعم قدراتها على الارتقاء إلى مصاف نظيراتها في الدول الأكثر تقدما على أن يرتبط ذلك بتركيز الآليات اللازمة للمساءلة اللاحقة. (الدقي، 2015، ص63-64)

الخاتمة:

نخلص في الأخير إلى تأكيد أهمية وضرورة حوكمة الجامعات، بالنظر إلى إيجابياتها، ومدى فاعلية مبادئها على تحسين الخدمات التعليمية وتحقيق الجودة، ذلك أنها تحفز الأداء والكفاءة الكلية للجامعات، إذ توفر على المستوى التطبيقي لها قيادة أفضل وتوجها استراتيجيا مستدام، هذا فضلا عن تحسين تدفق المعلومات وعمليات صنع القرار، وضمان استقرار وتوازن البيئة الداخلية والخارجية للجامعات.

إنها آلية ومقاربة منهجية حديثة، تتجاوز الجامعة من خلال تبنيها كافة المشاكل التي قد تواجهها، لأن نظام الحوكمة يغطي مجموعة من النشاطات والعمليات والإجراءات في المستوى الشامل والكلي للجامعة وتنظم وتوجه العلاقات المتشابكة بين العديد من أصحاب المصالح الذين يتبادلون المصلحة والتأثير مع إدارة الجامعة، من خلال نظام رقابة شامل ومعقد يؤثر في طريقة توجيه الجامعة وإدارتها والسيطرة عليها.

وهذا ما أثبتته التجارب العالمية الرائدة في ذلك، والتي يمكن الاستفادة منها، خاصة عند الحديث عن التجربة الجزائرية في إدارة جامعاتها اليوم، والتي هي بأمس الحاجة لإصلاح جذري، لا تتوافق معه في ظل المشاكل والتحديات التي تواجهها، إلا باتباع مقاربة الحوكمة الجامعية، لأنها أفضل آلية لإدارة المؤسسات الجامعية في القرن الحالي وبامتياز.

المراجع:

أولا: بالعربية:

1- آل ياسين، محمد محمد حسن (2012) ،" تقييم الفاعلية المنظمية لمؤسسات التعليم الجامعي دراسة تطبيقية على عينة من كليات الادارة و الاقتصاد في الجامعات الرسمية العراقية"، **مجلة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات**. العدد27(2)، حزيران.

2- آل عباس، محمد عبد الله (2005)، "حوكمة الجامعات دراسة تحليلية في الجامعات السعودية"، **ورقة بحثية مقدمة لمؤتمر حوكمة الشركات**. أبها: جامعة الملك خالد، 31 أكتوبر 01 نوفمبر.

3- أبو عمه، عبد الرحمان (2016)، "قراءات مختارة في التعليم الجامعي: حوكمة التعليم العالي، نشرة مركز البحوث والدراسات في التعليم العالي"، العدد 59، وزارة التعليم السعودية، في: chers.moe.gov.sa/ar/Publications/Publications1/n59.pdf، تم الإطلاع بتاريخ 2017/01/02.

4- البسام، بسام عبد الله (2014)، "الحوكمة الرشيدة دراسة حالة العربية السعودية"، **مجلة بحوث اقتصادية عربية**. العدد 67-68، صيف خريف، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

5- الدقي، نور الدين (2015)، "تمويل التعليم العالي في الوطن العربي"، **ورقة بحثية مقدمة للمؤتمر 15 للوزراء المسؤولون عن التعليم العالي في الوطن العربي**. الاسكندرية 26/22 ديسمبر.

6- الزهراني، خديجة مقبول (2011)، "واقع تطبيق الحوكمة الرشيدة في الجامعات الأهلية السعودية وعلاقتها بالرضا الوظيفي والولاء التنظيمي لأعضاء هيئة التدريس فيها"، رسالة دكتوراه، كلية التربية، جامعة أم القرى، السعودية.

7- الفرا، ماجد محمد (2013)، "مفهوم الحوكمة وسبل تطبيقها في مؤسسات التعليم العالي"، **ورقة بحثية مقدمة لورشة عمل حوكمة مؤسسات التعليم العالي**. هيئة الاعتماد والجودة لمؤسسات التعليم العالي، وزارة التربية والتعليم العالي، غزة.

8- الجوزي، ذهبية (2013)، **الحكم الراشد وجودة مؤسسات التعليم العالي في الجزائر**، أطروحة دكتوراه في علوم التسيير. جامعة الجزائر 3، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير.

9- العايدي، حاتم (2013)، "الحوكمة الجامعية"، **ورقة بحثية مقدمة في ورشة عمل حول حوكمة مؤسسات التعليم العالي التي نظمتها هيئة الاعتماد و الجودة لمؤسسات التعليم العالي بغزة فلسطين**، يوم الخميس 28 مارس.

10- العريني، منال(2014)، "واقع تطبيق الحوكمة من وجهة نظر هيئتين الإدارية والاكاديمية العاملين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية"، **المجلة الدولية التربوية المتخصصة**. المجلد 3، العدد 12، كانون الأول.

11- الطائي، منى حيدر عبد الجبار (2012) ،"الحكمانية في المنظمات العامة دراسة تطبيقية في وزارة التعليم العالي و البحث العلمي جمهورية العراق"، **ورقة بحثية مقدمة في المؤتمر السنوي العام الثاني عشر حول الإدارة الرشيدة و بناء المؤسسات،** القاهرة: جامعة الدول العربية من 08 إلى 10 سبتمبر 2012.

12- السوادي، علي بن محمد (2015)، **الحوكمة الرشيدة كمدخل لضمان الجودة والاعتماد الأكاديمي في الجامعات السعودية (تصور مقترح)**. أطروحة دكتوراه في العلوم التربوية والتخطيط، جامعة أم القرى، السعودية.

13- السر، خالد خميس (2013)،"عوائق تطبيق الحوكمة في مؤسسات التعليم العالي في فلسطين و سبل التغلب عليها"، ورقة **بحثية مقدمة في ورشة عمل حول حوكمة مؤسسات التعليم العالي التي نظمتها هيئة الاعتماد و الجودة لمؤسسات التعليم العالي بغزة فلسطين،** يوم الخميس في 28 مارس.

14- الشعراوي، سلوى وآخرون (2001)، **إدارة شؤون الدولة والمجتمع**. القاهرة: مركز دراسات واستشارات الإدارة العامة.

15- باروت، محمد جمال (2004)، " تقرير عنة ندوة الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية "، **مجلة المستقبل العربي.** العدد 309، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

16- بزاوية، عبد الحكيم وسالمي، عبد الجبار (2011)، "جودة التعليم العالي في ظل تحقيق مبادئ الحوكمة: تجربة المملكة المتحدة في حوكمة الجامعات"، **ورقة بحثية مقدمة للملتقى الدولي حول الحوكمة في الجامعة: تقييم أساليب الحوكمة في التعليم العالي**. جامعة وهران 4/3 أكتوبر 2011.

17- دويدار، وائل (2012) ،"نموذج الإدارة الرشيدة و بناء منظومة العمل المؤسسي بمنظمات التعليم العالي"، **ورقة بحثية مقدمة في المؤتمر السنوي العام الثاني عشر حول الإدارة الرشيدة و بناء دولة المؤسسات**. مصر: المنظمة العربية للتنمية الإدارية، من 8 إلى 10 سبتمبر.

18- حلاوة، جمال وطه، نداء دار (2013)، واقع الحوكمة في جامعة القدس، **مجلة أداء المؤسسات الجزائرية**. العدد 2، الجزائر.

19- مرعى، محمد، (2009)، الحوكمة الأكاديمية بين التخطيط الاستراتيجي وقياس الاداء المؤسسي، **ورقة عمل مقدمة للمؤتمر العلمي الثالث للحوكمة الأكاديمية**، 17/16 فبراير، كلية إدارة الأعمال والعلوم الإدارية، جامعة القدس.

20- نعمة، جواد كاضم (2011)، **الإدارة الحديثة لمنظومة التعليم العالي**. عمان: دار الصفاء للنشر والتوزيع.

21- ناصر الدين، يعقوب عادل (2012)، إطار نظري مقترح لحوكمة الجامعات ومؤشرات تطبيقها في ضوء متطلبات الجودة الشاملة، **مجلة تطوير الأداء الجامعي**. العدد2، فبراير، جامعة المنصورة.

22- خاراميو، أدريانا (2013)، **مقارنة نظم الحوكمة كأداة لتشجيع التغيير**. باريس: منشورات البنك الدولي.

23- عزت، أحمد (2009)، "مفهوم حوكمة الجامعات والغرض منها وسبل تطبيقها"، المكتبة العامة لقضايا وإصدارات حقوق الإنسان، القاهرة، **http://old.qadaya.net/node/3068**، تم الإطلاع بتاريخ 2016/09/11.

24- عثماني، أمينة (2015)، "تحليل الأسس النظرية للأخلاقيات في الإدارة و آليات إرساءها: دراسة حالة الجامعة الجزائرية"، **مجلة العلوم الاقتصادية والتسيير والعلوم التجارية**. العدد14، جامعة المسيلة.

25- فاروق جعفر، عبد الحكيم مرزوق، (2012)، **حوكمة التعليم المفتوح منظور استراتيجي**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

26- ضحاوي، بيومي محمد (2011)، دراسة مقارنة لنظم الحوكمة المؤسسية للجامعات في كل من جنوب إفريقيا وزومبابوي وغمكانية الإفادة منها في مصر، **ورقة عمل مقدمة للمؤتمر العلمي التاسع عشر للجمعية المصرية للتربية المقارنة والإدارة التعليمية**. جامعة عين شمس، القاهرة.

27- خورشيد، معتز ويوسف، محسن (2009).K**حوكمة الجامعات وتعزيز قدرات منظومة التعليم العالي والبحث العلمي في مصر**. الاسكندرية: مكتبة الاسكندرية.

28- خضري، ياسمين محمد (2012)، "نحو معايير للحكم الرشيد في التعليم"، **ورقة بحثية مقدمة في المؤتمر السنوي الرابع للمنظمة العربية لضمان الجودة في التعليم آليات التوافق والمعايير المشتركة لضمان الجودة والاعتماد الأكاديمي في التعليم**، المنظمة العربية لضمان الجودة في التعليم، يومي 2و 3 سبتمبر.

ثانيا: بالأجنبية:

29- Berman, m. & jekowski, j (2002). **Education system governance: comments in support of a data- driven decision process Albuquerque business education compact** December 17.

30- de Alcantara, Cynthia(1998), "Du Bon Usage du Doncept de Gouvernance », **Revue international des Sciences Sociales Riss**. N°155, mars.

31- Jessop, Bob (1998), "L'essor de la Gouvernance et ses Risques d'échec : Le cas du Développement Economique" , **Revue international des Sciences Sociales Riss**. N°155, mars.

32- The World Bank (1992), **Governance and Development**. Washington D,C.

33- The Word Bank (2000), Higher Education in Developing Countries, Washington, **http://www.accesstosuccess-africa.eu/web/images/literture /peril_and_promise.pdf.**

34- Yang, (2007), "Academic Governance in Higher Education, Experiences Of America, The Development and Governance of Higher Education" , **Comparative perspectives Conference,** National University of Tainan, Dec 2007

35- Wang, Li. (2010). "Higher Education Governance and University Autonomy in China". **Globalisation, Societies and Education**. 8 (4).

تاريخ الاستلام: 2016/11/23- تاريخ التحكيم: 2017 /03/14 -تاريخ النشر2017/06/02

الاستثمار في رأس المال البشري كآلية لتحقيق الاقلاع الاقتصادي في الجزائر

مقاربة سوسيو-اقتصادية

د.خشمون محمد (جامعة باتنة-1)

د.قريد سمـــــير (جامعة قالمة)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

Résumé:

Cette article vise principalement à clarifier le rôle de l'investissement dans le capital humain, en tant que mécanisme important pour réaliser le décollage économique en Algérie, à travers une approche Socio-économique, Parce que beaucoup des analystes sociologues et économistes, voient que la crise du décollage économique en L'Algérie est essentiellement une crise de l'être humain, avant d'être une crise des moyens et de capital économique.

Il a été constaté que la forte pousse de l'économie algérienne et le lift-off réelle dans le domaine de l'auto-suffisance, et puis dans la concurrence mondiale, dépendent principalement sur le développement et l'investissement pratique dans le capital humain, à travers l'enseignement moderne, Le développement humain, et l'Économie du savoir.

ملخص:

تهدف هذه الورقة بالدرجة الأولى إلى توضيح دور الاستثمار في رأس المال البشري،كآلية مهمة لتحقيق الاقلاع الاقتصادي في الجزائر، وذلك من خلال مقاربة سوسيو-اقتصادية، حيث يرى الكثير من المحللين من علمي الاجتماع والاقتصاد، أن أزمة الاقلاع الاقتصادي في الجزائر هي في الأساس أزمة إنسان، بكل ما يحمله من علم وثقافة وسلوك، قبل أن تكون أزمة وسائل مادية ورأسمال اقتصادي.

وقد قد وجدنا أن الدفعة القوية للاقتصاد الجزائري وانطلاقه الفعلي في مجال تحقيق الاكتفاء الذاتي، ومن ثم المنافسة العالمية، يعتمد بالدرجة الأولى على التطوير والاستثمار الحقيقي في رأسمال البشري، من خلال الاهتمام بالتعليم الجيد الذي يواكب التطورات الاقتصادية الحاصلة في العالم، وكذلك من خلال التحول من الاقتصاد الكلاسكي إلى اقتصاد المعرفة، وأيضا عبر تدعيم القدرات الذاتية للأفراد والبحث عن طاقاتهم الكامنة من خلال تنشيط عمليات التنمية البشرية.

مقدمة:

إن القراءة الأولية للعديد من الدراسات السوسيولوجية التي تناولت بالتحليل موضوع التحول الاقتصادي وواقع التنمية في الجزائر، تبين لنا في معظمها أن إشكالية الأزمة في المجتمع الجزائري هي أزمة إنسان قبل أن تكون أزمة اقتصادية، وحينما نقول أزمة إنسان، فإننا نعني بذلك غياب الاستثمار في الانسان كرأسمال بشري وفاعل اجتماعي، الأمر الذي ترتب عنه تدهور في الممارسة اليومية، وتراجع في الالتزامات المواطنية، أضحى معها الفرد الجزائري غير قادر على الفعالية والمشاركة، فاقدا الثقة في مؤسسات الدولة، بفعل التراكمات التي حصلت نتيجة التجارب التي عاناها.

فالمنطق الريعي التوزيعي الذي اعتمده نموذج التنمية القائم على التصنيع، والمرتكز على الدولة كفاعل مركزي، أنتج نوع من العلاقات الزبونية الارتباطية ما بين المواطن والدولة التي تتحكم فيها عملية إعادة توزيع مداخيل البترول على شكل سلع وامتيازات توزع مجانا، وبالتالي عملت السلطة على توظيف سياسي للعنصر الاقتصادي، الهدف منه تعزيز مكانة الدولة في تصور الأفراد، وإخماد أي معارضة شعبية مع تعزيز العلاقة الارتباطية بالمؤسسات الرسمية ما دام أن مختلف مطالب الأفراد يمكن تحقيقها عن طريق الريع، كل هذا يؤدي لا محالة إلى نتيجة أساسية هي المحافظة على استمرارية السلطة السياسية، وفق ديناميكية العلاقات الزبونية.

يبدو أن هذه السياسة خلقت جملة من التناقضات على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، حيث بات واضحا أن تغييب الإنسان الجزائري، انجرت عنه عدة انعكاسات جعلته يعيش جملة من الإستلابات والإحباطات، انعكست سلبا في سلوكه الاجتماعي وفعله اليومي.

إن هذه الأفعال تؤكد أن عهد الأحادية في إدارة الشأن العام قد ولى، لذا فالمعادلات الجديدة التي تؤطر الفعل التنموي الجزائري، تشدد على ضرورة الاستثمار في رأس المال البشري، من خلال تحفيز الإرادات الحرة لدى المواطنين، كمسؤولين فاعلين لوضع التصورات واقتراح سبل التنفيذ عبر مشاركة حقيقية.

ضمن هذا السياق، سنحاول في هذه الورقة تسليط الضوء حول موضوع الاستثمار في رأس المال البشري كآلية لتحقيق الاقلاع الاقتصادي من خلال التطرق إلى مفهوم رأس المال البشري، ثم التعرض إلى نقد الفعل التنموي الجزائري والذي يتمظهر أساسا- في تقديرنا- من خلال تغييب الإنسان الجزائري في استراتيجيات التنمية بعد الاستقلال، لنخلص في الأخير إلى ضرورة الاستثمار في رأس المال البشري كآلية لتحقيق الاقلاع الاقتصادي، لأن هذا الأخير هو الضامن لتنمية بشرية حقيقية وبالتالي دائمة.

أولا- في مفهوم رأس المال البشري:

تأسس مفهوم رأس المال البشري في أعمال الاقتصاديين الأمريكيين، "**ثيودر شولتز**" **Theodore Schults** (1961)، و"**غاري بيكر**" **Gary Beck** (1975)، وتتمحور أبحاثهما حول مردودية الاستثمار في التعليم والتكوين، حيث جرب الاقتصاديون بداية حصر تكلفة الاستثمار في التكوين، حيث توافق بطريقة مبسطة مجموع تكاليف التعليم أو التكوين وتكلفة الفرصة المربوطة بهذا النشاط، كما أن الأرباح المنتظرة من هذا الاستثمار تتمثل في زيادة الأجور وقيمة الفرد في سوق العمل، بالإضافة إلى أن الرأس المال البشري للأفراد يزداد بإثراء معارفهم وقدراتهم، مما يسمح لهم بشغل مناصب أعلى أجورا، وهذا ما يسمح بإعطاء تثمين ملموس لنسب مردودية التعليم. (محبوب،م.2010: 5)

ولتقديم تجربة تطبيقية على أهمية رأس المال البشري قام "**آبراموفيتز**" **Abramovitz** بدراسة النمو الاقتصادي للولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، والعشرين، فوجد أن التقدم التكنولوجي متحيزا بشدة في اتجاه استخدام رأس المال المادي. أما في القرن العشرين فإن هذا التحيز تحول إلى اتجاه استخدام رأس المال غير الملموس(رأس المال البشري والمعرفة) مما ساهم بشكل كبير في نمو الانتاجية، كما أن مكافآت كل من رأس المال والعمل في ذلك القرن، وإن كانت تشمل عناصر من العوائد تعود إلى رأس المال غير الملموس، فإن عوائد التعليم والتدريب تشكل جزءا كبيرا من مكاسب العمل والأداء، في حين أن عوائد المعرفة المكتسبة عن طريق البحث والتطوير تشكل أجزاء كبيرة من العوائد على رأس المال. (مصيطفى،ع .2009: 24-25)

وهكذا فإن الأهمية البالغة للعنصر البشري وما يمتلكه من طاقات خلاقة دعت علماء الاجتماع والاقتصاد إلى اعتباره العنصر الإنتاجي الأول في عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، فلا يمكن مطلقا أن تنفع كل العمليات اللازمة لتهيئة الوسائل المادية المطلوبة لتحقيق مستوى مناسب من التطور العلمي التقني والارتفاع بمعدلات التنمية دون أن يكون العامل البشري (المؤهل) هو المحرك الأول لهذه العملية شريطة أن يكون ذا مستوى مناسب من التطور والتفتح والاندفاع الذاتي. (بوالشرش،ن .2012: 30)

أما تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003 فقد عرف رأس المال البشري بأنه: "كل ما يزيد من إنتاجية العمال من خلال المهارات المعرفية والتقنية التي يكتسبونها عبر التعليم والخبرة العملية". (تقرير التنمية الإنسانية العربية.2003: 90)

والواضح أن هذا التعريف يؤكد على أهمية الاستثمار في الكفاءات والمهارات التي يكتسبها الأفراد العاملين من خلال التعليم والخبرة التي تمكن من تنمية وتطوير أدائهم المؤسسي.

كما يعرف الاستثمار في رأس المال البشري على أنه مجموعة المفاهيم والمعارف والمعلومات من جهة، والمهارات والخبرات وعناصر الأداء من جهة ثانية، والاتجاهات والسلوكيات والمثل والقيم من جهة ثالثة، التي يحصل عليها الإنسان عن طريق نظم التعليم النظامية وغير النظامية، والتي تساهم في تحسين إنتاجيته وبالتالي تزيد من المنافع والفوائد الناجمة من عمله. (أليفي،م .2009: 295)،والملاحظ أن الاستثمار في رأس المال البشري يعنى بجانبين أساسيين في التنمية البشرية:

-الأول: تشكيل القدرات البشرية مثل تحسين مستوى الصحة والمعرفة والمهارات.

-الثاني: انتفاع الناس بقدراتهم المكتسبة، وذلك إما للتمتع بوقت الفراغ أو في الأغراض الانتاجية أو في الشؤون الثقافية والاجتماعية والسياسية. (نافز،أ.دون سنة: 5)

بهذا المعنى فإن الاستثمار في رأس المال البشري يجب أن يأخذ بعدا شموليا، ليشمل جوانب أخرى غير اقتصادية، والتي تتمثل في الجوانب الاجتماعية والثقافية والسياسية، والتي يتطلب إنماؤها تحقيق العدالة الاجتماعية والرفاه الاجتماعي، والتنمية البشرية في مجال الصحة والتعليم والتكوين لدى جميع أفراد المجتمع بشكل متوازن.

وبالتالي فإن تنمية رأس المال البشري هي عبارة عن تعبئة للطاقات البشرية وبلورة لإمكاناتها المتعددة ولمواهبها العقلية والجسدية، لزيادة قيمتها ورفع مكانتها ليمكن استخدامها بصورة مبدعة في طريق الاستغلال الأمثل لكافة الموارد الاقتصادية. (نافز،أ.دون سنة: 5-6)

وبالمجمل فإن مفهوم رأس المال البشري هو مفهوم ديناميكي متعدد الأبعاد والمجالات، يتصف بعلاقات تشابكية مع كثير من المفاهيم الاقتصادية الهامة مثل رأس المال الاجتماعي، ورأس المال المعرفي والتنمية البشرية ونظرياتها، إلا أنه يختلف معها في كونه يركز بشكل أساسي على العنصر البشري والإنسان نفسه باعتباره أحد المكونات الرئيسية لعملية النمو الاقتصادي في ظل شيوع مظاهر العولمة، وتزايد حدة المنافسة بين الدول والشركات متعددة الجنسيات، وبذلك يتعاظم دور العلم والمعرفة والابداع والابتكار البشري في تحديد القدرة التنافسية الاقتصادية في الدول. (الغرباوي،ش.2015: 45-46)

في ضوء ما تقدم، يمكن أن نعرف رأس المال البشري إجرائيا بأنه: "مجموع المهارات والخبرات والمعارف التي تتجمع لدى الفرد طوال مراحل التعليم ومختلف فترات التكوين التي يتلقاها، والخبرات التي يكتسبها حيث تمكنه من تفعيل وتحسين أدائه في المجتمع ويكون رأس مال البشري في فكر الأفراد من خلال المعارف والمهارات والكفاءات التي يمكن استثمارها لتحقيق تنمية اجتماعية واقتصادية".

ثانيا– الاستثمار في الانسان البعد الغائب في استراتيجيات التنمية بالجزائر:

ما دام الاقتصاد هو قبل كل شيء قم ومفهوم مجتمع ورؤية بدونها تستحيل التنمية، إذا لا يمكن للفكرة القائلة أن الاختيار الاقتصادي لا يخضع إلا لاعتبارات اقتصادية، إذ يتضح أكثر فأكثر، أن انعكاسات هذا الاختيار وكذا جوانبه الثقافية لا تقل أهمية عن غيرها من الجوانب الاقتصادية، ومن ثم يتعين علينا أن نعرف ما هي القيم الثقافية التي أنتجتها السياسة التنموية في الجزائر، حيث تبدو هذه القيم في أساسها متعلقة بالترشيد الاقتصادي الغربي بمفهومه الأوسع. (دليمي،ع. 2006: 161-162)

فبعد الاستقلال تم الشروع في تأسيس ما اصطلاح بتسميته نموذج الدولة الجزائرية المستقلة، انطلاقا من أسس تختلف عن تلك التي كانت موجودة أثناء الفترة الاستعمارية، بحجة أنها ذات مرجعية أوروبية، فعمدت الجماعة السياسية إلى فرض آليات للسلطة

السياسية، تستمد مشروعيتها من منابع الشرعية التاريخية، وتبني قواعد استمراريتها على مناهج العلاقة الزبونية والخطاب الشعبوي والأسلوب الريعي في توزيع الثروات.

وبحكم هذه الشرعية التاريخية، وجهت السلطة السياسية باتجاه توسيع قاعدتها الأيديولوجية والاجتماعية والاقتصادية على ثلاث أصعدة:

– **الأول**: تبني اختيار النظام الاشتراكي بصفته "اختيار الشعب" بعد إفلاس نموذج "التسيير الذاتي" واستجابة لتحقيق نوع من السياسة المساوتية بين مختلف شرائح المجتمع التي خرجت منهكة من حرب التحرير، وتعويضها عن أعوام الحرمان والبؤس عن طريق توزيع نسبة من الريع البترولي.

– **الثاني**: توسيع القاعدة الجماهيرية عن طريق توظيف الوسائل التعبوية (الحزب والمنظمات الجماهيرية) في مجال السياسة، وعن طريق إشراك أفراد المجتمع في العمليات الانتخابية في إطار دمقرطة اجتماعية في ظل أحادية ممركزة.

– **الثالث**: تبني مشروع الدفاع عن المصالح الوطنية والثروات عن طريق تأميم المحروقات في جو حملات صحافية تندد بالإمبريالية وتمويل المشروعات الاقتصادية لامتصاص أكبر قدر ممكن من اليد العاملة دون مراعاة للكفاءة والمردودية. (بوخريسة،ب.2010: 144)

وخلال الفترة الممتدة من1967 إلى 1978، نجد أن حوالي 220 مليار دج قد استثمرت، بلغت حصة الصناعة والمحروقات فيها 60 بالمائة مقابل أقل من 10 بالمائة بالنسبة للفلاحة، ومعنى ذلك إقامة قواعد للصناعة الثقيلة من طرف مجموعة من التكنوقراطيين بيدهم زمام الأمور، مستندين في ذلك إلى نقابات عمالية استهوتها عناصر المشاركة في التسيير، وكذا إلى نقابات طلابية معبأة حول الثورة الزراعية، وإلى طبقة متوسطة في طور التكوين. (الكنز،ع.1990: 74)

وفقا لهذه المقاربة أعطت السلطة الأولوية للقطاع الصناعي، وهذه الأولوية تستند إلى تصور إرادي لاستدراك التأخر وتقصير دورة التنمية بأن تطبق في القطاع العام الجزائري في نهاية القرن العشرين الأولويات نفسها التي عرفتها الرأسمالية الصناعية في أوروبا وأمكنة أخرى خلال القرن التاسع عشر. (براهيمي،ع.2001: 142)

إن تطبيق هذا التصور للتنمية على الجزائر، يبرز المقاربة الخاطئة لصناع القرار السياسي، ويكشف جملة من الاختلالات البنيوية يمكن تلخيصها في مايلي:

– تطبيق سياسة تصنيع غير ملائمة، تقوم على تقليد الغرب، وهذا التقليد الناجم عن الافتقار إلى الثقافة الاقتصادية والسوسيولوجية، حيث يتجلى في استعادة نظريات أو مذاهب لا تتناسب مع وضع الجزائر، وفي اللجوء إلى ممارسات صناعية لا تأخذ بالحسبان ظروف البلد الفعلية وتهمل الاستخدام السليم للموارد البشرية والمادية المتوفرة.

– إهمال موارد الجزائر البشرية الهائلة، زد على ذلك أن احتقار العامل البشري ساهم في كبح روح المبادرة والابداع والخلق، وأفضى إلى إبعاد إطارات شريفة وذات كفاءة عن المسؤولية وتهميشها.

– القناعة بأن نقل التقنية والتقدم يمكن شراؤهما.

– النقص الكبير في تقدير ظاهرة عولمة الاقتصاد، وأثرها في الاقتصادات المتخلفة. (براهيمي،ع.2001: 143-144)

هكذا بات واضحا أن قضية إنشاء المصانع هي الترجمة العملية لمشروع التنمية وكأن التنمية هي فعل اقتصادي فحسب أما شروط التنمية في المجالات الاجتماعية والثقافية فلم تلق الاهتمام اللازم بها.

في السياق ذاته يؤكد "**علي سموك**" أن التجربة التنموية الجزائرية أفضت إلى انعدام تصور شامل ومنسجم لمشاكل الهوية الثقافية والاعتقاد بأن الاقتصاد وحده بإمكانه تعويض النقص الثقافي، كما أن توخي هذه الاستراتيجية كان الهدف منه تفكيك البنى الاجتماعية والاقتصادية القديمة، وإقامة بنى حديثة اعتبرها القائمون على تنفيذ هذه الاستراتيجية أكثر رشادة وعقلانية. (سموك،ع.2006: 205)

يبدو أن هذا المنهج الاقتصادي جاء نتيجة فراغ من حيث طبيعة علاقة تفاعل المجتمع بالفضاء السياسي، بحيث لم يكن هناك تحضير مسبق للأفراد، واستعداد ثقافي لتقبل هذا المنهج، الأمر الذي خلق حاجزا أمام المجتمع للتأقلم مع إفرازات تلك المرحلة التي تميزت بالطابع المركزي والبيروقراطية المفرطة، والذي يعني في تصور الفاعلين الاجتماعيين نوع من الوساطة الغير مرغوب بها بين المواطن والسلطة.

ابتداءً من عام 1985، بدأت أسعار النفط في الانخفاض، الأمر الذي جعل الدخل النفطي عاجزا عن تلبية المطالب الاجتماعية المرتفعة باستمرار، من جراء الزيادة السكانية ومن جراء الآلة الإنتاجية المفككة التي أصبحت عاجزة عن استقبال عمالة جديدة، لدرجة أنه بُدئ التفكير جديا في تسريح العمال، كل هذا في ظل أيديولوجية استهلاكية نشطة. (الرياشي، س.1990: 258)

في الوقت نفسه، جددت أغلبية السكان رباطها مع أهوال الفقر والاستبعاد الاجتماعي ففي سنة 1986، ألغيت 50000 فرصة عمل، وسنة 1987، أحصي نحو 1.5 مليون بدون عمل (أي 9% من السكان الناشطين)، وسنة 1990 تخطى عدد العاطلين عن العمل حاجز المليونين، في آخر عهد الشاذلي، كان هناك أكثر من 4 ملايين شخص بدون مداخيل و10 ملايين من ذوي الموارد الضعيفة، بعبارة أخرى، هناك 14 مليون شخص، أي أكثر من نصف العدد الإجمالي للسكان يعانون من آثار الإفقار المطلق، كما أن الفئات الوسطى رأت انحلال ظروفها الاقتصادية طيلة فترة الثمانينات. (بوكراع،ل.2003: 93)

لقد بينت أزمة النفط في منتصف الثمانينات خطأ التوجه التنموي المبني على الريع البترولي، والمؤطر بعقلية بيروقراطية لا مجال فيها للمشاركة، ومن ثم تبدو الحالة الجزائرية متخلفة، مقارنة بالتجارب الرائدة في عديد بلدان العالم بسبب تغييب الإنسان (المواطن) الجزائري كفاعل يملك القدرة على تغيير بيئته وفق حاجاته الحقيقية.

يظهر أن النموذج التنموي القائم على ثلاث قواعد (رأس المال، المواد الخام، والقوى العاملة) وهي مجتمعة تشكل قوام الإنتاج، هذا النموذج أصبح متجاوزا عند الدول التي انتقلت إلى ما يمكن أن نطلق عليه مجتمع المعرفة، فالمواد الخام بما فيها النفط ستعوضها الموارد البشرية المكونة والمعتمدة على المعرفة، أما رأس المال فأصبح أمرا ثانويا لأن كبرى المشاريع أصبحت تتطور بسرعة لاعتمادها على المعلومات أكثر من اعتمادها على أموال باهضة. (دليمي،ع.2006: 162)

يمكن القول أن الريع النفطي أنتج مواطنة مادية مفرغة من بُعدها النفسي، بخاصة مع التقائها بمادية العولمة والنموذج الاستهلاكي الغربي المفرط في البذخ والرفاهية، إذ لا تغدو العلاقة بين المواطن ودولته علاقة روحية مبنية على الاحترام والتضحية بقدر ما تغدو علاقة مادية تتأثر بما تقدمه الدولة من هبات ومساعدات مالية مصدرها العائدات النفطية وهي سمة حاضرة في علاقة المواطنة الجزائرية. (مباركية،م. 2013: 203)

ثالثا– الاستثمار في رأس المال البشري كآلية لتحقيق الاقلاع الاقتصادي في الجزائر:

لقد نظرت نماذج النمو الاقتصادي الجديدة إلى رأس المال البشري باعتباره العنصر الحاسم في عملية التنمية، وأرجعت إليه الفضل الأكبر في معظم النجاحات التي تحققت في عدد من دول العالم، ومنها ما يعرف الآن بالنمور الأسيوية، ومع انتشار النماذج الجديدة للنمو وشيوع أفكار مثل التنمية البشرية (Human Development) ومجتمع المعرفة (Knowledge Society) والاقتصاد القائم على المعرفة (Knowledge-based Economy)، والتي أبرزت جميعها الدور الهام الذي يلعبه العنصر البشري المؤهل في تحقيق الأهداف التنموية للمجتمعات المختلفة، أصبح من المتفق عليه أن نجاح أو فشل جهود التنمية في بلد ما هو ما يمتلكه من ثروة بشرية، وعقول وكفاءات قادرة على قيادة عجلة التقدم. (العربي،أ.2007: 52)

وبناء على نماذج النمو الاقتصادي الجديدة التي اعتمدت على كتابات "**بول رومر**" (Paul Romer) **وروبرت لوكاس** (Robert Lucas) فإن الاستثمار في رأس المال بمعناه البشري الأوسع، وما ينتج عنه من أفكار ومعارف وتكنولوجيات

متقدمة ومتجددة لها وفورات خارجية، يتميز على عكس الحال بالنسبة إلى الاستثمار في رأس المال المادي بتزايد الغلة وليس تناقصها، ومن هذا المنطلق يصبح تحقيق معدلات نمو اقتصادي موجبة بشكل متواصل أمرا متوقعا، شريطة أن تتواصل عملية الاستثمار في رأس المال البشري، وذلك حتى يتم تفادي الآثار السلبية المتوقعة لتناقص الغلة بالنسبة إلى الاستثمار في رأس المال المادي. (العربي،أ.2007: 52-53)

يمكن القول أن تفعيل الاستثمار في رأس المال البشري، كآلية لتحقيق الاقلاع الاقتصادي في الحالة الجزائرية يتطلب العمل على ما يلي:

1- الاستثمار في التعليم:

مع الانتقال من الاقتصاد الصناعي التقليدي إلى الاقتصاد القائم على المعرفة، رجحت كفة المكونات غير الملموسة على غيرها في أنشطة الانتاج فتضاعفت أهمية التعليم والتدريب في توفير شروط المنافسة، سواء بين المؤسسات أو بين الدول، فترك هذا التحول آثارا عميقة في معدلات النمو، بل على النظرية الاقتصادية نفسها، وعلى ضوء ذلك صار تفسير التفاوت في نمو الناتج المحلي للفرد مرتبطا بتحسن الانتاجية العامة للاقتصاد، وبالفورات الخارجية الناتجة عن المعرفة، أكثر من ارتباطه بزيادة عوامل الانتاج التقليدية. (فضل الله،ع.2014: 43)

ففكرة الاستثمار في التعليم ليست أمرا جديدا، ولكن تحليل التعليم تحليلا اقتصاديا، على اعتبار أنه مشروع استثماري أمر حديث نسبيا، لهذا تغيرت النظرة، وبدأ الاقتصاديون ينظرون إلى التعليم على أنه استثمار في رأس المال البشري لأسباب عدة منها:

- التعليم يزيد من دخل الأفراد وأرباحهم ويقدم للمجتمع عوائد إنتاجية كبيرة تعود بالفائدة على الفرد نفسه، وبالتالي على المجتمع.

- التعليم يزيد من مقدرة الأفراد على التكيف مع ظروف العمل وتقلباته الناتجة عن النمو الاقتصادي، فكلما ارتفع المستوى التعليمي للفرد، ازدادت قدراته على التكيف مع الظروف والأعمال الجديدة وأمكنه الانتقال من عمل إلى آخر دون خوف أو تردد.

- التعليم يعتبر عاملا أساسيا من عوامل النمو الاقتصادي فوق أثره في ذلك أثر رأس المال المادي، ويلعب دورا أساسيا في إعداد القوى المؤهلة الازمة لتسيير عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية. (الكيلاني،أ.2008: 438)

ويعتبر الإنفاق على التعليم أحد الاستثمارات الأفضل، لأنه استثمار في تنمية الإنسان الذي من خلاله تتحقق ثمار التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وإن التعليم يأخذ طابع الاستثمار بعيد المدى مثله في ذلك مثل الأنشطة الاستثمارية الأخرى للتنمية، حيث أن ما يكتسبه الفرد من دخل أو تكوين علمي يرتبط بعلاقة طردية وإيجابية مباشرة مع مخرجات هذا التكوين، بل إن الآثار الإيجابية لهذا التعليم سوف تمتد وتتوسع دائرتها لتنعكس على المكتسبات المستقبلية لمختلف ميادين التنمية للمجتمع وذلك نتيجة لما يعرف بمضاعف الاستثمار. (الزلزلة،ي.2011: 25)

ورغم ان ميزانية قطاع التعليم العالي في الجزائر في تطور مستمر، حيث تضاعفت بحوالي 07 مرات منذ سنة 2000 إلى غاية 2014، كما تضاعف نصيب الطالب من حصة الاعتمادات المخصصة لهذا القطاع منذ سنة 2000 من 90.007د.ج إلى 212.014 د.ج سنة 2014، إلا أن الاهتمام بالإنفاق دون النظر إلى احتياجات المجتمع من التخصصات الفنية الأخرى أدى إلى زيادة أعداد الخريجين من ذوي المؤهلات عن الحد المطلوب وارتفاع معدلات البطالة، ولذلك لعدم وجود توازن بين مخرجات التعليم وسوق العمل، حيث يلاحظ وجود فائض في تخصصات وعجز في بعضها الآخر، حيث توجد فجوة كبيرة بين ما يتلقاه الشباب من التعليم والتدريب وبين احتياجات سوق العمل ومتطلباته. (قريبي،ن.2015: 153)

وبالتالي عجز قطاع التعليم العالي في الجزائر عن ضمان توزيع عادل للحراك الاجتماعي والمهني، وللخيرات والثروات المادية والرمزية، وللمهام والمسؤوليات، ولحظوظ الاندماج المهني والثقافي والسياسي والاجتماعي العام بالنسبة لمنتوجاتها ومخرجاتها من الرأسمال البشري المتمثل أساسا في الشباب المؤهل، مما يفترض أن يكون رافدا للتنمية البشرية والسياسية والاجتماعية الشاملة التي يعتبر المواطن/الإنسان أساس بنائها وضمان تواصلها واستدامتها. (بن حفيظ،ع.2005: 31)

وبالمجمل فإن عدم الاتساق بين مخرجات التعليم العالي، واحتياجات سوق العمل، يكشف عن جملة من الاختلالات التي تعوق تحقيق الاقلاع الاقتصادي في الجزائر، وهو ما يتجلى بوضوح في عدم قدرة النظام التعليمي على تحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية، ولذلك لابد من تنمية الاستثمار في التعليم بجميع مراحله، ولن يتأتى ذلك- في تقديرنا- إلا من خلال مايلي:

- نشر الوعي حول أهمية التعليم، وأهمية توافر قوى عاملة مؤهلة ومدربة، وذلك من خلال أجهزة الإعلام، وعقد ندوات في المدارس والثانويات والجامعات حول هذا الموضوع.

- تأصيل فكرة تعاون المؤسسات والمصانع الخاصة مع وزارة التربية والتعليم، ووازرة التعليم العالي لتعليم وتدريب الطلبة.

- وجوب نشر البحث التعاقدي بين الجامعات والجهات الراغبة في البحث، وذلك لترويج وتسويق قدرات الجامعيين العلمة والتكنولوجية.

- وجوب مساهمة القطاع العام والخاص في دعم الأبحاث العلمية عن طريق وجود مراكز بحوث، وتطوير حقيقي لكل مؤسسة إنتاج أو شركة.

- ضرورة وجود مرونة في تقنين وتقييم الوظائف الحكومية بما يتناسب مع خطط التنمية، وأولويات القطاعات من حيث مساهمتها في التنمية الاجتماعية.

- ضرورة توفير جهة تقوم بإعداد البيانات المتعلقة بالتعليم بكافة فروعه وأنشطته بجميع أنحاء الوطن، وتعمل على تنظيم الحصول على المعلومات، وذلك لتوفير الجهد والوقت للباحثين في هذا المجال. (بن العارية،ح.2012:92-93)

2- التوجه نحو اقتصاد المعرفة:

ظهر اصطلاح الاقتصاد المرتكز على المعرفة (Knowledge-based Economy) وتنامى الاهتمام به بعد أن دور المعرفة والتقانة أمرا لا يستهان به في مجمل العمليات الاقتصادية السائدة في الألفية الجديدة، فظهر اصطلاح رأس المال المعرفي (Knowledge Capital) كمؤشر إضافي على دخول المتغير الجديد إلى ساحة المفاهيم الاقتصادية، لذا بدأت قطاعات خدمات المعرفة، مثل التعليم، والاتصال، والمعلومات، بالنمو السريع، بحيث أصبح أكثر من 50 بالمئة من إجمالي الناتج المحلي في معظم اقتصادات أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية. (الرزو،ح.2013: 48)

ارتكز النهج الذي اعتمده البنك الدولي في تحديد معالم الاطار العام لقياس مؤشرات الانتقال نحو اقتصاد سليم للمعرفة إلى أربعة أركان أساسية تتمثل في:

- **الركن الأول**: منظومة اقتصادية ومؤسساتية رصينة قادرة على بعث جميع الوسائل المتاحة للاستخدام الأمثل للموارد المعرفية المتاحة، والمتجددة، مع ترسيخ جذور العمل المؤسساتي السليم.

- **الركن الثاني**: موارد بشرية عارفة تتمتع بمستوى علمي رصين، ولديها خبرة عميقة تجعلها قادرة على إنشاء الموارد المعرفية ونشرها في ما بينها، وتحسين توظيفها على أرض الواقع.

- **الركن الثالث**: بنية تحتية معلوماتية واتصالية تتسم بمرونة وقدرات مميزة تمنحها القدرة على دعم عمليات الاتصال، ومعالجة الموارد المعلوماتية، ونشرها داخل المجتمع الشبكاتي المحلي.

– الركن الرابع: وجود منظومة ابتكار فاعلة لدى المنظمات، ومراكز البحث والتطوير، والجامعات، والجهات الاستشارية، قادرة على المساهمة في الحصيلة العولمية المتنامية، كما تمتلك المعرفة الكافية لاستيعاب عناصر المعرفة الجديدة، وتوجيه فاعليتها بحيث تلبي الحاجات القائمة في بيئة المجتمع من خلال استحداث تقنيات وآليات جديدة. (الرزو،ح.2008: 90)

وبالمقارنة مع اقتصادات الدول المتقدمة، يصنف الاقتصاد الجزائري في خانة الاقتصادات الأكثر تخلفا، لاسيما في مجال الاستفادة من التقانة وإنتاجها وتوطينها.

كما يشير مؤشر انخفاض الانتاجية إلى أن المجتمع الجزائري لم يبلغ المستوى المأمول في توطين التكنولوجيا المستوردة مجسدة في سلع، وهذا طبيعي في ظل غياب سياسات وطنية للعلم والتكنولوجيا تؤد إلى قيام نظام وطني فعال للابتكار، حيث تساعد التكنولوجيا أيضا في توسيع خيارات الناس الاقتصادية وفي حل مشاكلهم الاجتماعية. (سموك،ع.2006: 164)

ويمكن رد أسباب فشل إنتاج المعرفة في المجتمع الجزائري للاعتبارات السوسيولوجية التالية:

1- الانفصام بين الفكر والواقع.

2- هيمنة الأطروحات الفكرية التي تنطلق من رؤية لا تاريخية لأبعاد الزمان والمكان وتبدل المراحل.

3- تفسيرات مغلقة لنصوص نظرية تسمو على الواقع.

4- البنية الاقتصادية والاجتماعية والعقلية الجزائرية حائل دون إنتاج المعرفة، وهذه الأخيرة كثيرا ما ارتبطت في الذهنية الجزائرية بدور حاسم للخبرة الأجنبية.

5- نمط اقتصاد الريع كثيرا ما عزز التوجه نحو الاعتماد على الخبرة الأجنبية ما انتهى إلى تهميش الطلب المحلي على المعرفة وبالتالي يغلق المجال لإنتاجها محليا وتوظيفها بفعالية في النشاط الاقتصادي.

6- إن طبيعة البحوث والدراسات على قلتها، فهي لا تنعكس مباشرة على مسار التنمية. (سموك،ع.2006: 163-164)

يمكن القول أن التحول من اقتصاد الريع إلى اقتصاد المعرفة يتطلب ردم الفجوة القائمة بين المعرفة والتنمية الاقتصادية ولن يتأتى ذلك إلا "بإعطاء أهمية أكبر للرأسمال الفكري كونه أصبح دعامة تطور المؤسسات الاقتصادية ونماءها ونجاحها فكلما زادت معدلات المعرفة لدى الأفراد، زادت قدراتهم العقلية والإبداعية، وهو ما يشكل ميزة تنافسية، بعد أن تبين تفوق العنصر غير الملموس لقيمة التكنولوجيا المتقدمة على القيم الحقيقية لموجوداتها الحسية كالأبنية والمعدات، فالموجودات الحسية لشركة مثل "**مايكروسوفت**" جزء صغير جدا من تمويل السوق الخاص بها والفرق هو في رأسمالها الفكري". (سالمي،ج. 2005: 95)

3– تحقيق التنمية البشرية:

يستند مفهوم التنمية البشرية، من الناحية النظرية على مساهمات الاقتصادي الهندي "**أمارتيا سن**"، والذي طور مفهوم "الاستحقاقات" كمعيار لقياس رفاهية البشر عوضاً عن المقاربة التقليدية التي تعرف الرفاهية على أساس المنفعة ويقصد بالاستحقاقات تلك الحقوق الجوهرية التي ينبغي أن يتمتع بها البشر، وتشتمل بمفهومها الواسع، على الحريات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتوفر الفرص للإنتاج والابداع، وتوفر الفرص لتحقيق الذات واحترامها، وتوفر الفرص للعيش حياة طويلة وصحية، وتوفر الفرص للحصول على مختلف أنواع المعرف وتوفر الموارد اللازمة لمستوى معيشي لائق". (علي،ع.2001: 2) بهذا المعنى، فلا تنتهي التنمية البشرية عند تكوين القدرات البشرية مثل: تحسين الصحة وتطوير المعرفة والمهارات، بل تمتد إلى أبعد من ذلك حيث الانتفاع بها سواء في مجال العمل من خلال توفر فرص الإبداع، أو التمتع بوقت الفراغ، أو باحترام الذات الإنسانية، أو المساهمة الفاعلة في النشاطات الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية، ونظرا لكل ذلك أصبحت التنمية البشرية توجها إنسانيا للتنمية الشاملة المتكاملة وليست مجرد تنمية موارد بشرية. (الإدريسي،م.2006: 21)

لقد شكل تحقيق التنمية البشرية، أحد أهم أهداف برامج التنمية التي باشرتها الجزائر منذ مطلع الألفية الثالثة، حيث نمت الاعتمادات المالية المخصصة للقضاء على الفقر البشري وتحسين الظروف المعيشية للأفراد، بشكل مطرد من برنامج تنموي إلى

آخر لتبلغ في برنامج توطيد النمو الاقتصادي 2010-2014، 9386.6 مليار دينار جزائري أي 40% من غلاف البرنامج، غير أن النتائج المحققة على صعيد التنمية البشرية لم تكن بحجم الجهود المبذولة. (بعاطل،ع.2014: 17)

ورغم الطفرة المالية التي عرفتها الجزائر بسبب ارتفاع أسعار البترول، وما صاحبها من ارتفاع احتياطي الصرف، إلا أن معدلات التنمية في الجزائر لم تعرف أي تغير نوعي فلا تزال مؤشرات الفقر والبطالة في ارتفاع مستمر، وقد خلصت الدراسات إلى أن الأشخاص الذين تم إدراجهم تحت عتبة الفقر العام يقدرون بـ **9.5%** بعد ما كان في حدود **8%** سنة **2009**، كما كشفت أيضا أن **45%** من الأفراد يعيشون تحت الخط الأدنى للفقر، وتعتبر البطالة المكون الرئيسي للفقر، في ظل ضعف معدلات النمو الاقتصادي والاعتماد على الريع البترولي، (قويد،ق. 2014: 18-20)

وفي ظل غياب الحكم الراشد وانتشار الفساد، تبدو الهوة شاسعة بين التنمية الاقتصادية وتحقيق التنمية البشرية التي تمثل أحد دعائم ثقافة المواطنة.

وبالمجمل فإن تحقيق التنمية البشرية المنشودة في الجزائر يتطلب تحقيق المتطلبات التالية:

- تطبيق سياسة متكاملة للحد من الفقر ورفع مستوى التأهيل المهني والتعليم العام وإيجاد فرص عمل مناسبة للمواطن الجزائري.
- ترشيد وحسن استغلال الثروات المتاحة وتعزيز التكافل الاجتماعي، وتعزيز دور القطاع الخاص والمجتمع المدني في وضع وتنفيذ برامج التنمية البشرية المستدامة.
- تطوير مناهج التربية والتعليم في مختلف المراحل ودعم مراكز البحث العلمي والتقني، ورفع مستوى الوعي والثقافة والتدريب.
- تعزيز السياسات الوطنية والاقليمية التي تهتم بصحة الإنسان ورعاية الطفولة والأمومة وذوي الاحتياجات الخاصة وذلك للمحافظة على التماسك الأسري.
- تعزيز الحكم الراشد والشفافية والمساءلة، وتفعيل الحريات السياسية والمدنية والمشاركة الاجتماعية للمواطنين في التنمية الاقتصادية. (الوافي،ا. 2015: 13-14)

خاتمة:

ظهر جليا من خلال هذه المقاربة السوسيو-اقتصادية التي عالجت موضوع واقع الاقتصاد الجزائري، والمحاولات الحكومية العديدة لتنميته ودفعه نحو الأمام، أن الدولة الجزائرية أهملت كثيرا الاستثمار في رأسمال البشري، حيث كانت كل مجهوداتها مركزة على توفير الوسائل المادية وانجاز المشروعات الاقتصادية الكبرى فحسب، وكان هذا الاهمال حسب ما يرى الكثير من المحللين والمراقبين سواء الاجتماعيين أو الاقتصاديين من بين أهم أسباب فشل هذه المحاولات وبقاء الاقتصاد الجزائري في حالة دائمة من الركود والتخلف، بالمقارنة مع اقتصادات الدول المتطورة، خاصة تلك التي خرجت حديثا من حالة التخلف، باعتمادها على التكوين والتطوير العلمي والتكنولوجي للموارد البشرية خاصة منها المرتبطة بالاقتصاد.

وهذا بالضبط ما ينبغي على صناع القرار السياسي والاقتصادي في الجزائر إدراكه جيدا والعمل على تداركه في الخطط التنموية المستقبلية، خاصة وأن أغلب الدول كانت متخلفة وخرجت من دائرة التخلف حديثا لم تخرج بالاعتماد على الوسائل المادية فقط بقد ما استثمرت في الانسان وراهنت على قدراته وحاولت الاستفادة من كل مميزاته من خلال التنمية البشرية وتطوير التعليم وجعله يواكب متطلبات السوق العالمية الحديثة وتحويل نمط اقتصادها الكلاسيكي الذي أصبح يبدو متخلفا وقديما في العالم المعاصر إلى اقتصاد يعتمد على المعرفة في كل عملياته وتعاملاته ووسائله في تحقيق أهدافه.

وأخيرا، يمكن القول أن الاستثمار في رأس المال البشري أصبح ضرورة لاغنى عنها أمام الجهات القائمة على العمليات التنموية في الجزائر، لتحقيق الاقلاع الاقتصادي، ودفع عجلة التنمية بمختلف جوانبها نحو الأمام للحاق بالركب الاقتصادي للدول المتقدمة.

المراجع:

1- أليفي، محمد وفرعون أمحمد. (14-15 أفريل 2009) .الاستثمار في الرأسمال البشري كمدخل حديث لإدارة الموارد البشرية بالمعرفة. ورقة مقدمة إلى الملتقى الدولي حول صنع القرار في المؤسسة الاقتصادية، جامعة محمد بوضياف المسيلة- الجزائر.

2- الإدريسي، مصطفى بن محمد الحسن وعصام بن يحي الفيلالي.(2006). التنمية المستدامة في الوطن العربي بين الواقع والمأمول: سلسلة إصدارات مجتمع المعرفة (الإصدار 11) .السعودية: مركز الإنتاج الإعلامي، جامعة الملك عبد العزيز.

3- الرزو، حسن مظفر.(2013،جويلية). سمات اقتصاد المعرفة في العراق وبلاد الشام: محاولة لصياغة استراتيجية عربية.، مجلة المستقبل العربي.(العدد412). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

4- الرزو، حسن مظفر.(2008،فيفري). سمات اقتصاد المعرفة في دول المغرب العربي، وانعكاساتها المحتملة على الميزة التنافسية في البيئة الرقمية. مجلة المستقبل العربي.(العدد348). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

5- الرياشي، سليمان وآخرون.(1990). الأزمة الجزائرية، الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .(ط2).بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

6- الزلزلة، يوسف.(31 مارس 2011). مفهوم الاستثمار في التعليم العالي. ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر التربوي الثاني حول الاستثمار في التعليم العالي، المركز الإسلامي للتوجيه والتعليم العالي، بيروت.

7- العربي، أشرف.(2007، صيف). رأس المال البشري في مصر: المفهوم- القياس- الوضع النسبي. مجلة بحوث اقتصادية عربية، (العدد 39)، ببيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

8- الغرباوي، شادي جمال.(2015). أثر رأس المال البشري على النمو الاقتصادي في فلسطين. رسالة ماجستير في اقتصاديات التنمية. كلية التجارة، الجامعة الإسلامية- غزة، فلسطين، غير منشورة.

9- الكنز، علي.(1990). 5 دراسات حول الجزائر والعالم العربي. الجزائر: دار بوشان للنشر.

10- الكيلاني، أنمار ومزنة العازمي.(2008). دراسة الاستثمار التربوي للتعليم الجامعي في مستوى البكالوريوس في دولة الكويت من خلال تحليل سعر المنفعة للعام الدراسي 2005/2004 . مجلة دراسات العلوم التربوية. المجلد 35، (العدد 02)، الجامعة الأردنية: عمادة البحث العلمي.

11- الوافي، الطيب.(2015، أكتوبر). محاولة لرسم معالم تنمية بشرية في الجزائر على خطى التجربة الماليزية. مجلة التنمية البشرية والتعليم للأبحاث التخصصية. المجلد01 (العدد 01) بماليزيا: المعهد العلمي للتدريب المتقدم والدراسات.

12- براهيمي، عبد الحميد.(2001). في أصل الأزمة الجزائرية (1958-1999). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

13- بعاطل، عياش ونوي سميحة.(2014)، آليات ترشيد الإنفاق العام من أجل تحقيق التنمية البشرية المستدامة في الجزائر" 2001-2014، ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر الدولي حول: تقييم آثار برامج الاستثمارات العامة وانعكاساتها على التشغيل والاستثمار والنمو الاقتصادي خلال الفترة 2001-2014، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، جامعة سطيف 01.

14- بن العارية، حسين.(2012،مارس). دور التعليم في النمو الاقتصادي مع الإشارة إلى حالة الجزائر. مجلة المستقبل العربي .(العدد397). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

15- بن حفيظ، عبد الوهاب (وآخرون). (2005). التربية والمواطنة في العالم العربي. تونس: منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية.

16- بوالشرش، نور الدين.(2011-2012). إشكالية التحول من مفهوم اليد العاملة إلى الرأسمال البشري في المؤسسة العمومية الجزائرية. أطروحة الدكتوراه في تنمية الموارد البشرية،غير منشورة.

17- بوخريسة، بوبكر.(2010،خريف) الدولة الجزائرية الحديثة: بين القوة والشرعية وسيرورة البناء الديمقراطي، إضافات، المجلة العربية لعلم الاجتماع، (العدد 12). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

18- بوكراع، لياس،(2003) الجزائر الرعب المقدس.ترجمة خليل أحمد خليل، الجزائر: المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار.

19-تقرير التنمية الإنسانية العربية (2003). نحو إقامة مجتمع المعرفة. البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، عمان.

20- دليمي، عبد الحميد وآخرون.(2006). الجامعة الجزائرية والتحديات الراهنة. الجزائر: دار الكتاب العربي.

21-مباركية، منير.(2013).مفهوم المواطنة في الدولة الديمقراطية المعاصرة وحالة المواطنة في الجزائر. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

22- محبوب، مراد وصولح سماح.(26،2010-27 أفريل). الريادية: الرأس المال البشري وصناعة الكفاءات الريادية. استرجعت بتاريخ 2016/08/19 من الموقع الالكتروني http://www.hrdiscussion.com/downloadfile/5433/1/1283465658/pdf

23- مصيطفى، عبد اللطيف.(2009). دور رأس المال البشري في خلق القيمة في المؤسسات المصرفية. مجلة الواحات للبحوث والدراسات جامعة غرداية، العدد السابع.

24- سالمي، جمال. (2005،جوان). سبل اندماج الجزائر في اقتصاد المعرفة. مجلة العلوم الإنسانية.(العدد8). جامعة محمد خيضر بسكرة- الجزائر.

25- سموك، علي.(2006). إشكالية العنف في المجتمع الجزائري: من أجل مقاربة سوسيولوجية. الجزائر: منشورات جامعة باجي مختار- عنابة.

26- علي، عبد القادر علي.(2001، أكتوبر). : أسس العلاقة بين التعليم وسوق العمل وقياس عوائد الاستثمار البشري.المعهد العربي للتخطيط.استرجعت بتاريخ 2016/08/24 من الموقع الالكتروني http://www.arab-api.org/images/publication/pdfs/229/229_wps0108.pdf

27- فضل الله، عبد الحليم.(2014، صيف- خريف). كلفة التعليم العالي وفعاليته التنموية: دراسة مقارنة من منظور اقتصاد المعرفة والعدالة التوزيعية. مجلة بحوث اقتصادية عربية،(العددان 67-68)، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

28- قريبي، ناصر الدين.(2015، ديسمبر). مواءمة مخرجات التعليم العالي لسوق العمل في الجزائر- دراسة استكشافية. مجلة البحوث الاقتصادية والمالية. (العدد الرابع)، جامعة أم البواقي- الجزائر.

29- قويد، قورين حاج.(2014، جوان). ظاهرة الفقر في الجزائر وآثارها على النسيج الاجتماعي في ظل الطفرة المالية: البطالة والتضخم. مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية.(العدد 12)، جامعة الشلف – الجزائر.

30- نافز، أيوب محمد علي أحمد.(دون سنة). الأهمية التنموية لرأس المال البشري في الوطن العربي ودور التربية والتعليم فيه. استرجعت بتاريخ 2016/08/20 من الموقع الالكتروني http://www.qou.edu/arabic/researchProgram/researchersPages/nafzAyoub/r1_drNafzAyoub.pdf

تاريخ الاستلام: 2016/10/10- تاريخ التحكيم: 2017/03/14 -تاريخ النشر2017/06/02

LE "tasfih" En Tunisie : scarification et sacralisation

Olfa wali ghariani

centre d'études et de recherches économiques et sociales (CERSS) Tunis

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص:

للقيام بهذه الدراسة اخترقنا العالم الخفي والمسكوتعنه، عالم المحظورات رغبة منا للكشف والبوح عن أسرار المعتقدات القديمة والتقاليد الشعبيةالتي تتعلق بالممارسات السحرية والتماثلات الرمزيةالمسماة"بالتصفيح "Tasfih" "أو رباط ."R'bat"

من خلال دراسة هذا الفعل السحري الطقوسي الاسطوري رفعنا الستار عن القوانين الاجتماعية والثقافية الشعبية وتعرضنا الى المفارقة التي يعيشها المجتمعالتونسي وخاصة منه الشباب والمتمثلة في التأرجح بين التشبث بثقافة الشرف والتقليد الديني من جهة والرغبة في المتعة الجنسية بدون قيود من جهة اخرى ،كما أبرزنا في هذا الإطار تأثير العامل الديني والمقدس علىالتماثلاتوالممارسات السحرية–الأسطورية.

الكلمات المفتاحية: تماثلات رمزية، تصفيح، طقوس اسطورية،شرف،ممارسة جنسية،سحر،مقدس.

Abstract :

In this work we transgress taboos, prohibitions and sociocultural laws by revealing the secrets of the old beliefs, traditions and popular social consernant the act of censorship "tasfih". It is practical and symbolic representations magic called "Tasfih" or "R'bat" of sexuality.We apprehended the issue between the Tunisian society that is far from giving up the culture of honor "Sharaf". It is still attached to religious speech, religious design and / or traditional sexuality and attitudes of young Tunisians who swing between the desire of enjoyment and prohibition.We have also shown the impact of referring magical-mythical-cultural-religious sanctity of these practices and their representations.

Keywords:"tasfih", sexuality, myth, desire, pleasure, prohibition, honor, modesty, rite, Blood, scar, node

INTODUCTION : Les normes sexuelles de la culture tunisienne sont en mutation au niveau des pratiques, des représentations, des connaissances et des attitudes. Aujourd'hui, les temps ont changé et on assiste, quoique lentement, à une levée du voile sur les questions de la sexualité, de la jouissance et des interdits. Pour la première fois depuis de longs siècles, Abdelwahab BOUHDIBA écrit « la société maghrébine commence à s'interroger sérieusement sur le pourquoi et le comment de la sexualité. Pour la première fois, les modèles collectifs sont remis en question, non pas par des marginaux "révoltés" ou dépravés, mais de façon explicite ou implicite jusque dans les milieux les plus éclairés et les plus "sains" de la société, voire par les officiels eux-mêmes. Pour la première fois aussi des éléments d'informations fiables et sérieux sur les données véritables au problème » (Bouhdiba, , Décembre 2003).

Nous pouvons parler ainsi de deux opinions divergentes, d'un côté, ceux qui tiennent à respecter les textes coraniques, la coutume et les traditions .D'un autre côté, ceux qui paraissent être libéraux. Ces derniers dénonceraient même les vielles croyances, les traditions populaires et les censures sociales. Ils chercheraient ainsi à transgresser les tabous, les interdits et les lois socioculturelles.

Cette nouvelle tendance, n'a jamais plu à la société, bien au contraire elle la terrifie

La société serait loin de renoncer à la culturede *l'honneur*"charâf". Elle serait encore attachée au discours religieux. Cette obsession del'honneur et de la femme qualifiée d' "Awra"qui est un mot arabe désignant toute partie du corps que l'être humain cache par pudeur et faisant partie de sa vie privée, car la pudeur est considérée comme "une branche de la foi, la culture populaire musulmane désigne la femme comme étant Awra.

L'idée persisterait et serait ainsi quelque peu à l'origine de l'apparition de certaines pratiques et représentations symboliques magiques dites " Tasfih " ou " R'bât ", de la sexualité dont « le rituel de protection de la virginité féminine »[5].

Cette pratique, ancestrale représente tout un monde de symboles et de forces, déterminant des rapports mystérieux divinatoires et surnaturels.

Le rituel magique, de nouement et de dénouement "el rabt" et "el hal " comme on le nomme en Tunisie ou "el thkaf" et "el rbaat" comme il est dit au Maroc et en Algérie, ne semble pas être ignoré ou inconnu et il est pratiqué dans tous les pays magrébins, mais avec des présentations différentes. La magie des nœuds consiste à nouer et/ou dénouer en pratiquant des rituels et des représentations symboliques magiques : des talismans, des incantations, des prières, des évocations des créations surnaturelles, et des sacrifices.

Dans cet article nous postulons à décrire, analyser et décrypter les représentations symboliques de ce rituel magique. En fait notre partie de recherche traite l'incidence du rite du "tasfih" sur l'image de la femme et plus précisément sur son corps et sa

sexualité, sous-entendue, sa capacité de jouissance et de désir. Notre travail sera donc quelque peu délicat et difficile à mener tant sur le plan de la formulation que sur celui de Présentation du rituel

Dans le cadre de cette problématique nos hypothèses seront donc : le rituel du "tasfih" est un acte spirituel magique qui produit un acte physique qui rend la jeune fille indéflorable et qui vise à ce que la pénétration soit impossible, il bloque le vagin et provoque le rétrécissement de l'orifice vaginal d'où provient la terminologie "magie obstructive".

Aussi nous ne supposons que cet acte magico-mythico-sacro-religieux. Concerne seulement les filles qui habitent dans les milieux ruraux et il n'intéresse pas les jeunes filles tunisiennes qui vivent dans les grandes villes.

Ce travail fera l'objet d'une observation quasi participante. En effet, le fait d'exercer dans un milieu universitaire nous a permis de suivre de près la vie des jeunes étudiantes dans leurs évolutions, leurs changements et leurs mutations socioculturelles. Dans ce travail nous avons pu prendre un échantillon de 500 étudiantes. (BenDridi, Juin 2004)

Nous avons souvent eu l'occasion de débattre de leurs soucis, de leurs aventures et de leurs envies de transgresser tous les tabous, interdits ceux d'origines socioculturelles et/ ou même religieuses.

Nous commencerons par décrire les différentes formes du tasfih étant une représentation symbolique magique. Ensuite nous allons analyser et interpréter les données de la répartition de ce rituel dans les différentes régions de la Tunisie. A la fin de cet article nous mettrons en évidence la nature mytico- sacro- religieux de cet acte.

LES FORMES DU TASFIH

Ce rituel se fait en deux phases, Le nouement et le dénouement. Le nouement se fait à l'apparition des signes de féminité de la fille, alors que le dénouement se fait le jour du mariage.

Pour pouvoir pratiquer ce rituel, certaines conditions doivent être vérifiées : s'assurer de laa virginité de la fille, l'acte se déroule avant la puberté, L'opératrice qui exécute

le rituel devrait être d'un certain âge : ménopausée, avoir subi elle-même le "Tasfih", elle devrait être connue par sa bonne conduite, force et corpulence, son nom doit référer à des normes islamique, le lieu doit être purifié, aucun homme ne doit être présent lors du déroulement de la pratique. Le dénouement doit être de préférence effectué par la même femme ayant noué la fille.

Le dépouillement des données collectées et l'analyse des questionnaires nous ont permis de découvrir les différents types du "taffih" (voir tableau 1), aussi nous avons pu apercevoir les représentations, les pratiques, et les différentes étapes de ce rituel.

Tableau n°1 : Les différentes formes de "Tasfih"

Mode de "tasfih"	**Nombre de jeunes femmes "msafha "**
Au " mensej " l'ensouple	29
Au " sandouk " la boite	8
Par sacralisation	25
Avec d'autres moyens	5
Total	**67**

Présentation et description du rituel du "tasfih"

Le "tasfih" au métier à tisser : Le "Mensej"

Une fois la fille est en position, l'opératrice soulève la perche au niveau de la hauteur de la fille et en se servant de la lame elle l'incise au niveau d'environ 4 doigts du genou droit, elle presse soigneusement pour sortir le sang. Dès le découlement de quelques goutes, elle chuchote à l'oreille de la fille «*Ena Hit et Houa Khit* » (je suis un mur et il est un fil). Au moment où la fille prononce cette formule magique, l'opératrice mesura la taille de la jeune fille (du crâne aux pieds) en se servant des fils lisses du cadre à tisser attachés verticalement aux deux ensouples, elle coupa l'un des fils d'"Elnira" qu'elle noua rapidement

Le "tasfih" à la scarification

La vieille dame demande à la jeune dame de s'assoir en face d'elle et de lever sa robe

au niveau des cuisses, elle serra la bande de tissu blanche au dessus du genou à environ 4 doigts, et commence à marquer les limites des incisions. Une fois les limites sont bien visibles, l'opératrice commence à inciser le genou de la fille en prononçant des paroles inaugurales «*BismillehiArrahmeniErrahim*»;(au nom de dieu miséricordieux). Le nombre des incisions devrait être impair (trois, cinq ou sept); le nombre sept est le plus *utilisé* pour son pouvoir symbolique.

De son côté, l'opératrice presse légèrement les sept incisions. A chaque fois, et dès que les premières gouttes du sang jaillissent, elle imbiba une datte; déjà coupée en deux; par le sang coulant de l'entaille et donna à la jeune fille la moitié pour le mâcher et l'ingérer. Les sept autres moitiés devraient être gardées par la maman et enterrées avec la lame utilisée. Comme nous l'avons déjà mentionné, l'opératrice s'en sert soit de sept dattes ou de quatorze raisins secs imbibant sept avec du sang et donnant sept à la mère.

L'opératrice continue le rituel en prenant au bout des doigts le cendre du "canoun" où l'encens a été mis. Elle frotta sur les incisions afin de tracer un tatouage qu'elle gardera jusqu'à la veille du mariage. Ce tatouage servira d'indice pour la seconde phase: celle du déverrouillage.

Le "tasfih" au "Sandouk" : coffre en bois

Comme l'indique son nom, l'outil principal est le cadena utilisé pour fermer le coffre en bois appelé "Sandouk". La lame est toujours utilisée pour l'incision.

L'opératrice fait assoir la jeune fille sur le "Sandouk", pose le cadenas entre les cuisses et lui ordonna de serrer très fort entre les jambes. En se servant d'une lame neuve, elle incise des petites raies au dessus du genou et trompa à chaque fois la clef avec du sang écoulé parallèlement la

petite fille prononce à chaque fois la formule magique «*Ena Hit et Houa Khit*» (je suis un mur et il est un fil). La fermeture du cadenas se fait en synchronisation avec la septième prononciation de la formule magique. La clef du sortilège devrait être précieusement gardée car elle représente la clef de virginité de sa fille.

Le dénouement de ces rituels se fait de la même manière dont les opératrices ont procédé dans la première phase sauf que les formules devront être renversées comme par exemple, pour la première forme du "tasfih" au lieu de dire *Ena Hit et Houa Khit* » (je suis un mur et il est un fil) il faudra dire « je suis fil et il est un mur ».

LA REPARTITION DU "TASFIH SELON LES REGIONS DE LA TUNISIE

L'analyse des données telles qu'elles sont consignées dans le tableau n°2, indique que nous nous sommes basées dans notre travail sur les résultats obtenus à partir des réponses de 406 jeunes femmes sur les 500 que compte notre échantillon représentatif, ceci en raison du mutisme de 94 étudiantes.

Les résultats auxquels nous avons abouti, révèlent quant à eux, que sur ces 406 personnes, 77 uniquement ont déclaré être nouées “msafha” soit 19%, alors que le reste des 329 personnes avouent avoir entendu parler de la pratique du nouement, sans pour autant l’avoir expérimenté.

Tableau n°2 : Répartition des jeunes femmes ayant subi le “ tasfih ” selon les régions

	Régions		**Zones Rurales**	**Zones Urbaines**
	Villes	**Délégations ou communes**		
1	Bizerte	Ras Jebal	04	01
2	El Kef	Essers-Kalâet Snane	04	01
3	Jendouba	AinDrahem et Ghar Dîma	--	04
4	Beja	Testour et Amdoun	02	02
5	Siliana	Kesra	05	01
6	Zaghouan	Nadhour	03	02
7	Nabeul	Somâa et Takelsa	03	--
8	Sousse	Hammam Sousse et KalâaKebira	02	--
9	Monastir	Moknine et Kheniss	07	--
1	Mahdia		--	--

1	Kairouan		05	01
1	Kasserine	Thala et Foussana	05	--
1		Ennasr-Sidi Khelaf	05	01
1	Sfax	Jbenyana, Aguareb et Bir Ali ben	03	--
1	Gabes		--	--
1	Gafsa	Metlaoui	05	05
1	Tozeur		--	03
1	Mednine,	Ben Guerden	03	--
1	Tataouine		--	--
TOTAL			56 (73%)	21 (27%)
Nombre total de filles ayant subi le " tasfih "			77 (19%)	

La répartition régionale des jeunes femmes qui ont subi le " tasfih", à laquelle fait référence le tableau n° 2, montre que 73% d'entre elles appartiennent aux zones rurales : « le rif tunisien». Le reste des jeunes femmes sont éparpillées dans les petites villes.

Ces résultats, confirment la rigidité du mode de vie rural face à la modernité et sa tendance à faire prévaloir les valeurs traditionnelles. Ainsi Les villages du nord ouest, les campagnes du sahel - pourtant ceinturant les villes touristiques de Sousse, Monastir et Mahdia-, les zones rurales du centre ouest et du sud, demeurent très attachées à leurs cultures populaires héritées. En revanche, la capitale et les villes côtières et du nord-ouest ont subi les différentes vagues demutations économiques sociales et culturelles et ont accédé, à des degrés divers, à la modernité, enregistrant au passage un éloignement vis-à-vis des référents éthiques et religieux.

Nous pouvons expliquer le nombre élevé de jeunes femmes " msafha " (*nouées*) dans les régions rurales par la différence des statuts, qui a de tout temps existé, entre les adolescentes citadines et celles du milieu rural.

En effet, jusqu'à un passé très proche, les jeunes filles des régions urbaines étaient obligées de rester enfermées dans les maisons parentales, jusqu'au mariage. Les filles étaient totalement privées des relations mixtes. Même « l'architecture des maisons était

conçue d'une manière pour que les fenêtres s'ouvrent en dedans, dans les cours internes des maisons ». (TrakiZannad., 1984)

Nous pouvons citer à titre indicatif des exemples des interdits auxquels faisaient face la gente féminine de la ville de Tunis du 19ème siècle, ainsi, les regards des adolescentes par la fenêtre de la maison étaient-ils scandaleux, interdits et punis, encore les femmes mariées pouvaient être répudiées en cas de fraude. C'était donc l'alternative de la claustration, comme caution au "charaf" (*honneur*).

En revanche, le mode de vie en milieu rural, ne pouvant se résoudre à bannir la présence des femmes dès leur jeune âge aux cotés des hommes dans les activités commerciales et les différents travaux agricoles et artisanaux, a toléré la mixité, mais la société rurale a tôt fait d'inventer les moyens à même de la prémunir contre tout risque d'enfreinte aux interdits socioculturels et religieux.

Ainsi, les femmes rurales, bien que profitant de la mixité et de la liberté de mouvements, avec le lot de risque de souillures à l'honneur familial que cela peut engendrer, suite à des écarts de conduites auxquels elles sont consentantes ou victimes, n'ont pas moins vu s'agiter devant-elles.le spectre des châtiments, énoncés dans le texte coranique, mais la menace du scandale n'étant pas de la sorte totalement écarté.la société rurale a magnifié le culte de l'honneur lui octroyant le caractère de sacré, s'érigeant par là même le droit du recours à l'irrationnel comme moyen de prévention à d'éventuels dérapages.

Dans ces régions, les croyances populaires aidant, le rituel magique du "tasfih", demeure aujourd'hui encore, un rempart imaginaire que beaucoup n'osent outrepasser de peur de s'exposer à la vengeance impitoyable des esprits sollicités lors de sa célébration, se résignant par conséquent à respecter scrupuleusement ce sortilège et à ne s'en défaire qu'en perspective du mariage.

A cet égard, il est nécessaire de souligner, que cet acte magique vise à dissuader sans distinction, les personnes des deux sexes, sous prétexte que la fille nouée est indéflorable mais également que l'homme qui oserait, ne serait-ce que l'approcher, se verrait frapper d'impuissance.

LE RITUEL DU "TASFIH" EST UN ACTE MAGICO-MYTHICO-SACRO-RELIGIEUX

Pour mieux comprendre le phénomène du “tasfih” nous avons trouvé judicieux de se référer aux textes fondateurs, Coran et Sunna et à des corpus de traditions attribuées au prophète et à ses compagnons.

Notre réponse tient d’abord à une particularité de l’histoire; le cadre *licite*“Halal” ou *illicite*“Haram ” revient systématiquement dans les discours coraniques et de la Sunna. Ce qui permet de comprendre que le cadre et par voie de conséquence la notion de virginité avec ses corollaires mariage, fidélité…, ferait encore sens de nos jours.

Il faut indiquer que, dès l’époque antéislamique, la femme était considérée comme une créature divine et honteuse, « Et lorsqu’on annonce à l’un d’eux une fille, son visage s’assombrit et une rage profonde [l’envahit]. Il se cache des gens, à cause du malheur qu’on lui a annoncé. Doit-il la garder malgré la honte ou l’enfouira-t-il dans la terre ? Combien est mauvais leur jugement!» (Le CORAN).

La naissance d’une fille comme l’indique "Lilia Labidi" « obscurcit les visages, fait suffoquer de douleur, oblige les hommes à se cacher » (LILIALabidi.).

Mais l’islam refusait ces attitudes et ses jugements « Ne tuez pas vos enfants pour cause de la pauvreté. Nous vous nourrissons tout comme eux.» (Le CORAN,,) D’autres versets coraniques sont plus précis « Quand le soleil sera obscurci […] Et qu’on demandera à la fillette enterrée vivante. Pour quel péché elle a été tué ». (Le CORAN,) Malgré ces messages, cette attitude et cette conduite due à des hommes « froissés par l’honneur éclaboussé » (LILIALabidi, 1989), a perduré et a continué à exister et à se manifester dans leurs représentations et leurs pratiques.

En effet, dans les sociétés arabo-musulmanes, aux régimes patriarcaux rigoristes, et au nom des traditions sacrées, aucune famille ne doit faillir aux représentations et aux pratiques relatives aux questions de la virginité, du mariage et de l’honneur. Des traditions antéislamiques « obscurantistes » sont encore respectées, en vue de protéger

la femme ou plus précisément cette membrane si précieuse - l'hymen -, témoignage de chasteté de la femme et de l'honneur de sa famille.

Mais d'où provient cette sacralisation ? Du Coran ? De la Sunna ? Ou de la coutume ? Pouvons-nous aussi référer le rituel du " tasfih" à un sentiment de peur et à l'angoisse de transgresser les clôtures sacro-sociales ?

Bien que l'islam ait condamné la fornication « Et n´approchez point la fornication. En vérité, c´est une turpitude et quel mauvais chemin ! », (ESSAI D'INTERPRETAION DU CORAN INIMITABLE, 2006, pp. Sourate XVII, Le voyage Nocturne 32) Aucun verset coranique n'a mentionné explicitement la condamnation de la perte de la virginité chez la femme.

Le terme vierge n'était évoqué que dans le contexte de la vierge Marie et des vierges du paradis qui sont promises au bons musulmans : « ; […] Ils y trouveront "les houris" *les vierges dans le paradis* aux regardschastes, (Le CORAN, Sourate XXIV La lumière, 31) Cependant le Coran, invite implicitement à la continence préconjugale « Et Dis aux croyantes de baisser leurs yeux et de garder leur chasteté », (Le CORAN, Sourate XXIV La lumière, 31)

Une série de récits et de descriptions donne aussi une matière explicative sur la nature du châtiment et de la norme de punition contre la *fornication* "Zina" des femmes mariées, des *femmes libres* (non esclaves) ainsi que des hommes. Dans la Sourate IV, est indiquée la sanction réservée aux *femmes chastes* " Mouhaçanet " (ABDELWAHAB Bouhdiba) qui ont péché « […] Si, une fois engagées dans le mariage, elles (les esclaves croyantes) commettent l'adultère, elles reçoivent la moitié du châtiment qui revient aux femmes libres mariées.. (LeCORAN, Sourate IV, Les Femmes, 25.)

D'autres versets sont plus précis sur les sanctions à prendre en cas d'adultère « La fornicatrice et le fornicateur, fouettez-les chacun de cent coups de fouet. Et ne soyez point pris de pitié pour eux dans l'exécution de la loi d'Allah », (LeCORAN, Sourate XXIV, La Lumière, 2.)Mais également si des accusations sont lancées à tort contre des "Mouhaçanet" « Et ceux qui lancent des accusations contre des femmes chastes sans

produire par la suite quatre témoins, fouettez-les de quatre-vingts coups de fouet, et n'acceptez plus jamais leur témoignage.». (LeCORAN, Sourate XXIV, La Lumière, 4.)

Or, dans tous ces versets nous n'avons trouvé nulle part des indications qui visent directement ou explicitement la condamnation des vierges, on parle plutôt des femmes libres et des femmes mariées, bien au contraire, la punition la plus lourde concerne les " Mouhaçanet " et aucun texte, aucune référence religieuse ou coranique ne mentionne qu'une femme doit avoir un hymen intact ou prouver sa virginité, ni que ceci soit une condition indispensable au mariage. En revanche, la " Sunna " fut à l'origine de la valeur dont bénéficia la virginité, par la suite. A ce titre reprenons ce que recommande le Prophète à son compagnon Jabir ibn Abdullah al-Ansari « pourquoi, [reprit-il] ne pas avoir épousé une vierge, elle t'aurait amusé et tu l'aurais amusée ? » (BOUKHAR).

De même, la femme dans la Sunna, était toujours considérée source de "Fitna " (*désordre moral)*, son corps suscitant le désir sexuel masculin, elle est toujours regardée, à la fois comme provocatrice et victime passive qui suscite son "chasseur": l'homme. Cette perception date de bien plus longtemps, et ses origines sont profondément enracinées et ancrées dans l'histoire ; la femme comme complice du diable, séductrice de l'homme, tentatrice, existait depuis "Adam" et "Eve".

Ce jugement, prend son appui de l'histoire d'Adam et Eve et continue d'exister de nos jours. Ainsi alors que le texte coranique ne distingue pas entre Adam et Eve dans la responsabilité du rejet du paradis.C'est pourquoi selon la Sunna la femme ne doit pas s'isoler avec l'homme : « Celui qui croit en Dieu et au jour dernier ne s'isole pas avec une femme sans qu'elle soit accompagnée par un membre de sa famille ou son époux, car alors le diable serait le troisième compagnon ». (Hanbal)

Le risque de transgression dans ce "hadith" parait inhérent à "la khôlwâ" (*l'isolement)* d'un homme et d'une femme dans un même lieu. A partir delà le "tasfih " apparaît comme un procédé coercitif pour retenir les pulsions et ne serait donc qu'un moyen, primo pour immuniser la femme, contre ses désirs diaboliques, secundo, la protéger de son "chasseur".

Il faudrait aussi rappeler l'existence depuis le moyen âge de certains rites similaires tels que la ceinture de chasteté qui présente une serrure conçue pour empêcher les viols et les relations sexuelles adultères. Elle a également été utilisée à la renaissance lorsque les époux devaient effectuer de longs périples et craignaient de possibles incartades de leurs épouses.

Certaines sociétés se sont même résolues à pratiquer l'excision, qui consiste en une mutilation génitale. Cette pratique est considérée comme traditionnelle, elle s'est installée dans un contexte animiste ou pharaonique, les mères participent activement à la mutilation de leurs filles dans le but de les débarrasser du clitoris qui est souvent considéré comme une imperfection de la création divine. La psychanalyste Marie Bonaparte à écrit « Les hommes se sentent menacés parce qui aurait une apparence phallique chez la femme, c'est pourquoi ils insistent pour que le clitoris soit enlevé ». (MARIE Bonaparte)

L'islam n'a jamais interdit l'amour, mais l'amour de l'islam est « un amour sans péché, un amour déculpabilisé et dans lequel jouissance et responsabilité sont coextensives l'Une à l'autre » (Bouhdiba, , La sexualité en Islam, P.115), de ce fait la seule institution légale est le " Nikah " (*mariage*) « se marier c'est accomplir la moitié de la religion ». (AHMED EL Fashani)

Cette institution fait de la jouissance sexuelle une mission sacrée, la nuit de noces lorsque le mari montre la "Souria" (chemise de nuit) de son épouse entachée de sang, les femmes lancent des you-you de joie et les hommes dansent et expriment leur soulagement par des coups de fusils en l'air, certes, pour annoncer la bonne conduite de la mariée et la virilité de l'époux mais surtout pour mettre en exergue l'honorabilité de la famille voire de la communauté alliée. Ces mêmes coups de fusils peuvent cibler le corps de la jeune mariée si elle s'avère non vierge.

Le tasfih est un acte socio-culturel

Les crimes d'honneur

Le concept de l'honneur, du moins lorsqu'il est associé au crime, n'est pas facile à définir et varie souvent selon le sexe de la personne : celui de la femme comprend traditionnellement les concepts de virginité, de modestie ou d'amour désintéressé alors

que l'honneur masculin est considéré comme la capacité de défendre l'honneur de la femme.

Il ne faut pas confondre les crimes dits d'honneur avec les crimes passionnels. Ces derniers se limitent normalement au crime commis par l'un des deux partenaires en relation avec l'autre en tant que réponse spontanée. Quant au crime dit de*charaf* (honneur): « c'est le fait de sacrifier une femme parce qu'on estime qu'elle a porté atteinte à l'honneur de la famille, en ayant commis un acte contraire à la bonne morale, ou une jeune fille qui a perdu sa virginité hors mariage même si elle a été victime de viol ». (2001, p. 21)Dans les sociétés traditionnelles, le crime d'honneur n'est tel que lorsque c'est la victime ou les proches de la victime qui passent à l'acte. Cette tâche horrible incombe généralement au frère ainé de la fautive, à son propre père ou à un homme de la famille comme l'oncle ou le cousin.

En vérité, les crimes d'honneur sont des pratiques anciennes consacrées par la culture et les lois sociales plutôt que par la religion et enracinées dans un code complexe qui permet à un homme de tuer ou d'abuser d'une femme, parce que « tout son corps est assimilé aux parties honteuses » (Dridi), de sa famille ou de sa partenaire pour cause de comportement immoral réel ou supposé. Certaines études font même remonter les origines du crime d'honneur au code d'Hammourabi vers 1750 Av. J.C. C'est l'un des plus anciens textes de loi qui nous soit parvenu. Texte babylonien non religieux mais d'inspirations divines réalisées sous l'autorité d'Hammourabi, il prolonge en matière juridique l'œuvre militaire et politique de l'empire. Son contenu a été réutilisé plus de 1000 ans. Certaines de ses dispositions se retrouvent dans les usages orientaux jusqu'à l'époque hellénistiqueet aux lois assyriennes édictées en 1200 avant J.C. ; ils font de la virginité d'une femme la propriété de sa famille entière.

En Islam, le paradoxe est que le Coran ne préconise pas le *rajam* (lapidation) pour inconduite liée à l'honneur ; il s'est limité à fixer le châtiment en cas d'adultère avéré et a autorisé le pardon : «Celles de vos femmes qui forniquent, faites témoigner à leur encontre quatre d'entre vous. S'ils témoignent, alors confinez ces femmes dans vos maisons jusqu'à ce que la mort les rappelle ou qu'Allah décrète un autre ordre à leur égard. Les deux d'entre vous qui l'ont commise (la fornication) sévissez contre eux. S'ils se repentent ensuite et se réforment, alors laissez-les en paix. Allah demeure Accueillant au repentir et Miséricordieux. Allah accueille seulement le repentir de

ceux qui font le mal par ignorance et qui aussitôt se repentent. Voilà ceux de qui Allah accueille le repentir. Et Allah est Omniscient et Sage» (Le Coran, « Sourate IV, Les Femmes », 15-16-17.). Pourtant, la *Charia* (jurisprudence musulmane) permet différentes interprétations à ce sujet parce que les musulmans ont pratiqué la lapidation avant la descente du verset relatif à la sanction du fouet. SalwaCharfi dit à ce propos : « Ce sont les *foukaha*(les juristes de l'islam)conservateurs qui ont tenu et soutenu la punition de l'infliger ». (Salwa, 1999,)

De nos jours, ce phénomène est toujours important. D'aprèsHumanRights Watch. "Integration of the humanrights of women and the genderperspective: Violence Against Women and "Honor" Crimes," 5 April 2001. Plus que cinq mille cas de crimes d'honneur sont répertoriés chaque année à travers le monde. Ces homicides se produisent et affectent un large éventail de cultures, de communautés, de religions et d'ethnies, mais ils sont surtout perpétrés dans les pays musulmans (Égypte, Inde, Iran, Palestine, Jordanie, Liban, Pakistan et Turquie).

En Jordanie, à titre d'exemple, cinq mille femmes ont été victimes de leurs familles pour des raisons d'honneur en 1997. En Turquie, quarante des 77 femmes tuées par des membres de leur famille en 2003 ont été victimes de crimes d'honneur. Au Pakistan, en 2002, 372 femmes ont été tuées au nom des crimes dits d'honneur. Toutes ces pratiques sont par ailleurs tolérées dans la culture populaire et renforcées par des législations qui accordent des pénalités plus légères au meurtrier s'il invoque l'impératif de défendre l'honneur de sa famille bafoué par les écarts de conduite de sa victime. Au Liban les tribunaux faisaient preuve jusqu'à récemment, d'intelligence envers les membres des familles coupables de crimes d'honneur en les faisant bénéficier du principe de la circonstance atténuante. Les peines étaient en général allégées jusqu'à 3 ans, durée minimale de détention pour un tel crime, alors que normalement celui-ci est passible de la peine capitale. En Jordanie, la loi a été modifiée en 1916 pour alléger les peines encourues en cas de crime d'honneur.

Face à cette impuissance de se protéger des lois des hommes, de la famille, des proches, des gens du village, les femmes ont sombré dans un monde spirituel-magique ; elles ont trouvé refuge dans des pratiques peu allogènes, irrationnelles afin de se protéger de la cruauté sociale. Ainsi le *tasfih* n'est qu'un recours face à ces horribles croyances et interdits.

Mais il faudrait signaler également que ces raisons ne sont pas les seules à avoir poussé les femmes à ce genre de pratique. D'autres motifs sont à invoquer pour expliquer la persistance de ce rituel surtout dans les milieux ruraux en Tunisie.

Les crimes sexuels de guerre

L'angoisse des crimes de guerre et de la violence sexuelle est l'une des raisons de ces pratiques magico-sacrales. La peur des viols a poussé les femmes à imaginer les moyens à même de les protéger et surtout d'immuniser leur virginité. L'histoire nous apprend qu'en temps de guerre, de razzia ou de pillage, les envahisseurs ont toujours recouru au viol des femmes en signe d'humiliation des vaincus ou en vue de provoquer leurs adversaires.

Ce phénomène de viol trouve son essence dans le système social patriarcal qui prévalait et dans lequel la femme était inférieure à l'homme qui se devait de la protéger. Aussi le viol était- il vécut comme un affront et un déshonneur pour l'homme incapable d'assumer ses responsabilités. La femme, et surtout la jeune fille vierge, étaient une cible de prédilection pour porter atteinte à l'honneur de la famille, de la communauté et de toute une population.

L'empereur Mongol Gengis Khan, guerrier et fondateur de l'empire des Steppes, a entamé la conquête de la Chine en 1215. Il a occupé Pékin pour massacrer la population et raser les cités. Il n'a pas connu de plus grand plaisir que celui de violer les femmes et les filles de ses ennemis vaincus. Pour ce souverain, violer c'est massacrer et déshonorer le vaincu.

L'histoire ancienne et contemporaine des pays d'Afrique du Nord (Tunisie, Algérie Maroc) est également jalonnée de tels crimes qui ont même revêtu parfois un caractère massif, comme lors de la destruction de Carthage par Rome en l'an 146 av. J.C, l'expédition espagnole en Afrique du Nord au xvième siècle et la guerre coloniale en Algérie, à propos de laquelle l'écrivain algérien Mouloud Feraoun a écrit que les viols des femmes et des jeunes filles ne constituaient pas de simples dépassements. Quant à Henri Pouillot, il confirme l'existence de ces viols dans son livre, en affirmant avoir assisté à une centaine de viols, ajoutant « que les femmes étaient violées en moyenne neuf fois sur dix en fonction de leur âge et leur physique ». Ces femmes ont été traitées

comme le dit Florence Beaugé « pire que des chiens ». (Florence Beaugé, 11octobre 2001)

Nous pouvons ainsi dire que ces formes hostiles de violences sexuelles en temps de guerre sont suivies de profondes souffrances physiques et mentales qui ont conduit à leur tour à la pratique du *tasfih* dont l'objectif est de blinder le vagin, de le rendre inviolable afin d'éviter tout risque de détruire les fondements sociaux et culturels des sociétés et de violer l'honneur des communautés.

Le tasfih est un acte psychoculturel

Faute d'interdits, l'individu fonctionne, comme le dit Sigmund Freud, « selon le principe du plaisir et il recherche le bonheur. Or il fait face à trois menaces, son corps, le monde extérieur et les relations humaines ». (Freud, 1929)

C'est dans ce sens que la femme, étant la cible des interdits sociaux, tente tantôt de se débattre et de se défendre contre la structuration de la société et contre la culture stressante liée aux pulsions de la vie, tantôt d'accepter son destin et de suivre la nature des relations tout en cherchant des méthodes et des moyens pour se protéger. Dans le cas de la continence du désir sexuel féminin, l'interdit a constitué l'une des principales raisons. Ces interdits religieux et socioculturels qui cernent les mouvements du désir et de la jouissance sont toujours refusés et rejetés.

Les femmes qui appartiennent à cette culture ont cherché un équilibre entre leur intérêt privé – vivre leur sexualité naturellement – et l'intérêt collectif de la société arabo-musulmane conservatrice.

Le rituel du verrouillage de la virginité dit *tasfih* ne serait qu'une échappatoire pour se tirer de l'embarras des censures, des sanctions et des tabous. Mais étant une croyance ancrée dans l'imaginaire de la société, le verrouillage serait encore une conviction matérialisée par les signifiants culturels et les rites. Cette représentation a constitué par la méditation spirituelle une solution pour se dérober des clôtures et des tabous sociaux.

Les femmes nées dans un monde dont l'ordre symbolique des tabous est préétabli seraient systématiquement marquées par les composantes de la culture qui les a vues naître. De ce fait, elles transmettent d'une génération à une autre les croyances, les rites et les pratiques, et feraient ainsi perdurer le rituel du *tasfih*.

Les règles rigides de la société, l'autorité patriarcale, les lois cruelles, les interdits et les tabous ont produit une réaction féminine symbolique pour alléger les contrôles sociaux et rétablir une protection d'ordre symbolique. Le rituel du *tasfih* paraît ainsi un compromis et un arrangement symbolique obtenu et légalisé par la société pour maintenir un équilibre entre le désir sexuel féminin et les règles socioculturelles et religieuses.

Cependant, quoique ces pratiques relèvent du fictionnel et du symbolique, voire de l'irrationnel, leur persistance correspondrait à une réalité cognitive et serait l'objet d'un débat scientifique de tous les temps.

CONCLUSION

Certes le référant sacro- religieux a sacralisé la virginité, et par conséquent il était à l'origine de la pratique du "tasfih". Néanmoins il faut signaler que d'autres facteurs socio-psycho-culturels sont intervenus à l'apparence de cette pratique tel que les crimes d'honneurs, les crimes de guerres, les interdits et les tabous sociaux.

Le facteur de La peur a aussi poussé les femmes à imaginer les moyens de les protéger et surtout d'immuniser leur virginité. Enfin la femme étant la cible de ces interdits sociaux tente tantôt, de se débattre et de se défendre contre la structuration de la société et contre la culture stressante liée aux pulsions de la vie, tantôt d'accepter son destin et de suivre la nature des relations tout en cherchant des méthodes et des moyens pour se protéger. Dans le cas de la continence du désir sexuel féminin, l'interdit a constitué l'une des principales raisons. Ces interdits religieux et socioculturels qui cernent les mouvements du désir et de la jouissance sont toujours refusés et rejetés.

Références

Le CORAN, *ESSAI D'INTERPRETAION DU CORAN INIMITABLE, SADOK MAZIGH Les édition du Jaguar, Paris, 2006*

ABDELWAHAB Bouhdiba, *La Sexualité en Islam*, France, PUF, Décembre 2003.

CharfiSalwa, « L'islam, la femme et la violence »,in*Les islamistes et la démocratie*, Signes, Tunis, 1999, p. 46.

EL BOUKHARI, **Hadith**, *Les Traditions Islamiques*, Tome 3.

Florence Beaugé,« Le tabou du viol des femmes pendant la guerre d'algérie commence à être levé »,*Le Monde*, 11octobre 2001

IBN HANUSAL, *MusnadAbdallah,.recueil de hadith rassemblés par Ahmad ibn Hanbal : 14124*)

IBTISSAM BenDridi, *Le Tasfih en Tunisie*, France, Le harmattan, Juin 2004.

LILIALabidi, çabrahachma, *sexualité et tradition dar el-Anwar 1989.*

MARIEBonaparte, « Notes sur l'excision » - *Revue française de psychanalyse XII*, 1946)

TrakiZannad. Symboliques corporelles et espaces musulmans, pratiques extra-quotidienne et cadre urbain de la médina ; Cérès production 1984 Tunis

Sigmund Freud,« Malaise dans la civilisation », in*Revue française de psychanalyse*, Tome VII, n° 4, 1929.

Human Rights Watch. "Integration of the humanrights of women and the gender perspective : Violence Against Women and "Honor" Crimes," 5 April 2001.

REVUE EL-BAHITH

En Sciences Humaines et Sociales

Revue périodique académique Editée par Faculté des Sciences Sociales et Humaines

Directeur d'honneur
Pr. FARHATI Omer
(Directeur de l'université)

Directeur de la Revue:
Pr.TERKI Abderrahmane
(doyen de Faculté des Sciences Sociales et Humaines)

Rédacteur en chef
Dr.CHAFOU radhouane

Comité Editorial
Dr.machri soulaf
Dr.Amrani mouad
Ismahan djbali

Numéro 9 / Juin 2017
ISSN 2170-0370 ردمد

REVUE EL-BAHITH

En Sciences Humaines et Sociales

Revue périodique académique Editée par Faculté des Sciences Sociales et Humaines

sixième année (6) -Numéro (9) /Ramadhan 1438– Juin 2017

ISSN 2170-0370